هكذا تكلم زرادشت

كتاب للكل ولا لأحد

للفيلسوف الألماني

فريدريك نيتشه

ترجمة

فليكس فارس





إصدارات ٢٠٠٠

مكتبة

ا.د. محمد حسين هيكل

رئيس مجلس الشيوخ السابق

الى الفيلسوف الشرقي الكبير
حضرة صاحب المعالي محمد حسين هيكل باشا
تقدمة اجلال واعجاب
فليكس فارس
٢٩/١/٢١

هكذا تكلم زرادشت

كتاب للكل ولا لأحد

للفيلسوف الألماني

فريدريك نيتشه

ترجمة

فليكس فارس

الاسكندرية — مطبعة جريدة البصير
١٩٣٨



مباحث الكتاب

الجزء الاول

الجزء الثاني





فريدريك نيتشه

تمهيد

ما من مفكّر أشدُّ اخلاصاً من
نيتشه إذ لم يبلغ أحدٌ قبله ما وصل اليه
وهو يسبر الأغوار في طلب الحقيقة
دون ان يبالي بما يعترض سبيله من
مصاعب لأنه ما كان ليرتاع من اصطدامه
بالفجائع في قرارتها أو من انتهائه الى
لا شيء

اميل فاكيه
عضو المجمع العلمي الفرنسي

هذا هو نيتشه كما صوّره فاكيه بعد ان درس عديد مؤلفاته واستعرض فلسفته . وقد جاراه بهذا التقدير أنصار نيتشه وخصومه من كل شعوب اوروبا فانك لو استعرضت المؤلفات التي كتبها عنه العباقرة العديدون ، ومنهم من يعتقد بتخبّطه على غير هدى ومنهم من يرى وراء كل جملة من أقواله سورة لا تنجلي معانيها الاّ للعقل النافذ والحسّ المرهف لرأيتهم قد اجمعوا على وصفه بالمفكّر الجبّار المتجه الى الحقيقة يطلبها وراء كل شيء حتى وراء المبادىء التي يقول بها

وما أجمع هؤلاء المفكرون الاّ على الصواب في هذا الوصف الذي ارتضاه نيتشه لنفسه اذ قال :

« لا يكفي لطالب الحقيقة ان يكون مخلصاً في قصده بل عليه ان يترصّد إخلاصه ويقف موقف المشكك فيه لأن عاشق الحقيقة انما يحبها لا لنفسه مجاراة لأهوائه بل يهيم بها لذاتها ولو كان في ذلك مخالفاً لعقيدته فاذا هو اعترضته فكرةٌ ناقضت مبدأه وجب عليه ان يقف عندها فلا يتردد ان يأخذ بها

إياك أن تقف حائلاً بين فكرتك وبين ما ينافيها ، فلا يبلغ أولَ درجة من الحكمة مَنْ لا يعمل بهذه الوصية من المفكرين

عليك ان تُصلي نفسك كل يومٍ حرباً وليس لك ان تبالي بما تجنيه من نصر او تجني عليك جهودك من اندحار ، فانّ ذلك من شأن الحقيقة لا من شأنك »

***

قال نيتشه بهذا المبدأ وعمل به وبالرغم مما يتجلّى في تعاليمه من غرور وصَلَف ، فانه كان يسير في ابحاثه ولا همّ له سوى استكشاف الآفاق فيورد اليوم فكرة يكذّبها غداً فكأنه بانكاره الخير والشر لم يجد بداً من إنكار كل عقيدة ثابتة ، فاذا انت اردت ان تسير وراء هذا الفيلسوف طلباً للعقيدة فلا تتعب نفسك باللحاق به في مراحل يقطعها بخطواته الجبّارة لأنه هو نفسه قد اصابه الخبل وبصيرته تائهة في استلهام الحقيقة واستقرائها

مَنْ قال لك :

« إنّ لا مكتشفَ لحقيقة ذاته الاّ من يهتف : هـذا هو خيري وهذا هو شرّي فيُخرس الخلد والقزم القائلين بانّ الخيرَ خيرٌ للكل والشرّ شرٌ للجميع »

من قال لك هذا ، لا تتوقع منه أن يأتيك بشُرعةٍ تقوم مقام الشرائع التي يثور عليها

إن نيتشه المفكر الجبار الذي يفتح أمام الفرد آفاقاً وسيعة في مجال القوة والثقة بالنفس وتحرير الحياة من المسكنة والذل ، تائقاً الى إيجاد إنسان يتفوّق على انسانيته بالمجاهدة والتغلّب على العناصر والعادات والتقاليد وما توارثته الأجيال من العقائد الموهنة للعزم ، يقف وقفة الحائر المتردد عندما يحاول إقامة

مجتمع لأفراده المتفوّقين بل هو يضطر الى نقض أوليّاته القائمة على احتقار الرحمة والرُحماء حتى ينتهي الى قوله :

«إن العالم الذي يتفوّق على الانسانية إنما يعود بها بعد هذا الجنوح الى بذل حبه للأصاغر والمتضعين »

وهكذا ترى زرادشت الداعي الى تحطيم ألواح الوصايا جميعها والى إنكار الشريعة الأدبية لإقامة شرعة جديدة ما وراء الخير والشر يعود مفتشاً بين انقاض الالواح التي حطمّها على كلمات قديمة يجعلها دستوراً لانسانيته المتفوّقة

ان نيتشه الذي ذهب الى ابعد مدى في تفحّص سرائر الانسان واهوائه يضيق به المجال عندما يتجه الى حلّ المعضلات الاجتماعية ، لأنه اذا امكن للفرد المنعزل ان يختطّ لنفسه منهجاً يوافق هواها باعتقاده انه هو المُبدع لذاته والحركة الاولى لها ، فانه ليمتنع عليه ان يكون عضواً حياً في المجموع اذا هو لم يعترف في علاقته مع اخوانه بأنه ليس مصدراً لذاته ولا مآباً لها

ان مَنْ يطمح الى مثل ما طمح اليه نيتشه من تكوين مجتمع منظّم يسود فيه المتفوّقون ولكلٍ منهم شرّه الخاص وخيره الخاص لا يوجدُ في النهاية الا مُجتمعاً يتفاوت التفوّق فيه بين أفراده فيقضي الأقوى منهم على الأقل قوةً منه حتى يقف آخرُ الظافرين منتحراً بقوته وعنفه كما انتحر إلهُ نيتشه برحمته

غير انّ المبدع لزرادشت لم تفته هذه الحقيقة ، فعاد الى الشريعة الأولى يختلس منها آيتها الكبرى ليوردها وصيةً لدنياه فقال :

« حذار من الطُفْرة في مسلك الفضيلة فعلى كل فردٍ أن يسير في طريقه وإن جنح عن مسلك الآخرين ، فلا يطمحنّ الى بلوغ الذروة وحدهُ إذ على كل سائر ان يكون جسراً للمتقدمين وقدوة للمتأخرين »

اين هذه الوصية مما دعا اليه زرادشت في مفكراته نفسها اذ قال :

« على اهل السيادة في الانسانية المتفوّقة ان يمهّدوا سُبُلَ السعادة لمن هم دونهم بتضحية ملذّاتهم وراحتهم وعليهم ايضاً أن ينقذوا مَنْ لا يصلحون للحياة بالقضاء عليهم دون إمهال »

بل كيف يتفق القسم الاول من هذه الوصية مع قسمها الثاني ؟ ومن له ان يضع مقياساً يقضي به لمن يصلحون للحياة كما يقضي به على مَنْ لا يصلحون لها

اذا اتبع القاضي شرعة زرادشت القائل بأن على اتباعه ان تتجلى القوة فيهم من الرأس حتى اخمص القدم

ولو ان مذهب نيتشه هذا طُبِّقَ قبل ميلاده لكانت السلطة التي يراها مثلاً أعلى قضت على أبيه وأمه دون إمهال فما كان له هو ان يظهر في الوجود بدماغه الجبار وبسُم الداء الذي جال من دمهما الملوَّث في دمه . . .

ثم ، أفليس هنالك غير هذه الادواء الطارئة والتي يمكن للعالم ان يكافحها ، ما يُقضى على الانسان بالوضوح له من حالة في جسمه لا قبل له بتبديلها اوتعديلها؟ افما تحقق الطب ان كل مولود يجيء الحياة انما يدخلها مستصحباً معه اليها من سلالته الضعف الذي سيقضي عليه . أفليس في كل دارج على هذه الغبراء علة او علل كامنة في تكوين اعضائه ستورثه الردى حين تدنو ساعته ؟...

اي جسم مهما ظهر لك صحيحاً ليس فيه عضو هو اضعف الحلقات في سلسلة اعضائه،وفي فراغ مناعته المحدودة انفصام العُرى وبداية انحلال العناصر في هيكله الفاني ؟

اين هو الجسم المنيع الذي يتوق نيتشه الى ايجاده مربعاً من قمة الرأس الى أخمص القدم ؟

لقد عمل العالم المتمدن على إيجاده بالرياضة فأوجد الرقاب الغليظةوالعضلات المتضخمة مسبباً منها تضخم القلب وجفاء الطبع وبلادة التفكير وانحطام اجنحة الخيال

يريد نيتشة خلق الانسان المتفوق جباراً كشمشون وشاعراً كداود وحكيماً كسليمان. فهو يكلف الطبيعة ما لا قبل لها به ويطمح الى ايجاد جبابرة لا يصلحون لشيء في المجتمع لان الحيوية لا تنصرف من مختلف نوافذها الجسميّة في آن واحد دون ان تقبض على صاحبها لتوقفه من سلم الارتقاء على مرتبة معلقة بين الاعتلاء والانحطاط فيكون منه لا الانسان المتفوق بل الانسان«التافه» القصير الحياة والقاصر في كل عمل يباشره

ان المجتمع لا يقوم من الوجهة العملية على افراد يحاولون الاحاطة بكل شيء فلا ينالون منها شيئاً

وليس الحال الاَّ على هذا المنوال من الوجهة الروحية ايضاً ، فان مَن تبصَّر في احوال الناس وطرائقهم في الحياة ، لابد له أن يسلم اخيراً بان لكل

شخصية حياتها بما كمن في حوافزها ولكل شخصية ميتتها بما خفي من ادواء جسمها وعلل ارادتها وبما وراءها من مقدّمات وحولها من نتائج

ان في الحياة مسالك خطتها الارادة الكلية وليس للادارة الجزئية ان تتناولها بتحوير فمصاعدُ الرقي للارواح منتصبةٌ من كل مسلك في عالم الظاهر نحو العالم الخفي ، وما خصت العناية اقوياء الجسوم بالارتقاء

ولربَّ صعلوك في نظر نيتشه لا يصلح للحياة ويجب ان يُقضى عليه دون إمهال تتفجر منه قوة لا تراها الا البصائر النيّرة

من لنا بسبر الاغوار البعيدة القرار لندرك سرَّ التكامل في الذات والحكمة في حد الاشواط لكل روح لتقوم بقسطها من المقدور

ومن لنا بادراك سرّ الضعف والقوة وقد يكون الضعف في الجسم السليم والقوة في العليل من الاجسام

ان لكل مخلوق ان يباو الحياة بما أُعطي من ظاهر الضعف أو ظاهر القوة ، لأن للصحة محنتها كما للمرض محنته والانفسُ الطامحة الى مُثُلها العليا سواء اكانت هذه المُثُلُ في هذه الحياة ام ما وراء الحياة ، انما تتغذّى من الجسد ناحلاً عليلاً كما تتغذّى منه مليئاً بالنضارة والصحة والبهاء

ان للحكمة العليا مقياسها في تقدير الجهاد الاكبر على كل نفس ومن يدري في أية لحظة وبأي مداد من قوة الجسد او ضعفه تخطُّ الروحُ الاسيرة آخر سطر من كتابها ؟...

*

إنَّ محور الدائرة في فلسفة نيتشه انما هو ايجاد إنسان يتفوّق على الانسانية لذلك تراه يهزأ بكل من عدّه التاريخ عظيماً بين الناس قائلاً ان الجيل الذي يلد العظماء لم يولد بعد وان لا رجل في هذا الزمان يمكنه ان يتفوّق على ذاته وكل ما بوسع الناس ان يفعلوه في سبيل المثل الاعلى هو ان يتشوّقوا اليه ليخرج من سلالتهم في مستقبل الازمان

وسوف يرى القارىء في الفصول الاخيرة ما هو تقدير زرادشت للرجال الراقين في هذه الحقبة الشاملة لعصره ولعصرنا فهو يعتبرهم نماذج فاشلة للانسان الذي يتوقّع نشوءه ، غير ان زرادشت وهو يتكلم بلهجة الآمر الناهي ويرسم للحياة طرقها بخطوط متفرقة ان لم تجمعها انت بقيت حروفاً منتثرة لا معنى لها

لا يقول لنا بصراحة ما يجب ان نفعله لنصبح جدوداً لأحفاد تصلح بهم الحياة، ولكنَّ من يعوِّد بصيرته على مجاراة نيتشه في الرؤى التي يهيم فيها يستوقفه قوله « إن ما فُطرنا عليه هو ان نخلق كائناً يتفوَّق علينا ، تلك هي غريزة الحركة والعمل »

ثم يستوقفه في موضع آخر قوله

« إنني لم اجد امرأة تصلح أُماً لابنائي الاَّ المرأة التي احبها »

فاذا ما وقف المفكر عند هـذا يعرف ما هي تلك الفطرة التي يراها دافعة للانسان الى التفوق على ذاته وأنساله

وما تكون تلك الفطرة ان لم تكن حافز الحب الصحيح وفي اعماقه غريزة الانتخاب تجتذب الزوجين الى اتصالٍ يشدد احدُهما فيه ما وهن في بنية الآخر

ولولا اننا درسنا ملياً مسألة اعتلاء الامم وانحطاطها ببحث صحة النسل واعتلاله في فصل « منابت الاطفال » من كتابنا « رسالة المنبر الى الشرق العربي » لكنا نثبت هنا ان ايجاد الانسان الكامل في انسانيته ، لا الانسان المتفوق على نوعه كما يريد نيتشه ، انما يقوم على مجاراة حوافز الاختيار الطبيعي في الزواج باعتبار كل شهوة جامحة وكل طمع يسكت هاتف الاختيار سواء في الرجل او المرأة جنايةً على الانسانية

هذا واننا لا نجد بداً من نقل بعض فقرات من فصل منابت الاطفال تأييداً لهذه الحقيقة

*

« إن الانسان لا يريد الانقياد للانتخاب الطبيعي فهو يطمح الى تحكيم اختياره في حوافز لا يعلم منشأهـا ، فيعمد الرجل الى استيلاد المرأة اطفالاً تتجلىَّ فيهم كوامنُ علله وعلل المرأة التي يرغمها إرغاماً بدلا من ان ينقاد الى الانتخاب الطبيعي الذي تتذرع به الطبيعة للغلبة على العاهات والامراض وللقضاء على حوافز الخبل والاجرام

*

إن الولد المختل العليل انما هو الضحية البريئة تصفع الطبيعة به أوجه الرجال الفاحشين والنساء الطامعات المضللات

*

« ومما لا ريب فيه ايضاً ان الطبيعة في حرصها على طابع الابوين في الابناء تطمح دائماً الى الجمع بين رجل وامرأة يصلح احدهما ما افسدت الحياة في الآخر ، ولا يقف طموح الطبيعة عندحد إصلاح الاعضاء بل هو يتجه خاصة في الانسان الى إصلاح ما تطرّق من عيوب الى صفاته الأدبية العليا ، ولعلّ في هذا بعض التفسير لسيادة الايقاع بين رجل وامرأة تخالفت اشكالهما واوضاعُ اعضائهما ومظاهر قواهما الأدبية والعقلية ، فقد لا تجد مصارعاً قويّ العضلات يعشق مصارعة مثله ولا فيلسوفاً يتولّه بفيلسوفة ، ولكم وقف المفكرون مندهشين أمام امرأة فاضلة تحسّ بانجذابٍ نحو رجل متلاعب محتال او بارعة في الجمال تندفع الى الالتصاق برجل قبيح . إنّ بعض العشق ينشأ من حنانٍ خفيّ في الطبيعة يشبه عطف الطبيب المداوي على العليل المستجدي الشفاء . . . »

*

« إن المفكرين يثورون على الشبان الذين يقدمون على الزواج وفي دمائهم سمومٌ وفي مجاري نطفة الحياة منهم صديد ، ومن الأمم من سنّت القوانين الصارمة لمنع زواج المبتلي بالعلل الزهرية وبالجنون محافظة على صحة النسل ، ولكنني لم اقرأ لمفكر رأياً في الحيلولة دون الزواج الآلي المجرد عن كل عاطفة ، ويتراآى لي ان طفلاً يجني أبواه عليه بايراثه دماً أفسدته الامراض لهو أقلّ شقاء بنفسه وأقل اضراراً بالمجتمع من طفل يرث من ابويه عهر العاطفة وضلال الفطرة

لقد تشفي العقاقير ابناء العلل ولكن ايّ دواء يشفي الطفل الذي زرعه توحش الرجل المفترس في احشاء المرأة المنكسرة الذليلة ؟ إن مثل هذا الطفل لن يكون الاّ وحشاً كأبيه او عبداً ذليلاً كأمه »

*

« إن من الحب ما ينشأ عن الحياة الجسدية حاجة ملحّة متقلّبة كالحياة نفسها وفي النساء كما في الرجال اناس حبهم أشبه بالجوع والظمأ يتهافتون على اية مائدة ويرتوون من اي ينبوع . وماذا عساه يفهم من الحب من يرى المحبوب مائدة وينبوعاً ، ؟ قلّ من الناس من يدرك ان مَنْ أنكر

على المحبوب شخصيته التي لا تُستبدل فقد أنكر هو ذاته شخصيته التي يحس بها »

*

« لا صلاح لأمة فسدت منابت اطفالها ، وهذه عبر التاريخ ماثلة لعيان من يريد ان يرى

افما كانت كل الامم التي اندثرت واستُعبدت تمرّ اولاً في مرحلة تدنّي الاخلاق وانطلاق الشهوات عابثة باشرف ما خلق الله في الانسان ؟ »

*

«سوف يأتي يوم ، وهو غير بعيد ، تتنبّه المدنية فيه الى ان الرجل المتفوّق الذي ينشده العلماء في الغرب لن يخلق لهم من التمرين لقوى العقل وقوى الجسد ولا من فحص خلايا المتزوجين بالمجهر حتى ولا من تلقيحهم بالمواد الكيماوية او تطعيمهم بغدد القرود

إن الرجل الكامل أو الاقرب الى الكمال انما هو ابن الحب الكامل ، فالمحبة وحدها هي السبيل المؤدي الى إدراك الحق والقوة والجمال

لندع العالم المتمدن يفتّش في علومه ونهضة مفكريه على هذا الحب الذي تخيّله ماركس متجلياً في الحرية التامة للناس في أهوائهم فجات البلشفة تثبت انخداع هذا الفيلسوف في نظرياته ، ليفتشوا انهم لن يتصلوا في تجاربهم الا الى العبر الزاجرة المؤلمة

أما نحن ، ابناء هذا الشرق الذي انبثق الحق فيه انصباباً من الداخل بالالهام لا تلمّساً من الخارج ، فلنا المسلك المفتوح منفرجاً أمامنا للاعتلاء والخروج الى النور بعد هذا الليل الطويل ، اذا نحن اخذنا بروح ما اوحاه الحق الينا

لا بترقية الزراعة والصناعة ، ولا بنشر التعليم والتهذيب ولا بجعل البلاد جنةً ثراءً وتنظيماً ، تنشأ الأمة ويخلق الشعب الحر السعيد

إن الجنين الذي يحمل اسباب شقائه وهو في بطن أمه لا يمكنه ان يصير رجلا حراً قوياً يفهم حقيقة الحياة ويتمتّع بالعظمة الكامنة فيها

إن الاهتمام بايجاد الطفل الصالح أولى من العمل لاعداد العلم والتهذيب لطفل نصقل مظاهره صقلاً وتنحطم كل محاولة للنفوذ الى علّته المستقرّة فيه منذ تكوينه »

*

« ليس الفقير المتسوّل ، ولا العليل المتألم ، ولا الشيخ الهرم يتمشّى بلا سند الى قبره ، ليست المرأة المستعبَدة بلقمة ولا الفتاة المخدوعة المنطرحة على أقذار المواخير ، ليس كل هؤلاء الناس الأشقياء في الحياة باشقى من الاطفال يجور عليهم اباؤهم وأمهاتهم قبل ان يقذفوا بهم الى الوجود ويرهقونهم بالقطيعة والاهمال بعد ان يدرجوا عليها باقدامهم الناحلة المتعثرة . . .

الرجل الذي يمسخ حبه الواحد شهوات متعددة والمرأة التي تتقصف متهتكة ماسخة هيكل نسمات الله مركعاً لنفايات البشر من عبّاد الخيانة والطيش ، انما هما آدم وحواء مطرودَين من الجنان الى أرض الجهود المضيّعة والالآم المحتّمة ، ومَنْ يدري ان حديث معصية الابوين ليس رمزاً لخيانة الحب ، تلك الخيانة التي تنزل اللعنة بمرتكبيها وبابنائهم من بعدهم . . .

ويلٌ للرجل الذي يهدم بيديه سعادته وسعادة أبنائه وويلٌ للمرأة التي تدنّس منبت أطفالها »

*

ليس في تمهيد موجز كهذا مجالٌ لبحث فلسفة نيتشه التي أشغلت كبار كتاب القرن التاسع عشر ولم يزل الفلاسفة يكتبون عنها الى اليوم ، غير ان ما تناولناه الماماً من نظريات نيتشه يكفينا لتحديد ما يجب ان نغفله منها دون ان ننتقص من قدر هذا العبقري لأنه اقتحم اسرار الكون معتمداً ذاته فعاد عن هذه الاسرار مدحوراً . وهل من كاتب قبله او بعده تمكن من حل الغاز الوجود والوقوف منها عند عقيدة صريحة تستغني عن الايمان بالقوة الخفية المتعالية عن التعليل والتحليل ؟

حَسْبُ نيتشه في موقف حيرته ، وما هي بالدرجة الوضيعة على سلم التفكير ، ان يهتك سريرته امامك دون ان يلجأ الى إعمال السفسطة لإيجاد وحدة ظاهرية وتناسبٍ مزيّف في صرح تفكيره ، حسبه أنه اندفع وراء المثل الأعلى الكامن في « ارادة القوة » تبعاً لتعبيره وفي نفس الانسان الخالدة تبعاً لعقيدة المؤمنين ، فبسط امام المفكرين من مشاهد المجتمع ومن مسالك الأرواح على معابر الأرض ما لم يلمحه سواه من المنشئين

ان ما نرانا بحاجة الى الوقوف عنده من فلسفة نيتشه في كتاب زرادشت الذي لم تفته قضية اجتماعية لم يقل فيها كلمة كان لها دويها في العالم الغربي ، إنما هو هذه المبادىء التي تجتث ما غرست قرون العبودية في اوطاننا من استكانة حوّلت إيمانها الى استسلام في حين ان روح شرعتها يهيب بالنفس الى الجهادين في سبيل الوطن والانسانية جمعاء

إنّ الدين الذي يهاجمه نيتشه انما هو صورة لأصل شوهها الغرب ، وما علّم هذا الدين أنّ الحياة معبرٌ على المؤمن اجتيازه وهو معرضٌ عن كل ما حوله معلقٌ أبصاره على باب قبره . بل علّم أنّ الحيـاة مرحلةٌ من أشواط الآزال والآباد وما تطهر أنفسٌ لم تحترق بنار الحياة أجسادها ولم تعيد صلاحاً لباقياتها بإصلاح زائلاتها

ليس نيتشه اذاً مبدع فكرة التكامل للانسان على الارض فان التكامل مبدأ جعلته الأديان السماوية أساساً لكل وصية تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر ، غير ان الدين قد اراد للانسان تكاملاً روحياً يهيئه الى ادراك باريئه وراء المحسوس في حين ان نيتشه ، وقد أنكر ما لا تقع الحواس عليه ، أراد ان يفلت الانسانُ من حدود إنسانيته على هذه الارض فيجعلها جنة خلدٍ يستوى عليها بجبروته إلهاً . . .

وقد غرب عن هذا الفيلسوف ان المخلوقات كلها في سلسلة الوجود لا تملك الانعتاق من حدود أنواعها ومهما كرّت القرون وتعاقبت الاجيال لا يمكن للجماد ان يفلت من مملكته الى مملكة النبات ولا للنبـات ان يجتاز حدود مملكة الحيوان ولا للحيوان إن يجتاح مملكة الانسانية

لذلك كان الذاهب في طلب انسانٍ يتفوّق على الانسانية كالمحاول استنبات الشجرة حيواناً او استبدال الحيوان انساناً

لقد كرت القرون على مبدأ التاريخ الذي نعلم وعلى ما لا نعلم من حقبٍ كرّت ما وراءه ، والانسان لم يزل هذا المخلوق الدائر ابداً ضمن حلقة إنسانيته

لقد كان نيتشه من المعتقدين باستحالة الانواع حين صرخ بلسان زرادشت وهو يخاطب الحشد في الساحة العمومية :

« لقد كنتم من جنس القرود فيما مضى على انّ الانسان لم يفتأ حتى اليوم أعرق من القرود في قرديته »

ولكنه بالرغم من هذا يصرّح بان هذا النوع الفردي"وهو الانسان" ينسلخ عن أصله فكيف زيّن له خياله أنّ في هذا النوع إنساناً فائقاً لا يزال كامناً منذ البدء ينتظر قدوم فيلسوفٍ في أواخر القرن التاسع عشر يستجلى هذا الجبّار ويبعثه بارادة جديدة تتسلط لا على الحاضر والمستقبل فحسب بل على ما مرّ وتواري ايضاً في عاصفات الاحقاب؟...

*

إن بدعة الانسان المتفوّق إنما هي في تقديرنا تشوّق نفسٍ شعرت بانها كانت وستكون، وقد ضرب الإلحاد حولها نطاقاً فتوهّمت انها ستبلغ في هذه الحياة ما ليس من هذه الحياة

إنّ نيتشه يعلن إلحاده بكل صراحة ويباهي بكفره غير اننا لا نكتم القارىء الكريم أنّ ما قرأناه بين سطوره، وقد مررنا بها كمن عليه ان يتفهّم كل معنى ويستجلي كل رمز، يحفز بنا الى القول باننا لم نرَ كفراً أقرب الى الإيمان من كفر هذا المفكر الجبّار الثائر الذي ينادي بموت الله ثم يراه متجلّياً أمامه في كل نفس تخفق بين جوانح الناس من نسمته الخالدة، فان هذا الملحد، بالرغم من اعتقاده بان الجسد هو أصل الذات وأنّ الروح عَرَضٌ لها وبانّ كلا الروح والجسد فانيان، لا يملك نفسه من الهتاف وهو يؤكد عودة كل شيء واستمرار كل شيء فيقول

— أواه كيف لا أحنّ الى الابدية وأضطرم شوقاً الى خاتم الزواج، الى دائرة الدوائر حيث يصبح الانتهاء ابتداء. إنني لم أجد حتى اليوم امرأة اريدها أماً لابنائي الاّ المرأة التي أحبها لانني احبك ايتها الابدية!

أنني احبك، ايتها الابدية

اين هذه الهتفة الرائعة تصدو في اعماق روحٍ تتطيّر من الزوال من ابتسامة الملحد الصفراء وهو لا يرى وراءه وأمامه الاّ العدم والزوال بل يكاد يرى وجوده خدعة وخيالاً كاذباً

إن فلسفةً لا تستنيم لفكرة الفناء ولا ترى في النهاية الاّ عودة الى بداية ليست بالفلسفة الجاحدة فالمفكر المؤمن بانسانية عليا تتدرج الى الكمال حتى ولو قال بألوهية الانسان على الارض لا يمكنه إلاّ ان يؤمن في قرارة نفسه بكمال مطلق تتشوّق روحه اليه ما وراء هذا العالم

*

ولا بد هنا من إيراد تاريخ موجز لحياة هذا الفيلسوف ، وليس في حياته القصيرة وهي مليئة بالآلام من الحوادث ما يستحق التدوين غير المراحل التي مرّ عليها تفكيره فتأثر بها . وهل نيتشه الاّ فكرةٌ وهل حياته الاّ وقائعُ ميادينها السطور والصفحات ؟

ولد هذا العبقري الثائر سنة ١٨٤٤ في بلدة روكن من اعمال المانيا وكان ابوه واعظاً بروتستانياً من أسرة بولونية هجرت بلادها في القرن الثامن عشر على اثر اضطهاد شرَّد منها اشياع كنيسة الاصلاح

وما بلغ فردريك الخامسة من عمره حتى مات ابوه فكفلت امه تربيته وتربية اخته فأرسلته الى مدرسة نومبورغ ثم انتقل منها سنة ١٨٦٤ الى كليتيّ بون وليبسيك حتى اذا بلغ الخامسة والعشرين من عمره سنة ١٨٦٩ تجلّى نبوغه فعين أستاذاً للفلسفة في كلية بال

بعد سبع سنوات اي سنة ١٨٧٦ ظهرت عليه اعراض « الزهري الوراثي » فكمه صداعٌ شديد أضعف بصره فبقي يلقي الدروس حتى سنة ١٨٧٩ اذ اضطر الى الاستعفاء ليذهب متنقلاً بين روما وجنوا ونيس وسيل ماريا وهو يعمل الفكر ويكتب مصارعاً علته عشر سنوات فلا هو يبرأ منها فيحيا ولا هي تجتاح دماغة الجبار فيموت الى ان جاءته سنة ١٨٨٩ بالفالج مقدمةً للجنون فتوارى سنة ١٩٠٠ بعد ان سبقته الى الموت عبقريته العليلة وارادته الوثّابة الجبّارة

*

ذلك كان فردريك نيتشه ، مجسّم القوة المفكّرة التي دارت بها النائبات وحاصرتها الاوجاع وتصادمت مع تيارات الفلسفات التي كانت تهبُّ في ذلك العهد في المانيا وفي اوروبا باسرها حاملة للعالم مبادىء تضعضع العقل وتهزُّ المجتمع بتقويضها كل عقيدة تقيم امام الانسان غاية لحياته

فقد كانت افكار فيخته وشللينغ وهيغل وشوبنهور تهب جميعها ناشرة في اوروبا مزيجاً من مذاهب القدرية والعدمية ووحدة الوجود والارادة الحرة ، فقال شوبنهور ان روح الوجود قوة طائشة عمياء ادركت نفسها في عقل الانسان وشعوره فوجم حائراً وفي نفسه ظمأ في صحراء لا ماء فيها غيرُ وهج السراب، ولم يجد هذا الفيلسوف من علاج لهذه العلة غير التمرد على الحياة نفسها بترك ملذاتها

والالتجاء الى الزهد وانتظار الفناء في ما يشبه النيرفانا وهي القوة التي تتلاشى كل شخصية فيها

وكانت الفلسفة الدينية تقاوم هذه التيارات للاحتفاظ بالعقيدة المسيحية بأبحاث لاهوتية ينسجها حول تعاليم عيسى رهطٌ من المفكرين كنويمن وكورليج وكارليل وشلير ماخر وبيارلرو وجان باينو وشارلسكريتان واضرابهم فزجّوا بالإنجيل في مآذق مجادلات ليست منه وليس منها في شيء . وهل خطر لذلك المعلم الانساني وهو يدعو الى تطهير النفس ومقاومة الظلم والأخذ بالرحمة وإقامة الاخاء بين بني الانسان ان ينشيء مدرسة للتعليل عن مظاهر الكون ومنشأ الروح والانعكاسات من الآفاق والإنطباعات في السرائر ، بل هل خطر له ان يبحث علاقته بالله وعلاقتـه هو وحده او هو وأب الخليقة كلها بروح القدس ؟

*

وأخذ نيتشه بهذه التيارات تهبُّ من كل جانب على فكره الوقّاد تلهبه الالآم وتثير تشوّقه الى حال يعلل فيها سبب وجوده وهدف صبره وجهاده

ان الرجل المتمتع بصحة الجسم وبشيء من العزم يكتفي من هذه الحياة بما تعطيه فاذا آمن بالله واليوم الآخر وقف عند ايمانه هذا مرتاحاً الى ضميره وإذا أخذ بفلسفة الجحود رضى بهذه المرحلة من شعوره بذاته وطلب أوفر تمتع بأقل جهد

ولا يسطو القلقُ الفكريُّ بخاصة في حالة الحيرة من أمر هذه الحياة الا على الإنسان الذي يؤدي ثمناً باهظاً من اوجاعه لكل لذّة يختلسها كالسارق من قوّته الاسيرة في ضعفه الجائر

إن مثل هذا الانسان ، اذا عززته القوة الخفية بالحس المُرهَف، يطالب الدنيا ببدل لِما يبذل فيها فيستنطق نفسه والآفاق ليعلم ما اذا كان لهذه الانسانية المعذّبة المجاهدة ما يبرر محنتها وجهادها

وفردريك نيتشه كان ذلك الانسان فما أرضته من الفلسفة اللاهوتية تلك الاحاجي التي أحيطت المسيحية بها وما كان ليرضى من جهة اخرى بهذه القوة الهوجاء التي صوّرها شوبنهور موجدةً لانسانٍ لم يُعطَ له الا التصوّر لإقامة أشباحٍ تتراقص حوله وهي غير كائنة الا في وهمه

ونظر نيتشه الى الوجود فرأى وراء صوره المتحولة مادةً تتعالى عن الاندثار فنشأت فيه فكرة العودة المستمرّة وبدأت صورة زرادشت ترتسم في ذهنه حتى استكملها فانشأ كتابه في اوقاتٍ متقطعة من سنتي ١٨٨٣و١٨٨٥ في فترات كانت تسكن فيها حِدّةُ دائه او هو يسكّنها بما كان يتناوله من جرعات الكلورال المخدر . وهو نفسه يقول انه كتب كلاً من الاجزاء الثلاثة الأولى من زرادشت في مدى عشرة ايام كان فيها مأخوذاً بالهامه خاضعاً لقريحة تحكّمت فيه فلم يستطع مقاومتها حتى ارهقته إرهاقاً

اذا نحن عرفنا هذا تجلّت لنا العوامل التي ألقت على زرادشت وشاح الأحلام ، فان نيتشه يقبض في فصوله على مشاعر قارئه ليمرّ به على رؤى يتسامى الخيال فيها الى أوجه مفلتاً من رقابة القوى الواعية فكأنه يسير بمطالعه في عالم احلامٍ تبعث اشباحها من انطباعات القوى الواعية ولكنّها تتبع في مرورها وحركاتها ما تحسبه تضعضعاً في عالم القوى الساهية المجهولة

*

. لقد ماشينا نيتشه في حلمه وهو يستعير لعقله الباطن او لسريرته او لفكرته الساهية اسم زرادشت الفارسيّ الذي قال بالخير والشر كقوتين تتنازعان حياة الانسان ، فرأينا زرادشت المزيّف لا يقلّد الاصليّ باتخاذه اتباعاً له وباقتباسه لهجة حكماء الشرق الا ليعارض فكرة الخير والشر قائلاً إنها نشأت دخيلةً على الإنسانية وإنّ ليس لهذه الإنسانية ان تتفوّق على ذاتها الاّ بانكار الخير والشر وتحطيم الواح الشرائع المقدِّرة لقيم الاعمال لان كل شعب اشترع لنفسه ما لا يتوافق واشتراع جاره

ولكنّ نيتشه المتلبّس خيالَ زرادشت في رؤياه لم ينتبه الى أنه يرتكب تناقضاً بيّناً في دعوته إذ ينكر ما يراه من خير وشر طلباً لحالة جديدة يراها هو خيراً يريد ان يتسلّح به للقضاء على شرّ ينكر وجوده

ولو كانت الحقيقة كامنة وراء الخير والشر كما يدّعي زرادشت الجديد او بتعبير آخر لو ان هنالك حقيقةً مجرّدة عن الخير فلماذا يطلب زرادشت هذه الحقيقة وهو يعلن انها الخير كلُّ الخير للانسانية اذا هي ادركتها ؟

*

إنَّ تحديد الخير والشر في الكلمات العشر إنما هو اساس كل شرعةٍ تكفل حق الفرد ونظام المجموع

لقد تتناقض الاحكام التي تستنُّها الحكومات والجماعات في مجال الازمان مستوحاةً من حالةٍ موقتة تدفع اليها حاجةٌ ملحَّة ، فتُكتب الواحٌ تُستبدَلُ بتبدل الوضع والملابسات ولكنَّ السُنَنَ التي تُستلهم من الشريعة الموحى بها لا يمكن ان تتعارض اذا هي سلمت من دخيلات الاوضاع الإنسانية . وكلُّ شرعةٍ اصيلة تحتفظ بطابع مصدرها تتوافق حتماً وكلَّ شريعةٍ تحدَّرت مثلها من ذلك الاصل

إنَّ زرادشت الجديدلم يَجُلْ في مسارح حلمه فاتحاً لسريرته مجالات التفكير الاَّ وهو يحتفظ بانطباعاتٍ من تواريخ الأمم القديمة الوثنية وبصورٍ متناقضة من القوانين التي ابدعتها حكومات الغرب وجماعاته ونقاباته الصناعية والمالية فتمثَّلت هذه السُنَنُ اشباحَ الواحٍ تتراقص عليها الوانُ البِدَعِ ، فما وسع زرادشت إلاَّ ان يثور عليها ويدعو أتباعه الى تحطيمها

اما اللوحان الاوَّلان وكلمة عيسى بان يعامل الانسانُ اخاه بما يريد ان يعامله اخوه بهوالشريعة الأحمدية التيجاءتعلىاساس هذا المبدأ بخيرالكليات تُستنبط منها الاحكام لكل جماعة ولكل زمان ، فإنَّ زرادشت لم يبحثها مع ان نفسه كانت تصبو اليها لشعوره بوجودها وراء أقنعة النظم التي اسدلها الغرب على مجتمعاته . واذ كان لم يتميزَّها فما ذلك الاَّ لان دماغه كان يتصدَّع بما حُشر فيه من فلسفة اليونان القديمة ومن مشاحنات أعلام عصره الذين شُغلوا بالجدل والمماحكات المنطقية المجرَّدة حتى اتوا بنظريات تورث الدوار وتبلبل الفكر فيضطر من ألمَّ بها الى نبذها جميعاً لانها كدود القبور يلتهم بعضها البعض الآخر بعد أن تتغذى من جيفة لا حياة فيها

*

وفي هذا الحلم يسير زرادشت هادماً كلَّ ناموسٍ ونظامٍ لينبيء الناس بالخلود وبقاءِ الذات فيوجودٍ شبَّهه بالساعة الرملية ينقلب ابداً قسمُها المفرغ لاستفراغ قسمها الممتلي

ولا يطمعنَّ القاريء في الظفر من زرادشت بما يثبت هذه العقيدة الراسية على خلود مبهم وعودة أشد إبهاماً لانه لن يظفر منه بغير صور يلمحها لمحاً في

بيان شعري يتلبّس الفلسفة دون ان يكون فيه اثرٌ لاي استقراءٍ او لاي تعليل فيخرج من استغراقه وهو لا يدري أيقصد نيتشه من العودة المستمرة ما يتوهمه الملحدون من خلود الآباء في الابناء ام هو يرمي الى عودة الشخصية بالذات ناسية ماضيها تاركة في كل مرحلة من مراحلها جثة تتلوها جثةٌ على مدى الاحقاب

لقد تمرّد نيتشه أمام العدم كما قلنا وخفيت عنه حقيقة الدين الذي أخذ به الغربُ عن عيسى فاحاطه بالمعمّيات كما خفيت عنه حقيقةُ ما أنزل على محمد فشوّهه هذا الغربُ بالافتراء والتشنيع تعصباً وجهلا فوقف مفكّراً جبّاراً لا يستسلم لفكرة العبث في غاية الكون ولا يرضى بالنظم الاجتماعية التي اوجدتها المدنية وأسندتها الى الدين وهكذا هبّ يطلب للإنسانية إلهاً منها يسودها وللارض معنىً ابدياً يحوّل كل زوال فيها الى خلود مستمر التجدد بين الخفاء والظهور في محدود غير محدود . . .

ولو تسنىّ لنيتشه ان ينفذ حقيقة الايمان الذي دعا عيسى اليه مكمّلاً ما جاء به موسى لكان تجلّى له إيماناً بالقوة ترفع الضعفاء لا بالضعف يُسلّط عليهم الاقوياء، ولو تسنىّ له ان يستنير بما جاء به الإسلام من مبادىء اجتماعيّةٍ عمليّةٍ عليا تُماشي ما جاء به عيسى ولا تنقضه لأدرك انّ في الدين الحق دستوراً يهدم كلّ ما اراد هو هدمه من صروح الفساد في المجتمع ويوجد الإنسان المتصف بمكارم الاخلاق محباً للحياة والقوة والجمال والحرية دون ان يكسر حلقة الانسانية ويحاول الانطلاق منها وهو لا يزال يلبس تراب الارض ويرسف في أغلالها

ولكنّ نيتشه باندفاعه الى معارضة الفلاسفة من معاصريه وبثورته على التفكير الديني والتفكير المطلق في آنٍ واحد رأى أن التكامل لنوال عطف الالوهية الراسخة في الاذهان والتخلص من عقابها الصارم يقتضي الاعراض عن الزائلات والاستكانة الى السلطة واعتبار العاطفة الجنسية ملطخةً بأوضار الخطيئة الأصلية فثار على هذه الألوهية المزيّفة التي ما عرفها الشرق في اي دور من ادوار وحيه ، وهكذا كفر نيتشه بالله فاعلن موته واختناقه برحمته . . .

هذا هو جحود نيتشه في تعاليم زرادشت وهو في تقديرنا اذا نحن استنرنا بالدين الحق كما تدركه ذهنيّتنا الساميّة جحودٌ يتجه الى غير الإله الواحد الأحد ربّ الناس أجمعين

بل اننا اذا ذكرنا القاعدة المثلى التي وردت في حديث للنبي الكريم على قولٍ او في كلمة لامير المؤمنين عمر على قول آخر ، وهي

«إِعمَل لدُنياكَ كأَنك تعيشُ أَبداً ، واعمل لآخرتك كأَنك تموتُ غداً »

إِذا ذكرنا ذلك ، يتضح لدينا ان نيتشه قد ذهب الى أَبعد مدىً في الامتثال للوصية الأُولى وقد فاتته الوصيَّةُ الثانية وهي وصيَّةٌ راسخةٌ في ارواح ابناء هذه البلاد الشرقية العربية ، فليس اذاً في عظات زرادشت ما يزعزع عقائدنا او ينال من إيماننا ، بل ان فيها ما يتمشّى والمبادىءالعليا التي اتخذها السلفالصالح أَساساً لاقامة عظمة الدين على عظمة الحياة

وفي اعتقادنا ان نيتشه قد فاق كل كاتب في تصويره واجب الانسان نحو الحياة الدنيا لأن العلماء الماديين من جهة اعتبروا الحياة زائلة فما اهتموا لرقيّ الإِنسان الأدبي فيها قدر اهتمامهم باطالة حياته وإِيلائه التنعم الأوفر بالجهد الأقل ولان المفكِّرين المؤمنين ، من جهة اخرى ، ما كان بوسعهم انيفكّروا للارض ويحصروا كل جهد فيها كأَنها دارُ قرارٍ لأن العمل للارض ليس إِيمانهم كلّه بل هو نصف إِيمانهم ، أَما نيتشه فبعد ان أَقفل على تفكيره وخياله كلّ نافذة يمكن للروح ان تتطلع منها الى السماء ، وبعد ان تاقت نفسه الى الخلود فاستنزله كمعنىً لهذه الارض كما يقول جاعلاً هذا التراب وطنَ الإِنسان الدائم ، لم يسعه الاَّ توجيه كل قواه لتصوّر إِنسانيةٍ تتمتع بكل ما يمكن اعتصاره من الدنيا وتبلغ عليها من الرقي مرتبة الألوهية

*

تلك حقائق لم تفت ثلاثةً من أعلام الشرق العربي أهابوا بنا الى ترجمة زرادشت ونشره في هذه البلاد لتسديد عزم الشبيبة في هذه المرحلة التي يتوقف على نهضتنا فيها مستقبلُنا واستعادة امجاد تاريخنا . اولائك الثلاثة هم المغفور له السيد مصطفى صادق الرافعي فقيد الشرق والعروبة والاسلام والاستاذ حافظ عامر بك قنصل مصر العام في الآستانة مؤلف رسالة الحج التي كان لها دويٌّ في اوساط المفكرين والاستاذ احمد حسن الزيات القابض على آداب الغرب باطلاعه وتفكيره والرافع عَلَمَ الآداب الشرقية بقلمه ، وقد تفضل الأُستاذ المشار اليه فنشر في مجلته الرسالة اكثر من ربع الكتاب في مدى سنة ولولا تقديرنا ان الزمان سيطول على نشره برّمته لما كنا بادرنا الى طبعه كاملاً مستقلاً

*

إن ما دعانا واصحابنا المشار اليهم الى تقرير ترجمة زرادشت هو اننا نظرنا الى فلسفته من الوجهة الملامسة للمبادىء الدينية الاجتماعية التي تتجه الى احياء حضارتنا القديمة على أساسها ، وقد رأينا انّ هذا المؤلف الفريد في نوعه ليس من الكتب التي تُنقل الى بياننا لما لها من قيمةٍ فلسفية وأدبية فحسب بل هو من الكتب التي يجدر بالناشئة العربية درسها كما يدرسها طلاّب الجامعات في كل قطر اوروبي ، فان كتاب زرادشت قد اثر التأثير الاكبر على تطوّر الحركة الفكرية في اواخر القرن التاسع عشر في عالم الغرب واشتمل من المبادىء على ما كان ولا يزال محور الخلاف المستحكم بين ذهنيته وذهنية الشرق العربي بوجه خاص . ولقد مضى على ظهور هذا الكتاب زهاء نصف قرن ولم يكن العالم العربي في ذلك العهد على اتصال وثيق بالحركة الفكرية الغربية فلم يُسمع في هذه البلاد بنيتشه وفلسفته الا بمقالات موجزة وكل ما عرف عنه هو انه يدعو الى التحرر من ربقة الاوهام واطراح الزهد واليأس والاتجاه الى ايجاد الانسان المتفوّق

ولعلّ المفكرين يسلمون معنا بأن خلوّ المكتبة العربية من هذا المؤلف الفريد الذي ترجم الى جميع اللغات الحيّة فاتخذ انموذجاً بين ابنائها للصراحة والاخلاص في طلب الحقيقة يعدُّ نقصاً في هذه المكتبة ويُسجِّل قصوراً علينا لذلك اقتحمنا إعارة بياننا لكتاب زرادشت الذي قالت فيه الموسوعة الكبرى انه لا يعدُّ أروع ما كتب نيتشه فحسب بل أروع ما كُتبَ في اللغة الالمانية على الاطلاق

*

ولا بد في ختام تمهيدنا من إلفات المفكرين الى فصل من كتاب زرادشت عنوانه « بين غادتين في الصحراء » وفيه نشيدٌ لخيال زارا « صفحة ٢٥٤ » فاننا وقفنا عنده ملياً لانه من نوع البيان المستغرق في الرمزية فلا يفهمه القارىء الا بحسه الكامن وقد لا يتفق اثنان على تأويله تأويلاً واضحاً جلياً

ولو اننا ترجمناه بالحرف لجاء كأحد الرسوم التي ابتدعها أنصار التكعيب يقف المشاهد أمامها فلا يدري أجبلاً يرى أم شجرةً أم انساناً

لذلك اضطررنا الى املاء بعض الفراغ بين الخطوط والى الالتجاء لكسر النتوءات عند نقل بعض المكعّبات المبهمة الصارمة فجاء هذا النشيد أقرب الى

البيان المألوف دون ان يخرج عن اصله الرمزي الذي يحتاج الى كثير من الاستغراق في تفهم معانيه

وحاذرنا ان نكون تجاوزنا حد الخطوط الأصلية في النقل فرجعنا الى عالِمٍ معروف من علماء الغرب ممن احاطوا بفلسفة نيتشه وذهبوا الى حد بعيد في تحليلها وهو حضرة الدكتور روبرت ريننجر الاستاذ في جامعة فينا نعرض عليه ما رأيناه في رموز نشيد الصحراء ونسأله اقرارنا على ما اصبنا فيه وتصحيح ما قد نكون ضللنا في تبيانه ، فوردنا جوابه مؤرخاً في ١٩ ابريل من هذه السنة وفيه يقول :

« انني أرى خلاصة معنى النشيد في فقرته الاولى المكرّره في آخره وهي : ان الصحراء تتسع وتمتد فويلٌ لمن يطمح الى الاستيلاء على الصحراء » فان نيتشه قد رمز بالصحراء الى الوجود القاحل الذي لا غاية له وقد اتيت على بحث هذا الرمز في كتابي « جهاد نيتشه من اجل معنى الحياة وغايتها »

اما سائر ما في النشيد فاراه يرمي الى وصف أجواء الصحراء المتمتعة بالحرية وهي بابتعادها عن المعمور تولي ابناءها الحياة الساذجة الطاهرة على نقيض ما تورثه ثقافة اوروبا الشمالية من الخشونة والكثافة

اما كلمة « صلاه » فقد اصبتم في ترجمتكم اياها « حيّا على الصلاة »

هذا وقد يكون النبيّ محمدٌ هو المرموز اليه بأسد الصحراء ونذيرها حسب تأويلكم »

*

لقد سرّنا وأيم الله ان يوافقنا هذا العالم على تأويلنا وان يكن ذهب في تفسير اتساع الصحراء وامتدادها الى غير ماذهبنا اليه فقد كنا صارحناه بأن ما فهمناه من اتساع الصحراء وامتدادها وتهديد مَنْ يطمح للاستيلاء عليها انما هو انبعاثُ الايمان الحق بالفضائل العليا وتمرّدها على الجحود والتضعضع في الحياة

وقد كان دليلنا على صحة مذهبنا ما ورد في النشيد من صراحةٍ تؤيدنا خاصة في الفقرة الاخيرة وهي :

« ارتفع يا مظهرَ الجلال ولتهبّ مرة اخرى نسمة الفضيلة

ويا ليت أسد الفضائل يزأر ايضاً امام غادات الصحراء فانه اقوى ما ينبّه
اوروبا ويحفز بها الى النهوض
وها أنذا ابن اوروبا لا يسعني الا الخشوع لدويّ هذه الآيات البيّنات »

*

للعالِم الاوروبي تأويله ولنا تأويلنا وللصحراء في بلاد العرب رموزها فلندع للازمان تأويلها ولنكرر ما جاء في نشيد الجاحد الطامح الى الخلود
« ان الصحراء تتسع وتمتد فويلٌ لمن يطمحُ الى الاستيلاء على الصحراء »

*

ان عبير الشرق لا يضوع من نشيد الصحراء فحسب — بل هو يفوح من كل حكمةٍ ينطق بها زرادشت أمام مشاهد التضعضع الاوروبي ، ولسوف يقف رجال العلم من ابناء الضاد عند كثير من أقواله فيعرفون فيها آية من الآيات التي اوحيت لانبيائهم او أُلهمت لحكمائهم او حديثاً لذلك الأميّ الأعظم الذي تناول أدقّ القضايا الاجتماعية فردّها الى مكارم الاخلاق ليحلّها جميعاً

إننا ونحن نخطّ هذه الأسطر نتذكر صديقنا فقيد الشرق المغفور له السيد مصطفى صادق الرافعي الذي قلّ مَنْ جاراه في تفهم دين الله والشعور بالقوميّة العربية ووحدة الإنسانية . إننا لنذكره ونحس بما كان يمكننا ان نستمده من ثقافته العريقة ومعارفه الواسعة من آياتٍ واحاديث وحكم يتجلّى فيها ما أجمع مفكرو الغرب على الخشوع أمامه من نظرات زرادشت الصائبات في اتجاهات العالم المتمدن وفي طلب رقيّ الانسان والإهابة به الى العمل في الارض كأنه خالدٌ عليها لا يموت

غير أننا اذا كنا حُرمنا الآن من هذه النجدة في كتابة تمهيدنا هذا فلن تُحرم البلاد أعلاماً يقومون بهذا الواجب نحو مهبط وحي الله ومنبت العباقرة من السلف والمعاصرين

فليكس فارس

الاسكندرية في ١٩٣٨/٩/٢٠

— لقد اخترنا ايراد اسم زارا بدلاً من زرادشت تخفيفاً . واتينا في سياق الترجمة بردود علقناها على الهامش حيث رأينا لزوماً لذلك





حضرة صاحب السعادة اسعد باسيلي باشا

اهداء

الى حضرة صاحب السعادة اسعد باسيلي باشا

سيدي الاستاذ ،

إنّ حياتك الأدبية التي ولجتَ منها الى حياة الاعمال لمّا تزل تسيطر على حوافزك وتراود تفكيرك وعواطفك ، فأنك وان اصبحت من رجال المشروعات التجارية الكبرى تُحكِمُ إعدادَها وتنفيذها ما برحت تحتفظ بطابع الفيلسوف في وضع نظريات عملك وبطابع الشاعر في تقدير الحياة والتمتع بها ، في حين أن عقم التفكير وجفاف الطبع يسيطران على معظم رجال الثروة بخاصة في هذه الاقطار التي لم تزل في بدء نهضتها ولم يجمع الارتقاء بعد في طبقتها الموسرة بين حكمة إنماء الثروة وحكمة التمتع بما في الحياة من مباهج التفكير والشعور والتضامن الانساني

لقد أردت ان انشر في بلاد العرب كتاب (زرادشت) الذي صدم به نيتشه الفيلسوف الألماني الأشهر تيارات الفلسفات المتناقضة منذ نصف قرن في اوروبا موجّهاً الانسان الى تلمّس مواطن القوة في نفسه لإنشاءِ الجبابرة في المجتمع ، فاذا باسمك يُفرض على قلمي فرضاً لأتوِّج به هذا الكتاب وقد حقّ عليّ ان اورد الأسباب التي حفزت بي الى تقديمه اليك ، لا لأبرر عملي تجاه تواضعك، بل لأبرىء نفسي من اختيارٍ تعسفيّ قد يُحمل على محمل التزلف وما أنا مَنْ يتدنّى اليه ولا أنت مَنْ يؤخذ به

لقد بدأت حياتك في شبابك بتعهد تعليم الناشئة وتهذيبها في مسقط رأسك ثم بارحت مطارح ظلال الارز حيث كان الحكم المطلق الجائر يصد العبقريات عن مصاعدها ولجأت الى وادي الملوك أنت ورفيقك المرحوم فرح انطون فقيد الوثبة الاولى نحو النور في تطور التفكير الحديث ، وما تحولت عن هذا الرفيق الى مراكض جهودك حتى تركت في جامعته طابع نفسك الحرة وتفكيرك العميق . وأنك لتذكر ، ولا ريب ، تقريركما ترجمة (زرادشت) الى العربية والصفحات المعدودة التي أعار فيها فرح بيانه الجزل للفيلسوف الالماني فسايره في اجوائه وأغواره . فانت وفرح ، رأيتما قبل كل احد في فلسفة نيتشه ما تحتاج النفوس المتواكلة اليه من حزم وانطلاق كما ادركتما أن إلحاد هذا الفيلسوف لن يؤثر في إيمان الشرق لأنه لا يستند الا الى شكوك نشأت من حالة خاصة بالغرب وأن القوة وحدها التي نحتاج اليها في نهضتنا ستنسرب من كتابه الخالد الى بياننا في كتاب تفتقر المكتبة العربية اليه بعد أن ترجم الى لغات الدنيا وطالعه المفكرون من كل الشعوب

لقد اردت بهذا البيان ان أبرر تقديم ترجمتي لزرادشت اليك في نظر القراء لا في نظرك لانك تعلم أن هذا الكتاب إنما هو تحقيق حلم رأيته أنت ورفيقك القديم وتنفيذ لرغبة لم تزل مكبوتة في خفايا سريرتك وأنني لأرى في المرحلة التي قطعتها منذ ذلك العهد ما يزيدك رغبة في نشر زرادشت في بلادك بعد ان تيقنت باختبارك واثبت بحياتك نفسها وهي مجلى الثقة بالنفس والايمان بالخير أن الجبار الذي حلم به نيتشه عاملاً لدنياه كأنه لا يموت ابداً انما يستكمله الجبار الآخر الذي يعمل لآخرته كأنه يموت غداً

الاسكندرية في ١٩٣٨/٩/٢٠

فليكس فارس





فليكس فارس

كتب المؤلف

١ — رسالة المنبر الى الشرق العربي
٢ — هكذا تكلم زرادشت ، تأليف الفيلسوف الالماني فريدريك نيتشه، مترجمة
٣ — اعترافات فتى العصر ، تأليف الفريد دي موسيه ، مترجمة
٤ — رواية الحب الصادق — نفدت
٥ — شرف وهيام — »
٦ — النجوى الى نساء سوريا »

الكتب المعدة للطبع

٧ — المراحل ، سياسة وادب واجتماع
٨ — القيثارة ، ديوان شعر
٩ — قلعة حلب وقصص اخرى
١٠ — الاحرار في الشرق — بالعربية
» » » — بالفرنسية
١١ — رؤى متصوّف عربي — بالفرنسية
١٢ — من إلهام الشرق — »
١٣ — من حدائق الغرب : مختارات مترجمة
١٤ — بين عهدين — قبل الاحتلال وبعده
١٥ — امام المحاكم : الإجرام والقانون
١٦ — الأغلال : مسرحية مترجمة
١٧ — ثورة اثينا : مسرحية شعرية نثرية
١٨ — حديث الازهار : مترجمة



هكذا تكلم زرادشت

الجزء الاول

« كتاب للمجتمع لا للفرد »

فردريك نيتشه



مستهل زرادشت

— ١ —

لما بلغ زارا الثلاثين من عمره ، هجر وطنه وبحيرته وسار الى الجبل حيث اقام عشر سنوات يتمتع بعزلته وتفكيره الى ان تبدلت سريرته ، فنهض يوماً من رقاده مع انبثاق الفجر وانتصب امام الشمس يناجيها قائلاً :

— لو لم يكن لشعاعك مَن يُنير ، أكان لك غبطةٌ ، أيها الكوكب العظيم ؟ منذ عشر سنوات ما برحت تشرق على كهفي ، فلولاي ولولا نسري وافعواني ، لكنت مللت انوارك وسئمت ذرع هذا السبيل ، ولكننا كنا نترقب بزوغك كل صباح لنتمتع بفيضك ونرسل بركتنا اليك . اصغ الي ، لقد كرهت نفسي حكمتي كالنحلة اتخمها ما جمعت ، فمن لي بالأكف تنبسط امامي لأهب واغدق الى أن يغتبط الحكماء من الناس بجنونهم ويسعد الفقراء منهم بثروتهم

تلك هي الأمنية التي تهيب بي للجنوح الى الأعماق ، كما تجنح انت كل مساء منحدراً وراء البحار حاملاً اشعاعك الى الشقة السفلى من العالم ، ايها الكوكب الطافح بالكنوز

لقد وجب عليَّ ان اتوارى اسوة بك ، وجب عليَّ ان ارقد على حد تعبير الأناسيّ الذين اهفو اليهم

باركني ، اذن ، ايها الكوكب ، فانت المقلة المطمئنة التي يسعها ان تشهد ما لا يُحد من السعادة دون أن تختلج كمقلة الحاسدين

بارك الكأس الدهاق تسكب سلسبيلاً مذهباً ينثر على الآفاق وهجاً من مسراتك

انظر ! ان هذه الكأس تريد ان تتدفق ثانية ، وزارا يريد ان يعود انساناً

وهكذا بدأ جنوح زارا الى المغيب

— ٢ —

وانحدر زارا من الجبال فما لقي أحداً حتى بلغ الغاب حيث انتصب أمامه شيخٌ خرج من كوخه بغتة ليفتش عن بعض الجذور والأعشاب ، فقال الشيخ :

— ليس هذا الرحّالة غريباً عن ذاكرتي ، لقد اجتاز هذا المكان منذ عشر سنوات ، ولكنه اليوم غيره بالأمس

لقد كنتَ تحمل رمادك في ذلك الحين الى الجبل ، يا زارا ، فهل انت تحمل الآن نارك الى الوادي ؟ أفما تحاذر يا هذا ان ينزل بك عقاب مَن يضرم النار ؟

لقد عرفت زارا ، هذه عينه الصافية ، وليس على شفتيه للاشمئزاز اثر ، افما تراه يتقدم بخطوات الراقصين ؟

لقد تبدلت هيئة زارا ، إذ رجع بنفسه الى طفولته . لقد استيقظت يا زارا فماذا انت فاعل قرب النائمين ؟

كنت تعيش في العزلة كمن يعوم في بحر والبحر يحمل اثقاله ، واراك الآن تتجه الى اليابسة ، أفتريد الاستغناء عمن حملك لتسحب هامتك على الأرض بنفسك ؟

فأجاب زارا : انني أحب الناس

فقال الشيخ الحكيم : انني ما طلبت العزلة واتجهت الى الغاب إلا لاستغراقي في حبهم ، أما الآن فقد حولت حبي الى الله ، وما الانسان في نظري إلا كائن ناقص ، فاذا ما أحببته قتلني حبه

فأجاب زارا : ومن يصف لك الحب الآن ! انني لا اقصد الناس إلا لأتحفهم بالهدايا

فقال الحكيم القديس : اياك ان تعطيهم شيئاً ، والأجدر بك أن تأخذ منهم ما تساعدهم على حمله ، ذلك أجدى لهم على أن تغنم سهمك من هذا الخير ،

وإذا كان لا بد لك من العطاء فلا تمنح الناس الا صدقة على أن يتقدموا اليك مستجدين أولاً

فاجاب زارا : انا لا أتصدّق ، اذ لم أبلغ من الفقر ما يجيز لي أن اكون من المتصدّقين

فضحك القديس مستهزئاً وقال : حاول جهدك اذن اقناعهم بقبول كنوزك ، انهم يحاذرون المنعزلين عن العالم ، ولا يصدقون بأننا نأتيهم بالهبات ، ان لخطوات الناسك في الشارع وقعاً مستغرباً في آذان الناس . انهم ليجفلون على مراقدهم اذ يسمعونها فيتساءلون : الى أين يزحف هذا اللص ؟

لا تقترب من هؤلاء الناس . لا تبارح مقامك في الغاب ، فالأجدر بك أن تعود الى مراتع الحيوان ، أفلا يرضيك ان تكون مثلي دباً بين الدببة وطيراً بين الأطيار ؟

فسأل زارا : وما هو عمل القديس في هذا الغاب ؟

فأجاب القديس : انني انظم الأناشيد لأترنم بها ، فأراني حمدت الله اذ أسرّ نجواي فيها بين الضحك والبكاء ، لأنني بالانشاد والبكاء والضحك والمناجاة اسبّح الله ربي ، ومع هذا ، فما هي الهدية التي تحملها الينا ؟

فانحنى زارا مسلماً وقال للقديس : أي شيء أعطيك ؟ دعني اذهب عنك مسرعاً كيلا آخذ منك شيئاً

وهكذا افترقا وهما يضحكان كأنهما طفلان

وعندما انفرد زارا قال في نفسه :

— انه لأمر جد مستغرب ، ألمّا يسمع هذا الشيخ في غابه ان الاله قد مات (١)

— ٣ —

واذ وصل زارا الى المدينة المجاورة ، وهي اقرب المدن الى الغاب ، رأى الساحة مكتظة بخلق كثير أعلنوا من قبل ان بهلواناً سيقوم هناك بالألعاب ، فوقف زارا في الحشد يخطبه قائلاً :

---

(١) هذه الخطوة الاولى ، وسنرى اي اله يقول نيتشه بموته واي اله يتجه هذا الفيلسوف الى اكتشافه في سريرة الانسان

— انني آت اليكم بنبأ الانسان المتفوّق ، فما الانسان العادي إلا كائن يجب أن نفوقه ، فماذا اعددتم للتفوّق عليه ؟

ان كلاً من الكائنات أوجد من نفسه شيئاً يفوقه ، وانتم تريدون ان تكونوا جزراً يصد الموجة الكبرى في مدها ، بل انكم تؤثرون التقهقر الى حالة الحيوان بدل اندفاعكم للتفوق على الانسان . وهل القرد من الانسان الا سخريته وعاره ؟ لقد اتجهتم على طريق مبدؤها الدودة ومنتهاها الانسان ، غير انكم ابقيتم على جل ما تتصف به ديدان الارض . لقد كنتم من جنس القرود فيما مضى ، على أن الانسان لم يفتأ حتى اليوم اعرق من القرود في قرديته

ليس أوفركم حكمة الا كائن مشوّش لا يمتّ بنسبه الى اصل صريح ، فهو مزيج من النبات والأشباح ، وما ادعو الانسان ليتحوّل الى شبح او الى نبات

لقد أتيتكم بنبأ الانسان المتفوق

انه من الأرض كالمعنى من المبنى ، فلتتجه ارادتكم الى جعل الانسان المتفوق معنى لهذه الأرض وروحاً لها

اتوسل اليكم ، ايها الاخوة بان تحتفظوا للارض باخلاصكم فلا تصدقوا من يمنونكم بآمال تتعالى فوقها ، انهم يعللونكم بالمحال فيدسّون لكم السم ، سواء أجهلوا ام عرفوا ما يعملون ، اولئك هم المزدرون للحياة ، لقد رعى السم احشاءهم فهم يحتضرون ، لقد تعبت الارض منهم فليقلعوا عنها

لقد كانت الروح تنظر فيما مضى الى الجسد نظرة الاحتقار فلم يكن حينذاك من مجد يطاول عظمة هذا الاحتقار . لقد كانت الروح تتمنى الجسد ناحلاً قبيحاً جائعاً متوهمة انها تتمكن بذلك من الانعتاق منه ومن الارض التي يدبّ عليها . وما كانت تلك الروح الاّ على مثال ما تشتهي لجسدها ناحلة قبيحة جائعة ، تتوهم ان اقصى لذاتها انما يكمن في قسوتها وارغامها

أفليست روحكم ، ايها الاخوة ، مثل هذه الروح ؟ أفما تعلن لكم اجسادكم عنها انها مسكنة وقذارة وانها غرور يسترعي الاشفاق ؟

والحق ما الانسان الا غدير دنس ، وليس الا لمن اصبح محيطاً ان يقتبل انصباب مثل هذا الغدير في عبابه دون ان يتدنس

تعلّموا من هو الانسان المتفوّق

إنْ هو الا ذلك المحيط تُغرقون احتقاركم في اغواره
وهل تتوقعون بلوغ معجزة اعظم من هذه المعجزة ؟
لقد آن للاحتقار ان يبلغ اشدّه فيكم ، بعد أن استحال شرفكم ذاته كما استحالت عقولكم وفضائلكم الى كره واشمئزاز
لقد آن لكم ان تقولوا: ما يهمني شرفي ، وما هو الا مسكنة وقذارة وغرور، في حين أن على الشرف ان يبرّر الحياة نفسها
لقد آن لكم ان تقولوا : ما تهمني القوى العاقلة فيّ ، اذا لم تتطلب الحكمة بجوع الاسد ، وما هي الآن الا مسكنة وقذارة وغرور
لقد آن لكم أن تقولوا : ما تهمني فضيلتي فانها لمّا تصل بي الى الاستغراق ، وقد اتعبني خيري وشري ، وما هما الا مسكنةٌ وقذارةٌ وغرور
لقد آن لكم أن تقولوا : ما يهمني عدلي ، انّ العادل يقدح شرراً ولمّا اشتعل
لقد آن لكم ان تقولوا : ما تهمني رحمتي ، أفليست الرحمةُ صليباً يُسمَّر عليه من يحب البشر . ورحمتي لمّا ترفعني على الصليب
أقلتم مثل هذا وناديتم به ؟ ليتني سمعتكم تهتفون بمثله !
ان ما يرفع عقيرته على السماء إن هو الا غروركم لا خطاياكم ، إنْ هو الا حرصكم حتى في خطاياكم
اين هو اللهب الذي يمتد اليكم ليطهركم ؟ اين هو الجنون الذي يجب ان يستولي عليكم ؟
هأنذا أنبئكم عن الانسان المتفوق
إن هو الا ذلك اللهب وذلك الجنون
وما فرغ زارا من كلامه حتى ارتفع صوت من الحشد قائلاً
(لقد كفانا ماسمعنا عن البهلوان ، فليبرز لنا الآن لنراه)
فضحك الجميع مستهزئين بزارا ، وتقدم البهلوان ليقوم بألعابه وهو يعتقد أنه كان موضوع الحديث

— ٤ —

وبهت زارا مجيلاً انظاره في القوم ، ثم قال :

ما الانسان الا حبلٌ منصوب بين الحيوان والانسان المتفوق فهو الحبل المشدود فوق الهاوية

ان في العبور للجهة المقابلة مخاطرة ، وفي البقاء وسط الطريق خطراً ، وفي الالتفات الى الوراء وفي كل تردُّد وفي كل توقف خطرٌ في خطر

ان عظمة الانسان قائمة على انه مَعْبَرٌ وليس هدَفاً ، وما يستحب فيه هو انه سبيلٌ وأفقُ غروب

انني احب مَن لاغاية لهم في الحياة الا الزوال ، فهم يمرّون الى ما وراء الحياة. احب من عظم احتقارهم لأنهم عظماء ، احب المتعبّدين يدفعهم الشوق الى المروق كالسهم الى الضفة الثانية

احبُ مَن لا يتطلبون وراء الكوكب معرفة ما يدعو الى زوالهم او مايهيب بهم الى التضحية ،لأنهم يقدمون ذاتهم قرباناً للارض ، لتصبح هذه الارض يوماً ميراثاً للانسان المتفوق

احب مَن يعيش ليتعلّم ، ومَن يتوق الى المعرفة ليحيا الرجل المتفوق بعده ، فان هذا ما يقصد طالب المعرفة من زواله

احب مَن يعمل ويخترع ليبني مسكناً للانسان المتفوق فيهيء ما في الارض من حيوان ونبات لاستقباله . فان هذا ما يقصد طالب المعرفة من زواله

احب مَن يحب فضيلته ، فما الفضيلة الا الطموح الى الزوال وان هي الا السهم تنشبه اشواقه

احب مَن لا يحتفظ لنفسه بشرارة واحدة من روحه ، فيتجه الى ان يكون بكليّته روحاً لفضيلته لأنه بهذا يجعل روحه تجتاز الصراط

احب مَن يكوّن من فضيلته ميوله ومطمحه ، لأنه بمثل هذه الفضيلة يتوق الى اطالة حياته كما يتوق الى قصرها

احب مَن لا يريد الاتصاف بعديد الفضائل ، اذ في الفضيلة الواحدة من الفضائل اكثر مما في فضيلتين ، والفضيلة الواحدة حلقة ترتبط فيها الحياة

احب مَن يجود بروحه فلا يطلب جزاء ولا شكوراً ، ولا يسترد ، فهو يهب دائماً ولا يفكر في الاستبقاء على ذاته

احب مَن يخجل من سقوط زهر النرد لحظّه فيرتاب بغش يده ، ان امثاله هم التائقون الى الزوال

احب مَن يبذل الوعود وهاجة ثم يتجاوز عمله وعده ، ان امثاله هم التائقون الى الزوال

احب مَن يبرر اعمال الخلف ويدافع عن السالف لأنه بذلك يسلّم نفسه الى نقمة معاصريه ، فهو ممن يتوقون الى الزوال

احب مَن يعلن حبه لربه بتوجيه اللوم اليه ، اذ يجب ان يهلك بغضب ربه

احب مَن يبلغ التأثر اعماق روحه في جراحها فيعرّضه أتفه حدث للفناء ، ان امثاله يعبرون الصراط دون ان يترددوا

احب مَن تفيض نفسه حتى يسهى عن ذاته ، اذ تحتله جميع الاشياء فيضمحل فيها ويفنى بها

احب مَن تحرر قلبه وتحرر عقله حتى يصبح دماغه بمثابة احشاء لقلبه ، غير ان قلبه يدفع به الى الزوال

احب جميع مَن يشبهون القطرات الثقيلة التي تتساقط متتالية من الغيوم السوداء المنتشرة فوق الناس ، فهي التي تنبىء بالبرق وتتوارى

ما انا الا منبىء بالصاعقة ، انا القطرة الساقطة من الفضاء ، وما الصاعقة التي ابشر بها الا الانسان المتفوّق

— ٥ —

وبعد ان القى زارا هذه الكلمات اجال انظاره في الحشد وسكت ثم قال في قلبه : لقد تملكهم الضحك ، فهم لا يفهمون ما اقول ، وما انا بالصوت الذي يلائم هذه الاسماع

أعليّ ان اسد آذانهم ليتمرنوا على الاصغاء بعيونهم ؟ أم يجب ان اضرب الصنج اسوة بوعاظ الصيام ؟ لعلّ هؤلاء القوم لا يثقون إلا بالألكن من المتكلمين

ان لهؤلاء الناس ما يباهون به فما عساه ان يكون ؟

انهم يسمونه مدنية ليميّزوا بها انفسهم على الرعاة . فهم لذلك ينفرون من لفظة الاحتقار اذا ما ذُكرت في معرض الكلام عنهم ، فلسوف اخاطبهم إذن عن غرورهم

سأخاطبهم عن احقر الكائنات ، عن الانسان الأخير ، وتوجّه الى الحشد قائلاً :

لقد آنَ للانسان ان يضع هدفاً نصب عينيه ، لقد آن له ان يزرع ما يُنبت أسمى رغباته ما دام للارض بقية من ذخرها ، إذ سيأتي يوم ينفذ هذا الذخر منها فتجدب ويمتنع على اية دوحة ان تنمو فوقها .

ويلٌ لنا ! لقد اقتربت الازمنة التي لن يفوّق الانسانُ فيها سهام شوقه محلقة فوق البشرية إذ تخونه قوسه وتتراخى اوتارها

الحق ما اقوله : لن يخرج من الانسان كوكبٌ وهاج للعالم حين تزول بقية السديم من نفسه ، وهذا السديم لم يزل فيكم

ويلٌ لنا ! لقد اقتربت الازمنة التي لن يدفع الانسان فيها بالكواكب للعالم. ويلٌ لنا ؟ لقد اقترب زمان الانسان الحقير الذي يمتنع عليه ان يحتقر نفسه

اسمعوا ! هأنذا منبئكم عن الرجل الاخير

انه مَن يقف متسائلاً عن نفسه فلا يعلم أمحبةٌ هي ام إبداع ام تشوّق ، أم توهج كوكب

وستصغر الارض في ذلك الزمان فيطفر على سطحها الرجل الاخير الذي يحوّل الى حضارة كل ما يدور به ، إن سلالة هذا الرجل لا تباد ، فهي اشبه بالبراغيث ، والانسان الاخير اطول البشر عمراً

ويقول أُناسيُّ الزمن الاخير متغامزين : لقد اخترعنا السعادة اختراعاً

لقد هجر هؤلاء البقاعَ التي تقسو عليها الحياة ، لأنهم شعروا بحاجتهم الى الحرارة فأصبح كل واحد يحتكّ بجاره وقد احتاجوا الى الدفء جميعاً

انهم يقتحمون الحياة باحتراس لأن الوجل والمرض في عينهم خطأ ، وما سلم من الجنون من يتعثر منهم بالحجارة وبالناس

انهم يأخذون قليلاً من السموم حيث يجدونها طلباً لملاذ الاحلام ويكرعون منها ما يكفي دفعة واحدة طلباً للذة الموت

واذا هم عملوا فانما يعملون للتسلية محاذرين ان تذهب هذه التسلية بهم الى حدود الانهاك

ليس بينهم من يصبح غنياً او يمسي فقيراً ، وكلا الفقر والغنى يجلب الضنى ، وما منهم من يطمح الى الحكم او يرضى بالخضوع وكلاهما مُحرِج مُرهِق

ليس هنالك راعٍ وليس هنالك الا قطيع واحد . ان كلاً من الناس يتجه الى

رغبةٌ واحـدة ، فالمساواة سائدة بين الجميع . ومن اختلف شعوره عن شعور المجموع يسير بنفسه مختاراً الى مأوى المجانين

ويغمز امكر هؤلاء الناس بعينهم ويقولون : لقد كان الجميع مجانين فيما مضى

لقد ساد الاحتراس بين هؤلاء القوم لأنهم اخذوا بالعِبر ، فهم يتلقون الحادثات متهكّمين ، واذا نشأ بينهم خلاف بادروا الى حسمه صلحاً ، لأنهم يحاذرون ان تصاب معدهم بالعلل والادواء

لهؤلاء الناس لذاتٌ للنهار ولذاتٌ اخرى لليل ، غير انهم يراعون صحتهم اولاً

« لقد اخترعنا السعادة اختراعاً » ذلك ما يقوله اناسيّ الزمن الاخير وهم يغمزون

عند هذا انهى زارا خطابه او بالحري تمهيد خطابه فتعالت اصوات التهليل من الحشد وهو يقول :

« إلينا بهذا الرجل الاخير يا زارا ، اجعلنا على مثال اناسيّ الزمن الاخير فقد تخلّينا لك عن الانسان المتفوّق

ولكنّ زارا وجم امام هذا الحشد يسوده مثل هذا الروح فاستولى الحزن عليه وقال في نفسه :

انهم لا يفهمون كلامي ، فلست بالصوت الذي تتطلبه هذه الاسماع

لقد عشت طويلاً في هذه الجبال وانصت طويلاً الى هدير الغدران وحفيف الاشجار فانا اكلم هؤلاء الناس الآن كأنني اخاطب رعاة الماعز

ان روحي صافية تغمرها الانوار كما تغمر القمَم تباشيرُ الصباح ، ولكنهم يحسوّن بالصقيع في قلبي ويحسبونني مهرّجاً يأتيهم بالمفجع من النكات

انهم يحدجونني بأنظارهم ويتضاحكون ، ففي قلبهم ثورة البغضاء وعلى شفاههم بسمة الثلوج

— ٦ —

وطرأ حادث كمّ الافواه واسترعى الابصار ، وكان البهلوان بدأ بألعابه فاندفع من النافذة واخذ يتمشى على الحبل الممدود بين برجين فوق الساحة وما عليها من المتفرجين وما وصل الى وسط الحبل حتى فتحت النافذة مرة ثانية واندفع منها فتى مخطط بالالوان كالمهرّجين وسار متبعاً خطوات البهلوان صارخاً :

— الى الامام ايها الاعرج ! الى الامام ايها الكسلان ، ايها المرائي ذو الوجه

الشاحب ! اذهب لئلا تداعبك نعلي ، ما هو عملك بين هذين البرجين ؟ افليس في البرج مكان سجنك ؟ انك تسد الطريق في وجه من هو افضل منك »

وكان الفتى يتقدم خطوة كلما قال كلمة حتى اصبح على قاب قوسين من البهلوان، وعندئذ وقع الحادث الذي كمّ الافواه واسترعى الابصار . فان الفتى لم يلبث ان صرخ صرخة الجنّ وقفز فوق العقبة القائمة في سبيله . ولما رأى البهلوان انتصار خصمه عليه اخذه الدوار وخلت رجاه عن الحبل فرمى عارضة التوازن من يديه وسقط في الفضاء حيث لاحت رجلاه ويداه كعجلة تدور في الهواء

وماج الحشد على الساحة كالبحر اجتاحته العاصفة الهوجاء وانفرط الناس مولّين الإدبار وانفرج المكان حيث كان يتجه الجسم بانحداره

ولكنّ زارا لم يتحرك فوقع الجسم على مقربة منه حيث تقطعت اوصاله وتهشم غير انه كان لم يزل حياً ، وما عتم ان عاد روع الجريح اليه فرأى زارا جاثياً قربه فرفع رأسه وقال له :

— ماذا تفعل هنا ؟ ما كنت اجهل ان الشيطان سيُضلّ خطواتي يوماً وها هو ذا الآن يجرني الى جحيمه ، افتريد ان تمنعه ؟

فقال زارا :

وشرفي يا صديقي ان ما تذكره لا وجود له ، فليس من شيطان وليس من جحيم ، ان روحك ستموت بأسرع من جسدك فلا تخشَ بعد الآن شيئاً

فرفع الرجل بصره مشككاً وقال :

اذا كان ما تقوله صحيحاً فانني لا افقد شيئاً بفقد الحياة . فلست انا إذن الا حيواناً وقد رُقّصتُ بالضرب وغُذّيتُ بأحقر غذاء

فقال زارا : لا ، ليس الامر كما تقول فانك اتخذت المخاطرة مهنة لك ولم يكن فيها ما يشين . اما الآن فمهنتك هي ان تفنى ، من اجل هذا سأدفنك بيديّ

ولم يحر المدنف جواباً بل حرك يده باحثاً عن يد زارا ليصافحها دلالة على شكره

— ٧ —

وامسى المساء مرخياً سدوله على الساحة فتفرق عنها المتفرجون وقد ارهقهم الفضول والرعب ، وبقي زارا جالساً على الارض قرب الميت فاستغرق في تفكيره ناسياً مرور الزمان حتى هبت نفحات الليل عليه منفرداً ، فناجى نفسه قائلاً :

لقد كان صيدك موفقاً اليوم يا زارا ! لقد افلت الناس منك فاصطدت جثة هامدة

ان حياة الانسان محفوفة بالاخطار ، وهي فوق ذلك لا معنى لها . . فان مهرّجاً يمكنه ان يقضي عليها

اريد ان اعلّم الناس معنى وجودهم ليدركوا ان الانسان المتفوّق انما هو البرق الساطع من الغيوم السوداء : من الانسان

ولكنني لم ازل بعيداً عن هؤلاء الناس وفكرتي بعيدة عن مداركهم ، فانا لم ازل متوسطاً المدى بين مجنون وجثة هامدة

ان الليل مظلم ومسالك زارا مظلمة ايضاً . تعال ايها الرفيق المتيبّس في صقيعه ! انني ذاهب بك الى حيث اواريك التراب بيدي

— ٨ —

ورفع زارا الجثة على كاهله ومشى ، ولكنه ما قطع مائة خطوة حتى زحمه رجل ، وما كان هذا الرجل إلا مهرّج البرج ، فأسر اليه :

— اذهب من هذه المدينة يا زارا فان مبغضيك فيها كثيرون . هنا يكرهك اهل الصلاح والعدل ، فيصفونك بالعدو والمزدري ، ويكرهك المؤمنون بالدين الحق فيرون بك خطراً على عامة الناس ، وقد كان من حظك إن هزأ الحشد بك لأنك كنت تتكلم كالمهرّجين ، وكان من حظك ايضاً إن اشتركت والكلب الميت ، فقد كان خلاصك هذه المرة في إسفافك الى هذه المهاوي . ولكنك لن تسلم في الثانية فاذهب من هذه المدينة والا فانني قافز غداً فوق جثة اخرى

قال الرجل هذا وتوارى وتابع زارا سيره في الشوارع المظلمة . ولما بلغ باب المدينة التقى حُفّار القبور فوجهوا الى رأسه اشعة مصابيحهم واذ عرفوا فيه زارا اشبعوه سخرية وهزءاً وقالوا :

— مرحى يا زارا ! لقد صرت الآن حفّاراً للقبور ، انك تحمل الكلب الميت . لقد احسنت ، فان ايدينا اطهر من ان تدنّس بجثته . اتريد يا زارا ان تختلس من الشيطان طعامه ؟ كُلْ هنيئاً ! ولكن الشيطان امهر منك ، ولعله يسرقكما كليكما فيلتهمكما التهاماً

ودار حُفّار القبور بزارا يتفرسون فيه . اما هو فلزم الصمت وسار في

طريقه • وبعد ان مشى ساعتين يقطع الاحراج والمستنقعات ، شعر بالجوع لكثرة ما عوت حوله الذئاب الجائعة ، فوقف امام بيت منفرد لاحت له الانوار من نوافذه . وقال : لقد عضني الجوع وداهمني كاللص بين الاحراج في الليل البهيم

ان لجوعي نزوات مستغربة وقد يداهمني حتى بعد الطعام ، ولكنه اليوم ندّ عني منذ الصباح حتى المساء فأين كان هذا الجوع ؟

وطرق زارا باب البيت فظهر له منه شيخ يحمل مشعلاً ، وقال له : من الآتي اليّ والى رقادي المضطرب ؟

فأجاب زارا : اتيناك اثنين حيٌّ وميت ، اعطني مأكلاً ومشرباً فقد نسيت الغذاء النهار بطوله ، ان من يُشبع الجياع يولي نفسه قوة ، هكذا قالت الحكمة

فغاب الشيخ وعاد بخبز وخمر وقال :

— انها لأماكن موحشة للجياع ، وذلك ما دعاني الى السكن هنا حيث يهرع اليّ البشر والحيوان في وحدتي • افلا تدعو رفيقك ليأكل ويشرب معك فهو اشد تعباً منك

فقال زارا : ان رفيقي ميت ولا يسهل عليّ اقناعه بتناول الطعام •

فتمتم الشيخ : ذلك لا يهمني ، ان من يطرق بابي عليه ان يأخذ ما اقدمه له. كُلا هنيئاً

وعاد زارا الى السير فمشى ساعتين ايضاً وهو يهتدي الى رسوم الطريق بنور النجوم ، وقد كان معتاداً السُرى ويحب ان يتفرس في كل ما يروق له . وعند ما لاح الصباح كان زارا وصل الى غابة كثيفة حيث انقطع كل طريق امامه ، فتوقف ووضع الجثة في فراغ شجرة حواها حتى رأسها ليقيها هجمات الذئاب ، ورقد بعد ذلك متوسداً نبات الارض وما عتم حتى استغرق في نومه منهوك الجسم مرتاح الضمير

— ٩ —

وطال نوم زارا حتى غمرت وجهه انوار الضحى بعد ان داعبته تباشير الفجر ففتح عينيه مبهوتاً وسرّح ابصاره على الغاب ثم حولها يستكشف نفسه ساكناً مستغرباً

وهبّ من مجلسه فجأة كما يهبّ الملاّح تبدو لعينه الارض فهتف وقد هزّه المرح لأنه اكتشف حقيقة جديدة فخاطب قلبه قائلاً

لقد انفتحت عيناي . انني بحاجة الى رفاق احياء لا الى رفاق اموات وجثث احملهم الى حيث اريد

انني اطلب رفاقاً احيـاء يتبعونني لأنهم يريدون ان يتبعوا انفسهم ايان توجهت

لقد انفتحت عيناي ، ليس على زارا ان يخاطب جماعات بل عليه ان يخاطب رفاقا ، يجب الا يكون زارا راعياً للقطيع وكلباً له

انني ما جئت إلا لأخلص خرافاً عديدة من القطيع ، وسوف يتمرد الشعب والقطيع عليّ . ان زارا يريد ان يعامله الرعاة معاملتهم للصوص

قلت : رعاة غير انهم يدعون بالصالحين والعادلين . قلت : رعاة غير انهم يدعون بالمؤمنين بالدين الحق

انظروا الى اهل الصلاح والعدل لتعلموا من هو الدّ اعدائهم ، انه مَن يحطّم الالواح التي حفروا عليها سُننهم ، ذلك هو الهدام ذلك هو المجرم — غير انه هو المبدع

انظروا الى المؤمنين بجميع المعتقدات تعـلموا من هو الد اعدائهم انه من يحطّم الالواح التي حفروا عليها سننهم ، ذلك هو الهدام ، ذلك هو المجرم غير انه هو المبدع

اليّ بالرفاق . انني اطلبهم مبدعين ولا اطلبهم جثثاً وقطعاناً ومؤمنين

ان المبدع لا يتخذ له رفاقا الا مَن كانوا مثله مبدعين ، انه يتخذهم ممن يحفرون سنناً جديدة على الواح جديدة

ان مَن يطلب المبدع انما هم الحصّاد يعاونونه في الحصاد لأن كل شيء قد اصبح في عينه ناضجاً للحصاد ، ولكن المائة منجل ليست بين يديه فهو يتميز غضباً ويقتلع السنابل من اصولها

ان المبدع يطلب رفاقاً له بين من يعرفون ان يشحذوا مناجلهم ، وسوف يدعوهم الناس هدّامين ومستهزئين بالخير والشر ، غير انهم يكونون هم الحاصدين والمحتفلين بالعيد

ان زارا يطلب من هم مثله مبدعون يشاركونه في الحصـاد وفي الراحة فلا حاجة له بالقطعان والرعاة واشلاء الاموات

وانت يا رفيقي الاول ، ارقد بسلام لقـد احسنت دفنك في فراغ الشجرة

ووقيتك افتراس الذئاب

غير اني سأفترق عنك لأن الزمان قد مرّ سريعاً ، وقد انبثقت حقيقة جديدة في افق نفسي ما بين فجرين

لن اكون راعياً ، ولن اكون حفّار قبور ، ولسوف لا اقف بعد الآن في الجماعات خطيباً فقد وجهت آخر خطبي الى ميت

اريد ان انضم الى المبدعين ، الى اولئك الذين يحصدون ويرتاحون فأريهم قوس قزح والمراتب التي يرقاها الواصلون الى الانسانية المتفوقة

سأهتف بنشيدي للمعتزلين ولمن يشعرون بثنويّتهم في انفرادهم ، انني سأملأ بغبطتي قلب كل من له اذنان تصغيان الى ما لم تسمعه اذن بعد

انني اسير الى هدفي واتبع طريقي فأقفز فوق المترددين والمتأخرين، وهكذا سيكون سيري جنوحاً الى الغروب

— ١٠ —

وكان زارا يناجي نفسه بهذا القول والشمس في الهاجرة واذا به يسمع صوتاً جارحاً في الفضاء ولاح له نسر يعقد حلقات في طيرانه وقد تعلق به افعوان وما كان النسر يقبض عليه بمخلبيه كفريسة ، بل كان الافعوان ملتفّاً حول عنقه التفاف المحب

فهتف زارا والحبور يملأ فؤاده : هذان نسري وافعواني ، فالنسر اشد الحيوانات افتخاراً ، والافعوان اشدها مكراً تحت الشمس ، وكلاهما ذاهبان مستكشفين في الفضاء ليعلما ما اذا كان زارا لم يزل في الحياة ، فهل انا لم ازل حياً بعد ؟

لقد اعترضني من المخاطر بين الناس ما لم اجد مثله بين الحيوانات ، انني اتبع السبل المخطرة فلا قتدين بنسري وافعواني

وتذكر زارا القديس المنعزل في الغاب فتنهد وقال :

لأكونن اوفر حكمة لأكونن ماكراً كأفعواني ، غير انني اطلب المستحيل لذلك اتوسل الى افتخاري ان يلازم حكمتي ولا ينفصل عنها

واذا ما تخلت حكمتي عني يوماً وهي تتوق الى الطيران واأسفاه فانني لأرجو ان يطير افتخاري مستصحباً جنوني

وهكذا بدا جنوح زارا الى المغيب

خطب زرادشت

التحول في ثلاث مراحل

سأشرح لكم تحوّل العقل في مراحله الثلاث فأنبئكم كيف استحال العقل جملاً، وكيف استحال الجمل أسداً، وكيف استحال الأسد أخيراً فصار ولداً

ما أوفر الاحمال التي تثقل العقل الجَلد الصليب وهو مجلى الوقار، فان صلابته تتوق الى الحمل الثقيل بل الى أثقل الاحمال

يفتش العقل السليم عن أثقل الاحمال فينيخ كالجمل ظهره متوقعاً رفع خير حمل اليه. ان العقل السليم ينادي الابطال قائلاً: أيّ حمل هو الاثقل لأرفعه فتغتبط به قوتي؟ أفليس أثقل الاحمال هو في الاتضاع لانزال العذاب بالغرور؟ أفليس اثقلها أن يبدي الانسان اختلالاً لتظهر حكمته جنوناً؟

أم اثقلها في تخلّي الانسان من مطلب حين يقترن هذا المطلب بالنصر، ام في ارتقاء قمم الجبال لتحدّي مَن يتحدّى؟

أم أثقلها في أن يتغذّى الانسان بأقماع السنديان والأعشاب ويتحمل مجاعة نفسه من اجل الحقيقة

أم اثقلها في احتمال المرض وطرد العوّاد المعزّين، أم في مخادنة الصمّ الذين لا يسمعون ولا يعون ما تريد؟

أم اثقلها في الانحدار الى المياه القذرة اذا كانت الحقيقة فيها والرضى بملامسة الضفادع اللزجة والعقارب التي تقطر صديداً

أم اثقلها في محبة من يحتقرنا وفي مدّ يدنا لمصافحة شبح يقصد ادخال الرعب الى قلوبنا. ان العقل السليم يحمّل ذاته جميع هذه الاثقال المرهقة، وكالجمل الذي يسارع الى طريق الصحراء عند ما يُرفع الوقر عن ظهره هكذا يندفع هو ايضاً نحو صحرائه

وهنالك في الصحراء القاحلة يتم التحوّل الثاني اذ ينقلب العقل أسداً لأنه يطمح الى نيل حريته وبسط سيادته على صحرائه

وفي هذه الصحراء يفتش عن سيده ليناصبه العداء كما ناصب سيده السابق ، فهو يستعد لمكافحة التنّين والتغلب عليه

ومن هو هذا التنّين الذي يتمرد العقل عليه فلا يريد بعد الآن ان يرى فيه ربه وسيده ؟

انالتنين هو كلمة « يجب عليك » وعقل الأسد يريد ان ينطق بكلمة «أريد»

« ان كلمة (الواجب) تترصد الاسد على الطريق تنيناً يدّرع بآلاف الاصداف وعلى كل قطعة منها تتوهج بأحرف مذهبة كلمة « يجب عليك »

وعلى هذه الأصداف تشعُّ شرائع الف عام والتنين الأعظم يعج قائلاً انجميع الشرائع تتوهج عليّ

كل ما هو سنّة قد اوجد من قبل ، وبي تتمثل جميع السنن الكائنة . والحق ان كلمة « أريد » يجب ألا ينطق بها احد بعد ! هكذا قال التنين

فاية حاجة لكم ايها الأخوة بأسد العقل ؟ أفما يكفيكم الحيوان القوي الجليل الممنّع بامتناعه ؟

من العبث أن تطمحوا الى خلق سنن جديدة ، ان الأسد نفسه ليعجز عن هذا الخلق اذ لا يسعه الا أن يستعد بتحرير نفسه لخلق جديد لأن قوته لن تتجاوز هذا الحد

ايها الاخوة ، ان العمل الذي تحتاجون فيه الى الأسد انما هو تحرير أنفسكم والوقوف ببطولة الامتناع في وجه كل شيء حتى في وجه الواجب . ذلك أيها الأخوة هو العمل الذي تحتاجون الى الأسد للقيام به

ان الاستيلاء على حق ايجاد سنن جديدة يقضي بالجهاد العنيف على العقل الخشوع الصبور ، ولا ريب أن في هذا الجهاد قسوة لا يتصف بها إلا الحيوانات المفترسة

لقد كان العقل فيما مضى يتعشق كلمة « الواجب » كأنها أقدس حق له ، وقد أصبح عليه الآن ان يجد حتى في هذا الحق المفدّى ما يحدو به الى التعسف والتوهم ، ليتمكن بارهاق عشقه ان يستولي على حريته وليس غير الأسد من يقوم بهذا الجهاد

ولكن ما هو العمل الذي يقدر عليه الطفل بعد أن عجز الأسد عنه ؟ ولماذا يجب ان يتحول الأسد المكتسح الى طفل ؟

ذلك لأن الطفل طهرٌ ونيسان ، لانه تجديدٌ ولعب وعجلة تدور على ذاتها فهو حركة البداية وعقيدةٌ مقدَّسة

أجل ايها الاخوة ان العمل الالهي للابداع يستلزم عقيدة مقدسة ، فان العقل يطلب الآن ارادته ، ومن فقد الدنيا يريد الآن ان يجد دنياه

لقد ذكرت لكم تحولات العقل الثلاثة فاوضحت كيف استحال العقل جملاً وكيف استحال أسداً وكيف استحال اخيراً الى طفل

هكذا قال زارا ، وكان في ذلك الحين مقيماً في مدينة اسمها البقرة العديدة الالوان

منابر الفضيلة

وبلغ زارا خبرحكيم اطنب الناس فيعلمه ومقدرته فيالتكلم عن الكرى وعن الفضيلة لحبوه بالتكريم والتبجيل واتّبعه عدد من الشبان اصبحوا دعامة لمنبره العالي ، فذهب زارا وجلس معهم امام المنبر مصغياً الى الحكيم فكان يقول :

مجّدوا الكرى وعظموه لان له المقام الاول وتحاشوا مرافقة من ساء رقادهم ومن استحوذ عليهم الأرق

إن اللص ليقف خاشعاً أمام الكرى فيدلج في الليل مخرساً وقع اقدامه ولكن الساهر المجازف لا يتورَّع عن حمل بوقه

ليس بالسهل ان يعرف الانسان كيف يستسلم لسنة الكرى وليس إلا لمن عرف كيف ينتبه طول النهار ان ينام ملء جفنيه

يجب عليك أن تقاوم نفسك عشر مرات في النهار فتغنم خير التعب وتهيء المخدِّر لروحك

عليك أن تصالح نفسك عشر مرات في النهار لانه اذا كان في قهر النفس مرارةٌ فان في بقاء الشقاق بينك وبينها ما يزعج رقادك

عليك ان تجد عشر حقائق في يومك كيلا تضطر الى السعي وراءها في نومك فتبقى نفسك جائعة

عليك ان تضحك عشر مرات في يومك لتكون مرحاً كيلا تزعجك معدتك في ليلك والمعدة بيت الداء

قليلٌ من يعرف هذا من الناس ، ولن يتمتع بالرقاد الهنيء إلا من حاز جميع

الفضائل . فاذا ما المرء أدى شهادة زور او تلطخ بالزنا واذا هو اشتهى خادمة قريبه فقد حُرم وسائل الهناء في نومه

غير ان المرء يحتاج فوق فضائله الى شيء آخر وهو ان يندفع الى الرقاد بفضائله نفسها في الزمن المناسب

ان من الفضائل مَن هي كالغانيات المتجنّيات ، فاقم بينهن حائلاً كيلا ينتهين الى عراك تكون انت ضحيته

ليكن سلام بينك وبين ربك وبين الاقربين ، فلا نوم هنيء بدون هذا السلام . وسالم شيطان جارك ايضاً لئلا يراودك في رقادك

أكرم السلطة واخضع لها حتى ولو كانت هذا السلطة عرجاء . ان ذلك ما يقتضيه النوم الهنيء

وما انا بالجاني اذا كان يحلو للسلطة ان تسير متعارجة

ان خير الرعاة من يقود قطيعه الى المروج الخضراء ذلك ما يقتضيه الرقاد الهنيء

لا اطلب كثيراً من المجد ولا وفيراً من المال وكلاهما يؤدي الى الاضطراب ، ولكن المرء لا ينام هنيئاً ما لم يكن له شيء من الشهرة ولديه شيء من المال

افضّل ان يزورني القليل من الناس على ان يرتاد مسكني عشراء السوء ، وهذا العدد القليل يجب عليه ألا يطيل السُمَر عندي لئلا يعكر صفو رقادي

تسرني مجالسة البلهاء لانهم يجلبون النعاس ، ولشدما يغتبطون عندما نحبّذ حماقاتهم ونشهد باصابتهم

على هذه الوتيرة يقضي فضلاء الناس نهارهم . اما انا فانني اذا امسى المساء احترس من ان اراود النعاس لانه سيد الفضائل ولا يرتاح الى تحرّش الساهرين

وتحت جنح الظلام استعرض ما فكرت فيه وما فعلته في يومي فانطوي على نفسي كالحيوان الصبور واسائلها عما قهرت به اميالها عشر مرات وعما عقدت به الصلح مع ذاتها عشر مرات ، وعن الحقائق العشر والمسرات العشر التي افعمت بها

وبينما اكون مستغرقاً تهزني الاربعون خاطرة ، يستولى النعاس عليّ فجأة ، وهكذا يسودني الكرى سيد الفضائل دون ان اتوجه بدعوة اليه

يشغل النعاس جفنيّ فتغمضان ، ويلمس فمي فيبقى مفتوحاً

انه يدلف اليّ كلص محبوب فيسرق افكاري وابقى انا منتصباً كعمود من خشب ، ثم لا تمر لحظات حتى انطرح ممدداً على فراشي

وبعد أن اصغى زارا الى هذه الاقوال يقرع الحكيم بها الاسماع تملّك ضحكه وأشرق نورٌ في جوانب نفسه فناجاها قائلاً :

يتراآى لي ان هذا الحكيم قد جُنّ كخواطره الاربعين .

ولكنه جدٌّ خبير بحالات الكرى . فما أسعد من يجاور هذا الحكيم ! لأن مثل هذا النعاس شديد الانتقال بالعدوى حتى الى ما وراء الجدران

ان شيئاً من السحر يفوح من منبره العالي ، وما يجتمع هذا العدد من الشبان عبثاً حول خطيب الفضائل

ان قاعدة هذا الحكيم انما هي — اسهروا لتناموا — وفي الحقيقة لو لم يكن للحياة معناها ووجب ان اختار لها حكمة لا معنى لها لما كنت اجد افضل من هذه القاعدة

لقد ادركت الآن ما كان يطلب الناس قبل كل شيء عندما كانوا يفتشون على أُوليات الفضائل ، انهم كانوا يطلبون النوم الهنيء والفضائل التي يتجلى على مفرقها تاج المخدِّرات . وما كانت الحكمة في عرف حكماء المنابر ، وقد نالوا الاعجاب والثناء ، الا قاعدة نوم لا تقلقه الأحلام . انهم لم يكتشفوا معنى أفضل من هذا المعنى للحياة

وكم في أيامنا هذه من اناس يشبهون هذا الواعظ في دعوته الى الفضيلة غير انهم اقل اخلاصاً منه . ولكن هذا الزمان لم يعد زمانهم ولن يطول وقوفهم والكرى يراود افكارهم فهم عن قريب سيُمددون

طوبى لمن دبّ الى عيونهم النعاس ! انهم عما قريب سيرقدون

هكذا تكلم زارا . . .

المأخوذون بالعالم الثاني

وترامى زارا يوماً بخياله الى ما وراء الانسانية ، فتراءى هذا العالم لديه كما يراه جميع المأخوذين بالعالم الثاني خليقةَ ربّ متألم مضطرب ، فقال :

رأيت الدنيا كأنها احلام نائم أُبدعت ابخرةً حوّالة متلونة ترتد عنها الوهية

النفس على غير رضى . وقد لاح لي الخير والشر والافراح والاحزان وذاتي وذات الآخرين كما تلوح الابخرة الملونة لعين المبدع ، ولعل المبدع اراد ان يتحول ببصيرته عن ذاته فاوجد العالم

لاينتشي المتألم بمسرة أشد من مسرته حينما يُعرض عن آلامه وينسى نفسه . هكذا تكشّف لي العالم يوماً فرأيت مسرته ثملاً ونسياناً وهو يتقلب ابداً في نقائصه معكَساً للتناقض الابدي

نظرت الى العالم يوماً فلاح لي مسرةً مسكرة يتمتع بها مبدع غير كامل خلقتُه انا ، فجاء ككل اعمال البشر جِنّة بشرية

ما كان هذا الاله إلا انساناً ، بل جزءاً من شخصية انسان ، لأنه نشأ من ترابي ومن هَجسي . انه لشبح من هذا العالم لا من وراء هذا العالم

شهدت ذلك ، ايها الاخوة ، فتفوقت على ذاتي بآلامي ، وحملت ترابي الى الجبل حيث أوقدت ناراً تشع نوراً فاذا بالشبح يتوارى مبتعداً عني

فاذا ما آمنت الآن بمثل هذا الشبح ، فلا يكون ايماني الا توجعاً وصغاراً ، ذلك ما اقوله للمأخوذين بالعالم الثاني

ما اوجدَت العوالمُ الأخرى في هذا العالم سوى الآلام والشعور بالعجز ، ذلك ما اوجدته تلك العوالم فاوجدت معه هذا الجنون السريع الزوال بسعادة ما ذاقها من الناس الا اشدّهم آلاماً

ان المتعب الذي يطمح الى اجتياز ابعد مدى بطُفرة واحدة بطُفرة قاتلة ، وقد بلغت به مسكنته وجهالته حداً لا يستطيع عنده ان يريد ، انما هو نفسه مبدع جميع الآلهة وجميع العوالم الاخرى

صدقوني ، ايها الاخوة ، ان الجسد قد قطع رجاءه من الجسد ، فغدا يجسّ باناملِه مواضع الروح المضللة ، وذهب يتلمّسها من وراء الحواجز القائمة على مسافة بعيدة

صدقوني ، ايها الاخوة ، ان الجسد قد تملّكه اليأس من الارض فسمع صوتاً يناديه من قلب الوجود ، فاراد ان يخترق برأسه اطراف الحواجز ، بل حاول العبور منها الى العالم الثاني ، غير ان العالم الثاني جدّ خفيّ عن الناس لانه بتخنّثه وابتعاده عن كل صفة انسانية ليس الا سماء من العدم . ان قلب الوجود لا يخاطب الناس اذا لم يكلمهم كانسان

والحق انه ليصعب علينا اثبات الوجود واستنطاقه . اجيبوا ايها الأخوة ، افما يلوح لكم ان اغرب الامور اثبتها دليلاً ؟

اجل ! ان هذه الذات على ما فيها من تناقض واختلال تثبت بكل جلاء وجودها فتبتدع وتعلن إرادتها لتضع المقاييس وتعيّن قِيَم الاشياء ، وما تطلب هذه الذات في اخلاصها الا الجسد حتى في حالة استغراقه في احلامه وتحفزه للطيران باجنحته المحطمة

ان هذه الذات تتدرب على الافصاح عن رغباتها باخلاص ، وكلما ازدادت تدرباً ألهمت البيان للإشادة بالجسد وبالارض

لقد علّمتني ذاتي عزة جديدة اعلمها الآن للناس : علمتني ألاّ اخفي رأسي بعد الآن في رمال الاشياء السماوية ، بل ارفعها رأسا عزيزة ترابية تبتدع معنى الارض

انني اعلّم الناس ارادة جديدة يتخيرون بها السير على الطريق التي اجتازها الناس عن غباوة من قبلهم ، اعلمهم ان يطمئنوا الى هذه الطريق فلا تنزلق ارجلهم عنها كما انزلقت ارجل الاعلاء المتهكمين ، وما هؤلاء الا مَنْ ابتدعوا الاشياء السماوية واخترعوا قطرات الدماء المراقة لافتداء البشر . على ان هذه السموم التي أخذوا بلذتها ورهبتها لم يستخرجوها الا من الجسد ومن الارض

لقد شاءوا الفرار من الشقاء وتراءت لهم الكواكب بعيدة صعبة المنال فوجموا يدفعون بالزفرات قائلين : وا أسفاه ! لِمْ لا تنفتح امامنا سبل في السماء ننسحب عليها الى وجود آخر وسعادة اخرى

في ذلك الحين اخترعوا أوهامهم وكؤوسهم الصغيرة المترعة بالدماء . . . . .

وحسب هؤلاء الناس في عقوقهم انهم فازوا بالنعيم بعيداً عن جسدهم وعن الارض ، وتناسوا ان تنعمهم ورعشة ملذتهم انما نشأت من جسدهم ومن هذه الارض(1)

---

(1) ليذكر القارىء الكريم ما وجهنا انتباهه اليه في مقدمتنا ، فها هو ذا نيتشه قد بدأ يوضح علة جحوده ، فهو يرى معبود الناس قائماً من وهمهم او بتعبير آخر ان الانسان قد خلق الله فصوره من ترابه ونفخ فيه نسمة من لهبه . ولو اننا وقفنا عند كل فكرة جائحة من افكار نيتشه لنحللها ونرجع منها الى ايماننا المسكين لاضطررنا الى التحول من الترجمة الى البحث . غير اننا لا نجد بداً الآن من دعوة القارىء الى الامعان في الصفات التي تتراءى لنيتشه كأنها

ان زارا ليشفق على الاعلاء فلا يغضب لما أوجدوه من وسائل السلوان ولا يتمرمر لانهم عقّوا جسدهم وارضهم ، بل هو يرجو لهم الشفاء والتغلب على انفسهم ليوجدوا لهم اجساداً ارقى من اجسادهم

ان زارا لا يغضب ايضاً على الناقه الذي يحنّ الى وهمه فيذهب في منتصف الليل ليطوف بقبر الهه ، ولكنه لا يرى في دموع هذا الناقه الا اثر المرض والجسم المريض

لقد وجد في كل زمان كثيرٌ من المرضى المستغرقين المتشوهين فهم يكرهون الى حد الهوس كل من يطلب المعرفة ، ويكرهون ابسط الفضائل وهي فضيلة الأخلاص

انهم يلتفتون دائماً الى الوراء ، الى الازمنة المظلمة، اذ كان للجنون وللايمان حلّتها الخاصة ، فكان الإله يتجلّى في هوس العقل ، وكانت كل ريبة خطيئة

لقد عرفتهم جد المعرفة ، اولئك المتجلين على صورة الله ومثاله فتيقنت ان جميع رغباتهم تتجه الى أن يؤمن النـاس بهم وان يصبح كل شك فيهم خطيئة ، وما فات مداركي ذلك الايمـان الذي يدّعون رسوخه فيهم . فانهم لا يؤمنون لا بالعوالم الأخرى ولا بقطرات الدماء تفتدي العالم ، بل هم كسائر الناس يعتقدون

هي الالوهية فيتأكد ان الاله الذي يهاجمه هذا الفيلسوف هو غير الهنا ، وعالمه الثاني هو غير عالمنا الروحي الذي يقيم فينا قبل ان نقيم فيه

ان نيتشه كان قد خرج على الدين الذي اقتبسته الآرية عن السامية فشوهته ، فاصبح بعد ذلك طريد فكره الجبار ينتقد آثار الدين في المجتمع ، وقد وقف موقفه السلبي فلا هو يسكت صراخ نفسه المتمردة ، ولا هو يهتدي الى الدين الحق الذي تسكن الروح اليه وينتظم المجتمع باحكامه ، وها نحن نورد كلمة لنيتشه قالها وهو يكتب زرادشت وفيها عبرة للمؤمنين وللجاحدين

في حديقة من حدائق لوزرن جلس نيتشـه الى السيدة (لو سالومه) وهي حسناء روسية ملكت لبه ، وفي حديثه معها ملكه الصمت ، فرأت لو دموعه تنهمر وبدأ يقص عليها تاريخ تطوره الفكري ، فوصف لها سني فتوته التي قضاها في التعبد ، ثم عرض مراحله في شكوكه واضطرابه في عالم لا بد من امرار الحياة فيه دون أن يكون لهذا العالم اله . . فقال ، والسيدة نفسها دونت قوله للتاريخ :

« هكذا بدأت مغامراتي الفكرية وما وصلت الى محجة منها ، فالى اين اتجه . . . افلا يجدر بي ان اعود الى الايمان ، او ان اوفق الى ايمـان جديد ؟ على انه خير لي اذا انا لم اوفق الى الوصول لهدف ان اعود ادراجي من ان اقف في حيرتي » اهـ. نقلا من كتاب « دانيال هالافي »

بالجسد ، ويرون ان اجسادهم نفسها هي الكائن الواجب الوجود

غير ان هؤلاء الناس يرون الجسد كائناً معتلاً ، فيودون ان يبارحوا جلودهم وذلك ما يدفعهم الى الاصغاء للمبشرين بالموت وما يهيب بهم الى التبشير بالعوالم الأخرى

أما انتم ، يا اخوتي ، فاصغوا الى صوت الجسد الذي أبلّ من دائه لان هذا الجسد يخاطبكم بصوت أنقى وأخلص من تلك الاصوات

ان الجسد السليم يتكلم بكل اخلاص وبكل صفاء ، فهو كالدعامة المربعة من الرأس حتى القدم وليس بيانه الا إفصاحاً عن معنى الارض

هكذا تكلم زارا . . .

المستهزئون بالجسد

لأقولن للمستهزئين بالجسد كلمتي فيهم : ان واجبهم الاّ يغيروا طرائق تعاليمهم ، ولكن عليهم ايضاً ان يودّعوا أجسادهم فيستولي على السنتهم الخرس

يقول الطفل : انا جسدٌ وروح . فلماذا لا يتكلم هؤلاء الناس كالاطفال ؟ اما الانسان الذي انتبه وأدرك ذاته فيقول :

انني بأسري جسد لا غير ، وما الروح الا كلمة أُطلقت لتعيين جزء من هذا الجسد

ما الجسد الا مجموعة آلاتٍ مؤتلفة للعقل ، ومظاهر متعددة لمعنى واحد . ان هو الا ميدان حرب وسلام ، فهو القطيع وهو الراعي

ان آلة جسدك انما هي اداة عقلك الذي تدعوه روحاً ، ايها الأخ ، ان هو الا أداة صغيرة وألعوبة صغيرة لعقلك العظيم

انك تقول : (أنا) ، وتنتفخ غروراً بهذه الكلمة ، غير ان هنالك ما هو اعظم منها ، أشئت ان تصدق أم لم تشأ ، وهو جسدك وأداة تفكيره العظمى ، وهذا الجسد لا يتبجح بكلمة انا لانه هو (انا) ، هو مُضمر الشخصية الظاهرة

ان ما تتأثر الحواس به وما يدركه العقل لا نهاية له في ذاته ، غير ان الحس والعقل يحاولان اقناعك بان فيهما نهاية الاشياء جميعها ، فما اشد غرورهما !

ما الحس والعقل الا ادوات وألعوبة ، والذات الحقيقية كامنة وراءهما مفتشة بعيون الحس ومصيخة بآذان العقل

ان الذات ما تبرح مفتشة مصغية ، فهي تقابل وتستنتج ثم تهدم متحكمة في الشخصية سائدة عليها ، فان وراء احساسك وتفكيرك ، يا اخي ، يكمن سيد أعظم منهما سلطاناً ، لانه الحكيم المجهول ، وهذا الحكيم انما هو الذات بعينها المستقرّة في جسدك وهي جسدك بعينه ايضاً (١)

ان في جسدك من العقل ما يفوق خير حكمة فيك ، ومَنْ له ان يعلم السبب الذي يجعل جسدك بحاجة الى خير ما فيك من حكمة

ان ذاتك تهزأ بشخصيتك وبألعابها قائلة : — ما هي خطرات الفكر وتساميه ان لم تكن جنوحاً الى هدفي ، افلست انا رائدة الشخصية وملهمة أفكارها ؟

تقول الذات للشخصية : — اشعري بألم ، فتتألم وتفتكر بالتخلص من هذا الالم وقد تحتم عليها ان تتجه الى هذه الغاية

وتقول الذات للشخصية : — اشعري بالسرور ، فتسرّ وتفتكر باطالة أمد هذا السرور ، وقد تحتم عليها ان تتجه الى هذه الغاية

لي كلمة اقولها للمستهزئين بالجسد ، وهي انّ احتقارهم انما هو في الحقيقة حرمة واعتبار ، اذ مَنْ هو يا ترى موجد الاحترام والاحتقار والتقدير والارادة ؟

ان الذات المبدعة اوجدت لنفسها الاحترام والاحتقار كما اوجدت اللذة والالم ، ان الجسم المبدع أوجد العقل لخدمته كساعد يتحرك بارادته

انكم لتخدمون الذات الكامنة فيكم حتى في جنونكم وفي احتقاركم . وانا

---

(١) أفلا يرى القارىء الكريم اثبات واجب الوجود في محاولة انكاره ، واثبات الايمان الفكري الاسمى في اضل منطق واصرح جحود ؟ ذلك هو رد الفعل الذي اشرنا اليه في مقدمتنا ، فان الايمان الغربي قد اعتبر الجسد آلة شهوة محتقرة يجب اذلالها ، فانكر الحياة (وما الحياة في نظر الشرق المؤمن الا مقدمة للخلود) وما ثار نيتشه الا على هذا التصور للكيان الانساني ، فهب يقلب ظاهره باطناً وباطنه ظاهراً ، ويشطره الى ذات والى شخصية معتبراً الشخصية عقلا وادراكا زائلين وقائلا بان الجسم بما فيه من حوافز مجردة خفية انما هو بنفسه الذات الواجبة الوجود التي تندفع الى التكامل لتبلغ بالانسان مرتبة الالوهية

هذه كلمة لم نر بدأ من الاتيان بها وهي جد موجزة ، ولكنها ستكون مداراً لبحث نتوق الى تناوله عند ما ننتهي من ترجمة فيلسوف الغرب الكبير لنأخذ من الحاده دليلا له شأنه على صحة ايمان الشرق بالواحد الاحد وبما نفخ في الاجساد من نسمة الحياة الخالدة

أقول لكم أيها المستهزئون بالجسد ان ذاتكم نفسها تريد ان تموت ، وقد تحولت عن الحياة لانها عجزت عن القيام بما كانت تطمح اليه ، وما أقصى رغباتها الا ابداع من يتفوق عليها ولقد مضى زمن تحقيق هذه الرغبة ، لذلك تطمح ذاتكم الى الزوال أيها المستهزئون بالاجساد

ان ذاتكم اصبحت تتوق الى الزوال ، وهذا ما يدفع بكم الى الاستهزاء بالاجساد اذ قد امتنع عليكم ان تخلقوا مَنْ هو افضل منكم

ان هذا العجز قد ولّد فيكم النقمة على الحياة والارض وها هي ذي تتجلى شهوةً في لحظاتكم المنحرفة دون ان تعلموا

انني لا اسير على طريقكم ايها المستهزئون بالاجساد ، لانني لا ارى فيكم المعبر الذي يؤدي الى مطلع الانسان المتفوّق

هكذا تكلم زارا . . .

الملذات والشهوات

اذا كان لك فضيلة يا اخي ، وكانت هذه الفضيلة خاصة بك فانك لا تشارك فيها احداً سواك . ولا ريب في انك تريد ان تدعوها باسمها وتداعبها لتتسلى بها ولكنك بهذا اشركت بها الناس بما اطلقت عليها من تعريف ، فأصبحت انت وفضيلتك مندغمين في القطيع

خيرٌ لك يا اخي ان تقول : ان ما تلذ به روحي وتتعذب به يتعالى عن الإيضاح ، ويجلُّ عن ان يُسمى ، وهذا العجز عن ادراكي له يخلق الجاعة في احشائي

لتكن فضيلتك اسمى من ان تستخف بالاشياء عند تحديدها ، واذا ما اقتحمت هذا التحديد ، فلا تستحي من ان تتلفظ به تمتمة ، فقل وانت تتمتم :

— ان هذا هو خيري الذي احب ، ان هذا ما يثير اعجابي ، فأنا لا اريد الخير الا على هذه الصورة . لا اريد هذه الاشياء تبعاً لارادة ربّ من الارباب ولا عملاً بوصية او ضرورة بشرية ، فأنا لا اريد ان يكون لي دليلٌ يهديني الى عوالم عليا وجنّات خلود . . .

قل : ما احب سوى فضيلة هذه الارض ، لأن ما فيها من الحكمة قليل ، واقل منه ما فيها من صواب متفق عليه . إن هذا الطير قد بنى عشه على مقربة مني ، لذلك احببته وعطفت عليه ، وها هو ذا الآن يحتضن عندي بيضه الذهبي

على هذه الوتيرة تكلّم وانت تتمتم ممتدحاً فضيلتك

لقد كان لك فيامضى شهوات كنت تحسبها شروراً ، أما الآن فليس فيك إلا الفضائل ، وقد نشأت هذه الفضائل من شهواتك نفسها ، لأنك وضعت في هذه الشهوات أسمى مقاصدك فتحولت فيك الى فضائل وملذات هي منك ولك ، ولسوف ترى جميع شهواتك تستحيل الى فضائل ، ولسوف ترى كل شيطان فيك يستحيل ملاكاً حتى ولو كنت ممن يستسلمون للغيظ والشهوات وكنت من فئة الحاقدين المتعصبين

لقد كانت الكلاب المفترسة تسكن دهاليزك من قبل ، فها هي ذي الآن اطيار مغرّدة . لقد استقطرت بلسماً من سمومك وحلبت ناقة الاوصاب ، وانت الآن تكرع لذيذ درّها

لن يخلق منك شرٌّ بعد الآن ، غير ان هناك شراً قد ينشأ من تخاصم فضائلك فاصغَ اليّ ، يا اخي ! انك اذا شعرت بسعادة فما يكون ذلك إلا لفضيلة مستقرة فيك وهي تسهّل اجتياز الصراط عليك

انها لمزية ان تكون للانسان فضائل عديدة ، غير ان تعدد الفضائل يرمي بالانسان الى اشقى الحظوظ . وكم من مجاهدٍ ارهقه النزال في ساحات الفضائل فتوارى لينتحر في الصحراء

اذا كنت ترى المعارك والحروب شروراً فاعلم يا اخي انها شروط لا بد منها لأن للحسد والريبة والشتيمة مقامها المحترم بين فضائلك نفسها . تبصّر ترَ ان كلا من فضائلك تطمح الى المقام الاسمى وتطمع في الاستيلاء على جميع افكارك لتستعبدها وتحصر بها وحدها كل ما في غضبك وبغضائك وحبك من قوة

ان كلاًّ من فضائلك تحسد الاخرى ، والحسد هائل مريع يتناول الفضائل ايضاً فيبيدها

ان من يحيط به لهيب الحسد تنتهي به الحال الى ما تنتهي العقرب اليه فيوجّه حمته المسمومة الى نحره

افما رأيت ، يا اخي ، من الفضائل من تشتم نفسها وتنتحر ؟

ليس الانسان الا كائناً وجب عليه ان يتفوّق على نفسه ، لذلك حقّ عليك ، يا اخي ، ان تحب فضائلك لأنك بها ستفنى

هكذا تكلم زارا . . .

المجرم الشاحب

أفما تريدون ان تُنزلوا القصاص، ايها القضاة والمضحّون، ما لم يهزّ الحيوان رأسه ؟ اليكم رأس المجرم الشاحب، انها لترتعش، وها إنّ افظع احتقار يتكلم في نظراته

ان عينيّ المجرم تقولان لكم : ما الشخصية الا شيء وجب علينا ان نتسامى فوقه، وما شخصيتي الا عظيم احتقاري للبشر

لقد انتهى اجل هذا المجرم عند ما اصدر حكمه على نفسه ، فلا تتركوا لتساميه سبيلاً ينذفع منه الى الانحطاط . عاجلوه بالموت فهو المنفذ الوحيد لمن بلغ عذابه بنفسه هذا الحد البعيد

ليكن قصاصكم ، ايها القضاة رحمة لا انتقاماً . واذا ما حكمتم بالموت فلتكن غايتكم تبرير الحياة . لا يكفيكم ان تقيموا السلم بينكم وبين من تقتلون ، بل يجب ان يكون حزنكم تعبيراً عن ولهكم بالانسان المتفوق . وهكذا تبررون الاستبقاء على انفسكم

قولوا إن هذا الرجل عدوٌّ ولا تقولوا إنه سافلٌ . صفوه بالمرض لا بالدناءة اعتبروه مختلاً لا مجرماً . وانت ايها القاضي لو انك تعلن للملأ ، وانت في برودك الحمراء ، ما ارتكبت من مآتٍ في تفكيرك ، لكنت تسمع الناس يهتفون قائلين : اخلعوا هذا الرجل عن كرسيه فهو ممتلىء اقذاراً وسموماً

ولكنّ الفكرة شيء والعمل شيء آخر ، كما ان شبح العمل شيء مستقل بنفسه ايضاً . فليس بين هذه الاشياء الثلاثة أية علاقة يصح ان تعتبر علاقة العلة بالمعلول

ان شبح الجريمة كان صورة لاحت لهذا الرجل فعلا وجه الاصفرار . لأنه عند ما ارتكب جرمه كانت قوته على مستواها ، ولكنه ما أتمّ الجرم حتى وهنت تلك القوة فلم يستطع ان يتفرّس في شبح جرمه

لقد لاح لهذا الرجل انه ارتكب فعلة واحدة لا غير ، وبذلك يقوم جنونه لأن الشواذ تحوّل الى قاعدة في كيانه . ان الدائرة التي يرسمها الجرم تصبح قيداً لتفكيره كالفرخة يرسم المنوّمُ حولها دائرة فلا تستطيع اجتياز خطّها . وهكذا لا يكاد المجرم يخرج من جرمه حتى يدخل في دائرة جنونه

اصغوا اليّ ، ايها القضاة ، ان الجنون الذي يتلو العمل انما تقدّمه جنون آخر قبله ، وانتم لم تسبروا روح المجرم الى اقصاها

ان القاضي الاحمر يتساءل عن سبب إقدام المجرم على القتل ، فيقول في نفسه ان القاتل اراد السرقة اولاً ، اما انا فأقول ان نفس المجرم لم تقصد السرقة بل طلبت إراقة الدماء ، لأنها كانت ظامئة الى اغماد النصل . ان عقلية المجرم لم تفهم هذا الجنون فاندفع الى ارتكاب جرمه ، وعقليته تناجيه قائلة : ما يهمك ان تريق الدماء ما دام جرمك يوصلك الى السرقة او الانتقام . لقد اصغى المجرم الى صوت عقليته المسكينة لان ما اسرّت به اليه كان ثقيلاً كالرصاص ، فسرق بعد ان قتل لأنه اراد ان يبرّر جنونه ولا يخجل منه

وعاد جرمه فثقل عليه كالرصاص ايضاً ، فثقل عقله المسكين فاستولى عليه التخدّر والشلل . ولو ان هذا المجرم تمكّن من ان ينتفض بهامته لكان تهاوى حمله الثقيل عنه ، ولكن من كان سيهزّ له رأسه يا ترى ؟

لو انك انعمت النظر في هذا الانسان ، لما تجلى لك الا مجموعة علل تتطلع بالعقل الى العالم الخارجي مفتشة عن غنيمة تظفر بها

ليس هذا الانسان الا كتلة أفاعٍ اشتبكت وهي في تدافع مستمر لا تسكن الا لتتفكك منسابة في شعاب الدنيا تسعى وراء غنائمها

انظروا الى هذا الجسم المسكين ! إن روحه الضعيفة طمحت الى استكناه ما في الجسم من الم ورغبات ، فخيّل لها انها متشوقة الى القتل

إن من يتسلط عليه هذا المرض في هذه الايام لتباغته شرورها فيريد ان يعذّب الآخرين بما يتعذب هو به ، غير انه قد مرّ زمان من قبل كان له خير وشر هما غير خير هذه الايام وشرها . ذلك زمان كانت تحتسب فيه شكوك الانسان ومطامعه جرائم عليه ، فكان المبتلى بالشكوك والمطامع يعدّ ساخراً ومنشقّاً عن المجتمع فيعمد هو الى تعذيب الآخرين بعذابه

إنكم لا تريدون الاصغاء الى اقوالي إذ ترونها تلحق الضرر بالصالحين بينكم ولكنني لا اقيم وزناً لرجالكم الصالحين

ان في هؤلاء الرجال من تشمئز منه نفسي ، وليس ما اكره فيهم ما يعدّ من الشرور ، فانني اتمنى لهم جنوناً يوردهم الردى كجنون المجرم الشاحب

والحق انني اريد ان يدعى هذا الجنون حقيقة او اخلاصاً او عدلاً ، لأن

فضيلة هؤلاء الناس لا تقوم الا على إطالة عمرهم لقضائه بالملذّات السافلة ولا ملذة لهم الاّ بالارتياح الى نفوسهم والرضى عنها

ما انا الا حاجز قائم على ضفة النهر ، فمن له قدرة على التمسّك بي فليفعل ،ومن لا طاقة له على ذلك فلا يظنّ اني سأكون طوع يده يقبض عليّ كما يقبض الكسيح على عصاه

هكذا تكلم زارا . . .

القراءة والكتابة

اني استعرض جميع ما كُتب ، فلا تميل نفسي الا الى ما كتبه الانسان بقطرات دمه . اكتب بدمك فتعلم حينئذ ان الدم روح ، وليس بالسهل ان يفهم الانسان دماً غريباً . انني ابغض كلّ قارىء كسول لأن من يقرأ لا يخدم القراءة بشيء ، واذا مرّ قرن آخر على طغمة القارئين فلا بد من ان تتصاعد روائح النتن من التفكير

اذا أعطي لكل انسان الحق في ان يتعلم القراءة ، فلن تفسد الكتابة مع مرور الزمان فحسب ، بل ان الفكر نفسه سيفسد ايضاً

لقد كان الفكر فيما مضى الهاً فتحوّل الى رجل ، وها هو ذا الآن كتلة من الغوغاء . ان من يكتب سُوَراً بدمه لا يريد ان تتلى تلك السور تلاوة ، بل يريد ان تستظهرها القلوب

ان اقرب الطرق بين الجبال انما هو الخط الممتد من ذروة الى ذروة ، ولا يمكنك ان تتبع هذا السبيل إذ لم تكن لك رجلا مارد . يجب ان تكون التعاليم شامخة كهذه الذرى ، وان يكون لمن تُلقّـن لهم قوة الجبابرة وعظمتهم

لقد رقّ النسيم وصفا ، وهذه المخاطر تحدق بي عن كثب ، وفكرتي تتخطر مرحة في قسوتها ، امامي الصراط الممهد فلأتخذنّ من الجن اتباعاً . انا ربّ الجسارة والعزم ، ومن توصل بأقدامه الى طرد الاشباح لا يصعب عليه ان يخلق من الجن له اتباعاً

لقد تاقت شجاعتي الى الضحك ، وقد انقطع كل حبل بيني وبينكم . ان السحب المتمخضة بالعواصف لهي سحبكم السوداء الثقيلة وانا اهزأ الآن بها

انكم تنظرون الى ما فوقكم عند ما تتشوقون الى الاعتلاء ، اما انا فقد

علوت حتى اصبحت اتطلّع الى ما تحت اقدامي . فهل فيكم من يمكنه ان يضحك وهو واقف على الذرى ؟

من يحوِّمْ فوق اعالي الجبال يستهزىء بجميع مآسي الحياة ، ويستهزىء بمسارحها ، بل بالحياة نفسها

تريدنا الحكمة شجعانا لا نبالي بشيء ، تريدنا اشداء مستهزئين ، لأن الحكمة أنثى ، ولا تحب الانثى الا الرجل المكافح الصلب

تقولون لي ان الحياة وقرٌ ثقيل ، فقولوا لي ايضاً لماذا تقابلون الصباح بغروركم ، ثم يجيء المساء فلا يجد فيكم الا المذلة والخضوع ؟

ان الحياة جدّ ثقيلة ، ولكن ما هذا الخوَرُ الذي يبدو عليكم ؟ افلسنا كلنا دواباً ولكل دابة منا وقرها ؟ وهل من شبه بيننا وبين برعم الورد يرتجف متضايقاً لسقوط قطرة الندى عليه !

لا ريب اننا نحب الحياة ، وليس سبب ذلك لأننا تعودنا الحياة ، بل السبب في اننا تعوّدنا حب الحياة

ان في الحب شيئاً من الجنون ، ولكن في الجنون شيئاً من الحكمة . وانا نفسي التائق الى الحياة يتراءى لي ان خيرَ من يُدْرِك السعادة انما هي الفراشات وكرّات الصابون الفارغة ، ومن يشبهها من الناس . ولا شيء يُبكي زارا ويدفعه الى الانشاد كنظره الى هذه الارواح الصغيرة الخفيفة الرائعة الدائمة الخفقان في جنونها

ان الاله الذي يمكنني ان اؤمن به انما هو الاله الذي يمكنه ان يرقص

عند ما تراءى لي الشيطان رأيته جامداً مستغرقاً ملؤه الجد والجلال ، فقلت هذا هو الروح الثقيل الذي تتساوى جميع الحالات لديه

اذا اردت القتل فلا تستعن بالغضب ، بل استعن بالضحك .فهيّا بنا نقتل الروح الثقيل

إنني ما زلت راكضاً منذ تعلمت المشي . وهأنذا اطير الآن ولست بحاجة الى من يدفعني لأتحرك

لقد اصبحت خفيفاً ، فأنا اطير مشعراً بأنني احلّق فوق ذاتي وان الهاً يرقص في داخلي

هكذا تكلم زارا . . .

دوحة الجبل

وارتقى زارا ذات مساء الربوة المشرفة على مدينة (البقرة الملونة) فالتقى هنالك فتىً كان يلحظ فيما مضى صدوده عنه، وكان هذا الفتى جالساً الى جذع دوحة يرسل الى الوادي نظراتٍ ملؤها الاسى، فتقدم زارا وطوّق الدوحة بذراعيه وقال: — لو انني أردت هزّ هذه الدوحة بيدي لما تمكنت. غير أن الريح الخفية عن اعيننا تهزها وتلويها كما تشاء. هكذا نحن تلوينا وتهزّنا ايادٍ لا تُرى

فنهض الفتى مذعوراً وقال: هذا زارا يتكلم! وقد كنت موجهاً افكاري اليه

فقال زارا: ما يخيفك يا هذا؟ أليس للانسان وللدوحة حالة واحدة؟ فكلما سما الانسان الى الاعالي، الى مطالع النور، تذهب اصوله غائرة في اعماق الارض، في الظلمات والمهاوي

. فصاح الفتى: أجل! اننا نغور في الشرور، ولكن كيف تسنّى لك ان تكشف خفايا نفسي؟

فابتسم زارا وقال: ان من النفوس من لا نتوصل الى اكتشافها الا باختراعها اختراعاً

وعاد الفتى يكرر قوله: اجل اننا نغور في الشرور. قلت حقاً يا زارا، لقد تلاشت ثقتي بنفسي منذ بدأت بالطموح الى الارتقاء فحرمت ايضاً ثقة الناس، فما هو السبب يا ترى؟ انني اتحوّل بسرعة فيدحض حاضري ما مضى من ايامي. ولكم حلّقتُ فوق المدارج اتخطاها وهي الآن لا تغتفر لي اهمالي. انني عندما ابلغ الذروة اراني دائماً منفرداً وليس قربي من يكلمني، ويلفحني القرّ في وحدتي فترتجف عظامي، وما ادري ماذا اتيت اطلب فوق الذرى!

ان احتقاري يساير رغباتي في نموّها، فكلما ازددت ارتفاعاً زاد احتقاري للمرتفعين فلا ادري ما هم في الذرى يقصدون. ولكم اخجلني سلوكي متعثراً على المرتقى، ولكم هزأت بتهدّج انفاسي. انني اكره المنقضين للطيران. فما اتعب الوقوف على الذرى العالية!

ونظر زارا الى الدوحة يتكيء الفتى عليها ساكتاً فقال: ان هذه الدوحة ترتفع منفردة على القمة وقد نمت وتعالت فوق الناس وفوق الحيوانات، فاذا

هي ارادت ان تتكلم الآن بعد بلوغها هذا العلو فلن يفهم أقوالها احد . انها انتظرت ولم تزل تتعلل بالصبر ، ولعلها وقد بلغت مسارح السحاب تتوقع انقضاض أول صاعقة عليها

فهتف الفتى متحمساً : نطقت بالحق ، يا زارا انني اتجهت الى الاعماق وانا اطلب الاعتلاء ، وما انت الا الصاعقة التي توقعتها . تفرّس فيّ ، وانظر الى ما آلت اليه حالتي منذ تجليت لنا ، فما انا الا ضحية الحسد الذي استولى عليّ

وكانت الدموع تنهمر من مآقي الفتى وهو يتكلم ، فتأبط زارا ذراعه وسار به على الطريق . وبعد أن قطعا مسافة منها قال زارا : — لقد تفطّر قلبي ، ان في عينيك ما يفصح باكثر من بيانك عما تقتحم من الأخطار . انك لمّا تتحرر يا أخي ، بل ما زلت تسعى الى الحرية ، وقد اصبحت في بحثك عنها مرهف الحس كالساهر في منامه

انك تريد الصعود مطلقاً من كل قيد نحو الذرى ، فقد اشتاقت روحك الى مسارح النجوم ، ولكن غرائزك السيئة نفسها تشتاق الحرية ايضاً

ان كلابك العقورة تطلب حريتها ، فهي تنبح مرحة في سراديبها ، على حين ان عقلك يطمح الى تحطيم ابواب سجونك كلها . وما اراك بالطليق الحر فأنت لم تزل سجيناً يتوق الى حريته ، وأمثال هذا السجين تتصف ارواحهم بالحزم غير انها تصبح وا أسفاه مراوغة شريرة

على من حرّر عقله ان يتطهّر مما تبقّى فيه من مادة كبت العواطف والتلطخ بالاقذار ، لتصبح نظراته برّاقةً صافية . انني لا اجهل الخطر المحدق بك ، لذلك استحلفك بحبي لك واملي فيك الا تطرّح عنك ما فيك من حب ومن امل

انك لم تزل تشعر بالكرامة ولم يزل الناس يرونك كريماً بالرغم من كرههم لك وتوجيههم نظرات السوء اليك ، فاعلم ان الناس لا يبالون بالكرماء يمرون بهم على الطريق ، غير ان اهل الصلاح يهتمون بهم ، فاذا ما صادفوا في سبيلهم من يتشح الكرامة دعوه رجلاً صالحاً ليتمكنوا من القبض عليه لاستعباده

ان الرجل الكريم يريد ان يبدع شيئاً جديداً وفضيلة جديدة ، على حين ان الرجل الصالح لا يحنّ الا الى الاشياء القديمة ، وجل رغبته تتجه الى الابقاء عليها

لا خطر على الرجل الكريم من ان ينقلب رجل صلاح ، بل كل الخطر عليه في ان يصبح وقحاً هدّاماً

لقد عرفت من الناس كراماً دلّت طلائعهم على انهم سيبلغون اسمى الاماني ، فما لبثوا حتى هزأوا بكل امنية سامية ، فعاشوا تسير الوقاحة امامهم ، وتموت رغباتهم قبل ان تظهر فما اعلنوا في صبيحتهم خطة الا شهدوا فشلها في المساء

قال هؤلاء الناس : ما الفكرة الا شهوة كغيرها من الشهوات

وهكذا طوت الفكرة فيهم جناحيها فتحطما ، وبقيت هي تزحف زحفاً وتدنّس جميع ما تتصل به

لقد فكّر هؤلاء الناس من قبل ان يصيروا ابطالاً ، فما تسنّى لهم الا ان يصبحوا متنعمين ، يحزنهم شبح البطولة ويلقي الخوف في روعهم

استحلفك بحبي لك واملي فيك الاّ تدفع عنك البطل الكامن في نفسك اذ عليك ان تحقق اسمى امانيك

هكذا تكلم زارا . . .

المنذرون بالموت

ما اكثر المنذرين بالموت ! والعالم مليء بمن تجب دعوتهم الى الإعراض عن الحياة

ان الارض مكتظّة بالدخلاء وقد افسدوا الحياة ، فما اجدرهم بان تستهويهم الحياة الابدية ليخرجوا من هذه الدنيا

لقد وُصف المنذرون بالموت بالرجال الصفر والسود ، ولسوف اصفهم انا فينكشفون عن الوان اخرى ايضاً

انهم لاشد الناس خطراً ، اذ كمن الحيوان المفترس فيهم ، فغدوا ولا خيار لهم الا بين حالتين ، حالة التحرّق بالشهوة وحالة كبتها بالتعذيب . وما شهوتهم الا التعذيب بعينه . ان هؤلاء المسوخ لم يبلغوا مرتبة الانسانية بعد ، فليبشّروا بكُره الحياة ، وليقلعوا عن مرابعها

هؤلاء هم المصابون بسلّ الروح ، فانهم لا يكادون يولدون للحياة حتى يبدأ موتهم ، وقد شاقتهم مبادىء الزهد والملال

يود هؤلاء الناس ان يُدرَجوا في عداد الاموات ، فعلينا ان نحبّذ ارادتهم

ولنحترس من ان نعمل على بعث هؤلاء الاموات وعلى تشويه هـذه النعوش المتحركة

اذا هم صادفوا مريضاً او شيخاً او جثة ميت ، فانهم يقولون — لقد انتفت الحياة ، ولو انصفوا لقالوا انهم هم نفي للحياة ، وان عيونهم دحض لها لانها لا تتجه الا الى مظهر واحد من مظاهر الوجود

هم يتلفّعون برداء وسيع من الأسى ويتشوّقون الى الحوادث التي تجر وراءها الموت . ولـكنهم يتوقعون الموت واسنانهم تصطك فرقا . غير انهم في الوقت نفسه يمدون ايديهم الى ما لذّ وطاب هازئين ، فـكأن الحياة قشة يهزأون بها ولـكنهم يحرصون عليها . ان حكمة هؤلاء الناس تهتف قائلة (الحياة جنون ، افظع منه التمسك بالحياة . وقد بلغ الجنون بنا هذا الحد الفظيع)

يقولون ان الحياة آلام ، انهم يقولون حقاً ، فلماذا لا يضعون حداً لهذه الحياة ان لم يكن فيها سوى العذاب ؟ تلك تعاليم ترمي الى وجوب الانتحار ، فيقول البعض وهو يدعو الى الموت : ان الملاذ الجنسية خطيئة فيجب الامتناع عنها والاضراب عن التوليد . ويقول البعض الآخر : ان الولادة مؤلمة ، فعلامَ تلد النساء وهنّ لا يقذفن الى الوجود الا بالاشقياء ؟ وهذه الفئة هي ايضاً من المنذرين بالفناء

وتقول لك فئـة اخرى : ان الرحمة لازمة فخذ ما تملك ، بل خذ ما تتكوّن شخصيتنا منه ، فان فعلت فانك تقطع من الأسلاك التي تشد بنا الى الحياة . ولو أن رحمة هذه الفئة من الناس تتغلغل في صميم ذاتهم لـكانوا يبذلون الجهد في سبيل دفع سواهم الى كره الحياة . ليستمرّ هؤلاء النـاس على ما هم عليه ، لان رحمتهم الحقيقية كامنة في ايقاع الاذى

ان ما يقصد هؤلاء الناس انما هو التملص من تكاليف البقـاء فلا يهمهم إن هم القوا باغلالهم على الآخرين

وانتم أيضاً ، ايها المتحمّلون من الدنيا همومها وجهودها المرهقة ، أفما تعبتم من الحياة ؟ أفما أنضجت المحنُ نفوسكم لتقوم هي ايضاً منذرة بالموت ؟

أنتم يا من تحبون الاعمال الوحشية وكل حادث يمتعكم بكل جديد وغريب سريع الزوال ! لقد ضقتم ذرعا بانفسكم فما تتهالـكون في العمل إلا تهرّباً من الحياة وطلباً للاستغراق لتصلوا بذاتكم الى نسيـان ذاتها . ولو كنتم أشد ايماناً

بالحيـاة لما كنتم تستسلمون هذا الاستسلام الـكامل لحاضركم . لقد خلت سرائركم من القوة اللازمة للانتظـار ، بل خلت ممـا يستلزم كسلكم نفسه من جَـلَد

ان صوت المنذرين بالموت يدوي في كل مكان ، والعالم مكتظٌّ بمَن وجبت دعوتهم الى الموت أو بالحرى الى الحياة الابدية ، ولا فرق عندي بين ذاك وهذه اذا كان هؤلاء الناس يسارعون الى اخلاء الارض

هكذا تـكلم زارا ...

الحرب والمحاربون

لا نريد ان يراعينا خيرة اعدائنا ، كما لا نريد ايضاً ان يراعينا من نحبهم من صميم الفؤاد

دعوني أُعلن لـكم الحقيقة

إنى احبكم من صميم الفؤاد ، ايها الرفاق في المعارك ، فما انا الآن الا ، كما كنت في الامس ، جندي مثلـكم ، فانا اذن من خيار اعدائكم . دعوني أعلن الحقيقة لـكم

انى عارف ما في قلوبكم من حقد وحسد ، فأنتم من العظمة بحيث لا يمكنكم ان تتجاهلوا الحقد والحسد ، فلتكن عظمتكم رادعة لـكم عن الخجل بما في قلوبكم . واذا امتنع عليكم ان تكونوا اولياء في معرفة الحق فكونوا على الاقل جنوداً يكافحون من اجل هذه المعرفة ، وما المـكافحون الا طليعة الاولياء

لقد كثر عدد الجنود فليتني ارى مثل هذا العدد من المحاربين ، وعسى الاّ تكون سرائرهم على طراز واحد كالألبسة التي يرتدونها

لتكن انظاركم منطلقة تفتش على عدو لـكم ، وقد لاحت في لمعاتها بوادر البغضاء . عليكم أن تجدوا العدو لتصلوا معه حرباً تناضلون فيها من اجل افـكاركم ، حتى اذا سقطت هذه الافكار في المعترك ، ينتصب اخلاصكم هاتفاً بالظفر

أحبوا السلام كوسيلة لتجديد الحروب ، وخير السلام ما قصرت مدته . انني لا اشير عليكم بالسلم ، بل بالظفر . فليكن عملـكم كفاحاً وليكن سلمكم ظفراً

لا اطمئنان في الراحة اذا لم تكن السهام مسددة على اقواسها . وما راحة الاعزل الا مدعاة للثرثرة والجدال . فليكن سلمكم ظفراً . . .

تقولون ان الغاية المثلى تبرر الحرب ، اما أنا فأقول لكم ان الحرب المثلى تبرر كل غاية ، فقد اتت الحروب والإقدام بعظائم لم تأت بمثلها محبة الناس ، وما انقذ الضحايا حتى الآن الاَّ إقدامكم لا إشفاقكم

انكم تتساءلون عن الخير ، وما الخير الا الاتصاف بالشجاعة ، فدعوا صغيرات الاطفال يقلن : (ان الخير في اللطف والجمال)

يقولون ان لا قلوب لكم ، ذلك لأن قلوبكم تنبض بالاخلاص ، وأنا احب تواضعكم واخلاصكم . إنكم تستحون لأن امواجكم تندفع في مدِّها ، وسواكم يخجل من تراجعها في جزرها

ان قبحكم مريع ، فتدثروا به أيها الأخوة ، لأن في دثار القبح ما ليس في سواه من الروعة والبهاء

ان النفس لتقف صاخبة عند ما تعتلي ، والقسوة كامنة في اعتلائكم ، فما خفيت حالكم عني . ففي ميدان القسوة يلتقي الشديد العزم بمنهوك القوى فلا يمكنهما ان يتفاهما — انني اعرف من انتم

اذا ظفرتم بعدو فصبوا عليه بغضكم ، وحاذروا ان تصبوا عليه احتقاركم ، فما عدوكم الا مدعاة مباهاتكم ، فاذا عملتم بوصيتي يصبح انتصاره انتصاراً لكم ايضاً

ان الثورة مفخرة للعبيد ، فليكن افتخاركم انتم قائماً على طاعتكم . وليكن امر الآمر فيكم جزءاً من هذه الطاعة نفسها . ان المحارب الصادق يفضِّل ما يجب عليه على مايريده . فعليكم ان توجهوا ما تؤمرون به الى هدف رغباتكم . وليكن حبكم للحياة تعبيراً عن اسمى امانيكم ، ولتكن هذه الاماني عبارة عن ارفع فكرة في الحياة . وما ارفع فكرة لكم ، وانا استميحكم ابداءها لكم كأمر ، الاَّ هذه القاعدة : (ما الانسان الا كائن يجب ان نتفوّق عليه)

على هذا الوجه تمر حياتكم بالطاعة والجهاد ، فما يهمكم اطالت الحياة ام قصرت فليس من محارب يطلب ان يُعامل بالمراعاة

لقد قلت لكم الحق بلا محاباة لأنني احبكم من صميم الفؤاد ، ايها الاخوة في السلاح

هكذا تكلم زارا ...

الصنم الجديد

لم يزل في بعض الاماكن من الارض شعوب وجامعات ، اما نحن فليس عندنا سوى حكومات وما ادراكم ما هي الحكومات ؟

أعيروني اسماعكم لاخاطبكم عن موت الشعوب : — ليست الحكومة إلا أبرد مسخ بين المسوخ الباردة ، فهي تكذب بكل رصانة اذ تقول : « انا الحكومة انا الشعب »

إياكم وتصديق ماتقول ، فما كوّن الشعوبَ الا المبدعون الذين نشروا الايمان والمحبة ، فأتوا بأجل خدمة للحياة . وما الناصبون الاشراك للجموع الغفيرة الاّ مَن يهدمون كيانها ليشيدوا الحكومات على انقاضها ، ويعلقوا نصلاً قاطعاً فوق رأس الشعب ، وينصبوا مئات الشهوات امام عينه

ان الشعب ، حيث بقي له مرتع على الارض ، لا يفهم ما هي الحكومة ، بل هو ينفر منها كما ينفر من العين الساحرة ، ويراها شذوذاً هادماً للشرائع والتقاليد. واليكم الدليل : ان لكل شعب بيانه عن الخير والشر ، وجيرة هذا الشعب لاتفهم هذا البيان الذي اوجده لنفسه محدداً به شرائعه وتقاليده ، على حين ان الحكومة تكذب في جميع تعابيرها عن الخير والشر ، فليس ما تقوله الا كذباً ، وليس ما تملكه إلا نتاج سرقتها واختلاسها

ان كل ما للحكومة مزيّف ، فهي تنهش بأسنان مستعارة ، واحشاؤها مُختلَقةٌ اختلاقاً ، وما شعارها الا « البيان المبهم المشوّش عن الخير والشر » فهي تتجه به نحو الفناء ، وتقوم بنشره بدعوة صريحة للمنذرين بالموت

إن عدد من يدخلون الدنيا قد تجاوز الحد ، وما أوجدت الحكومة الا لخدمة الفضوليين الدخلاء على الحياة . انظروا الى هذه الحكومة كيف تجتذب اليها الدخلاء فتضمهم الى صدرها وتشبعهم عناقاً وتقبيلا . اسمعوها تهدر قائلة :

— ليس أعظم مني على وجه الغبراء ، فأنا يد الالوهية المنظِّمة

وعندما تهتف هذا الهتاف ، تتهاوى الركاب جاثية ، وبين الراكعين كثيرٌ من غير طوال الآذان وقصار النظر

ان هذه الاكاذيب تجد مصدِّقين لها وا أسفاه حتى بينكم انتم ، يا من تجول فيكم النفوس الأبية ، لان الحكومة تعرف ان تدغدغ قلوبكم الطامحة بالمكارم الطامحة الى الجود ، انها لتخترق سرائركم ، انتم ايضاً ، يا من تغلبتم على الالوهية القديمة ، فهي تعرف انكم تعبتم من الكفاح فتستخدم ملالكم لعبادة الصنم الجديد

انه لصنمٌ يتمنى ان يحيط به الابطال وفضلاء الرجال ، انه لمسخ بارد يريد ان يدفأ بشمس الضمائر المشعَّة المشرقة

انه ليمنحكم كل شيء اذا انتم سجدتم له . فهذا الصنم الجديد يشتري لمعان فضائلكم وما في لفتاتكم من عزة وكرامة . انه في حاجة اليكم ليجتذب اليه العدد الفائض من الدخلاء على الحياة ، فهنالك البرج الجهنمي ، وهنالك جياد الموت تقرقع بعُدَدِها حاملة شارات المراتب والامجاد ، اجل ذلك هو اختراع الموت أتى به للجموع ليحصدها حصداً وهو يباهي بأنه هو الحياة ، والمنذرون بالموت يرون بفعلته خير خدمة لمبادئهم

حيث يكرع الجميع السموم ويضيّع كل انسان نفسه صالحاً كان او طالحاً ، هنالك تقوم الحكومة لانها تسود كل مكان يوصف فيه الانتحار البطيء بالحياة .

انظروا الى هؤلاء الدخلاء . انهم يختلسون ثمرة جهود المخترعين وكنوز الحكماء ويدعون هذا الاختلاس تمدناً ، غير ان كل شيء يصبح ادواء ومصاعب تحت سلطانهم . انظروا الى هؤلاء الدخلاء وليس فيهم الا الأعلَّاء ينفثون غسلين مرائرهم ، وينتحلون صفة الصحافيين ... انهم يتناهشون ويلتهم بعضهم البعض الآخر وليس لهم قوَّة على هضم ما يلتهمون

انظروا الى هؤلاء الدخلاء ، انهم يحشدون الاموال ، وكلما ازدادت ذخائرهم زاد فقرهم ، فانهم يطمحون الى الاستيلاء على القوة فيبدأون بالقبض على محركها الأول : على الاموال الطائلة ، وما هم الا الدخلاء العاجزون

انظروا اليهم ! انظروا الى هؤلاء القرود يتسلَّق بعضهم البعض الآخر فيتدافعون متمرغين في الأوحال على الشفير . ان كلا منهم يطمح الى التقرب من العرش ، وقد عراهم جنون التوصل اليه ، فكأن لا سعادة الا على مقربة منه ،

وقد يرتفع رشاش الاوحال الى العرش كما ينزلق العرش نفسه الى الاوحال (١)

انني اراهم وقد جن جنونهم ، قروداً لا تسكن لهم حركة وهم يتسلقون قاعدة صنمهم البارد وقد انبعثت منه ومنهم أكره الروائح واخبثها

أفيحلو لكم ، أيها الاخوة ، أن يخنقكم ما يتبخر من أشواق هؤلاء المسوخ؟ حطموا النوافذ واقفزوا منها لتنجوا بانفسكم

حاذروا هذه الابخرة الخانقة وابتعدوا عن عبادة الاصنام فانها دين الدخلاء على الحياة . حاذروا هذه الابخرة وأعرضوا عن هذه الضحايا البشرية

لم يزل حتى الآن مجال تسعى في رحبه النفوس الكبيرة نحو الحرية في الحياة ، ولم تخلُ الارض من أماكن يلجأ اليها المنعزل منفرداً أو مزدوجاً حيث تهبُّ نسمات البحر الهادئة . فان الحياة الحرة لم تزل تفتح أبوابها لكبار النفوس ، والحق أن من يملك القليل من حطام الدنيا لايناله إلا اليسير من تحكم المتسلطين . فطوبى لصغار الفقراء !

لا يظهر الانسان الاصيل في الحياة الا حيث تنتهي حدود الحكومات ، فهنالك يتعالى نشيد الضرورة بنغماته المحررة من كل مطاوعة وتقييد

هنالك عند آخر حدود الحكومات ، قفوا وتطلعوا ، يا اخوتي ، أفما ترون تحت قوس قزح المعبر الذي يجتازه الانسان المتفوق ؟

هكذا تكلم زارا . . .

حشرات المجتمع

سارع الى عزلتك ، يا صديقي ، فقد اورثك الصداع صخبُ عظماء الرجال ، وآلمتك وخزات صغارهم . إن جلال الصمت يسود الغاب والصخور أمامك ، فعد كما كنت شبيهاً بالدوحة التي تحب ، الدوحة الوارفة الظل المشرفة على البحر مصغية في صمتها الى هديره

---

(١) لا يغرب عن القارىء الكريم ان نيتشه يعالج في هذا الفصل القضية الكبرى في مدنية الغرب ، وقد نشأت من استخدام أصحاب الاموال لنتاج عبقرية المخترعين وجهود المكتشفين في سبيل حشد الثروات الطائلة والتسلط بها على الحكومات . وقد أصبحت مدنية الغرب من هذا الوضع الشاذ في حلقة مفرغة تبتدىء حيث تنتهي بين ملوك الحكومات وملوك المال وليس ، والحمد لله ، في الشرق أمثال لهؤلاء الملوك

على أطراف حقول العزلة تبدأ حدود الميادين حيث يصخب كبار الممثلين ويطنّ الذباب المسموم. لا قيمة لخير الأشياء في العالم إن لم يكن لها من يمثّلها، والشعب يدعو ممثليه رجالاً عظاماً، إنه يسيء فهم العظمة المبدعة، فيبتدع من نفسه المعاني التي يجمّل بها ممثليه والقائمين بالأدوار الكبرى على مسرح الحياة

إن العالم يدور دورته الخفية حول موجدي السنن الجديدة. وحول لاعبي الأدوار على مسرح الحياة يدور الشعب وتدور الأمجاد، وعلى هذه الوتيرة يسير العالم.

ان للاعب الأدوار ذكاءه، ولكنه لا يدرك حقيقة هذا الذكاء لانصباب عقيدته الى كل طريقة توصله لخير النتائج والى كل أمر يدفع بالناس الى وضع ثقتهم به

غداً سيعتنق هذا الرجل عقيدةً جديدة، وبعد غدٍ سيستبدل بها أجدّ منها. ففكرته تشبه الشعب تذبذباً وتوقُّداً وتقلباً

ان ممثل الشعب يرى بالتحطيم برهانه، وبايقاد النار حجّته، وبإراقة الدماء أفضل حجّة وأقوى دليل. إنه ليعتبر هباء كل حقيقة لا تسمعها الا الآذان المرهفة، فهو عبد الآلهة الصاخبة في الحياة

ان ميدان الجماهير يغصّ بالغوغاء المهرّجين، والشعب يفاخر بعظماء رجاله فهم أسياد الساعة في نظره. ولكنّ الساعة تتطلب السرعة من هؤلاء الأسياد، فهم يزحمونك، يا أخي، طالبين منك اعلان رفضك أو قبولك، والويل لك اذا وقفت حائراً بين (نعم) وبين (لا)

واذا كنت عاشقاً للحقيقة فلا يغرّنك أصحاب العقول الرعناء المتصلّبة، وما كانت الحقيقة لتستند يوماً الى ذراع أحد هؤلاء المتصلّبين

دع المشاغبين وارجع الى مقرّك، فما ميدان الجماهير الا معترك يهدد سلامتك بين خنوع (نعم) وتمرد (لا). ان تجمّع المياه في الينابيع لا يتم الا ببطء، وقد تمرّ أزمان قبل ان تدرك الجاري ما استقر في أغوارها

لا تقوم عظمة الا بعيداً عن ميدان الجماهير وبعيداً عن الأمجاد، وقد انتحى الأماكن القصيّة عنها مَن أبدعوا السنن الجديدة في كل زمان

اهرب، ياصديقي، الى عزلتك. لقد طالت إقامتك قرب الصعاليك والأدنياء، لا تقف حيث يصيبك انتقامهم الدسّاس وقد أصبح كل همهم ان ينتقموا منك.

لا ترفع يدك عليهم فأن عددهم لا يحصى ، وما قُدِّر عليك أن تكون صياداً للحشرات . إنهم لصغار أدنياء ولكنهم كثرة . ولكم أسقطت قطرات المطر وطفيليات الأعشاب من صروحٍ شامخات . ما أنت بالصخرة الصلدة ، ولشدَّ ما فعلت بك القطرات ، ولسوف يتوالى ارتشاقها عليك فتصدعك وتحطمك تحطيما .

لقد أرهقتك الحشرات السّامة نخدّشت جلدك وأسالت منه الدماء ، وأنت تتحصن بِكِبْرك لتكظم غيظك ، وهي تودّ لو أنها تمتصُّ كل دمك معتبرة أن من حقها ان تفعل لأن دمها الضعيف يطلب دماً ليتقوّى ، فهي لا ترى جناحاً عليها إِذ تُنشب حُمتها في جلدك . ان هذه الجروح الصغيرة لتذهب بالألم الى مدى بعيد في حسّك المرهف ، فتتدفق صديداً يرتعيه الدود . أراك تتعالى عن ان تمدّ يدك لقتل هذه الحشرات الجائعة ، فحاذر ان يجول سمُّ استبدادها في دمك

ان هؤلاء المشاغبين يدورون حولك بطنين الذباب ، فهم يرفعون اناشيدهم تزلفاً اليك ليتحكموا في جلدك ودمك . انهم يتوسلون اليك ويداهنونك كما يداهنون الآلهة والشياطين ، فيحتالون عليك بالملاطفة والثناء ، وما يحتال غير الجبناء

انهم يفكرون بك كثيراً في سرهم فيلقون الشكوك عليك ، وكل من يفكر الناس به كثيراً تحوم حوله الشبهات

انهم يعاقبونك على كل فضيلة فيك ولا يغتفرون لك من صميم فؤادهم الاّ ما ترتكب من اخطاء . انك لكريم وعادل ، لذلك تقول في قلبك : « ان هؤلاء الناس ابرياء وقد ضاقت عليهم الحياة » ولكن نفوسهم الضيقة تقول في نجواها : « ان كل حياة عظيمة انما هي حياة مجرمة » ويشعر هؤلاء الناس بأنك تحتقرهم عند ما تشملهم بعطفك ، فيبادلونك عطفك بالسيئات . انك لتصدعهم بفضيلتك الصامتة فلا يفرحون الا عند ما يتناهى تواضعك فيستحيل غروراً . ان الناس يطمحون بالطبع الى إلهاب كل عاطفة تبدو لهم ، فاحذر الصعاليك لأنهم يحسُّون بصغارهم امامك فيتحمّسون حتى ينقلب احساسهم كرهاً وانتقاماً .

أفما شعرت انهم يخرسون عند ما تطلع عليهم ، فتبارحهم قواهم كما يبرح الدخانُ النار اذا همدت

أجل ياصديقي ، ما انت الا تبكيتٌ في ضمائر ابناء جلدتك لأنهم ليسوا أهلا لك ، فهم لذلك يكرهونك ويودون امتصاص دمك .

ان ابناء جلدتك لن يبرحوا كالحشرات المسمومة لأن العظمة فيك ستزيد أبداً في كرههم لك

الى عزلتك ، ياصديقي ، الى الأعالي حيث تهبُّ رصينات الرياح ، فانك لم تخلق لتكون صياداً للحشرات

هكذا تكلم زارا ...

العفــــة

أُحب الغاب ، فما تسهل حياة المدن عليّ وقد كثر فيها عبيد الشهوات الثائرات .

لخيرٌ ان يقع الرجل بين براثن سفاحٍ من ان تحدق به أشواق امرأة جامحة ملتهبــة .

انك اذا ما تفرست في رجال المدن ، لتشهد لك نظراتهم بأنهم لا يرون في الارض شيئاً يفضل مضاجعة امرأة ...

في أغوار أرواحهم ترسب الأقذار ، واشقاهم من تمرّغ عقله بأقذاره

ليتك حيوان اكتملت حيوانيتــه على الاقل ، ولكن أين منك طهارة الحيوان ؟ ما انا بالمشير عليك بقتل حواسك ، ان ما أوجبه انما هو طهارة هذه الحواس

ما أنا بالمشير عليك بالعفّة ، لأنها اذا كانت فضيلة في البعض فانها لتكاد تكون رذيلة في الآخرين . ولعل هؤلاء يمسكون عن التمتــع ، غير ان شبَقهم يتجلى في كل حركة من حركاتهم

ان كلاب الشهوة تتبع هؤلاء المسكين حتى الى ذرى فضيلتهم فتنفــذ الى اعماق تفكيرهم الصارم لتشوش عليه سكينته ، ولكلاب الشهوة من مرونة الزلفى ما تتوسل به الى نيل قطعة من الدماغ المفكر اذا مُنعت قطعة اللحم عنها ...

انكم تحبون المآسي وكل ما يفطّر القلوب ، اما أنا فلا اثق بكلاب شهواتكم لأن نظراتكم الرصينة تمتلىء شهوة عند ما تقع على المتألمين ، وقد تنكّر الشبقُ فيكم فدعوتموه إشفاقاً . واني لأضرب لكم مثلاً على هذا حالة العدد الوفير ممن

أرادوا طرد الشياطين فدخلوا هم في الخنازير بدلاً منها

اذا ما ثقلت العفة على احد منكم فعليه ان يعرض عنها كيلا تنبسط امامه سبيلاً الى الجحيم ، جحيم اقذار النفس ونيرانها

لعلكم ترون بذاءة في كلامي ، اما انا فأرى البذاءة حيث لا ترونها أنتم

ليست البذاءة في قذارة الحقيقة ، بل هي في تدنيها وإسفافها ، وطالب المعرفة يأنف من الانحدار الى مهاويها

ان من الناس من دخلت العفة قلوبهم فلانت هذه القلوب لها . أولئك هم الضاحكون وفي ابتسامهم ما ليس في ابتسامكم من إخلاص . انهم يهزأون بالعفة ويتساءلون عما يمكن ان تكون

أفليست العفة غروراً ؟ أفليست هي التي جاءت الينا ولم نذهب نحن اليها ؟

لقد فتحنا قلبنا لها فاستقرت ضيفاً ثقيلا فيه ، فليبقَ هذا الضيف نازلاً فينا ما طاب له المقيل

هكذا تكلم زارا ...

الصديق

يقول المنفرد في نفسه (لا أطيق وجود أحد بقربي) ولكثرة ما يقف محدقاً في ذاته تظهر التثنية فيه ، ويقوم الجدال بين شخصيته وبين ذاته فيشعر بالحاجة الى صديق . وما الصديق للمنفرد الا شخص ثالث يحول دون سقوط المتجادلين الى الأغوار كما تمنع المنطقة المفرغة غرق العائمين

ان اغوار المنفرد بعيدة القرار ، فهو بحاجة الى صديق له أنجاده العالية ، فثقة الانسان في غيره تقوده الى ثقته بنفسه ، وتشوقه الى الصديق ينهض افكاره من كبواتها

كثيراً ما يقود الحب الى التغلب على الحسد ، وكثيراً ما يطلب الانسان الاعداء ليستر ضعفه ويتأكد امكانه مهاجمة الآخرين

من يطمح الى اكتساب الصديق وجب عليه ان يستعد للكفاح من أجله ولا يصلح للكفاح الا من يمكنه ان يكون عدواً . يجب على المرء ان يحترم عداءه في صديقه ، اذ لا يمكن لك ان تقترب من قلب صديقك الا حين تهاجمه وتحارب شخصيته

انت تريد الظهور امام صديقك على ما انت عليه هاتكاً كل ستر عن خفايا نفسك ، فلا تعجب اذا رأيت صديقك يعرض عنك ويقذف بك الى بعيد

من لايعرف المصانعة يدفع بالناس الى الثورة عليه ، فاحذر العري ، ياهذا ، لأنك لست الهاً ، والآلهة دون سواهم يخجلون من الاستتار

عليك بارتداء خير لباس امام صديقك ، لتهيب به الى طلب المثل الأعلى : الانسان المتفوق

أفما تفرّست يوماً في وجه صديقك وهو نائم لترى حقيقته ؟ أفما رأيت ملامحه اذ ذاك كأنها ملامحك انت منعكسة على مرآة مبرقعة معيبة ؟ افما ذعرت لمنظر صديقك وهو مستسلم للكرى ؟

ما الانسان ، ايها الرفيق ، الا كائن وجب عليه ان يتفوّق على ذاته ، وعلى الصديق ان يكون كشافاً صامتاً ، فامسك عن النظر علناً الى كل شيء ما دمت قادراً في غفلتك على كشف كل ما يفعله صديقك في انتباهه . عليك ان تحلّ الرموز قبل ان تعلن اشفاقك ، فقد ينفر صديقك من الاشفاق ويفضل ان يراك مقنّعاً بالحديد وفي عينيك لمعان الخلود

ليكن عطفك على صديقك متشحاً بالقسوة وفيه شيء من الحقد ، فيبدو هذا العطف مليئاً بالرقة والظرف

كن لصديقك كالهواء الطلق والعزلة والغذاء والدواء ، فان من الناس مَن يعجز عن التحرر من قيوده ولكنه قادر على تحرير اصدقائه

دع الصداقة اذا كنت عبداً ، واذا كنت عاتياً فلا تطمح الى اكتساب الأصدقاء .

لقد مرّت أحقاب طويلة على المرأة كانت فيها مستبدّة او مستعبَدة فهي لم تزل غير أهل للصداقة ، فالمرأة لا تعرف غير الحب

ان حب المرأة ينطوي على تعسّف وعماية تجاه من لا تحب ، واذا ما اشتعل بالحب قلبها فان انواره معرّضة ابداً لخطف البروق في الظلام ...

لم تبلغ المرأة بعد ما يؤهلها للوفاء كصديقة ، فما هي إلا هرّة ، وقد تكون عصفوراً ، واذا هي ارتقت اصبحت بقرة ...

ليست المرأة اهلاً للصداقة ، ولكن ليقل لي الرجال مَن هو اهل للصداقة

بينهم ؟ إن فقر روحكم وخساستها يستحقان اللعنة ايها الرجال ، لأن ما تبذلونه لأصدقائكم يمكنني ان ابذله لأعدائي دون ان ازداد فقراً

انكم لا تتخذون الا الأصحاب ، فاي متى تسود الصداقة بينكم ؟

ألف هدف وهدف

لقد شاهد زارا كثيراً من البلدان وكثيراً من الشعوب ، فنفذ الى حقيقة الخير والشر ، وعرف ان لا قوة في العالم تفوق قوتهما

تحقق ان ليس على الارض من شعب تحلو له الحياة دون ان يُخضع النُظم والسُنن لتقديره ، وان كل شعب يرى من واجبه ، اذا اراد الحياة ، ان يجيء بتقدير يختلف عن تقدير من يجاوره من الشعوب . وهكذا كان مايراه احدها خيراً يراه الآخر دناءة وعاراً

ذلك ما عرفته ، فكم من عمل الشح العيب في بلد ، رأيته مجللاً بالشرف والفخر في بلد آخر

لم أر جاراً تمكن من ادراك حقيقة جاره ، بل رأيت كلاً منهما يعجب لجنون الآخر وقسوته

لقد علق كل شعب فوق رأسه لوح شريعته ، وسطّر عليه ما اجتاز من عقبات وما تضمر ارادته من عزم ، فما تراءى له صعب المنال فهو موضوع تمجيده ، وما خيره الا حاجة ملحّة عزّ مطلبها ، فهو يقدس كل وسيلة تمكنه من الظفر بهذه الحاجة .

ان كل ما يوطد الحكم لهذا الشعب ، وكل ما ينيله النصر والمجد ويلقي الرعب في روع جاره مثيراً حسده انما هو في نظره ذو المكانة الاولى ، وما احتلّ المقام الاول في اعتباره يصبح مقياساً لجميع اموره ومعنىً لجميع ما يحيط به ، فاذا ما تمكنت من الاطلاع على حاجات اي شعب وخبرت ارضه وجوّه وحالة جاره ، فأنك لتدرك النواميس التي تتحكم فيه وتحفزه الى المجالدة للغلبة على اهوائه ، ولتعرف السبب في اختياره مراقيه الخاصة يتدرج عليها لبلوغ امانيه

(عليك ان تكون سبّاقاً مجلياً في كل مضمار ، فلتتلفع نفسك بغيرتها كيلا تبذل الولاء الاّ للصديق) .

انها لكلمات اذا وقعت في اذن يوناني ، ترتعش نفسه لها فيندفع الى اقتحام الصعاب طلباً للمجد

(قل الحق ، وكن ماهراً في تفويق سهامك من قوسك)

انها لوصية صعبت وعزّت على الشعب الذي اقتبست اسمي منـه ، وفي هذا الاسم من المصاعب قدر ما فيه من امجاد

(اكرم أباك وأمك ، ولتكن باراً بهما من صميم قلبك)

وهذه الوصية القائمة على إرغام النفس ، قد عمل بهـا شعب آخر فبلغ القوة واصبح خالداً

(كن اميناً وابذل للأمانة دمك وشرفك حتى ولو كان جهادك في سبيل ما يضير وما يورد المهالك)

وهذه ايضاً وصية عمل بها شعب آخر ، فتغلب على ذاته واصبح عظيما تثقله الاماني الجسام

لقد اقام الناس الخير والشر ، فابتدعوها لأنفسهم ، وما اكتشفوها ولا أُنزلا عليهم بهاتف من السماء

لقد وضع الانسان للأمور اقدارها ليحافظ على نفسه ، فهو الذي اوجد للاشياء معانيها الانسانية

ما التقدير الا الايجاد بعينه ، فاصغوا اليّ ايها الموجِدون

ما الكنوز والجواهر الا اشياء ارادها تقديركم جواهر وكنوزاً ، فما القيمة الا اعتبار ، ولولا التقدير لماكان الوجود الا قشوراً لا نواة فيها . اسمعوا ايها الموجِدون : ان قيمة الاشياء تتغير تبعاً لتحوّل اعتبار الموجِد ، ولا بد لهذا الموجد من ان يَهدم في كل حين

لقد كانت الشعوب تتولى الايجاد في البدء حتى ظهر الافراد الموجِدون ، فما الفرد في الواقع الا احدث هيئات الوجود

لقد اقامت الشعوب لنفسها قِدْماً شريعة خيرها ، وما نشأت هذه الشريعة الا باتفاق المحبة التي طمحت الى السيادة ، والمحبة التي رضيت بالامتثال

ان هوى المجموع اقدم من أهواء الفرد ، واذا كان خير الضمائر ما يكمن في المجموع ، فان شرّها ما يتجلى في الفرد المعلن شخصيته

والحق ان الشخصية المراوغة التي لا محبة فيها ، الشخصية التي ترمي الى

الاستفادة من خير الاكثرية ، انما هي عنوان انحطاط المجموع لا مبدأ كيانه .

ما خلق الخير والشر في كل عصر الا المتهوسون المبدعون ، وما أضرم نارها الا عاطفة الحب وعاطفة الغضب باسم الفضائل جمعاء !

لقد شاهد زارا كثيراً من الشعوب والبلدان فما رأى قوة على الأرض تفوق قوة المتهوسين ، والقوة معنى لكلمتيّ الخير والشر

ما أشبه مايستدعي التمجيد ويستوجب العقاب بالمسخ الهائل ، فمن له بسحق هذا المسخ ، أيها الاخوة ؟ من سيشد بالأغلال على ما يُتلِعُ هذا الحيوان من آلاف الأعناق ؟

لقد بلغت الأهداف الألف عدًّا إذ بلغ عدد الشعوب ألفاً ، فنحن بحاجة الى قيد واحد لألف عنق ، لأننا بحاجة الى هدف واحد ، فالبشرية لم تعرف حتى اليوم لها هدفاً ، ولكن اذا كانت الانسانية تسير ولا غاية لها ، أفليس ذلك لقصورها وضلالها ؟

هكذا تكلم زارا ...

محبة القريب

انكم لتعطفون على القريب ، وتعبّرون عن عطفكم بتزويق الكلام ، اما انا فأقول لكم انّ محبتكم للقريب إنْ هي الا انانية مضللة

انكم تلجأون للقريب هرباً من انفسكم ، وتريدون ان تعدّوا هذا العمل فضيلة ، وهل يخفى عليّ كنه تجردكم هذا ؟

ان المُخاطَب اقدم من المتكلم ، فالأول مقدّس أما الثاني فلم يُقدّس بعد . ذلك هو السبب في عطف الانسان على قريبه

ان ما أشير به عليكم هو ان تنفروا من القريب لا أن تحبوه وذلك لتتمكنوا من محبة الانسان البعيد ، فان ما فوق محبة القريب محبة الانسان البعيد المنتظر واني اضع فوق محبة الانسان محبة الاشياء والأشباح

ان الشَّبَح الذي يعدو أمامك ، ياصديقي ، لهو اجمل منك ، فلِم لا تعيره لحمك وعظمك ؟

لقد استولى الخوف عليكم فلذلك تفزعون الى القريب . لا قِبَل لكم

باحتمال انفسكم وما حبكم بالحب الكامل ، لذلك اراكم تطمحون الى إغواء قريبكم لتتمتعوا بضلاله

اتمنى ان تنفروا من جميع فئات الاقربين ومن جيرتهم ايضاً لتضطروا الى ايجاد الصديق الذي يطفح قلبه بالاخلاص . انكم لتدعون شهوداً عند ماتريدون ان تغدقوا الثناء على انفسكم ، واذا ما توصلتم الى تضليلهم ليحسنوا الظن بكم تبدأون حينئذ باحسان الظن بأنفسكم

ما من احدٍ يرتكب الكذب الا اذا تكلم ضد ضميره ، فأصدق الناس من لا ضمير له يحولُ دون قوله الصدق . على هذه القاعدة تتكلمون عن انفسكم بين الناس لتضللوهم في حقيقتكم

يقول المجنون في نفسه : (ان مخالطة الناس تفسد الاخلاق ، بل هي تفسد بخاصة من لاخلاق لهم)

ان منكم مَن يهرع الى جاره ليفتش عن نفسه ، ومنكم مَن يذهب اليه لينساها انكم تسيئون محبة انفسكم ، لذلك يصبح انفرادكم بمثابة سجنٍ لكم

ان الغائبين يؤدون ثمن حبكم للقريب ، لأن خمسةً يجتمعون منكم يقضون دائماً على السادس الغائب

انني لا احب اعيادكم ، إذ رأيتها مليئة بالممثلين ، ورأيت النُظّارة أبرع منهم تمثيلاً

لا ادعوكم الى محبة القريب ، بل ادعوكم الى محبة الصديق . فليكن الصديق لكم مظهر حبور الارض ، فتحسون بما ينبئكم بالانسان المتفوِّق

أوصيكم بالصديق يطفح قلبه اخلاصاً ، غير أن من يطمح الى الظفر بمثل هذا القلب يجب عليه ان يكون كالاسفنجة قادراً على تشرُّب السائل المتدفق. أوصيكم بالصديق الذي يحمل عالماً في نفسه ، فهو الصديق المبدع الذي يسعه ان يقدم لكم هذا العالم في كل حين ، فيعرض عليكم ما مرَّ به من عِبَر الحياة ، فتشهدون كيف يتحوَّل الشر الى خير ، وكيف تنتهي الصدف بكم الى غاياتكم

ليكن المستقبل والمقاصد البعيدة ماتصبو اليه في يومك ، فتحب في صديقك الانسان المتفوِّق ، وتضعه نصب عينيك كغاية لوجودك

لا أشير عليكم بمحبة القريب أيها الاخوة ، بل بمحبة الآتي البعيد

هكذا تكلم زارا ...

طرق المبدع

أتقصد العزلة يا أخي لتجد الطريق التي توصلك الى مكمن ذاتك ؟ إذن ، فقف قليلاً في تردد واصغَ اليَّ :

لقد قال القطيع : (مَن فتّش فقد تاه ، ومَن انعزل فما أمن العثار) .

وأنت قد عشت طويلاً بين هذا القطيع ، ولسوف يدوي صوته ملياً في داخلك . فاذا قلت له : — لقد تغير ضميري جانحاً عن ضميرك — فلن تكون الا شاكياً متألماً

ان اشتراكك بالشعور مع القطيع قد أورثك هذا الألم ، وآخر وَهَجٍ من هذا الضمير المشترك لا يزال يلهب لجيعتك فيجددها . ولكنك ترغب في اتباع هاتف آلامك لأنه يقودك الى التوغل في ذاتك ، فأين برهانك على حقك في المضي اليها وعلى انك قادر على هذا السفر . أفأنت قوة جديدة وحق جديد ؟ أأنت حركة ابتداء ؟ أأنت عجلة تدور على ذاتها ؟ أبوسعك ان تجعل النجوم تدور حولك ؟

لَكَمْ من طموح يتحفز نحو الأعالي ، ولكم من طمع يرتعش في امانيه ، فاثبت لي انك لست من الطامحين الطامعين

ان كثيراً من ساميات الافكار لا تعمل الا عمل الأكر المنتفخة فلا تكاد تتضخم حتى يحكمها الضمور

انك تدعو نفسك حراً ، فقل لي ما هي الفكرة التي تقيمها مبدأً لك . ولا تكتفِ بقولك انك خلعت نيرك . فهل كنت يا ترى ذا حق بخلعه ؟ ان من الناس من يفقدون آخر مزيّة لهم اذا هم انعتقوا من عبوديتهم

لا يهم زارا أن تقول له من أية عبودية تحررت ، فلتعلن له نظراتك الصافية الغاية التي تحررت من أجلها

هل بوسعك ان تسنّ لنفسك خيرها وشرها فترفع ارادتك شريعة تسود أعمالك ، أبوسعك ان تكون قاضياً على نفسك وان تكون منتقماً منها لشريعتك؟ انه لأمر مريع ان يبقى الانسان منفرداً مع مَن أقامه قاضياً على نفسه ومنتقماً منها بالشريعة التي أوجدها . ان مثل هذا الانسان ليذهب في الفضاء ذهاب الكوكب مقذوفاً الى فراغ الوحدة وصقيعها

إنك وقد أصبحت منفرداً لا تزال تتألم من المجتمع لأنك لم تطرح شجاعتك ولم يزل للأمل مرتع فيك . غير انك ستتعب من انفرادك يوماً ، اذ تلين قناتك وينحطم غرورك فلا تتمالك من الهتاف قائلاً انني أصبحت وحيداً فريداً

سيأتي يوم تحتجب فيه عظمتك عنك فيلتصق صغارك فيك حتى لترتجف فرقاً من تساميك نفسه اذ يبدو امامك كشبح مرعب فتصرخ قائلا : (كل شيء باطل)

ان في المنفرد عواطف تطمح الى القضاء عليه ، فان لم تنل منه نالت من نفسها وانتحرت . فهل انت مستعد لارتكاب جريمة القتل

أتعرف ، يا أخي ، معنى كلمة الاحتقار ، وما ستكون آلامك اذا أنت اردت العدل واضطررت الى الاقتصاص ممن يحتقرونك ؟

انك تكره الكثيرين على تغيير اعتقادهم فيك ، فتثير حفيظتهم عليك ، لقد اقتربت منهم ثم تجاوزتهم ، فهم لذلك لن يغتفروا لك

لقد تفوقت عليهم ، فكلما اعتليت فوقهم ازددت صغاراً في أعين الحاسدين. وما كره الناس أحداً كرههم للمحلق فوق السحاب

لقد وجب عليك ان تقول للناس : — انني اخترت ظلمكم نصيباً حق لي منكم لذلك عز إنصافي عليكم . ان الناس يرشقون المنفرد بالمظالم والمثالب ، ولكنك اذا كنت تريد أن تصبح كوكباً فعليك ان ترسل انوارك حتى الى الراشقين

واحترس بخاصة من أهل الصلاح والعدل لأنهم يتوقون الى صلب من يوجد فضيلة لنفسه . انهم يكرهون المنفرد

واحترس أيضاً من السذاجة المتقية ، لأنها ترى الكفر في كل انسان لا يلتصق بها . وقد كان الساذجون في كل مكان يتوقون الى ايقاد النار واللعب بها

كن على حذر من التطرف في حبك ، فان المنفرد يمد يده متسرعاً لمصافحة من يلتقي في طريقه . ان من الناس من يجب عليك الا تمد اليهم يداً ، بل مخلباً ناشباً

غير ان اشد من تصادف من الاعداء خطراً انما هو انت وما يترصدك في المغاور والغابات الا نفسك .

لقد تبينت الطريق الذي يقودك الى ذاتك . ايها المنفرد ، وطريقك منبسط امامك وامام شياطينك السبعة . فستصبح منذ الآن جاحداً لنفسك ، ساحراً

مجنوناً مشككاً كافراً شريداً . فيجب عليك ان ترضى بالاحتراق بلهبك اذ لا يمكنك ان تتجدد مالم تشتعل حتى تصبح رماداً .

انك تتبع طريق الخالق ، ايها المنفرد ، فأنت تفتش على إله لك تقيمه من شياطينك السبعة . انك تتبع طريق العاشق ، ايها المنفرد ، وقد عشقت نفسك ، فأنت لذلك تحتقرها احتقار العاشقين .

يريد العاشق ان يبتدع لأنه يحتقر ، وما له ان يدّعى الحب اذا كان لم يبدأ باحتقار المحبوب .

توّغل في عزلتك يا اخي . سِرْ فلا رفيق لك الا حبك وابداعك . انك ستسير طويلاً قبل ان تقفو العدالة أثرك متثاقلة متعارجة .

اذهب الى عزلتك فأنني اشيّعك بدموعي يا اخي ، لأنني احب من يتفانى ليوجد في فنائه من يتفوّق عليه .

هكذا تكلم زارا . . .

الشيخة والفتاة

لماذا تدلج مختفياً في الغسق يازارا ؟ وما هو الذي تخفيه بكل احتراس تحت ردائك ؟ أكنز وُهِبْته أم طفلٌ رزقته ؟ والى اين تتجه على طريق اللصوص يا صديق الاشرار ؟ »

فأجاب زارا : — والحق يا اخي ، ان ما احمل هو كنز وُهبته ، فهو حقيقة صغيرة طائشة كالطفل ، ولولا انني كمت فمها لصاحت بملء شدقيها .

بينما كنت اسير اليوم منفرداً في طريقي عند الغروب ، التقيت بشيخة ناجتني قائلة :—

لقد كلمنا زارا مراراً نحن النساء ، ولكنه لم يتكلم عنا مرة واحدة .

قلت لها :— يجب الا يتكلم الرجلُ عن النساء الا للرجال .

فقالت :— لك ان تتكلم امامي عن النساء لأنني بلغت من العمر أرذله فلن تستقر اقوالك في ذهني .

وقبلت رجاء المرأة العجوز فقلت لها :— كل ما في المرأة لغزٌ ، وليس لهذا اللغز الاّ مفتاح واحد وهو كلمة (الحَبَل)

ليس الرجل للمرأة الا وسيلة ، اما غايتها فهي الولد ، ولكن ما تكون المرأة

للرجل يا ترى ؟ ان الرجل الحقيقي يطلب امرين : المخاطرة واللعب ، وذلك ما يدعوه الى طلب المرأة ، فهي اخطر الالعاب

خُلق الرجل للحرب ، وخلقت المرأة ليسكن الرجل اليها ، وما عدا ذلك جنون ، ولا يحب المحارب الثمرة اذا تناهت حلاوتها ، فهو لذلك يتوق الى المرأة لانه يستطعم المرارة في اشد النساء حلاوة

تفهم المرأةُ الطفلَ باكثر مما يفهمه الرجل ، غير ان الرجل اقرب الى خُلُق الطفل من المرأة ، ففي كل رجل حقيقي يحتجب طفل يتوق الى اللعب . فلتعمل النساء على اكتشاف الطفل في الرجل

لتكن المرأة لعبة صغيرة طاهرة كالماس تشعّ فيها فضائل العالم المنتظر

ليتوهج الكوكب السنيّ في حبك ايتها المرأة ، وليهتف شوقك قائلاً : لاضعنّ للعالم الانسان المتفوّق . ليكن في حبك استبسال تتسلحين به لاقتحام مَن يثير الوجل في قلبك . ضعي شرفك في حبك ، وما تعرف المرأة من الشرف الا يسيراً ، غير ان الشرف في حبك هو الخُلق الذي يجعلك تبادلين المحبة باكثر منها فلا تنحدرين الى المقام الثاني

ليحذر الرجل المرأة عند ما يستولي الحب عليها ، فهي تضحّي بكل شيء في سبيل حبها ، اذ تضمحل في نظرها قِيَمُ الاشياء كلها تجاه قيمته ، ليحذر الرجل المرأة عند ما تساورها البغضاء لأنه اذا كان قلب الرجل مكمناً للقسوة ، فقلب المرأة مكمن للشر

الى مَن توجه المرأة اشد بغضائها ؟

والجواب في قول الحديد للقوة الجاذبة :

— ان اشد كرهي موجه اليكِ لانك تجتذبين وليس فيك من طاقة تربط على ما تجتذبين

ان سعادة الرجل تابعة لارادته ، اما سعادة المرأة فتوقفة على ارادة الرجل

تقول المرأة وقد استسلمت لحبها العميم : لقد اكتمل العالم

ولا بد لها ان تخضع وان ترى اعماقاً على سطحها ، لان روح المرأة سطحية فهي صفحة ماء متماوجة تداعبها الرياح ، في حين ان روح الرجل اعماقٌ تزمجر امواجها في المغاور السحيقة القرار ، وقد تشعر المرأة بقوة الرجل ولكنها لن تفهمها

عندئذ قالت العجوز : لقد تكلم زارا عن اشياء طريفة اجدر بسماعها من

النساء مَنْ لم يزلن في مقتبل العمر . ومن الغريب ان ينطق زارا بالحق عن النساء وهو لا يعرفهنّ الا قليلا . افتكون إصابته ناشئة عن ان ليس في حالة المرأة شيء ممتنع

والآن اصغ اليّ يا زارا ، فانني سأعلن لك حقيقة صغيرة مكافأة على ما قلت ، وكبر سني يجيز لي ان اعلنها لك ، فاسترعِها واطبق شفتيك عليها لئلا يتعالى صراخها من فمك

فقلت هاتها ، هذه الحقيقة الصغيرة ايتها المرأة . وهذا ما قالت العجوز :

— اذا ما ذهبتَ الى النساء فلا تنسَ السوط

هكذا تكلم زارا . . .

لسعة الافعى

واستسلم زارا للكرى يوماً تحت شجرة التين ، وكان الحرُّ شديداً فستر وجهه بساعده فأتت أفعى ولسعته في عنقه فصرخ متألماً وانتفض محدقاً بها فعرفت عينيه وتململت لتنصرف ، فقال لها زارا : — « لا تذهبي قبل أن أقدم لك شكري ، لانك نبهتني في الزمن المناسب لاقوم بسفر بعيد »

فأجابت الأفعى وفي صوتها غنّة الأسى : — بل سفرك قريب فزُعافي قاتل

وابتسم زارا وقال : وهل زعاف الافعى ان يقتل تنيناً ؟ خذي سمّك ، انني أعيده اليك فلستِ من الغنى على ما يسمح لك بتقديمه هدية لي

وسارعت الافعى الى الالتفاف حول عنق زارا تلحس جرحه

وقص زارا هذه الحادثة يوماً على اتباعه فقالوا له : وما هو المغزى الأدبي لهذه القصة ، فاجاب : — ان اهل الصلاح والعدل يدعونني هدّاماً للمبادىء الأدبية فقصتي لا تتفق وهذه المباديء

اذا كان لكم عدو فلا تقابلوا شرّه بالخير لانه يستصغر بذلك نفسه ، بل أكدوا له انه أحسن بعمله اليكم ، والاجدر بكم ألا تحتقروا احداً ، تظاهروا بالغضب ، واذا وجهت اللعنة اليكم ، فلا يسرني ان تمنحوا البركة ، ان ما يسرني هو ألاّ تأبوا اللعن انتم ايضاً ، واذا ما أُنزلت بكم مظلمة كبيرة فبادلوا المعتدي مثلها وارفقوها بخمس مظالم صغرى ، لانه ما من مشهد أشد قبحاً من مشهد مَنْ لا يخضع إلا للظلم

ان اقتسام المظالم بالتساوي انما هو مساواة بالحق فهل كنتم تعرفون هذا من قبل ؟ من يقدر على ارهاق الناس بظلمه فعليه ان يحتمل هو الظلم ايضاً لئن ينتقم الانسان قليلاً ، فذلك أدنى الى المعروف وليس من الانسانية ان يترفّع المظلوم عن الانتقام . انني لأنفر من اقتصاصكم اذا لم يكن عبارة عن حق تؤدونه للمعتدي ، فإن مَن يسند الخطأ الى نفسه لأنبل ممن يعلنون في كل آن ان الحق في جانبهم ، وأخصّ من هؤلاء من كانوا حقيقة على صواب . ان اغنياء الروح لا يفعلون هذا

انني أكره عدالتكم الباردة ، فان في عيون قضاتكم ازورار الجلاّد ولمعان سيفه . فاين العدالة تلمح في عينيها الصفاء . أوجدوا لي الحب الذي لا يكتفي بحمل كل انواع العقاب ، بل يحمل ايضاً جميع الخطايا

اوجدوا لي العدل الذي يبريء الجميع ليحكم على الانسان الذي يدين

أتريدون ان اذهب الى أبعد مما قلت فاعلن لكم ان الكذب نفسه يصبح محبة للانسانية في نفس من يتوق الى إقامة العدل ؟

ولكن هل بوسعي ان اقيم العدل بكل اخلاص ؟ وكيف يمكنني ان أتوصل الى اعطاء كل ذي حق حقه . اذن ، لأكتفينّ بان اعطي اصحاب الحق حقي الخاص

واخيراً ، حاذروا ظلم المنفرد ، اذ ليس بوسعه ان ينسى وأن يبادل الظالمين ظلماً ، وما المنفرد إلا بئر عميقة يسهل على من يشاء ان يلقي فيها حجراً . ولكن مَن يقدر ان يستخرج هذا الحجر اذا بلغ قعر البئر السحيق ؟

احترسوا من اهانة المنفرد ، واذا انتم حقّرتموه فاجهزوا عليه بقتله

هكذا تكلم زارا . . .

الطفل والزواج

لي سؤال اخصّك به لأسبر اعماق روحك يا اخي :

— انت في مقتبل العمر وتتمنّى ان يكون لك زوجة وولد ، ولكن قل لي هل أنت الرجل الذي يحق له هذا التمني ؟ أأنت الظافر المنتصر على نفسه ، الحاكم على حواسه ، السائد على فضائله ؟ ام ان تمنيك هذا ليس إلا شهوة حيوان او خشية منفرد او اضطراب من قام النزاع بينه وبين نفسه ؟

ان ما اريده منك هو ان تتوق بانتصارك وحريتك الى التجدد بالولد . اذ عليك ان تقيم الأنصاب الى ما فوق مستواك . وهل بوسعك ان تفعل اذا لم تكن متين البنية من رأسك الى اخمص قدميك ؟

ليس عليك ان ترسل سلالتك الى الامام فحسب ، بل عليك بخاصة ان ترفعها الى ما فوق . فليكن عملك في حقل الزواج منصبّاً الى هذه الغاية

عليك ان توجد جسداً جوهره انقى من جوهر جسدك ليكون حركة اولى وعجلة تدور لنفسها على محورها ، فواجبك اذاً انما هو ابداع من يبدع

ما الزواج في عرفي الا اتحاد ارادتين لايجاد فرد يفوق من كانا علّة وجوده . فالزواج حرمة متبادلة ترسو على احترام هذه الارادة

ليكن هذا معنى زواجك وحقيقته ، اما ما يدعوه الدخلاء الاغبياء زواجاً فأمر احار في تعريفه ، فما هو الا مسكنة روحية يتقاسمها اثنان ، ودنس يتمرّغ به اثنان ؟ ولذة بائسة تتحكم في اثنين . ولكن الدخلاء يرون في مثل هذا الزواج رباطاً عقدته السماء

وما انا بالمرتضى بمثل هذه السماء ، سماء الدخلاء اطبقت شباكها عليهم ، تبّاً لها ، وسحقاً لمثل هذا الاله الذي يتقدم متراجعاً ليبارك اثنين لم يجمع هو بينهما

لا يضحكنكم هذا الزواج ، فكم من طفل من حقه ان يبكي على ابويه !

رأيت رجلاً وقوراً فحسبته بالغاً من النضوج ما يدرك به معنى الارض ؛ ولكنني رأيت امرأته بعد ذلك فلاحت لي الارض كأنها مأوى المجانين . اود لو تميد الارض بي عند ما ارى رجلاً فاضلاً يتخذ له زوجة حمقاء

من الناس من يتجرد كالابطال سعياً وراء الحقائق ، فلا يلبث حتى يصطاد رباطاً مزيفاً يدعوه زواجاً . ومنهم من اشتهر بحذره في علاقاته وبصرامته في اختياره ، فاذا هو بين ليلة وضحاها قد افسد حياته ووقف يدعو هذا الإفساد زواجاً . ومنهم ايضاً من كان يفتش عن خادمة لها فضائل الملائكة ، فاذا هو ينقلب فجأة خادماً لامرأة وقد حق عليه ان يتصف هو بالفضائل الملائكية

فتشت في كل مكان فما رأيت الا مشترين يقلّبون السلع وعيونهم تتدفق مكراً ، ولكن امكر هؤلاء الناس لا يتوصّل في آخر الامر الا الى ابتياع هرّة يدسها في جلبابه

ان ما تدعونه عشقاً انما هو جنون يتتالى نوبة بعد نوبة حتى يجيء زواجكم

خاتماً هذه الحماقات بالحماقة المستقرة الكبرى . ويا ليت حب الرجل للمرأة وحب المرأة للرجل كانا إشفاقاً يتبادله إلهان يتألمان ، ولكن هذا الحب لا يتجلى في الغالب الا تفاهماً بين احساس حيوانين . وما خير الحب لو تعلمون الا تحوّل واضطرام في ألم وخشوع ، ان هو الا المشعل ينير امامكم مسالك الاعتلاء . وسيأتي يوم يتجه فيه حبكم الى مقر ابعد وارفع من مستقر ذاتكم ، لقد بدأتم بتعلم الحب ، لذلك ترتشفون الآن المرارة الطافية كالحبب على كأسه

ان في كأس كل حب اطلاقاً وحتى في كأس ارقى حب مرارة لا بد لكم من تجرعها ، وهذه المرارة هي التي تنبّه فيكم الشوق الى الانسان المتفوّق وتلهب فيكم الظمأ اليه ، ايها المبدعون . اذا كان هذا الظمأ هو الذي يدفع بك الى طلب الزواج يا اخي ، واذا كنت تشعر بشوقك يندفع كالسهم نحو الانسان المتفوق ، فانني اقدس ارادتك واقدس زواجك

هكذا تكلم زارا . . .

تخير الموت

كثيرٌ مَنْ يتأخرون في موتهم ، وكثير من يبكّرون . فاذا قال قائل للناس بالموت في الزمن المناسب ، رفعوا عقيرتهم مستغربين . وزارا يعلّم الناس ان يموتوا في الزمن المناسب . ولكن انّى لمنْ يعرف الحياة ان يتخيّر الموت في أوانه ؟

اما كان خيراً للدخلاء على الحياة لو انهم لم يولدوا . ولكن هؤلاء الدخلاء يريدون ان يولي الناس اهمية كبرى لموتهم ، وكم من نواة تباهي بأنها كسرت وهي جوفاء

إنهم يعلّقون أهمية على الموت لأنهم ما عرفوا بهجة الموت ، فالناس لم يعرفوا حتى اليوم كيف يقدّسون أبهج الأعياد . ولسوف انبئكم بالموت الذي يقدّس ، الموت الذي يدفع الأحياء ويجتذبهم بحوافزه وآماله . إن مَن أكمل عمله يموت ظافراً وحوله مَن يحفزهم الأمل وتنطوي فيهم الأماني . تعلموا أن تموتوا هكذا ، ولكن أعلموا أن لا ظفر لمن يموت إذا هو لم يبارك ما أقسم الأحياء بإتمامه

تلك هي الميتة الفضلى ، تليها في المراتب ميتة من يسقط في المعركة وهو

ينشر عليها عظمة روحه . غير أن ما يحتقره المجاهدون والظافرون على السواء إنما هو ميتتكم الشوهاء التي تزحف لصاً وتتقدم آمراً مطاعاً

ما اجمل ميتتي إذا انا تخيرتها فجاءتني لأنني اطلبها

ولكن متى يجدر بالانسان ان يطلب الموت؟

إن من يتجه الى مقصد في الحياة وله وريث ، وجب عليه ان يتمنّى الموت في الزمن المناسب لغايته ولوريثه ، لأنه يأنف حرمة لهما من ان يلقي بالأكاليل الذابلة على هيكل الحياة

انني لا اريد ان احبُك الخيوط وانسحب الى الوراء كمن يفتلون الحبال .

من الناس من لا يتجاوزون بأعمارهم الحد اللائق بالحقائق والظفر ، وخليق بالفم المجرد عن اسنانه الاّ يتناول ببيانه جميع الحقائق . على الطامحين إلى الظفر ان يودّعوا الأمجاد في الزمن المناسب ليتمرنوا على فن الرحيل عن الدنيا في الزمن المناسب ايضاً ، ومن واجب المرء ان يتوقف عن عرض نفسه للآكلين عندما يكفّون عن تذوقها ، ولا يعرف هذه الحقيقة إلا من يود الاحتفاظ بمحبة مَنْ حوله .

ولكن من الأثمار كالتفاح من تقضي طبيعته الحامضة عليه ان ينتظر النضوج الى آخر ايام الخريف ، فاذا هو ماثل للنظر باصفرار الشيخوخة وتجاعيد أساريرها .

ومن النـاس من يدبّ الهرم الى قلوبهم اولاً ، ومنهم من يدب الهرم الى عقولهم ، ومنهم من يشيخون في ربيع الحياة ، غير ان من يبلغ الشباب متأخراً يحتفظ بشبابه امداً طويلاً .

ومن الناس مَن ضلوا السبيل في حياتهم ، فاضاعوا عمرهم ، فعلى هؤلاء ان ان يعملوا على بلوغ التوفيق في موتهم على الأقل .

وهنالك اثمار لا تنضج لأنها تتهرأ في الصيف ولكنها تبقى معلقة بأغصانها لأن جبنها يصدها عن السقوط . وهكذا نرى في العالم اناساً يلتصقون التصاقاً بأغصانهم ، فهل من عاصفة تهب على الشجرة لتسقط ما عليها من اثمار تهرأت ورعى الدود قلبها ؟ ليتقـدم دعاة الموت العاجل وليهبوا كالعاصفة على دوحة الحياة ، غير انني لا ارى غير دعاة للموت البطيء يعظون بالصبر واحتمال كل مصائب الارض .

انكم تدعون الى مكابرة الارض ومجالدتها ، ايها المجدفون والارض صابرة عليكم صبرها الجميل .

والحق ان ذلك العبراني الذي يمجده المبشرون بالموت البطيء قد مات قبل اوانه ، ولم يزل جم غفير يعتقد بان ميتته المبكرة كانت مقدورة عليه

وماكان هذا المسيح العبراني قد عرف غير دموع قومه واحزانهم وكيد اهل الصلاح والعدل ، لذلك راودته فجأة شهوة الفناء.

ولو انه بقي في الصحراء بعيداً عن اهل الصلاح والعدل لكان تعلّم حب الحياة وحب الأرض ، ولكان تعلّم الضحك ايضاً.

صدقوني ، ايها الإخوة ، إن المسيح قد مات قبل اوانه ، ولو انه بلغ العمر الذي بلغتُ ، لكان جحد تعاليمه، وقد كان له من النبل مايكفيه لاقتحام العدول عنها ، ولكنه لم يبلغ النضوج ، ولم تبلغه المحبة في الشباب ، فكره الناس وكره الأرض . وهكذا بقيت روحه مثقلة ولم ينشر جناحه المهيض (١)

إن في الرجل من الطفولة ماليس في الشاب ، فالرجل الناضج اقل حزناً واقدر على فهم الحياة والموت ، لأنه يشعر بحريته للموت وبحريته في الموت ، وإذا امتنع عليه ان يُثبت شيئاً انكره

حاذروا أن يكون موتكم تجديفاً على الأرض والانسان أيها الصحاب . تلك هي النعمة التي استجديها من وداعة روحكم

ليرسل فكركم وفضيلتكم آخر أشعتها في احتضاركم كما ترسل الشمس الغاربة آخر انوارها على الأرض ، وإلا فان ميتتكم ستكون فاشلة . إنني هكذا أريد

---

(١) يعترف زارا بان عيسى عرف دموع الشعب المظلوم وغطرسة من يدعون الصلاح والعدل ، فلاذا يراد منه أن يعرف بعد ، وليس من قضية اجتماعية تخرج عن حدي دمعة الضعيف وكيد المستقوين في الحياة

كان يريد زارا أن يبلغ عيسى ما بلغه هو من العمر ليجحد تعاليمه ويطلق جناحي نفسه فيحب الانسان والأرض ، فهل بلغ أحد من مصلحي الانسانية « باعتبار القضية الاجتماعية مستقلة جدلا عن المسألة الروحية » ما بلغه العبراني والعربي بعده من حب الانسانية والتضحيات في سبيل اصلاح الحياة

وهل لنيتشه أن يدعي أنه أتى بشيء جديد في فلسفته عند تصويره مبادىء الحياة ، أفليس كل ما أصاب فيه مستمداً مما أوحي الى رسل الله وانبيائه الاطهار، أفليس كل ما ضل فيه ناشئا عن محاولته الاستغناء عن أنوار هذا الوحي ...

أن أموت ليزداد حبكم الأرض من أجلي ، أيها الأصحاب . أريد أن أعود إلى الأرض التي خُلقت منها لأجد الراحة في أحضانها

لقد كان زارا يرمي إلى هدف وقد أطلق سهمه الآن فارموا إلى هذا الهدف بعدي ، لأنني من أجلكم أطلقت سهمي الذهبي . فما أشتهي شيئاً إشتهائي أن أراكم تطلقون سهامكم الذهبية أيضاً ، ولسوف أبقى على الأرض قليلا لأمتّع عيني بهذا المشهد ، فاغتفروا لي هذا التخلف الى حين .

هكذا تكلم زارا . . .

الفضيلة الواهبة

— ١ —

وبعد أن ودّع زارا مدينة (البقرة الملوّنة) التي شغف قلبه بها ، شيعه عدد غفير ممن كانوا يدعون انفسهم اتباعه حتى بلغوا الى منعطف الطريق فقال زارا انه يريد متابعة سيره وحده . فودّعه اتباعه وقدموا اليه عصا قبضتها من ذهب بشكل أفعى ملتفة حول الشمس ، فسرّ زارا من هذه الهدية واتكأ على العصا قائلاً لاتباعه :

— قولوا لي ، لماذا أصبح الذهب ذا قيمة ؟ أليس لأنه نادر ولا فائدة منه ، ولانه وديع في لمعانه ، ويبذل نفسه في كل حين ؟ لم يبلغ الذهب أسمى مراتب الاشياء القيّمة إلا لانه رمز لاسمى الفضائل ، فعين الواهب برّاقة كالذهب ، ووهج الذهب رسول سلام بين النيرّين

إن أسمى الفضائل نادرة ولا نفع منها ، فهي تتوهج بنورها الهادىء ، وليس بين الفضائل من يطاول فضيلة السخاء

والحق ، انني شاعر برغبتكم ، أيها الصحاب ، فانكم تطمحون مثل طموحي الى الفضيلة الواهبة ، فانتم تريدون ان تحولوا نفوسكم الى هبات وعطايا ، وإلا لكنتم أشبه بالهررة والذئاب . ولهذا تتعطشون الى حشد جميع الكنوز لأنها ظامئة ابداً الى العطاء . انكم تجتذبون كل ما حولكم ليتسرّب الى داخلكم فينفجر ينبوعكم بها كأنها هبة من محبتكم

ان المحبة السخية الواهبة تستحيل الى لص يمد يده الى جمع الاشياء القيّمة ، وما ارى هذه الانانية إلا عملاً صالحاً مقدساً

غير ان هنالك انانية أخرى تدهورت الى ادنى دركات المسكنة في مجاعتها المتحكمة ابداً فيها ، تلك هي الانانية التي تطمح الى السرقة في كل آن ، فهي انانية المرض بل هي الانانية المريضة ، تحدج كل شيء بنظرات اللص وبنهم الجائع ، فتزن لقمات الآكلين من ابناء النعمة وتدبُّ ابداً حول موائد الواهبين . وما مثل هذه الشهوة إلا عَرَضُ الداء الدفين ودليل الانحطاط الخفي ، وما الطموح الى السرقة بمثل هذه الانانية إلا نزعة من نزعات الجسوم العليلة

أي شيء نراه اقبح الاشياء ، ايها الاخوة ، أفليس الانحطاط اقبحها ؟ وهل يسعكم إلا ان تحكموا بانحطاط مجتمع لا أثر لروح السخاء والعطاء فيه

ان سبيلنا يتجه الى الاعالي ، وما نقصده انما هو الارتقاء من نوع الى نوع ، لذلك نرتعش عند ما نسمع الانحطاط يهتف قائلاً : (لي كل شيء)

وهل روحنا الا رمزٌ لجسدنا وهي تطمح الى الاعتلاء ، وهل الصفات التي ندعوها فضيلة الا عبارة عن هذه الرموز عينها ؟

ان الجسد يقطع مسافات التاريخ بكفاحه ، ولكن ما تكون الروح من الجسد يا ترى إن لم تكن المزيج لكفاح الجسد وانتصاراته ؟ ما الجسد الا الصوت ، وما الروح الا الصدى الناجم عنه والتابع له . ليست الكلمات الموضوعة للدلالة على الخير والشر سوى رموز فهي تشير الى الامور ولا تعبّر عنها ولا يطلب المعرفة فيها ومنها الا المجانين

انتبهوا ، ايها الاخوة ، الى الزمن الذي يطمح فكركم فيه الى البيان بالرموز لأن في هذا الحين تتكوّن الفضيلة فيكم ، وعندئذٍ يُبعث جسدكم ويتجه الى الاعالي مجتذباً عقلكم من سكونه ليدفع به الى مراحل الابداع حتى اذا ما سار عليها عرف قيمة الاشياء وأحب فاجاد في كل اعماله

في الزمن الذي يختلج فيه قلبكم تتكوّن فضيلتكم لأن هذا القلب يفيض باختلاجه كالنهر العظيم فيغمر القاعين على ضفافه بالبركة كما يهددهم بأشد الأخطار

انما تنشأ فضيلتكم عند ما يعجز المدح والذم عن بلوغ شعوركم ، فتطمح إرادة الرجولة فيكم الى السيادة على كل شيء

انما تنشأ فضيلتكم عند ما تحتقرون النِعَم والفراش الوثير وعندما لا تجدون راحة الا بعيداً عن مواطن الراحة

انما تنشأ فضيلتكم عند ما تنصبّ ارادتكم على مقصد واحد، وعندما يصبح هذا التحوّل في آلامكم ضرورة لا يسعكم التحول عنها

أفليس هذا شكلاً جديداً للخير والشر؟ أفما تسمعون بهذا القول خرير الينبوع العميق الذي غربت مسالكه من قبل عنكم؟

انها لفضيلة جديدة تمنح الانسان قوة وتبعث فيه عزماً، هذه الفكرة المتحكمة في روح بلغت الحكمة لانها شمس مذهّبة التفت عليها أفعى الحكمة

— ٢ —

وصمت زارا مرسلاً نظرات الحب الى اتباعه، ثم ارتفع صوته بنبرات جديدة قائلاً: — أخلصوا للارض، يا إخوتي، بكل قوى فضائلكم. لتكن محبتكم الواهبة ولتكن معرفتكم خادمتين لروح الارض، انني اطلب هذا متوسلاً

لا تدعوا فضيلتكم تنسلخ عن حقائق الارض لتطير باجنحتها ضاربةً أسوار الأبدية، ولكم ضلّت من فضيلة من قبل على هذا السبيل

ارجعوا الفضيلة الضالة كما رجعت بها انا الى مرتعها في الارض. عودوا بها الى الجسد والى الحياة لتنفخ في الارض روحها، روحاً بشرية

لقد تاه العقل وتاهت الفضيلة فخدعتها آلاف الامور، ولمّا يزل هذا الجنون يتسلط على جسدنا حتى اصبح جزءاً منه فتحول فيه الى ارادة

لقد قام العقل وقامت الفضيلة معه بتجارب عديدة فضلاً على ألف سبيل، وهكذا أصبح الانسان عبارة عن تجارب ومحاولات ألصقت بنا الجهل والضلال. وليس ما استقر فينا من التجارب حكمة الاجيال فحسب، بل جنونها ايضاً. ولكم يتعرّض الوارثون الى اخطار

اننا لم نزل نصارع جبّار الصدف، ولم يزل العته سائداً على الانسانية حتى اليوم

ليكن عقلكم وفضيلتكم بمثابة روح للأرض وعقل لها، أيها الاخوة، فتتجدد بكم قِيَمُ الاشياء جميعها، من أجل هذا وجب عليكم ان تبدعوا

إن الجسد يطهر بالمعرفة، فيرتفع بعرانه على العلم، لان من يطلب الحكمة يطهّر جميع غرائزه، ومن ارتقى فقد ادخل المسرة في نفسه

أعِنْ نفسك ، ايها الطبيب ، لتتمكن من اعانة مريضك . إن خير ما تبذله من معونة لهذا المريض هو أن يرى بعينه انك قادر على شفاء نفسك

إن في الارض من السبل ما لم تطأها قدم بعد ، فما اكثر مجاهلها وما اكثر خفاياها ! !

اسهروا وانتبهوا ايها المنفردون لأن من المستقبل تهبُّ نسمات سرية حاملة بشائر لا تقرع الا الآذان المرهفة

انكم في عزلة عن العالم ، ايها المنفردون ، ولكنكم ستصبحون شعباً في آتي الزمان ، ومنكم سيقوم الشعب المختار لانكم اخترتم نفسكم اليوم . ومن هذا الشعب سيولد الانسان المتفوِّق

والحق ان الارض ستصبح يوماً مستشفى للأعلاَّء ، فان في نشرها عبيراً جديداً هو عبير الاخلاص والأمل الجديد

— ٣ —

وسكت زارا كمن يقف عند كلمة تتلجلج في فمه ، وبعد ان قلَّب عصاه طويلاً بين يديه ، أطلق صوته وقد تغيرت نبراته فقال :

— سأذهب وحدي الآن ، ايها الصحاب ، وانتم ايضاً ستذهبون بعدي وحدكم لانني هكذا اريد

هذه نصيحتي اليكم ، ابتعدوا عني وقفوا موقف الدفاع عن انفسكم تجاهي ، بل اذهبوا الى ابعد من هذا ، اخجلوا من انتسابكم اليَّ فلقد اكون لكم خادعاً

على من يطلب الحكمة ألاَّ يتعلَّم محبة اعدائه فحسب بل عليه ايضاً أن يتعلَّم بغض اصدقائه . وما يعترف التلميذ اعترافاً تاماً بفضل استاذه اذا هو بقي ابداً له تلميذاً . لماذا لا تريدون ان تحطموا تاجي ؟

انكم تحوطونني بالاجلال ، ولكن ما هي الكارثة التي تتوقعونها من إعراضكم عني ، ان في رفع الأنصاب لخطراً فاحترسوا من أن يسقط عليكم التمثال المنصوب فيقضي عليكم

تقولون انكم تؤمنون بزارا ، ولكن اية اهمية له ؟ تقولون انكم مؤمنون ، ولكن ما اهمية جميع المؤمنين ؟ ماكان أحد منهم فتش عن نفسه قبل ان

وجدتموني ، وهكذا جميع المؤمنين ، فليس الايمان شيئاً عظيماً . لذلك آمركم الآن ان تضيّعوني لتجدوا انفسكم ، ولن اعود اليكم الا عند ما تكونون جحدتموني جميعكم

والحق ، يا اخوتي ، انني في ذلك الحين ، سافتش عن خرافي الضّالة بعين اخرى فأبذل لكم حباً غير هذا الحب

سيأتي يوم تصيرون فيه اصحاباً لي اذا ما وحّد بينكم الامل الواحد ، عندئذ سارغب في الإقامة بينكم للمرة الثالثة للاحتفاء بانوار الهاجرة العظمى

وستبلغ الشمس الهاجرة عند ما يصل الناس الى منتصف طريقهم بين الحيوان والانسان المتفوّق ، وعند ما يرون املهم الأسمى على منتهى السبيل الذي يقودهم الى الفجر الجديد

في ذلك الحين يتوارى من يسير الى الجهة الثانية وهو يبارك نفسه إذ ترتفع شمس معرفته لتتكبد الهاجرة

لقد مات جميع الآلهة ، فلم يعد لنا من امل إلا ظهور الانسان المتفوّق . فلتكن هذه إرادتنا الأخيرة عند ما تبلغ الشمس الهاجرة

هكذا تكلم زارا . . .



هكذا تكلم زرادشت

الجزء الثاني

« ولن اعود اليكم الا عند ما تكونون
« جحدتموني جميعكم
« والحق، يا اخوتي، انني في ذلك الحين
« سأفتّش عن خرافي الضّالة بعين
« اخرى فابذل لكم حباً غير هذا الحب»

زرادشت

الفضيلة الواهبة الجزء الاول صفحة ٦٥



الطفل حامل المرآة

ورجع زارا الى الجبال ، الى عُزلة كهفه ليحتجب عن الناس كالزارع التي بذوره في اثلام أرضه وبات يتوقّع نبتها ، ولكنه ما لبث ان حنّت جوارحه الى احبابه اذ كان عليه ان يمنحهم بعد كثيراً من الهبات واصعب ما يلقى المحب اضطراره الى قبض يده إجابة لداعي محبته وتفادياً للمنة في عطائه

ومرت على المنفرد الشهور والأعوام وحكمته تزداد نمواً فتزيده ألماً باتساع آفاقها

. وافاق يوماً ، من نومه قبل انفلاق الفجر واستغرق في تفكيره وهو ممدد على فراشه وتساءل قائلاً :

— لماذا ارعبني هذا الحلم حتى استفقت منه مذعوراً ؟ رأيت كأن ولداً « يحمل مرآة » اقترب مني وهو يقول :

— انظر في هذه المرآة يا زارا

وما نظرت الى المرآة حتى صرخت وخفق قلبي خفوقاً شديداً . لأن ما انعكس لي في المرآة لم يكن وجهي بل وجهاً تقطبت اساريره بضحكة شيطان ساخر

والحق ما يفوتني تعبير هذا الحلم وإدراك ما نُبهت اليه فان تعاليمي مشرفة على خطر ، والزوان يريد ان ينتحل صفات الحنطة . لقد استأسد اعدائي فشوهوا تعاليمي حتى اصبح اتباعي يخجلون مما وهبتهم

لقد فقدت صحبي وآن لي ان افتش عمّن فقدت

وانتفض زارا لا كمن استولى الذعر عليه بل كمأخوذ برؤى وكشاعر هزّه شيطانه . فوجم نسره وافعوانه وحدّقا بوجهه وقد لاحت بوادر السعادة عليه كتباشير الفجر . فقال لهما :

— ماذا حدث لي ؟ افما تريان انني تغيرت ؟ افما تحسان ان الغبطة قد نزلت عليّ كأنها عصفات الرياح ؟

لقد جنّ شعوري بهذه السعادة فلن يسلم بياني من اختلال هذا الشعور ، ان سعادتي لم تزل في حداثتها فتذرعا بالصبر معي عليها

لقد اوجعتني سعادتي فليكن أساتي كل من ارهقتهم الاوجاع

ان في وسعي الآن ان انحدر الى مقر صحبي والى مقرّ اعدائي فقد اصبح زارا قادراً على استطراد القول والاحسان الى من يحب

لقد آن لحبي ان يتدفق كالنهر يندفع من الاعالي الى الاعماق ، ويتجه من المشرق الى المغرب

ان نفسي تندفع مرغية مزبدة في الوديان متملصة من الجبال الصامتة تصخب فوقها عواصف الآلام . ولطالما تعللت بالصبر وحدقت ابصاري على بعيد الآفاق ، لقد ارهقتني العزلة فما أطيق السكوت بعد

اصبحت وكأنني بأجمعي فمٌ او هدير جدول يتحدّر من شامخات الصخور . اريد ان اقذف بكلماتي الى الاغوار . فيجري نهر حبي في المفاوز البعيدة ، ولن يضل هذا النهر سبيله الى مصبه في البحار

ان في داخلي بحيرة وحيدة قانعة بنفسها ، غير ان نهر محبتي يجتذبها في مسيره ليقطع معها السيول ويترامى واياها في لجة البحر

انني اتبع مسالك لم اعرفها من قبل فألهمت بياناً « جديداً » بعد ان اتعبتني اللهجات القديمة التي ترهق كل المبدعين وقد امتنع على فكري ان يقتفي رواشم النعال المقطعة

ما من لغة إلا واراها بطيئة تقصر عن مجاراة بياني

سأقفز الى صهوتك ايتها العاصفة فألهبك انت ايضاً بسوط سخريتي

اريد ان اقطع اجواء البحار كهتفة مسرة وحبور الى ان استقر على الجزائر السعيدة حيث يقيم احبابي ، وبينهم اعدائي ايضاً ، لشدّ ما احب الآن جميع من يتسنى لي ان اوجه اليهم الكلام . وسيكون لهؤلاء الاعداء ايضاً قسطهم في ايجاد غبطتي

عند ما اتحفز لاعتلاء اشد جيادي جموحاً لا اجد لي معيناً اصدق من رمحي متكأً ارتفع عليه

هو رمحي اهدد به اعدائي ، ولكم يستحقون ثنائي اذا ما تمكنت من طرح هذا الرمح من يدي :

لقد طال اصطبار غيومي بين قهقهة الرعود وقد آن لي ان أرشق الاعماق بقذائف بَرَدَي

ان صدري سيتعاظم بانتفاخه حتى يزفر بالعاصفة الهائلة على الشامخات وهكذا سأفرّج عنه

إن سعادتي وحريتي سيندفعان اندفاع العواصف ولكنني اتمنى لو يحسب اعدائي ان ما يزمجر فوق رؤسهم انما هو روح الشر لا روح سعادة وحرية

وانتم ايضاً ايها الصحاب سيتولاكم الرعب عندما تنزل عليكم حكمتي الكاسرة ولعلكم تولّون هاربين منها كما يهرب الأعداء

ليت لي ان استدعيكم اليَّ بحنين شبّابة الرعاة ، وليت تتعلم لبؤة حكمتي ان تزأر بنبرات العطف والحنان ، فلطالما وردنا سوياً من مناهل العرفان . ولكن حكمتي الوحشية تمخضت بآخر صغارها في الجبال السحيقة بين الجلامد الجرداء ، وهي الآن تطوف بجنونها الصحارى القاحلة مفتشة على المروج الناضرة

إنها لشيخة وحشية هذه الكلمة التي تقصد إنزال اعز ما لديها في مروج قلوبكم الناضرة

هكذا تكلم زارا . . .

في الجزر السعيدة

ها إن التين يتساقط عن أشجاره عَطِرَ النكهة حلو المذاق وقشوره الحمراء تتشقق بسقوطها ، وأنا هو ريح الشمال يهب على هذه الأثمار الناضجة . إن تعاليمي تتساقط إليكم أيها الصحاب كمثل هذه الأثمار فتذوّقوها الآن عند ظهيرة من أيام الخريف وقد صفت فوقكم السماء .

سرحوا أبصاركم فيما حولكم من خيرات الأرض ثم مدوا بها إلى آفاق البحر البعيد فليس أجمل لمن فاض رزقه من أن يتطلّع إلى الأبعاد

لقد كان الناس يتلفّظون باسم الله عندما كانوا يسرّحون أبصارهم على شاسعات البحار ، أما الآن فقد تعلمتم الهتاف باسم الانسان المتفوق

إن الله افتراض وأنا أريد ألاّ يذهب بكم الافتراض إلى أبعد مما تفترض إرادتكم المبدعة

أفتستطيعون أن تخلقوا الهاً؟ إذن أقلعوا عن ذكر الآلهة جميعاً ، فليس لكم إلا إيجاد الانسان المتفوّق

ولعلكم لن تكونوا بنفسكم هذا الانسان ولكن في وسعكم أن تصبحوا آباء واجداداً له . فليكن هذا التحول خير ما تعملون

إن الله افتراض وأنا أريد الاّ يتجاوز بكم الافتراض حدود التصور ، فهل تستطيعون أن تتصوروا إلهاً ؟ فاعرفوا من هذا انّ واجبكم هو طلب الحقيقة فلا تطمحوا إلى ما لايبلغه تصور الانسان وبصره وحسه ، امسكوا بتصوركم كيلا يتجاوز حدود حواسكم

يتحتم عليكم ان تبدأوا بخلق ما كنتم تسمونه عالماً من قبل فيتكوّن عالمكم من تفكيركم وتصوركم وإرادتكم ومحبتكم وعندئذ تبلغون السعادة يا مَن تطلبون المعرفة . وكيف تطيقون الحياة إذا لم يكن لكم هذا الرجاء ؟

على مَن يطلب المعرفة الا يتورّط في ما يريده العقل من المعمّيات

لسوف افتح لكم قلبي فلا تخفى عنكم خافية فيه ، فأقول لكم : لو كان هنالك ارباب اكنتُ اتحمّل الا اكون رباً ؟ إذن ليس في الكون ارباب

لقد استخرجت لذاتي هذه النتيجة ، وها هي تستخرجني الآن

إن الله افتراض ولكن من له بتحمّل كل ما يضمر هذا الافتراض من اضطراب دون ان يلاقي الفناء ؟ اتريدون ان تأخذوا من الخالق إيمانه ومن النسر تحليقه في اجواز الفضاء ؟

إن الله عبارة عن إيمان ينكسر به كل خط مستقيم ويميد عنده كل قائم ، فالزمان لدى المؤمن وهم ، وكل فانٍ في عينيه بُطل وخداع ، فهل مثل هذه الأفكار إلا اعاصير تتطاير فيها عظام البشر وتورث الدوار لشاهدها ؟ تلك افتراضات يدور المُبتلى بها على نفسه كالرحى حتى يموت

افليست من الشر والافتيات على الانسانية كل هذه التعاليم تقيم الواحد المطلق الذي لايناله تحوّل ولا تغيير ؟

إن الرموز وحدها لاتتغير ، وطالما كذب الشعراء ، غير ان خير ما يُضرب من الأمثال مايصور الحاضر وآتي الزمان فيأتي حجة لكل زائل لا نقضاً له

ليس في غير الابداع ما ينقذ من الأوجاع ويخفف اثقال الحياة ؛ غير ان ولادة المبدع تستدعي تحولات كثيرة وتستلزم كثيراً من الآلام

ايها المبدعون ستكون حياتكم مليئة بمرير الميتات لتصبحوا مدافعين عن جميع ما يزول

على المبدع إذا شاء ان يكون هو بنفسه طفل الولادة الجديدة ان يتذرع بعزم المرأة التي تلد فيتحمّل اوجاع مخاضها

لقد اخترقت لي طريقاً في مئات النفوس والأسرّة واوجاع المخاض غير انني كثيراً ما نكصت على اعقابي لأنني اعرف ما تقطع الساعات الأخيرة من نياط القلوب .

ولكن ذلك ما تطمح إرادتي المبدعة اليه ، وبتعبير اشد صراحة ذلك هو المقصد الذي تريده إرادتي

إن جميع ما فيَّ من شعور يتألم مقيداً سجيناً وليس غير إرادتي من بشير يؤذن بالمسرة ، ويأتي بالافراج عن الشعور

إن الارادة وحدها تحرر ، وما بغير هذه الآية من شرعة صحيحة للارادة وللحرية ، على هذا تقوم تعاليم زارا

بعداً وسحقاً لكل وَهْنٍ وملال يشلاّن الارادة ويوقفان كل تقدير وإبداع

ان طالب المعرفة يشعر بلذة الارادة والايجاد وبلذة استحالة الذات الى ما تحس به في اعماقها ، فاذا انطوى ضميري على الصفاء فما ذلك الا لاستقرار ارادة الايجاد فيه . وهذه الارادة هي ما اهاب بي للابتعاد عن الله وعن الآلهة اذ لو كان هنالك آلهة لما بقي شيء يمكن خلقه.

إن طموح إرادتي الى الايجاد يدفعني ابداً نحو الناس اندفاع المطرقة فوق الحجر

ايها الناس انني المح في الحجر تمثالا كامناً هو مثال الأمثلة . افيجدر ان يبقى ثاوياً في اشد الصخور صلابة وقبحاً

ان مطرقتي تهوي بضرباتها القاسية على هذا السجن فأرى حجره يتناثر

اريد ان اكمل هذا التمثال ، إن طيفاً زارني والطف الكائنات واعمقها سكوتاً قد اقترب مني

لقد تجلّى بهاء الانسان المتفوّق لعيني في هذا الخيال الطارق فما لي وللآلهة بعد : (١)

هكذا تكلم زارا . . .

الرحماء

لقد بلغني ، ايها الصحاب قول الناس : « افما ترون زارا يمر بنا كأنه يمر بين قطيع من الحيوانات »

وكان اولى بهم ان يقولوا : انمن يطلب المعرفة يمر بالناس مروره بالحيوانات ان طالب المعرفة يرى الانسان حيواناً له وجنتان حمراوان

ولِمْ يراه هكذا ؟ افليس لانه كثيراً ما علته حمرة الخجل ؟

هذا ما يقوله طالب المعرفة ايها الصحاب : — ان تاريخ الانسان عارٌ في عار

ولذلك يفرض الرجل النبيل على نفسه ألاَّ يلحق إهانة باحد لأنه يستحيي جميع المتألمين

إنني والحقِ اكره الرُحماء الذين يطلبون الغبطة في رحمتهم ، فاذا ما قضى عليَّ بان ارحم تمنيت ان تُجهل رحمتي والاَّ ابذلها إلا عن كثب . احب ان استر وجهي عند اشفاقي وان اسارع الى الهرب دون ان أعرف . فتمثلوا بي ايها الصحاب

ليت حظي يسوقني ابداً حيث ألتقي أمثالكم رجالاً لا يتألمون وفي طاقتهم ان يشاركوني آمالي وولائمي وملذاتي

لقد قمت باعمال كثيرة في سبيل المتألمين ولكن كنت أرى ان الأفضل من هذا زيادة معرفتي في تمتعي بسروري . فان الانسان لم يسرّ الا قليلا منذ وجوده وما من خطيئة حقيقية الا هذه الخطيئة

اذا نحن تعلمنا كيف نزيد في مسرتنا فاننا نفقد معرفتنا بالإساءة الى سوانا وباختراع ما يسبب الآلام

---

(١) ونحن نقول بدورنا لنيتشه متخذين قياسنا من قياسه : لو أمكن للانسان ان يخلق شيئاً لما كان هنالك اله ، وبما ان الانسان يقصر عن ايجاد ذرة وخطرة فكر في عالمي المادة والروح فالكائن الأزلي مفروض فرضاً على العاقل وكل قول يخالف هذا القول ثرثرة وجنون...

ذلك ما يدعوني الى غسل يدي اذا انا مددتها لمتألم ، بل والى تطهير روحي ايضاً ، لأنني اخجل لخجله وتؤلمني مشاهدتي لآلامه ولأنني جرحتُ معزّة نفسه بلا رحمة عند ما مددت له يدي

إن عظيم الاحسان لا يولّد الامتنان بل يدعو الى إيقاد الحقد ، واذا تغلّب تافه الاحسان على النسيان فانه يصبح دوداً ناهشاً

لا تقبلوا شيئاً دون احتراس ، وحكّموا تمييزكم عندما تأخذون ، ذلك ما أشير به على من ليس لهم ما يبذلونه للناس

اما أنا فمن يبذلون العطاء وأحب ان اعطي الاصدقاء كصديق ، أما الابعدون فليتقدموا من انفسهم لاقتطاف الاثمار من دوحتي فليس في إقدامهم على الاخذ ما في قبولهم العطاء من مهانة لكرامتهم

غير انه من اللازب ان يُقطع دابر المتسولين لان في الجود عليهم من الكدر ما يوازي كدر انتهارهم وحرمانهم

وكذلك هو حال الخطاة واهل الضمائر المضللة فان تبكيت الضمير يحفز الانسان الى النهش وايقاع الاذى

وشرٌّ من كل هذا الافكار الحقيرة وخيرٌ للانسان ان يسيء عملا من ان تستولي المسكنة على تفكيره

انكم تقولون « إن في التفكير الملتوي كثيراً من الاقتصاد في شر الاعمال » وما يستحسن الاقتصاد في مثل هذا

إن لشر العمل أكلاناً والتهاباً وطفحاً كالقروح ، فهو حرٌّ وصريح لانه يعلن نفسه داءً كما تعلن القروح ، في حين ان الفكرة الدنيئة تختفي كنوامي الفطر وتظل منتشرة حتى تودي بالجسم كله ، ومع هذا فاني أسرّ في اذن مَن تملّكه الوسواس الخنّاس : « إن من الخير ان تدع الوسواس يتعاظم فيك لان امامك انت ايضاً سبيلا يوصلك الى الاعتلاء »

مما يؤسف له أن يكون جهل بعض الشيء خيراً من إدراكه كله ، غير ان من الناس مَن يشفُّ حتى تبدو بواطنه ، ولكن ذلك لا يبرر طموحنا الى استكناه مقاصده . ومن الصعب أن نعيش مع الناس ما دمنا نستصعب السكوت

إن ظلمنا لا ينزل بمن تنفر منه اذواقنا بل يسقط على مَن لا يعنينا أمره وبالرغم من هـذا ، اذا كان لك صديق يتألم فكن ملجأ لآلامه ولكن

لا تبسط له فراشاً وثيراً بل فراشاً خشناً كالذي يتوسّـده المحاربون وإلا فما أنت مجديه نفعاً

واذا اساء اليك صديق فقل له : انني اغتفر لك جنـايتك عليّ ولـكن هل يسعني أن أغفر لك ما جنيته على نفسك بما فعلت ؟

هكذا يتكلم عظيم الحب ، لانه يتعالى حتى عن المغفرة والاشفاق

علينا ان نكبح جماح قلوبنا كيلا تجرّ عقولنا معها الى الضلال

أين تجلى الجنون في الارض بأشد مما تجلى بين المشفقين ؟ بل اي ضرر لحق بالناس أشد من الضرر الناشيء عن جنون الرحماء ؟

ويلٌ لـكل محب ليس في محبته ربوة لا يبلغها إشفاق الرحماء

قال لي الشيطان يوماً : إن للرب جحيما هو جحيم محبته للناس

وقد سمعت هذا الشيطان يقول اخيراً : لقد مات الاله وما اماته غير رحمته

احترسوا من الرحمة لانها لا تلبث حتى تعقد فوق الانسان غماماً متلبداً : وما انا بجاهل ما تنذر به الايام

احفظوا هذه الـكلمة ايضاً : — إن المحبة العظمى تتعامى عن رحمتها لأن لها هدفها الاسمى وهو خلق مَن تحب

— إنني أقف نفسي على حبي، وكذلك يفعل امثالي : هذا ما يقوله كل مبدع، والمبدعون قساة القلوب

هكذا تكلم زارا . . .

الكهنة

وتمثّل زارا مرور رهط من الـكهنة امامه ، فقال لاتباعه : هؤلاء هم الـكهنة ، فعليكم — وإن كانوا اعـدائي — ان تمروا امامهم صامتين وسيوفكم ساكنة في اغمادها فان بينهم ابطالا ومَن تحمّلوا شديد العذاب فهم لذلك يريدون ان يعذبوا الآخرين

انهم لاعداء خطرون ، وما من حقد يوازي ما في اتضاعهم من ضغينة ، وقد يتعرّض من يهاجمهم الى تلطيخ نفسه ، ولـكن بيني وبينهم صلة الدم وانا اريد ان يبقى دمي مشرفاً حتى في دمائهم

وعاد زارا يتمثـل انهم مروا وانصرفوا ، فشعر بألم شديد قاومه لحظة حتى

سكن روعه ، فقال : — إنني اشفق على هؤلاء الكهنة ، وانا لا ازال انفر منهم ولكنني تعودت الاشفاق مرغماً نفوري منذ صحبت بني الانسان ، ومع ذلك فأنا أتألم مع الكهنة لأنهم في نظري سجناء يحملون وسم المنبوذين في العالم ، وما كبّلهم بالاصفاد إلا من دعوه مخلصاً لهم ، وما اصفادهم إلا الوصايا الكاذبة والكلمات الوهمية ، فليت لهؤلاء مَنْ يخلّصهم من مخلّصهم

لقد لاحت لهؤلاء الناس جزيرة في البحر على حين ثارت عليهم زوبعة فنزلوا اليها فاذا هم على ظهر تنين نائم على العباب

وهل من تنين اشد خطراً على ابناء الحياة من تنين الوصايا والكلمات الوهمية وقد كمن فيها المقدور طويلاً حتى حان وقت انتباه التنين ؟ وما هو يهب مفترساً جميع من بنوا مساكنهم على ظهره

انظروا الى المساكن التي بناها هؤلاء الكهنة وقد اسموها كنائس وما هي إلا كهوف تنبعث روائح التعفن منها . وهل للروح ان ترتفع الى مستواها تحت لألاء هذه الانوار الكاذبة وفي هذا الجو الكثيف ، حيث لا يسود إلا عقيدةٌ تَصِم الناس بالخطيئة وتأمرهم بصعود درجات الهيكل زحفاً على الركب

انني لأفضل ان انظر الى اللحظات الفاحشة من ان ارى هذه العيون اطبقت اجفانها معلنة خشوعها واستغراقها

مَن ذا الذي اخترع هذه الكهوف وهذه الدرجات يرقاها النادمون زاحفين ، أهي من ايجاد مَن استحيوا من صفاء السماء فلجأوا الى الاستتار ؟

لن اعود بقلبي لألج مساكن هذا الاله إلا اذا انثلمت قبابها واخترقها نور السماء الصافية لتتكشف عن الشقائق الحمراء النابتة على جدرانها المتهدمة

لقد اراد هؤلاء الكهنة ان يعيشوا كأشلاء اموات فسربلوا جثثهم بالسواد فاذا هم القوا مواعظهم انتشرت منها رائحة اللحود

ان من يجاور هؤلاء الناس فكأنما هو ساكن على ضفة الانهار السوداء حيث لا يسمع إلا نقيق الضفادع الحزين

ليسمعني هؤلاء الناس نشيداً غير هذا النشيد لأمرِّنَ نفسي على الاعتقاد بمخلِّصهم ، إذ لا يلوح لي ان اتباع هذا المخلص قد ظفروا بالخلاص

لكم اتمنى ان اراهم عراة ، وهل لغير الجمال ان يدعو الناس الى التوبة ، ولكنهم عبارة عن فجائع مستترة لا يسعها ان تجتذب الى الايمان احداً

والحق ، ان مخلصي هؤلاء الكهنة نفسهم لم ينحدروا من سماء الحرية وما وطئوا مسالك المعرفة قط ، فما كانت حكمتهم إلا نسيجاً ملأته الخروق رقّعوه بما اوجد جنونهم من آلهة . لقد اغرقتهم حكمتهم في بحيرة الاشفاق فهم كلما زفروا فيها ارسلوا بجثة عظمى تطفو على سطحها

لقد زعق هؤلاء الرعاة بقطعانهم فمضت متدافعة في فجوة واحدة وقد علا صراخها كأن التوصّل الى مخارج المستقبل ممتنع من غير هذه الفجوة الضيقة . اما والحق ما هؤلاء الرعاة إلا فريقٌ من هذه الساعة وقد ضاقت عقولهم ورحبت نفوسهم وسرعان ما تصغر العقول اذا كبرت النفوس

لقد تركوا على كل معبر اجتازته ارجلهم آثار الدماء ، إذ كانوا يستلهمون جنونهم ليعلّموا الناس ان الدماء تقوم شاهدة للحق . وقد جهلوا ان افسد شهادة تقوم للحق إنما هي شهادة الدم ، لان الدم يقطر سماً على أنقى التعاليم فيحولها الى جنون والى احقاد

أفتقيمون للحق دليلاً من اقتحام أحد الناس للهب في سبيل تعاليمه . وهل لمثل هذا التعليم ما للعقيدة التي تتولد متقدة من لهبها نفسه ؟ اذا ما تلاقى رأسٌ بارد بقلب مضطرم نشأت من التقائهما تلك العاصفة التي يدعوها الناس مخلّصاً ولكم وجد على الارض من رجل أعرق منشأ وأرفع مقاماً ممن يدعوهم الشعب مخلصين ، وماكان هؤلاء المخلصون إلا عاصفات كاسحات تهبّ متوالية على الارض

اذا ما كنتم تنشدون سبل الحرية ، أيها الاخوة ، فعليكم أن تنقذوا انفسكم حتى ممن يفوقون هؤلاء المخلصين عظمة ومجداً . فان الانسان المتفوّق لم يظهر على الارض بعد . لقد حدّقت باعظم رجل وباحقر رجل عن كثب وهما عاريان فظهرا لعياني متشابهين ، بل رأيت اعظمهما أشد توغلاً في المعائب البشرية من الآخرين

هكذا تكلم زارا . . .

الفضلاء

لا ينبّه الشعور الغافل إلا الإرعاد والإبراق ، وما تكلم الجمال إلا بنبرات هامسة لا تنفذ إلا الى أشد الارواح انتباهاً

اسمعتني عصمتي اليوم ضحكة تعالت فيها قهقهة الجمال السامية . فجمالي يسخر بكم ، ايها الفضلاء ، إذ سمعته يقول : — إنهم يطلبون لفضائلهم ثمناً

إنكم تتقاضون ثمن فضيلتكم وتطالبون بالجزاء ، أيها الفضلاء ، طامحين الى امتلاك اماكن في السماء ، بدلاً من اماكن في الأرض ، والى الظفر بالأبدية بدلاً من الدهر الزائل

إنكم لتحقدون عليّ لانني أعلّم الناس أنّ ليس هنالك لا حسيب ولا مثيب ، والحق انني أمتنع عن القول بالثواب بل أذهب الى أبعد من هذا فأقول ان ليس للفضيلة ما تجزي به نفسها جميل الجزاء

إن ما يؤلمني هو ان العقاب والثواب قد دُسّا دَسّاً في غاية كل امر ، بل حُشرا حَشراً في اعماق نفوسكم ، ايها الفضلاء . ولكن لكلمتي ان تَلِجَ هذه النفوس ذاهبة فيها كقرن الوعل وكالسكة تشق الارض لتحرثها . فلتتكشف نفوسكم عن خفاياها امام النور ، لان الحقيقة لن تنفصل عن الضلال فيكم حتى تنطرحوا عراة تحت شعاع الشمس . ذلك لان حقيقة ذاتكم انما هي أطهر من ان تسمح بتدنسكم بكلمات الانتقام والعقاب والمكافأة والمقابلة بالمثل

إنكم تحبون فضيلتكم كما تحب الام طفلها ، وهل سمعتم ان أمّاً طلبت مكافأة على عطف الامومة فيها ؟

هل فضيلتكم إلا ذاتكم نفسها وهي اعز ما لكم ، وما امنيتكم إلاَّ امنية الحلقة التي لا تلتوي وتستدير إلا ليصبح اخرها اولاً لها

إن كل عمل ينشأ عن فضيلتكم إنما هو بمثابة نور كوكب يعروه الانطفاء ، فما يزال نوره يخترق مجراه في الافلاك ، وليس من حد ينتهي سيره اليه . وهكذا لن تزال أشعة فضيلتكم سائرة في سبيلها حتى بعد انتهاء عملها وتواريه في عالم النسيان ، لان إشعاع الفضيلة مستمر لا يعروه زوال

لتكن فضيلتكم تعبيراً عن ذاتكم وما تلك غريبة عن هذه فلا تحسبوا انها جلدٌ ورداء

هذه هي حقيقة روحكم الكامنة ، ايها العقلاء . ولكن من الناس مَن يخيَّل له أن الفضيلة عبارة عن تشنج تحت السياط الجالدة ، ولطالما سمعتم صياح هؤلاء الواهمين

ومن الناس من يرى الفضيلة في الكسل والرذيلة ، وما ينتبه عدلهم إلا عند

ما يتثاءب حقدهم وحسدهم ، عندئذ يفركون أجفانهم وقد اثقلها النعاس

من الناس من تشـدهـم شياطينهم الى أسفل فكلما تدهوروا على الدركات زادت أحداقهم توهجاً وتزايد شوقهم الى ربهم . إن صوت هؤلاء المتدهورين يبلغ آذانكم ، ايها الفضلاء وهم يصيحون : — إن كل ما هو خارج عن كياني إنما هو الله وانما هو الفضيلة

وهنالك آخرون يتقدمون مثقلين مقرقعين كأنهم عجلات تحمل صخوراً الى الوادي ، وهؤلاء الناس لا ينون يتكلمون عن الفضيلة ، وما الفضيلة في عرفهم إلاّ عبارة عن كابح عجلاتهم

وهنالك قوم أشبه بالساعات يربط زنبركها فتسمعك تكتكتها وهم يريدون ان تدعى حركتهم الآلية فضيلة . إنني ألهو بمشاهدة مثل هذه الساعات لأنني ما صادفتها مرة إلا ربطت زنبركها بتهكـمي واكـرهتها على تحريك رقاصهـا

وهنالك المغترّون بذرة من العدل ترتفع فيهم على جبل من الدعوى فتراهم يجدفون على كل شيء الى ان يغرقوا العالم بظلمهم ، وما تخرج كلمة الفضيلة من أفواه هؤلاء الناس إلا وتحسب انهم يتجشأونها ، واذا قال احدهم : — لقد عدلت ، فكأنه يقول : — انتقمت

هؤلاء من يريدون ان يفقـأوا أعين اعدائهم بفضيلتهم وما يطلبـون من الاعتلاء إلا إسقاط سائر الناس

وهنالك مَن يدبّ اليهم الفساد كأنهم ماء آسن في المستنقعات . فهؤلاء الناس يعلنون انهم لا ينهشون أحداً ويتحاشون الالتقاء بالناهشين ، فاذا عرض عليهم أي رأي اخذوا به تفادياً لكل اخذ وردّ

وهنالك عشاق الحركات المعتقدون بان الفضيلة نوعٌ من الايمان فتراهم في كل حين جاثين على ركبهم وقد قبضت إحدى راحتيها على الأخرى تمجيداً للفضيلة وما يدرك قلبهم منها شيئاً

وهنالك مَن يرون الفضيلة في القول بلزوم الفضيلة وهم لا يعتقدون إلا بلزوم ردع الشرّ بالقوة

وبعض مَن امتنع عليهم إدراك ما في الانسان من صفات عليا لا يذكرون الفضيلة إلا عندما يحدقون بما فيه من دنايا وهكذا لا تنشأ فضيلة هؤلاء القوم إلا من عيوب عيونهم

من الناس مَن يطلب المعرفة وتقويم ما التوى فيه فيدعو هذه النزعة فضيلة، ومنهم مَن يطلب قلب كيانه رأساً على عقب فيدعو هذه الرغبة فضيلة ايضاً، وهكذا ترى الجميع يعتقدون بوجود الفضيلة في ناحية من نواحي كيانهم وتراهم يتجهون الى معرفة ما فيهم من خير وشر . غير ان زارا قد جاء الى جميع هؤلاء المخادعين والى جميع هؤلاء المجانين ليقول لهم انهم لا يعرفون عن الفضيلة شيئاً وان ليس في وسعهم ان يعرفوها

ما اتى زارا إلا ليشعركم بأنكم تعبتم من تكرار الاقوال القديمة التي علّمكم إياها المخادعون والمجانين، فينفّركم من كلمات المكافأة والمقابلة بالمثل والعقاب والانتقام في العدل لتقلعوا عن القول بصلاح الاعمال عند تجردها عن الغايات

لتكن ذاتكم متجلية في عملكم كما تتجلى الأم في طفلها وليكن هذا التعبير ما تعرّفون الفضيلة به

والحق اني انتزعت منكم كثيراً من اقوالكم وسلبتكم أعزّ ما تتلهون بعضه عن الفضيلة، لذلك اراكم تزورّون كالأطفال . وقد كنتم مثلهم تتسلون بالعابكم على الشاطىء فطغت موجة انتزعتها من بين ايديكم وحملتها الى العباب، فها انتم تعولون الآن كهؤلاء الأطفال، غير ان الامواج ستكرّ راجعة حاملة اليهم العاباً جديدة ناثرة بين ايديهم الأصداف المخططة، وانتم ايضاً ايها الصحاب ستتسلون مثلهم حين تأتيكم التعزية ناثرة بين ايديكم الأصداف المخططة

هكذا تكلم زارا . . .

الوغد

ما الحياة الا ينبوع مسرة، ولكن أيان شرب الوغد فهنالك جدول مسموم احب كل ما هو نقي، ولكنني لا احتمل رؤية الاشداق تتثاءب معلنة ظمأ الارجاس، وقد جاؤوا يسبرون اعماق البئر بأنظارهم فانعكست في قرارتها ابتسامتهم الشنعاء توجه سخريتها اليّ .

لقد دنّسوا المياه المقدسة بارجاسهم، وما تورّعوا فدعوا احلامهم القذرة سروراً فدسّوا سمومهم حتى في البيان .

إن اللهب يتعالى مشمئزاً عند ما يعرضون قلوبهم المائعة عليه، والروح

نفسها تغلي وتتصاعد بخاراً عندما يقترب الاوغاد من النار ، والاثمار نفسها يفسد طعمها وتتراخى عند ما يلمسونها بايديهم ، واذا ما حدجوا بانظارهم الاشجار المثمرة فانها لتجف على اعراقها .

لكَمْ من مُعرض عن الحياة لم ينفّره منها سوى الوغد الزنيم ، فعافها اذ لم يشأ ان يقاسم هذا الوغد ما عليها من ماء ولهب واثمار .

لكَمْ من شارد لجأ الى الصحراء متحملاً السُعّار عائشاً بين الوحوش كيلا يجلس الى بئر يدور بها حداة العيس بما عليهم من اقذار .

ولكمْ جاء الارض من مكتسحٍ اشبه بالبرَد المتساقط من السحاب ولا امنية له سوى ضرب قدمه في اشداق الاوغاد ليسد حناجرهم .

ما صعب عليّ الاعتقاد باحتياج الحياة الى العداء والقتل والاستشهاد كما صعب عليّ التسليم بضرورة وجود الوغد الزنيم فيها .

أمن ضرورة الحياة هذه الينابيع المسمّمة والنيران المشبوبة تفوح بالروائح الكريهة وهذه الاحلام الرجسة وهذه الديدان ترتعي في خبز الحياة ؟

ليس العداء ما قرض حياتي بل الكراهة والاشمئزاز . ولكم استثقلت الفكر نفسه عند ما رأيت شيئاً من الفكر في رأس الوغد الزنيم .

لقد ولّيت ظهري للحاكمين عند ما ادركت معنى الحكم في هذه الازمان وتأكدت انه متاجرة بالقوة ومساومة الاوغاد عليها .

استولى اليأس عليّ فاجتزت مراحل الماضي والمستقبل وانا اسدّ انفي اذ انتشرت عليّ منها روائح البيان السخيف

لقد عشت طويلاً كالكسيح اصابه الصمم والعمى والخرس كيلا اعايش اوغاد السلطة وزعانف الاقلام والمسرات

ارتفع فكري درجة فدرجة وهو يعاني من حذره ما يعاني ولا عزاء له الا بالغبطة ، وهكذا مرت حياة الاعمى وهو يتوكأ على عصاه

ما حدث لي يا ترى ؟ وما الذي انقذني من اشمئزازي واعاد النور الى عينيّ وكيف تمكنت من ارتقاء المرتفعات حيث الينبوع الذي لا يحيط به الاوغاد ؟

أهي الكراهة نفسها استنبتت جناحيّ واوجدت لي القوة للاهتداء الى مفجر الينابيع ؟ والحق انني ارتقيت الذروة ، ولو لم ابلغها لما وجدت ينبوع الغبطة والسرور .

لقد وجدته ، ايها الاخوة ، فرأيته يتدفق على الذروة غبطة وحبوراً ، فاهتديت الى المكان الذي يتاح فيه للانسان ان يروي ظمأه دون ان يعكر عليه الاوغاد الادنياء

إنك لتسيل بشدة ، أيها الينبوع المتفجر بالغبطة فتفرغ الكأس التي تملأها دهاقا .

عليّ ان اتمرّن على الاقتراب منك بتؤدة ، ايها الينبوع فان قلبي يندفع بعنف الى مسيلك . لقد استولى اليأس مع الحبور على هذا القلب الذي تمرّ عليه بحرّها ايامُ صيفه فهو يتشوّق الى مياهك تنزل عليه برداً وسلاما .

لقد انقضت احزان ترددي في الربيع واذاب الصيف ثلوج نقمتي ،فاصبحت وكل جوارحي تتوق الى الاصطياف . ان خير الراحة ما تُنتجع في اعالي الجبال قرب الينابيع الباردة . اليّ ايها الاصحاب لنحوّل هذه الراحة الى غبطة وحبور فهذه ذروتنا ، وهنا موطننا حيث نعتصم بالصخور فلا يبلغها الأرجاس ولا يصل اليها عطشهم المدنس .

ارسلوا انظاركم الطاهرة على ينبوع مسرتي ، ايها الاصحاب ، فانها لن تعكره بل تُبقي على نقائه فيبتسم لكم .

هنا تتعالى دوحة المستقبل ، فلنبنِ لنا عشاً بين اغصانها فتجيء الينا العقبان حاملة لنا الغذاء ، نحن المنفردين .

ذلك عزاء لا يستطيع الارجاس مقاسمتنا إياه فهو النار تحرق اشداقهم . وما نعدّ هنا مساكن للمدنّسين ، فان سعادتنا تلفح اجسادهم وارواحهم . ونحن نريد ان نحيا فوقهم فنهبُّ كالرياح في مسارح العقبان ومطالع الشموس .

انني سأعصف كالريح الصرصر على الارجاس فأخمد انفاسهم بانفاسي ، ذلك هو المقدور . فما زارا الا ريح عاصفة ترهق الاعماق ، وهو ينصح اعداءه وكل متقيء نافث بألا يبصقوا في وجه الرياح .

هكذا تكلم زارا ...

العناكب

هذا هو العنكب ، فاذا كنت ترغب في مشاهدته فالمس نسيجه ليتحرك ويسرع بالظهور ، أهلا بك ايها العنكب ، إنني أرى على ظهرك شعاراً أسود مثلّث .

الزوايا ، وما يخفى عني ايضاً ما تضمر من النقمة في سريرتك

ان لسعادتك بقعاً قاتمة على الجلود، ولها سمها المضلل في النفوس، ايها العنكب، انني اخاطبكم بالرموز ، أيهـا العناكب المضللون المبشرون بالمساواة ، فمـا انتم في نظري إلا مستودع لعواطف الانتقام

سأكشف عن مكانكم وانا أواجهكم بقهقهـة تسقط عليـكم من الذرى ألتي أتسنَّمُها . وهأنذا أمزِّق نسيجكم حتى اذا تملـكـكم الغضب خرجتم من مغاور اكاذيبكم وتدفقت نقمتكم بكلمة العدل التي تتفوهون بها

لقد وجب عليَّ أن أنقذ الانسان من عاطفة الانتقام ، وهذا الواجب هو المعبر المؤدي الى أشرف الآمال ينتصب فوقه قوس قزح بعد هبوب العواصف الـكاسحات . ولـكن إرادة العناكب لا تتجه الى هذه الغاية ، فهم يتناجون فيما بينهم قائلين : لا عدل إلا في عواصف انتقامنا تهب على العالم لتلقي العار على كل من ليس منا

وهم يقولون ايضاً : ما من فضيلة إلا في طلب المساواة ، فلنرفع عقيرتنا ضد كل سلطان

آي كهَّان المساواة ! لقد تسلط عليكم جنون عجزكم ، فهتفتم بهذه المساوة وقد كمنت شهوة عتوكم واستبدادكم وراء ما تعلنون من الفضائل

إنني أرى فيكم الغرور المتمرس والحسد المقيم ، ولعل الحسد الذي رعى قلوب اسلافكم يتعـالى منكم الآن لهباً يندلع بجنون الانتقام ، وما الابناء إلا مظهر ما أضمر الآباء . ولكم أفشى الابنُ سرَّ ابيه !

إن لهؤلاء الناس مظهر المتحمِّسين ، وما تلهب حماسهم المحبةُ بل الانتقام . وإذا مابدت لك منهم رصانة ومرونة ، فما مصدرها فيهم العقل بل الحسد المهيب بهم الى التفكير . ودليل حسدهم هو أنهم يندفعون دائماً الى أبعد من مراميهم فيطرحهم العياء على وساد الثلوج

وما تسمع لهؤلاء الناس انيناً يخلو من نبرات الانتقام، فكل ما يصدر عنهم من مديح ينطوي على أذية ، فهم يرون منتهى السعادة في إقامة انفسهم قضاة على العالمين . فاصغوا الى نصيحتي ، ايها الأصدقاء : احذروا مَنْ تغلَّبت عليهم غريزة إنزال العقاب . لأنهم متحدرون من أفسد الانواع وعلى وجوههم سيماء الجلاَّدين

إحذروا مَن لا ينقطعون عن ذكر عدالتهم فان نفوسهم خالية من كل صفة حميدة، واذا ما هم ادَّعوا الصلاح والانصاف فلا تنسوا انهم لم يتخذوا بين الفريسيّين مقامهم إلا لما يشعرون به من عجز

إنني اربأ بنفسي، ايها الصحاب، ان تنزلوها بين هؤلاء الناس فلا تميّزون بيني وبينهم . فهنالك من يذيعون تعاليمي عن الحياة وهم في الوقت نفسه ينادون بالمساواة وينتمون الى العناكب المسمومة، هم يدافعون عن الحياة ولكنهم يعرضون عنها قابعين في مغاورهم ليتمكنوا من اجتراح الشرور والايقاع بمن يقبضون على زمام السلطة في هذا الزمان، وقد تعودوا إنذارهم بالسقوط، ولو أن السلطة كانت في يد العناكب لكانت تعاليمهم تتخذ شكلاً آخر، لأنهم عرفوا فيما مضى، اكثر مما عرف غيرهم، كيف يوقدون المحارق ويرهقون مخالفيهم اضطهاداً وتعذيباً

لا اريد ان أحسب من هؤلاء المنادين بالمساواة لان العدالة علّمتني : (ان لا مساواة بين الناس) وإنه من الواجب ألا يتساووا، وليس لي ان اقول بغير هذا المبدأ وإلا فان محبتي للانسان تصبح ادعاءً وميناً . . .

على الناس ان يسيروا على آلاف الطرق وآلاف المعابر مسارعين نحو آتي الزمان فتنشأ بينهم الحروب وتتسع شقة التفاوت بينهم على مر السنين، ذلك ما الهمنى إياه حبي العميم

يجب ان يقيم الناس في اعماق سرائرهم مُثُلاً عليا واشباحاً يجاهدون في سبيلها فيسير الصالح والطالح والغني والفقير والرفيع والوضيع الى التصادم بجميع ما في الارض من نظم فتضطرم الحروب سلاحاً لسلاح ورمزاً لرمز لان على الحياة ان تتفوّق ابداً على ذاتها

إن الحياة تتجه الى الارتقاء بدعائمها ودرجاتها، فهي تتطلع الى الآفاق البعيدة ما وراء الجمال المقتعد عرش غبطته، لتبلغ مستقرّها في أعالي الذرى

إنّ الحياة بحاجة الى ارتقاء المرتفعات، فلا غنى لها عن الدرجات والدركات، ليعارض المنخفضون المرتفعين، إنها لفي حاجة الى التفوق على ذاتها وهي متجهة الى الارتقاء

انظروا، أيها الصحاب، ها هي مغارة العناكب وقد لاحت فيها خرائب هيكل قديم فارسلوا عليه نظرات المستلهمين

والحق أن من جمع افكاره قديماً ليرفعها صرحاً من الصخر ينطح السحاب كان كأحكم الحكماء عارفاً باسرار الحياة

إن الجمال نفسه ليقوم على التفاوت والمجالدة في القوة والتفوق، وهذ ما يعلمنا إياه هذا الحكيم بأشد الرموز إشراقاً

هنا تتدافع القباب والنوافذ في عراك جلل فتهاجم الظلمةُ النور ويهاجم النورُ الظلمة كأنهما إلهان ينازل احدهما الآخر

اقتدوا بهذا الرمز، انتم ايضاً في مجال الجمال والثقة بالنفس. لنكن نحن ايضاً اعداء فيما بيننا ايها الصحاب

وليحشد كل منا قواه ليحارب الآخرين

ويلاه، لقد أُصبت انا ايضاً بلسعة العنكبة عدوتي القديمة فقد توصلت بثقتها بنفسها وبجمالها الآلهي الى نوال بناني بلسعتها، وها هي تقول الآن: لابد من إنزال العقاب، لابد من ان يأخذ العدل مجراه، فانك تغنيت بعظمة السرائر، فلن يذهب إنشادك جزافاً

أجل لقد انتقمَتْ، ويلاه انها ستوجه نفسي الى عاطفة الانتقام

تقدموا ايها الصحاب وقيدوني بهذا العمود كيلا اتحول عن مبدئي فخير لي ان اصبح تمثالا جامداً من اهبّ كعاصفة منتقمة

لن يكون زارا عاصفة وإعصاراً، فما هو إلا رقّاص ولكنه ليس رقاص عناكب... (1)

مشاهير الحكماء

جميعكم ايها الحكماء المتمتعون بالشهرة، قد خدمتم الشعب وما يؤمن به من خرافات، ولو انكم خدمتم الحقيقة لما كرّمكم احد، ومن اجل هذا احتمل الشعب شكوككم في بيانكم المنمق لأنها كانت السبيل الملتوي الذي يقودكم اليه. وهكذا

---

(1) ما تخبط زارا بمثل تخبطه في هذا الفصل، فهو القائل بسحق الضعفاء وتطهير الارض من الدخلاء او الذين يدعوهم بهذا الاسم ولكنه الآن لا يريد ان يكون عاصفة واعصارا. فهو يكتفي بان يكون رقاصا لا نتيجة لحركته عند ما يقتحم مبدأه نصرة الضعفاء والمطالبة بحق الشعوب، غير انه لا يصل الى آخر فصله حتى ينقض بعبارة واحدة كل ما اراد اثباته

يوجد السيد لنفسه عبيداً يلهو بضلالهم الصاخب . وما الانسان الذي يكرهه الشعب كره الكلاب للذئب إلا صاحب الفكر الحر عدو القيود الذي لا يتعبّد ولا يلذ له إلا ارتياد الغاب

إن ما حسبه الشعب في كل زمان روحاً للعدل إنما هو العدو الكامن المترصد لروح الحرية يستنبح عليها أشد كلابه افتراساً وقد قيل في كل زمان (لا حقيقة إلا في الشعب فويل لمن يطلبها خارجاً عنه)

لقد أردتم ان تؤيدوا الشعب في ما يبدي من خشوع وإجلال ، فدعوتم هذه المذلة (إرادة الحق) فيا لكم من حكماء

غير انكم كنتم تقولون في انفسكم لقد نشأنا من الشعب وصوت الشعب هو صوت الله ، فكنتم كالحمار الصبور المراوغ تعرضون وساطتكم على الشعب ، ولكم من ذي سلطان اراد ان توافق عجلته ذوق الشعب فقطر لجرّها حماراً صغيراً ، حكيماً مشهوراً . . .

فيا مشاهير الحكماء ، إنني أطلب منكم ان تخلعوا عنكم ما تتلبسون به من جلود الأسود وجلود الوحوش الكاسرة المخططة وفراء المستكشفين للمجاهل والفاتحين . إذ لا يسعني ان اؤمن بالحقائق التي تنادون بها ما لم تقلعوا عن بذل التبجيل والتعظيم ، فما رجل الحق إلا الضارب في القفار ولا إله له لأنه حطّم بين جنبيه التبجيل والتعظيم واذا هو تلفت ورمال الصحراء تحرق قدميه الى الواحات حيث يتدفق الماء الزلال ، ويمتد وارف الظلال ، وترتاح الحياة ملقية عصا الترحال ، فلا يقتاده الظمأ الى الاتجاه نحوها طلباً للاغتباط بين المغتبطين لأنه يعلم ان لكل واحة اصنامها ، وما يريد الأسد إلا الانفراد محرراً من عبودية الارباب ومن سعادة المستبدين ، بعيداً عن الآلهة والمتعبدين وعن الخوف ومُنزليه في القلوب ، ذلك ما يصبو رجل الحق اليه . وما عاش رجال الحق إلا في القفار يسودونها بانطلاق تفكيرهم في مجالها الوسيع . وهل في المدن إلا مشاهير الحكماء يتناولون خير الغذاء كذوات الضرع تُغذّى لتُحلب. انهم يجرّون عجلة الشعب وقد كُدنوا بها كالحمير

وما انا بالناقم عليهم ولكن ليعلموا انهم خَدَمٌ مشدودون الى عجلة وما يرفع من ذلّهم توهج الذهب على العجلة التي يجرونها

ولطالما اخلص هؤلاء الناس في خدمتهم فاستحقوا الثناء لان الحكمة تقضي بان يفتش الخادم عن سيد يستفيد من خدماته

لقد وجب ان يتسامى عقل سيدك وتعلو فضيلته لانك بهما تعلو انت

والحق انكم قد علوتم بارتقاء عقل الشعب وفضيلته ، ايها الحكماء الخادمون للشعب كما اعتلى هو بكم ، وما أعلن هذا لتمجيدكم ، فانكم قد بقيتم انتم شعباً حتى في فضائلكم ، وما تزالون شعباً لا بصيرة له ولا يدرك للعقل معنى

إنما العقل حياة تمزق الحياة تمزيقاً ، وما تزداد الحياة معرفة إلا بما تتحمل من آلام ، فهل كنتم لهذه الحقيقة عارفين ؟

لا يُسعَدُ العقل إلا اذا مُسح بالدموع وتُوِّج بالتضحية فهل كنتم لهذه الحقيقة عارفين ؟

إن عماء الضرير وتلمسه لطريقه إنما هو شهادة لقوة الشمس ، التي حدّق بها فهل كنتم لهذه الحقيقة عارفين ؟

على طالب المعرفة ان يتعلم البناء باستخدامه الجبال حجارة لاقامة صرحه ، وما يصعب على العقل ان ينقل الجبال ، فهل كنتم لهذه الحقيقة عارفين ؟

إنكم لا تلمحون من العقل إلا ما يقذف به من شرر ، فلا تعرفون أيّ سِندانٍ هو هذا العقل، ولا تعرفون ايضاً قساوة المطرقة التي تتهاوى عليه

والحق إنكم تجهلون كبر العقل ويصعب عليكم احتمال تواضعه لو اراد تواضع العقل ان يعلن حقيقته

إنكم ما تمكنتم في أي زمان من إرسال عقلكم الى مهاوي الثلوج ، فما بكم الحرارة الكافية لاقتحامها ، ولذلك لا تدركون لذة من تنعشه لفحات هذه المهاوي ، غير انني اراكم بالرغم من هذا تتقدمون على مداعبة التفكير، وقد جعلتم الحكمة ملجأ ومستشفى للمتشاعرين . . .

لستم عقباناً ايها الحكماء المشتهرون ، فانتم إذاً لا تدركون ما يلذ العقل من لذة في ارتياعه ، فلا يحق لغير المجنّح ان يخترق الهواء فوق الوهاد

ما انتم إلا فاترون ايها الحكماء ، وفي كل معرفة عميقة يهبُّ تيارٌ من الصقيع لانّ ينابيع العقل الخفية باردة كالثلج ولا تلذ ببردها غير الايدي الملتهبة بحرارة جهادها

إنني اراكم امامي ايها الحكماء المشتهرون ملفّعين بقساوتكم جامدين على غروركم فما للريح ان تدفعكم ولا للارادة ان تهيب بكم الى الإقدام

أما رأيتم على مضطربات الأمواج شراعاً خفاقاً يندفع وقد عصفت في ثنياته هوجاء الرياح . إن حكمتي تجتاز العمر خافقة كهذا الشراع وقد ملأتها عواصف التفكير ، تلك هي حكمتي الشاردة النفور . فهل لكم ان تجاروني في اندفاعي أنتم يا مَنْ تخدمون الشعب ، أنتم مشاهير الحكماء

هكذا تكلم زارا . . .

نشيد الليل

لقد أرخى الليل سدوله فتعالى خرير المياه المتدفقة ، ولنفسي ايضاً ينبوعها المتفجر

لقد أرخى الليل سدوله فتعالت الاناشيد من أفواه جميع المغرمين ، وما روحي إلا نشيد من هذه الاناشيد . إن في داخلي قوة ثائرة تريد إطلاق صوتها وهي شوق الى الحب بيانه بيان المغرمين . أنا نور وليتني كنت ظلاماً ، وما قُضي عليَّ بالعزلة والانفراد إلا لانني تلفّعت بالانوار . ولو انني كنت ظلاماً ، لكان لي ان ارسل بركتي اليكِ ايتها النجوم المتألقة كصغيرات الحباحب في السماء فاتمتع بما تذرّين عليَّ من شعاع . غير انني أحيا بانواري فأتشرّب اللهب المندلع من ذاتي وقد حرمت لذة الآخذين ، وقد خطرلي مراراً أن في السرقة من اللذة ما ليس في الاخذ

إن يدي لا تقف عن البذل وذلك هوفقري فأنا أنظر ابداً الى العيون يملأها الانتظار والى الليالي تلهبها الأشواق ، وذلك هو الحسد الذي يقضّ مضجعي

يا لشقاء الواهبين . . . يا لظلمة شمسي ويا لشوقي الى الاشتياق ويا لشدة المجاعة في شبعي

إنهم يأخذون ما أهبهم ولكنني ابقى بعيداً عن ارواحهم فان بين الباذل والآخذ هوة عميقة ، ولعل أقرب الأغوار قعراً أصعبها ردماً

إن نوعاً من الجوع ينشأ في أحشائي فيحفزني الى إيلام من ارسل اليهم انواري ، فأتوق الى سلب من أغدق عليهم هباتي وهكذا اتعطش الى إيقاع

الأذية فأرد يدي بعد ان أكون مددتها وأتردّد تردد الشلاّل في تدفقه نحو مراميه

إن مثل هذا الانتقام يراود عظمتي ، ومثل هذا المكر ينشأ من عزلتي

لقد فقدت السعادة في العطاء لوفرة ما أعطيت وقد زهقت فضيلتي من نفسها ومن جودها ، إن مَنْ يستمرّ على بذل الهبات مهدد بفقد الحياء . ولا بد أن تتصلب راحته ويتصلب قلبه

لم تعد ماقيّ تذرف الدموع على خجل المسترحمين وها إن يدي قست حتى امتنع عليها أن تشعر بارتعاش الايدي اذا امتلأت

أين هي دموع عينيّ واين رقة قلبي . فيا لوحدة جميع الواهبين ويا لصمت كل متلفع بالسَناء

إن شموساً لا عداد لها تدور في قفار الأجواء مخاطبة باشعاعها لبدات الظلام وأنا وحدي محروم من حديث هذه الشموس وبيانها

ويلاه ! اية علاقة يمكن ان تربط الأنوار بالأجرام المنيرة من نفسها ؟ فان الانوار تمرّ عليها وهي تحدجها بلفتات الجفاء وتمضي ذاهبة في سبيلها ، وهكذا تسير جميع الشموس في أجوائها نافرة من كل جرم منير باردة لا تحس اخواتها بحرارتها

ان الشموس تندفع كالعاصفات في ابراجها متبعة ما اختطته إرادتها الجبارة وفي ذلك كتمان حرارتها وبرودتها

هل غيرك أيتها الأجرام الملفعة بظلام الليل من يخلق حرارة من اللمعان ؟ أنت وحدك ترضعين أفاويق القوة من أثداء النور

ويلاه ان الصقيع يدور بي ويدي تحترق من لفحات الجليد ، فانا مشتعل بسُعّار لا يطفىء أواره غير عطشكم ، لقد سادت الظلمة فلماذا قضي عليّ ان اكون نوراً منفرداً متعطشاً الى الظلام ؟

لقد سادت الظلمة فتدفقت كالجداول اشواقي وهي تريد ان تهتف بما تضمر

لقد أرخى الليل سدوله ، فتعالى خرير المياه المتدفقة ولنفسي ايضاً ينبوعها المتفجر

لقد ارخى الليل سدوله فتعالت الأناشيد من أفواه جميع المغرمين ، وما روحي إلا نشيد من هذه الاناشيد
هكذا تكلم زارا . . .

نشيد الرقص

ومر زارا بالغاب يوماً ومعه صحبه فاكتشف وهو يفتش عن ينبوع مرجاً منبسطاً بين الاشجار والأدغال . وكان هنالك رهط من الصبايا يرقصن بعيداً عن اعين الرقباء . واذ لحن القادم وعرفنه توقفن عن الرقص ولكن زارا اقترب منهن وخاطبهن قائلا :

— داومن على رقصكن ، ايتها الآنسات الجميلات ، فما القادم بمزعج للفرحين وما هو بعدو للصبايا . انا من يدافع عن الله امام الشيطان ، وما الشيطان الا الروح الثقيل فهل يسعني ان اكون عدواً لما فيكن من بهاء ورشاقة وخفة روح وهل لي ان اكون عدواً للرقص الالهي ترسمه مثل هذه الاقدام الضوامر الرشيقات . . . ؟

لا ريب في انني غابة اشتبكت فيها قاتمات الاشجار وساد الحلك على ارجائها ولكن من يقتحم ظلماتي بلا خوف ليجدن تحت سرواتي الرهيبات طرقاً تحف بجانبيها الورود .وليجدن ايضاً الاله الصغير الذي تشتاقه الصبايا منطرحاً بسكون قرب الينبوع وقد اغمض عينيه

لقد نام في وقت الظهيرة ، هذا الاله المتراخي ، ولعله سعى طويلا ليصطاد من الفراشات عدداً كبيراً .

لا يكدركن مني ايتها الراقصات الجميلات تأديبي لهذا الاله الصغير ، ولعله يصيح ويبكي ولكنه اله يجلب المسرة حتى في بكائه . فلسوف اقتاده اليكن والدموع سائلة على خديه ليطلب اليكن ان ترقصنه ، واذا ما رقص فسأرافقه انا بانشادي فما تجيء نغماتي الا هزيجاً اصفع به الروح الثقيل ، روح الشيطان المتعالي الذي يقول الناس انه يسود العالم

وهذه هي الاغنية التي رفع زارا صوته بها بينما كان (كوبيدون) إله الحب يرقص مع الصبايا الفاتنات :

« لقد حدقت يوماً في عينيكِ ، ايتها الحياة ، فحسبتني هويتُ الى غور بعيد

القرار . غير انك سحبتني بشابك من ذهب واطلقتِ قهقهةً ساخرة عند ما قلتُ إن غدرك لاقرار له . وأجبتني :— هذا ما تقوله الاسماك جميعها ، فهي إذ تعجز عن سبر الاغوار تحسبها لاقرار لها . وهل انا الا المتقلّبة النفور ؟ وهل انا الا امرأة ، وامرأة لا فضيلة لها . لقد تقوّل الناس كثيراً عن صفاتي ولكنهم اجمعوا على انني غير المتناهية ، المليئة بالاسرار

ايها الناس ، انكم ترون فضائلكم فيّ ، فأنتم لاقِبَل لكم بادراك شيء آخر غيرها ايها الفضلاء . . .

هذا ماكانت تقهقه به فيسخريتها تلك الحياة، غير انني لا أثق بها ولااصدق ضحكها عند ما تهجو نفسها

وناجيت يوماً حكمتي النفورة فقالت لي غاضبة :— إنك تطلب الحياة وتشتاقها وتحبها وذلك ما يحفز بك الى بذل الثناء عليها

ولولا أنني تمالكت نفسي لكنت رددت بعنف على حكمتي وأعلنت الحقيقة لها وهي تغاضبني وهل من جواب أشد وقعاً على الحكمة من ان تهتك سرائرها

ما أحب شيئاً من صميم الفؤاد الا الحياة ، ولا يبلغ حبي لها أشده الا حين اكرهها . واذا ما انا اندفعت الى الحكمة وأغرقت في الالتجاء اليها فما ذلك الا لأنها تبالغ بتذكيري بالحياة . فان للحكمة عينيّ الحياة ولها ابتسامتها ، بل لها ايضاً شابكها المذهّب ، فما حيلتي بهما اذا تشابهتا الى هذا الحد ؟

وعند ما سألتني الحياة عن الحكمة أجبتها : هي الحكمة يشتهيها الانسان بكل قوته ولا يشبع منها . فهو يحدّق فيها ليتبيّن وجهها من وراء القناع ويمد اصابعه بين فرجات شباكها متسائلاً عن جمالها وما يدريه ما هو هذا الجمال ومع هذا فان اقدم الاسماك لاتنفك عن الانجذاب الىطعمة شباكها فهي متقلبة شديدة المراس . ولكم رأيتها تعض على شفتها وتسرّح بشعرها ، ولعلها شريرة ومخادعة، بل لعل لها صفات المرأة بأجمعها فهي لا تبلغ ابعد مداها في اجتذاب القلوب الا عند ما تهجو ذاتها . . .

وبعد ان قلت هذا عن الحكمة للحياة ، مرت على شفتيها ابتسامة شريرة وغيّضت من جفنيها قائلة :— عمّن تتكلم . . . لعلك تتكلم عني انا . . . وهل للانسان ان يعلن مثل هذه الامور بوجه من تعنيه حتى ولو كان محقاً . فما قولك الآن في حكمتك يا هذا . . . ؟

وفتحت الحياة المحبوبة عينيها فحسبتني عدت الى التدهور في الهاوية البعيدة القرار

هذا ما تغنّى به زارا وما انتهى الرقص وتوارت الصبايا عن ابصاره حتى تملكه حزن عميق فقال : لقد اختفت الشمس وترطب المرج وقد بدأ الغاب يرسل لفحاته الباردات . ان شيئاً مجهولاً يدور حولي ويحدجني قائلا : — ألم تزل على قيد الحياة ، يازارا ؟ ولماذا انت حيٌّ بعد ؟ وما هي فائدة هذه الحياة ؟ ما هو مصدرك والى اين مصيرك أفليس من الجنون ان تبقى في الحياة ؟

ويلاه أيها الصحاب ، ان ما يتناجى فيَّ انما هو الغَسَق فاغتفروا لي شجوني لقد جاء المساء فاغتفروا لي قدوم المساء . . .

هكذا تكلم زارا . . .

نشيد القبور

هنالك جزيرة القبور ، جزيرة الصمت والسكون ، وهنالك ايضاً أجداث شبابي ، فلأحملنّ اليها إكليلاً من الأزاهر الخالدات

بهذا ناجيت نفسي ، فقررت أن أقتحم الغمر

يا لصور الشباب وأشباح أحلامه ، يا للحظات الغرام ! يا لأويقات الحياة الإلهية ! لقد ترامَيتِ سريعاً الى الزوال ، فاصبحت أستعرض ذكرياتك كما أستعرض خيال الأحبة الراقدين في القبور

إن نفحات الطيب تهبُّ منك يا اعزَّ المضيَّعات فتروِّح عن قلبي وتستقطر مدامعي ، انها لنفحاتٌ تستنبض قلب العائم وحيداً على العباب

انا المنفرد أراني أغنى الناس وأجدرهم بالغبطة لأنك كنت لي يوماً أيتها الذكريات ولمّا ازل انا لك ، فقولي لي : على مَ تساقطت ثمراتك الذهبية عن أغصانها ؟

إنني لم ازل منبتاً لغرامك الذي اورثتنيه يا أيام الشباب وبذكرك تنوّر فضائلي بعد وحشتها بعديد ألوانها الزاهية

وآسفاه ، ماكان اولاك بألاَّ تفارقيني ، أيتها الأيام الساحرات فقد اقتربت اليَّ والى شهواتي لا كأطيار يسودها الذعر بل كأطيار تستأنس بالواثق بنفسه

أجل لقد كنتِ معدَّة مثلي للبقاء على العهد الى الأبد ، يا اويقات الشباب ،

وليس لي أن ادعوك خائنة وقد وصفتك بالأويقات الإلهية . لقد مررت سراعاً ايتها الأويقات الهاريات وما هربت مني ولا انا هربتُ منك فما انا مسؤول ولا انت ايضاً عن خيانتك وعن خيانتي

لقد اماتوك طلباً لقتلي ، يا اطيار آمالي وصوبت الشرور سهامها نحوك لتصل مخضبةً بالدماء الى قلبي فاصابت هـذه السهام مقتلاً مني لانك كنت اعز شيء لدي بل كنت كل ما املك ، لذلك قُضي عليك بالذبول في صبـاك والزوال قبل اوانك

لقد صُوّبت السهامُ اليك وانت أنعم من الحرير واضعف من ابتسامة تمحوها نظرة قاسية

فليسمع اعدائي ما اقول :

— إنّ القتل اخف جرمـاً من جنايتكم عليّ ، فقد سلبتموني ما لا قبل لي بالاستعاضة عنه بشيء ، ذلك ما اقوله لكم ، ايها الاعداء . افما قتلتم أحلام شبابي وحلتم دون اتياني بمعجزاتي ؟ لقد سلبتم مني تفكيري ، وهأنذا احمل هذا الاكليل لتذكاره حاملاً معه لعنتي لكم ، ايها الأعداء ، لانكم قصّرتم مدى ابديتي فانقطعت كأنها صوت ينقطع في الزمهرير تحت جنح الظلام فما تسنى لي ان انظر الى هذه الأبدية الاّ لمحاً لأنها توارت عني بطرفة عين

واتت ساعة ناجتني فيها طهارتي قائلة :

— يجب ان تكون جميع الكائنات إلهية ، وانتِ ارسلتِ اليّ الأشبـاح المدنسة ، يا ايام الشباب ، فانقضت تلك السانحة وعادت حكمة الشباب تقول لي : (يجب ان تكون جميع الايام مقدسة في نظري) وما هذه الكلمة إلا كلمة الحكمة المرحة . وعندئذ اتيتم ايها الاعداء فحولتم ليالي راحتي الى أرق وهموم ، فأين توارت هذه الحكمة المرحة ؟

لقد كنت فيما مضى اتوقع السعادة فأرسلتم على طريقي بومة مروعة مشئومة فتبددت امانيّ العِذاب

نذرت يوماً ان ارتجع عن كل كراهة ، فحولتم كل ما حولي الى قروح ، فأين مضت مُخلصات نذوري الطاهرات ؟

لقد مررت على سبيل السعادة كفيف البصر فرميتم على طريق الاعمى كوماً من الاقذار فأصبحت كارهاً للطريق القديم الذي تلمسته . وعند ما توصلت الى

القيام باصعب اعمـالي ، عند ما تمكنت من الاحتفال بالانتصارات التي تغلبت فيها على ذاتي اهبتم بمن يحبونني الى الهتاف قائلين بانني اوقعت بهم اشد الآلام

والحق انكم لم تنقطعوا عن تشريد خير العاملات في قفيري وتحويل جناها الى علقم مرير ، ولـكـم ارسلتم الى احساني اشد المتسولين إلحاحاً ودفعتم اهل القحة ليطوفوا باشفاقي وهكذا نلتم من فضيلتي وهي ممنعة بايمانها

وكنت كلما قدَّمتُ أقدسَ ما عندي محرقة للتضحية تسارعون في تقواكم الى إحراق أدسم ذبائحكم لتتصاعد ابخرة شحمها مدنِّسةً خير ما قدست

وطمحت يوماً الى الرقص متعالياً بفنيّ الى ما وراء السبع الطباق فافسدتم عليّ اعز المنشـدين لديّ ، فرفع عقيرته بأفظع الاناشيد وقرع اسماعي بنغمات الابواق الحزينة الباكية

لقد كنت قاتلاً ايها المنشد البريء، اذا غدوت آلة في يد الغدر فقضت نغماتك على خشوعي بينما كنت اتهيأ للقيام بأروع رقصي

ما انا بالمعـبر عن اسمى المعاني بالرموز إلا عند ما ادور راقصاً ، لذلك عجزت اعضائي عن رسم اروع الرموز بحركاتها . فأرتج عليّ وامتنع عليّ ان ابوح بسر آمالي . لقد ماتت أحلام شبابي وفقدت معانيها المعزيات

إنني لأعجب لتحملي هذه الصدمات وأعجب لصبري على ما فتحت فيّ من جراح ، فكيف امكن لروحي ان تُبعث من مثل هذه القبور ؟

أجل إن فيّ شيئـاً لا تنال منه السهـام مقتلا ، ولا قِبـل لأحد بدفنه لانه يزحزح الصخور عنه فتتحطم ، وما هذا الشيء إلا إرادتي ، والارادة تجتـاز مراحل السنين صامتة لايعتريها تحول وتغير. إن إرادتي قديمة لا تنى تدفع قدمي الى السير فهي القوة المتصلبة المتعالية عن الفناء

ليس فيَّ من عضو لا يُصاب إلا قدمي السائرة الى الامام تدفعها هذه الارادة الثابتة الصامدة المتجلدة التي تخترق المدافن دون ان تنطرح تحت لحودها

إن فيكِ وحدكِ يا إرادتي يصمد ما لا تبدده ايام الشباب ، فانت لا تزالين حية وفتية تملأك الآمال ، تجلسين على ركام المدافن وقد طبع الزمان عليها قبلاته الصفراء. إنك لن تزالي ايتها الإرادة هدّامة لجميع القبور،فسلام عليك يا إرادتي، لانه لا بعثَ إلاّ حيث تكون القبور

هكذا تكلم زارا . . .

الانتصار على الذات

ليست إرادة الحق في عرفكم ، ايها الحكماء ، إلا تلك القوة التي تحفزكم وتضطرم فيكم ، تلك هي إرادتكم التي اسميها انا (إرادة تصوُّر الوجود) فانكم تطمحون الى جعل كل موجود خاضعاً لتصوركم ، وانتم تحاذرون بحق ان يكون هذا الوجود قد احاط به التصوُّر من قبل فتريدون ان تخضعوا لارادتكم كل كائن لتتحكموا فيه بالصقل ليصبح مرآة تنعكس عليها صورة العقل

هذا ما تطمحون اليه ، يا أحكم الحكماء ، وتلك هي إرادتكم تجاه القوة والخير والشر وتقدير قِيَمْ الاشياء

انكم تريدون خلق عالم يمكن لكم ان تجثوا امامه ، تلك هي نهاية نشوتكم وآخر امنية لكم . ولكن البسطاء الذين يدعون شعباً يشبهون نهراً تخوضه ابداً ماخرة تقلُّ الشرائع، وقد جلسن عليها بعظمة وانزلن على وجوههن الحجاب .

لقد ارسلتم إرادتكم وشرعتكم على نهر الزمان ، ولكن إرادة القوة مثلت امامي وكشفت لي حقيقة الخير والشر في اعتقاد الشعوب

وهل سواكم ، ايها الحكماء ، مَن انزل بارادته المتسلطة هذه الشرائع في هذه الماخرة وقد حليتموهنَّ بالجواهر واسبغتم عليهنَّ اروع الاسماء

لقد سارالنهر يحملهن بانسيابه وسهم الماخرة يشق امواجه ومَنْ يبالي بالموجة تقاوم عبثاً في إرغائها وإزبادها

إن الخطر الذي يتهدد خيركم وشركم لا يكمن في النهر، ايها الحكماء ،بل الخطر كل الخطر في إرادة القوة نفسها لانها الارادة الحية الدائمة المبدعة

ان ما سأقوله عن الحياة سيوضح لكم اعتقادي في الخير والشر عند ما اتناول ببياني ما تفعل العادات في الاحياء

لقد سايرت الكائن الحيَّ على معابره وأشواطه لاتعرَّف الى عادته ، وعند ما كانت الحياة صامتة نصبت امامها مرآة بألف ضلع لاستنطق عينيها فكلمتني لحاظها

في كل مكان عثرت فيه على حيّ . طرقت اذني كلمات الطاعة فما من حيّ يتعالى

عن الخضوع ، وعرفت ايضاً ان ليس من محكوم في الحياة سوى مَن لا قبل له بإطاعة نفسه . . . تلك هي عادة كل حيّ . .

وهذا ما سمعت أخيراً : إنّ توليّ الحكم اصعب من الطاعة لان الآمر يحمل اثقال جميع الخاضعين له وكثيراً ما ترهق هذه الاثقال كواهل الآمرين

إن في كل امر خطراً ومجازفة ، وكل مرة يصدر الحيُّ فيها امراً يقتحم خطراً

واذا ما تحكّم الحي في ذاته فانه يؤدي جزية لسلطانه اذ يصبح قاضياً ومنفّذاً وضحية للشرائع التي يستّنها

وتساءلت عن علة هذه الامور وعن القوة التي ترغم الحي على الانقياد والتحكم فتجعله خاضعاً حتى اذا حكم . ولعلني توصلت الى سبر قلب الحياة الى الصميم ، فاصغوا الى قولي ايها الحكماء

لقد تيقنت وجود إرادة القوة في كل حي ورأيت الخاضعين انفسهم يطمحون الى السيادة لان في إرادة الخاضع مبدأ سيادة القوي على الضعيف ، فإرادة الخاضع تطمح الى السيادة ايضاً لتتحكم فيمن هو أضعف منها وتلك هي اللذة الوحيدة الباقية لها فلا تتخلى عنها

وبما أن الأضعف يستسلم للاقوى والأقوى يتمتع بسيادته على هذا الأضعف فان الأقوى يعرِّض نفسه للخطر في سبيل قوته فهو يجاذف بحياته مستهدفاً للأخطار

ان إرادة القوة كامنة حتى في مجال التضحية والخدمة المتبادلة وبين نظرات العاشقين لذلك يتجه الأضعف الى السبل الملتوية قاصداً اجتياز الحصن والتربع في قلب الأقوى مستولياً فيه على قوته

لقد اودعتني الحياة سرها قائلة : لقد تحتم عليَّ ان اتفوّق ابداً على ذاتي . وانكم لتحسبون هذا الاندفاع إرادة ابداع او غريزة تحفز بي الى الهدف الأسمى والأبعد منالاً بعديد جهاته ، في حين ان ليس هنالك إلا وجهة واحدة وسر واحد . وانني لأفضِّل العدم على التحوّل عن هذه الوحدة

والحق انكم حيث تشهدون انحداراً وسقوط اوراق من الأدواح ، فهنالك تشهدون تضحية الحياة من أجل القوة

لقد وجب عليَّ ان اكون انا الجهاد والمستقبل والهدف وان اكون في الوقت

نفسه الحائل الذي يعترضني في انطلاقي الى هدفي لذلك لا يعرف الانسان الطريق المتعرجة التي عليه ان يسلكها اذا هو لم يدرك حقيقة إرادتي

مهما كان الشيء الذي أبدعه ومهما بلغ حبي له فان عليّ ان انقلب له خصماً ، واتحوّل عن حبي وحناني ، ذلك ما قضته إرادتي عليّ

وانت ، انت يا من تطلب المعرفة ليس لك من سبيل غير سبيلي فعليك ان تقتفي أثر ارادتي ، وماتقتفي إرادتي الا آثار ارادة الحق

ما عثر على الحقيقة من قال بارادة الحياة ، لأن مثل هذه الارادة لا وجود لها ، وليس للعدم ارادة كما ان المتمتع بالحياة لا يمكنه ان يطلب الحياة

ولا ارادة الا حيث تتجلى حياة ، ومع هذا فان ما ادعو اليه ان هو الا ارادة القوة لا ارادة الحياة

ان هنالك اموراً كثيرة يراها الحي ارفع من الحياة نفسها ، وما كان ليرى اشياء افضل من الحياة ، لولم تكن هنالك ارادة القوة .

هذا ما علمتني اياه الحياة يوماً ، وانا بهذا التعليم أهتك اسرار قلبكم ، ايها الحكماء ، فأقول لكم : انه ليس هنالك من خير دائم وشر دائم ، لأن على الخير والشر كليهما ان يندفعا ابداً الى التفوّق والاعتلاء

وأنتم ايها الواضعون للقيم اقدارها بمقاييسكم وموازينكم وبما تقولونه عن الخير والشر هل كان لكم ان تفعلوا هذا لو لم تكن لكم ارادة القوة ؟ وماتطمحون في اعماق ضمائركم الا الى الشهرة والشعور بتأثركم وفيضان ارواحكم . انكم تجهلون ان في الامور التي تخضعونها لتقديركم قوة اعظم من تقديركم تنمو وتتفوق على ذاتها لتحطم غلافها وقشورها ، فمن اراد ان يكون مبدعاً سواء اكان في الخير أم في الشر فعليه ان يبدأ بهدم ما سبق تقديره وبتحطيمه تحطيماً . وهكذا فان اعظم الشر يبدو جزاء من اعظم الخير ، ولكن هذا الخير لم يُعطَ ادراكه الا للمبدعين

لقد حق علينا القول ايها الحكماء ، مهما كلفنا الجهر به فان الصمت أشد وطأة علينا ، لأن كل حقيقة نكتمها انما تتحول الى سم زعاف فينا ، فلنحطم الحقائق التي نجهر بها ما يمكنها ان تُحطَّم فان هنالك ابنية عديدة يجب علينا ان نرفعها .

هكذا تكلم زارا . . .

العظماء

إن فيَّ بحراً هدأت اعماقه ، فمن يظن انه يخفي مسوخاً دأبها المزاح ؟ ان اغواري صامدة لا تتزعزع ، غير انها تماوج بالمعمَّيات وتتجاوب فيها من الضحك نبرات واصداء .

رأيت اليوم رجلا من العظماء الأجلاء الذين يكفّرون من اجل الروح فاستغرقت روحي في ضحكها هازئة بقبحه . غير ان هذا العظيم لم يبدِ ولم يعد . بل انتفخ صدره كمن يتنفس الصعداء ، فلاح لي بحقائقه المروعة وباثوابه الممزقة غصناً كله اشواك وليس فيه ورود .

ما تعلَّم هذا القناص الضحك ولا عرف الجمال ، فانه راجع من غاب المعرفة أغبر الوجه بعد ان صارع فيها الوحوش فانطبعت صورهم على سيمائه ، فهو كالنمر يتحفز للوثوب ، وما أحب مثل هذه الارواح المنقبضة على ما تضمر .

تقولون ايها الصحاب ، انه لا جدال في الذوق وفي الالوان فكأنكم تجهلون ان الحياة بأسرها نضال من اجل الاذواق والالوان .

ما الذوق الا الموزون والميزان والوازن . . . فويل لكل حيّ يريد ان يعيش دون نضال من اجل الموزونات والموازين والوازنين

ليت هذا الرجل العظيم يتعب من عظمته ليظهر الجمال فيه فانه في ملاله من هذه العظمة يستحق ان أتذوَّقه فأجد له طعماً .

اذا لم يتحوَّل العظيم عن نفسه فلا يمكنه ان يقفز فوق خياله لتغمره أشعة شمسه . لقد تفيأ الظلّ طويلا ، هذا المفكرُ من اجل الروح ، فشحب وجهه وكاد في انتظاره ان يموت جوعا ، وهذه عيناه تشعَّان بالاحتقار وشفتاه تتبرمان بالاشمئزاز ، انه يلتمس الراحة الآن ولكنه لم ينطرح تحت الشمس بعد .

ليت هذا الرجل يتمثل بالثور فيفوح من سعادته عبق الارض لا احتقار الارض . ليته كالثور الابيض يعج امام المحراث فيرتفع عجيجه تسبيحاً للارض وما عليها .

لقد اكفهرّ وجه هذا العظيم إذ تلاعبت على خديه أظلال يده فاختفت عيناه واعماله لم تزل كالخيال تلوح ولا تبدو عليه . فان اليد ترسل ظلا قاتماً على العامل اذا هو لم يتفوق على عمله .

إنني أقدِّر احتمال هذا الرجل لنير الثور ولكنني اتمنى أن تشعَّ نظرات الملاك في عينيه ، ولن تشع هذه النظرات ما لم ينسَ ما فيه من إرادة الابطال . لأن ما اريد له هو ان يصير رجلا سامياً لا ان يبقى في مرتبة الرجل العظيم حيث يفقد الانسان ارادته فتتلاعب به اضعف النسمات .

لقد تغلَّب هذا العظيم على الجبابرة وتوصَّل الى حلِّ الرموز ولكن عليه الآن ان ينقذ هؤلاء الجبابرة وهذه الرموز ليحوِّلها الى طفولة الالوهية .

ان معرفة هذا الرجل لم تتعلم الابتسام ولا الترفع عن الحسد كما ان موجة شهواته لم تسكن في خضم الجمال . وما عليه ان يدفع بهذه الشهوات الى سكون الشبع بل عليه ان يغرقها في الجمال لأن اللطف لا ينفصل عن مكارم مَنْ بلغوا الأوج بتفكيرهم .

على البطل ألا يستسلم للراحة ما لم يضع يده على رأسه ليتفوَّق على راحته ، وما يصعب على البطل شيء كادراكه الجمال ، لأن الجمال لا يستسلم لأبناء العنف

ان بين الافراط والتفريط قيد انملة ، فلا تحتقروا هذا المدى لأنه بعيد وان قصر وفيه الاهمية الكبرى . ولكن عضلات العظماء لا تلجأ الى السكون وارادتهم لا تنضب . وما من جمال الا في تنازل القوة الى الرحمة وحلولها في المنظور .

اني لا أطالب بالرحمة سواك ، أيها المقتدر ، فلتكن الرحمة آخر مرحلة تقطعها في انتصارك على ذاتك . وما كنت لأفرض الخير عليك لولا انني اراك قادراً على ارتكاب كل الشرور . ولكم اضحكني أولئك الصعاليك يعدُّون انفسهم رحماء وقد شلت يدهم ولا حَول لهم ولا طَول

عليك ان تتمثل في فضيلتك بفضيلة الاعمدة التي تزداد بهاء ودقة وصلابة في لبابها كلما ازداد ارتفاعها .

أجل ايها الرجل العظيم إنك ستبلغ الجمال يوماً فترفع المرآة الى وجهك لتتمتع برؤية جمالك وعندئذ تختلج روحك بالشهوات وعندئذ تتجلى العبادة في غرورك .

لا يقترب البطل في احلامه الى مرتبة البطل الكامل ما لم يُغفل الروحَ ويتحوَّل عنها .

هكذا تكلم زارا . . .

في بلاد المدنية

ذهبت بعيـداً طائراً في اجواء المستقبل فارتعشت وذعرت عند ما نظرت ماحولي فما وجدت من مُعاصرٍ لي غير الزمان . ولَّيت الادبار مسرعاً حتى وصلت اليكم ، يا رجال اليوم ، ونزلت بينكم في بلاد المدنية ، فألقيت عليكم اول نظراتي بصفاء نية لأنني جئتكم بقلب مصدوع ، ولا أعلم ما أهاب بي ألى الضحك بالرغم من ارتياعي ، فان عيني ما رأت من قبل مثل هذه الخطوط والالوان .

ذهبت في ضحكي وقد ارتعش قلبي واصطكت رجلاي فقلت في نفسي (لعل هذه مصانع الآنية الملونة) .

لقد برزتم امامي يا رجال اليوم ، وعلى وجوهكم واعضائكم من الالوان عشرات الانواع ، وحولكم عشرات المرايا تعكس تموجات الوانكم ، والحق انكم لا تستطيعون ان تجدّوا ما تتقنعون به أشد غرابة من وجوهكم نفسها ، فمن له ان يعرف من انتم ؟

لقد حفر الماضي في وجوهكم آثاره فألقيتم فوقها آثاراً جديدة ، لذلك خفيت حقيقتكم عن كل معبّر وأعجزت كل بيان .

ولو كان لأحد ان يفحص الاحشاء فهل بوسعكم ان تثبتوا ان لكم احشاء وما انتم إلا جبلة هباب وقطع اوراق ألصقت الصاقاً . وهذه جميع الازمنة وجميع الشعوب تتزاحم مرسلة نظراتها من وراء قناعكم كما تفصح جميع حركاتكم عن تراكم كل العادات والمعتقدات فيكم . فاذا ما نُزعت اقنعتكم وأُلقيت احمالكم ومُسحت الوانكم ووقفت حركاتكم فلا يبقى منكم الا شبح يُنصب مفزعة للطيور .

والحق ، ما أنا الا طائر مروَّع ، لأنني رأيتكم يوماً عراة لا تستركم الوانكم فاستولى الذعر عليّ اذ انتصبتم امامي هيا كل عظام تومىء اليّ باشارات العاشقين

انني افضل ان اكون من عمّال الجحيم وخدام الاشباح ، لأن لسكان الجحيم ما ليس لكم من شخصية معينة ، وأمرُّ ما القاه هو ان انظر اليكم سواء استترتم أو تعريتم ، يا رجال اليوم . . .

ان جميع ما يدعو الى القلق في آتي الزمان وجميع ما ارتاعت له في الماضي تائهات الطير ، انما هو ادعى الى الاطمئنان والارتياح من حقيقتكم ، لأنكم

انتم القائلون : (انما نحن الحقيقة المجردة عن كل خرافة واعتقاد) وبهذا تتبجحون وتنتفخون دون ان يكون لكم صدور .

وهل من عقيدة لكم وانتم المبرقشون بجميع ما عرف الزمان من الوان حتى اليوم ؟ وهل انتم الا دحضٌ صريح للايمان نفسه وتفكيك للافكار جميعها ؟ فأنتم كائنات أوهام يا من تدّعون انكم رجال الحقائق .

لقد قامت العصور كلها تتعارك في تفكيركم ، وما كانت هذه العصور في احلامها وهذيانها الا اقرب الى الحقيقة من تفكيركم وانتم منتبهون .

بليتم بالعقم ففقدتم الايمان وقد كانت للمبدع أحلامه وكواكبه قبلكم فوثق من ايمانه

ما انتم إلا ابوابٌ فتحت مصاريعها لحفار القبور ، وما حقيقتكم إلا القول بأن كل شيء يستحق الزوال

انكم تنتصبون أمامي كهيا كل عظام متحركة ، ايها المبتلون بالعقم ، ولا ريب في ان اكثركم لم يخفَ عليه امرٌ عند ما تساءل : (هل اختطف إلهٌ مني شيئاً وانا نائم ؟ والحق ان ما سُلب مني يكفي لإيجاد امرأة ، فما اضعف اضلاعي) هكذا يتكلم العدد الوفير من رجال هذا الزمان

إن حالكم ليضحكني ايها الرجال ، ويزيد في ضحكي انكم لانفسكم مستغربون . ولشد ما يكون ويلي لو امتنع عليَّ ان اضحك من استغرابكم ولو اضطررت الى ازدراد ما في اوعيتكم من كريه الطعام

إنني أستخفُّ بكم لما على عاتقي من ثقيل الاحمال فما يهمني لو نزل عليها بعض الذباب فإنه لن يزيدها ثقلاً وما انتم مَنْ يحملّني اشد الاتعاب ايها المعاصرون

واأسفاه ! الى اية ذروة يجب عليَّ ان ارتقي باشواقي فانني ادير لحاظي من أعالي الذرى مفتشاً عبثاً عن مسقط رأسي راوطاني ، فانا لا ازال في اول مرحلتي تائهاً في المدن أتنقل امام ابوابها

لقد اندفعت بعواطفي نحو رجال هذه الايام ، ولكنني ما لبثت ان تبيّنت فيهم قوماً غرباء عني لا يستحقون إلا سخريتي ، وهكذا اصبحت طريداً يتشوّق الى مسقط رأسه وأوطانه . ولا وطن لي بعد الآن إلا وطن ابنائي في الارض

المجهولة وسط البحار السحيقة ، لذلك وجب عليّ ان اندفع بشراعي على صفحات المياه لأفتش عن هذا الوطن

عليّ ان أكفّر عن ذنبي امام ابنائي لانني كنت ابناً لآبائي . عليّ ان أكفّر عن حالي العتيد بكل جهودي في آتي الزمان

هكذا تكلم زارا . . .

المعرفة الطاهرة

عند ما أطلّ القمر عليّ ليلة امس خيل اليّ انه أنثى أثقلها الحبل وكأن في احشائها كوكب النهار . وقد جاءها المخاض وانا أميل الى تذكير القمر مني الى تأنيثه وان خلا من صفات الرجولة فانه رائد ليل يمر على السطوح وقد ساءت نواياه ، فهو كالراهب المتدفق شهوة وحسداً يتمنى لو يتمتع بملذات جميع العاشقين

لا ، انني لا احب هذا الهر المتجول على مزاريب السطوح ، لانني اكره كل متلصص امام النوافذ التي لم يحكم إقفالها

ان القمر ليمر خاشعاً متعبِّداً على بساط النجوم وانا اكره كل من ينساب في مشيتــه فلا تسمع وقعــاً لاقدامه . فان خطوات الرجل الصريح تستنطق الارض ، وما يمشي الهر إلا متجسساً ، وهذا القمر لايتقدم إلاّ بخطوات الغدر كالهر

ما اوردت هذا المثل إلا لكم وعنكم يا ابناء الخبث وقد ارهقكم احساسكم لطلب المعرفة الصافية ، وما انتم في نظري إلا عبيد الملذّات لانكم انتم ايضاً تحبون الارض وما عليها ومنها . لقد عرفت طويتكم فاذا في حبكم ما يخجل وما يفسد الاخلاق ، فما أشد شبهكم بكوكب الليل

لقد اقنعوكم بان تحتقروا كل ما ينشأ من التراب ، ولـكن هذا الاقناع لم ينفذ الى احشائكم ، واحشاؤكم هي أقوى ما فيكم ، وهكذا اصبح عقلكم خجِلاً من سيطرة احشائكم عليه ، فهو يتبع الطرق الخفية المضللة فزعاً من خجله .

انصتوا الى مناجاة عقلكم لنفسه فهو يقول : ليت لي ان ارتقي الى حيث انظر الى الحياة محرراً من الشهوة فلا ألهث امامها ككلب يدلي لسانه وقد شفّه السغب من شهوته

ليت لي ان أسعد بالتأمل متفوقاً على إرادتي متحرراً من خساسة الانانية ومطامحها فيسود عليّ السلام ولا يبقى لعيني سوى لحظات القمر الثملة

ان عقلكم يطلب التملص من ذاته لانه طريد يشتهي ان يتعشّق الارض كما يتعشّقها القمر فلا تتمتع إلا عيونكم بجمالها

ان المعرفة الطاهرة لا تحتلّ عقولكم ما لم ينبسط امام الاشياء دون امتلاكها مكتفياً بانعكاس اشباحها عليه كما تنعكس الاشباح على مرآة لها مئات العيون

ايها الخبثاء المتحرّقون بالشهوات ، لقد خانت شهوتكم من الطهارة فلذلك تجدّفون على الشهوة ، فأنتم لا تحبون الارض كما يحبها المبدعون والمجددون الذين يسرون بما يبدعون وبما يجددون . فلا طهارة إلا حيث تنجلي إرادة الابداع ، فمن اتجه الى خلق مَنْ يتفوق عليه فذلك عندي صاحب اطهر إرادة وانقاها .

طلبت الجمال فما وجدته إلا حيث تنصبّ الارادة بأكملها الى المراد ، وحيث يرتضي الانسان بالزوال لتجديد الصور وتبديلها ، فالمحبة والموت صنوان متلازمان منذ الازل فمن أراد المحبة فقد رضي بالموت . هذا ما اقوله لكم ايها الجبناء

ولكن نظراتكم المنحرفة المؤنثة تحب الاستغراق في التأمل فتريدون ان يدعى جمالاً ما تحدجونه انتم بعين الحذر والجبن ، انكم لتدنسون أشرف الاسماء

ان اللعنة التي تحل بكم ، ايها السائرون وراء المعرفة الطاهرة انما هي عجزكم عن التوليد في حين انكم تلوحون كالحبالى المثقلات على الآفاق

انكم تحشون افواهكم بأنبل الكلمات لإيهامنا بأن قلبكم يتدفّق عطفاً وما انتم إلا منافقون

لقد أخشنت القول لكم فكلماتي مشوهة ذرية ، غير انني اتناولها من الفتات المتساقط من موائد ولائمكم فاستعملها حين أعلن الحقيقة للخبثاء وهذا ما بيدي من حسك وأصداف يخدش آنافكم ايها الخبثاء

ان الهواء الفاسد يهب بلا انقطاع حولكم وحول مآدبكم لانه مشبع من افكاركم الدنسة واكاذيبكم وخداعكم

عليكم أن تبدأوا باطراح خوركم لتتوصلوا الى الوثوق بأنفسكم فما ينقطع عن الكذب من لا ثقة له بنفسه

لقد اخفيتم وجوهكم بأقنعة الآلهة ايها الرجال الاتقياء فأنتم ديدان قبيحة تتشح برداء الأرباب

انكم لجد متبجحون يا رجال التأمل ، حتى ان زارا نفسه أخذ بمظاهر جلودكم الالهية فخفيت عنه الافاعي الكامنة وراءها

لقد كنت ارى في عيونكم روح إله ايها الطالبون المعرفة الطاهرة ، قبل ان تكشف لي تصنعكم فعرفت انكم أمهر المتصنعين

لقد بعد المجال بيني وبينكم فما تميزت فيكم الثعبان القبيح ، ولا وصلت الي رائحته الكريهة ، وما خطر لي ان امامي حرباء تتلون بشهواتها . ولكنني عندما اقتربت منكم تبددت الظلمة حولي . وها إن الفجر يغمركم بأنواره فالكل قمر جنوح الى الغياب في شهوته . انظروا الى هذا القمر فهو في أفقه شاحب مذعور وقد باغته الفجر بأنواره المرسلة ، فكل شمس يتجلى حبها الطاهر في تشوقها الى الابداع

اما ترون الفجر ينسحب على البحر وقد اهتاجه الشوق والحنين ؟ انما تشعرون بظمأه في حبه وحر انفاسه ، فكأنه يريد ارتشاف اللجج . وها هي ذي تتعالى نحوه بآلاف نهودها ، واللجة نفسها متشوقة الى وصال كوكب النهار ليرشفها ارتشافاً فتتحول الى سحب ومسالك انوار ، بل هي نفسها تفنى في النور متحولة الى نور

وانا كوكب النهار احب الحياة وكل لجة بعيدة الأغوار ، تلك هي معرفتي . انني اجتذب كل غور ليتعالى اليّ . . .

هكذا تكلم زارا . . .

العلمـــاء

وكنت نائماً فاذا نعجة تتقدم فتقضم الغار المعقود إكليلا على رأسي ، فكانت تعمل انيابها فيه وتقول : لم يعد زارا من العلماء

وذهبت بعد ذلك مزدرية متفاخرة . ذلك ما اخبرنيه احد الاولاد

احب ان استلقي على الأرض حيث يلعب الاطفال تحت الجدار المتهدم وقد

نبت في شقوقه العوسج والشقائق الحمراء . فانني لم ازل عالماً في عيون الصغار وفي عيون العوسج والشقائق الحمراء . لانها طاهرة حتى في أذيتها

انا لم أعد عالماً في نظر النعاج . تبارك حظي فهذا ما قضي به عليّ . والحقيقة هي انني هجرت مسكن العلماء فخرجت منه جاذباً بابه بعنف ورائي

لقد جلست روحي الجائعة طويلاً الى الخوان ، وما أنا كالعلماء متطبع على المعرفة كمن اتخذ كسر القشور مهنة له ، فانا عاشق الحرية والسير في الهواء الطلق على الارض الباردة كما أفضل ان أتوسد جلود الثيران على افتراش امجاد العلماء وألقابهم

إن بي من الحماس ومن لهب الفكر ما يقطع عليّ انفاسي فلا يسعني الا الاندفاع الى رحب الفضاء هارباً من الغرف المكسوة بالغبار

ولكن هؤلاء العلماء يتفيأون الظلال فلا يقتحمون السير على المسالك التي تلهبها حرارة الشمس ، بل يكتفون بالاستكشاف كالمتفرجين يفتحون اشداقهم وينظرون الى المارة في الشارع . هكذا يفتح العلماء أشداقهم وينتظرون اتقاد شرارة الفكر في ادمغة المفكرين . واذا ما لمستهم بيدك تطاير الغبار ما حولهم كأنهم اكياس من الحنطة ، ولكن لا يظنن أحد ان هذا الغبار المتطاير منهم هو دقيق السنابل الصفراء التي يتشح بها الصيف في زهوه

إذا ما تظاهر العلماء بالحكمة ، فان حقائقهم وأحكامهم تهزني برعشة البرداء إذ تنتشر منها روائح المستنقعات ، ولكم اسمعتني حكمتهم نقيق الضفادع

ان لهؤلاء العلماء مهارتهم ولاناملهم لباقتها ، فليس من نسبة بين صراحتي وتعقيدهم ، فانا ملهم لانني تغزل وتحيك ناسجة للعقل ما يستره . فهم كالساعات اذا ما أحكم ربط رقاصها دلت بضبط على سير الزمان واسمعتك طقطقة خافتة .

انهم يعملون كحجر الرحى فيطحنون كل ما تلقي اليهم من حبوب ، وكل منهم يراقب حركة أنامل الآخرين ، وجميعهم يتلهون بالنكايات ويترصدون من يتعارج بعلومه ، فهم أشبه بالعناكب في تلصصهم . ولكم رأيتهم يستقطرون سمومهم بكل حذر ساترين ايديهم بقفازات من زجاج . ولهم مهارة خاصة بلعب النرد المزوّر ، ولكم انحنوا فوقه والعرق يتصبب من وجوههم

لا صلة بيني وبين هؤلاء الناس فان فضائلهم تبعد عن فضائلي باكثر مما تبعد عنها اكاذيبهم ونردهم المزوّر

وما وجدت مرة بينهم إلا وكنت فوقهم ، لذلك ابغضني هؤلاء العلماء . فانهم لا يطيقون ان يسمعوا بمرور اي كان فوق رؤوسهم ، ولذلك وضعوا الاخشاب فوق رؤوسهم ، وأهالوا فوقها التراب والاقذار ليخنقوا وقع أقدامي، ولم يزل حتى اليوم اكثرهم علماً اقلهم إدراكاً لأقوالي

لقد نصبوا بيني وبينهم حائلا كل ما في الانسان من ضعف وضلال ، وهم يدعون هذا الحصن لمسكنهم بالسقف المستعار

ولكني بالرغم من كل هذا لا ازال أمشي فوق رؤوسهم وانا انشر افكاري . ولو انني مشيت على عيوبي فلن أزال ماشياً فوق جباههم ، ذلك لانه لا مساواة بين البشر ، وهذا ما يهتف به العدل ، فما أريده انا لا حق لهم بان يتناولوه بارادتهم

هكذا تكلم زارا . . .

الشعراء

وقال زارا لأحد اتباعه : منذ بدأت اعرف حقيقة الجسد لم تعد الروح روحاً في نظري الا على اضيق مقياس ، وهكذا صرت ارى (كل ما لا يفنى) رمزاً من الرموز .

فأجاب التابع قائلا : لقد قلت هذا من قبل يا زارا ولكنك اضفت اليه قولك « وكثيراً ما يكذب الشعراء » فلماذا قلت هذا ؟

فقال زارا : انت تسأل لماذا ، وما انا ممن يحق عليهم ان يُسألوا . ما انا ابن الامس وقد مر زمان طويل على ادراكي اسباب ما ارتأيه ، وهل انا خزانة تذكارات لأحفظ الاسباب التي بُنيت عليها آرائي ؟ انما يكفيني عناء ان احفظ هذه الآراء نفسها ، أفليس في العالم عصافير تشرد من اماكنها ، ولكم وجدت في قفصي من طير غريب يرتجف اذا ما أمررت عليه يدي ومع ذلك فماذا قال لك زارا يوماً ؟ لقد قال ان الشعراء كثيراً ما يكذبون ، وهل كان زارا نفسه الاّ واحداً من هؤلاء الشعراء ؟ أفتحسب انه بهذه الصفة قد أعلن الحق ؟ وما الذي يكرهك على تصديقه ؟

فقال التابع : انني مؤمن بزارا .

أما زارا فهز رأسه وابتسم قائلا : ليس الايمان مما يرضيني حتى ولو كان هذا

الايمان معقوداً عليّ ، ولكن اذا قال انسان بكل جد : ان الشعراء يكذبون ، فانه ليقول حقاً لأننا نحن الشعراء نكذب كثيراً ، ولابد لنا من الكذب ما دام ما نجده من العلم قليلا . ومَنْ من الشعراء بيننا لم يغشّ شرابه وفي سرادبينا تستقطر السوائل المسمومة ؟ ولكم فيها من امور يقصر عن وصفها البيان . ان افتقارنا في المعرفة يهيب بنا الى محبة مساكين العقول وبخاصة الى محبة مسكينات العقول الفتيات . . . فنحن نعود بشهواتنا الى الامور التي تتحدث عنها العجائز في السمر ونقول ان ما نبحث فيه انما هو قضية المرأة الابدية .

يخيل لنا ان امامنا طريقاً سوياً يؤدي الى المعرفة وان هـذا الطريق لا ينكشف لمن يدركون الامور بالعلم ، فنحن لا نؤمن الا بالشعب وبحكمته . فالشعراء جميعهم يعتقدون ان الجالس على منحدر جبل مقفر يتنصّت الى السكون يتوصل الى معرفة ما يحدث بين الارض والسماء . واذا هم هزّهم الشعور المرهف خيل لهم ان الطبيعة نفسها اصبحت مغرمة بهم فيرونها تنحني على آذانهم لتلهمهم البيان الساحر والاسرار ، فيقفون مباهين بالهامهم امام كل كائن يزول .

وا أسفاه ! ان بين الارض والسماء أموراً كثيرة لا يحلم بها الا الشعراء وهنالك أمورٌ أخرى كثيرة فوق السماء ، فما جميع الآلهة الاّ رموزٌ ابدعها الشعراء

والحق أننا منجذبون أبداً الى العلياء ، الى مسارح الغيوم فنرسل اليها أكراً منفوخة ملونة ندعوها آلهة وبشراً متفوقين . والحق انهم من الخفة على ما يجعلهم اهلا لاقتعاد مثل هذه العروش .

ويلاه ! لكم تعبت من كل قاصر يطمح الى جعل نفسه شيئاً معدوداً ؟ ولكم اتعبني الشعراء ؟

وما نطق زارا بهذا الكلام حتى ثارت نفس تابعه ، ولكنه كظم غيظه فسكت وسكت زارا ايضاً وغيّض نظره كأنه يسبر أقاصي نفسه ، ثم تنفس الصعداء وقال : انا من الامس ومن الزمن القديم ولكنّ فيّ شيئاً من الغد وبعده ومن الآتي البعيد . فقد اتعبني الشعراء الاقدمون منهم والمجددون فما هم في نظري الا رغوة لا صريح تحتها ، بل هم اسرّة بحار جفت مياهها . ان افكارهم لم تنفذ الى الاغوار ، وقد وقف شعورهم عند اول جرفها . وخير ما ترى في تأملاتهم قليل من الشهوة وقليل من الضجر فليست بحورهم الا مجالات تنزلق على تفاعيلها الاشباح فهم لم يدركوا شيئاً بعد من القوى الكامنة في النبرات . لم يبلغ

الشعراء درجة النقاء فهم يعكّرون جداولهم ليخدعوا الناس ويوهموهم انها بعيدة الغور ، انهم يريدون أن يقيموا أنفسهم موفّقين بين مختلف المعتقدات غير أنهم لا يزالون رجال العمل الناقص السائرين على السبل المتوسطة الحائرة فهم يعكّرون المياه بأقذارهم .

وآسفاه لقد القيت شباكي في بحارهم آملا اصطياد خير الاسماك ولكنني ما سحبت هذه الشباك مرة الا وقد علق فيها رأس إله قديم . وهكذا كان يجود البحر بحجر على الجائع . ولعل الشعراء انفسهم خرجوا هم ايضاً من البحر وفيهم ولا ريب بعض اللآلىء ، فهم اشبه بنوع من المحار الممنّع بأصدافه ، ولكم وجدت في داخلهم بدل الروح شيئاً من الرغوة المالحة . ان الشعراء يقتبسون من البحر غروره ، وهل البحر الا أشد الطواويس غروراً ؟ فهو حتى امام اقبح الجواميس يدحرج امواجه ويبسط أطالس مراوحه وأطراف وشاحه المفضض فيحدجه الجاموس بنظرات الغيظ لأن روحه المقتربة من الشاطىء لا تزال ملتصقة بمعالفه ومرعاه فما يبالي بالجمال وبالبحر وببهاء الطواويس . هذا هو المثل الذي اضربه للشعراء . والحق ان فكرهم لطاووسٌ مغرور بل هو بحر من الغرور ، ففكر الشاعر يطلب مَنْ يشاهده حتى ولو كان المشاهد جاموساً .

لقد أتعبني هذا الفكر وسوف يأتي زمان — وهو قريب — يتعب فيه هذا الفكر من ذاته .

رأيت بعض الشعراء يتحولون عن الشعر ويوجهون النقمة الى ما كانوا عليه ورأيت من يقدّمون كفّارة للفكر ، وما نشأ هؤلاء المكفّرون عن الضلال الا بين الشعراء .

هكذا تكلم زارا . . .

الحادثات الجسام

على مقربة من جزر زارا السعيدة ، تقوم في البحر جزيرة فوقها بركان يقذف حُمَمه عليها بلا انقطاع ، ويقول الشعب وبخاصة العجائز فيه : إن هذه الجزيرة منتصبة صخراً يسد باب الجحيم ، غير ان هنالك منفذاً ضيقاً يخترق البركان وينتهي الى هذا الباب

في ذلك الزمان ، حين كان زارا يسكن جزره السعيدة ألتي مركبٌ مرساته

أمام الجزيرة التي يعلوها الجبل المشتعل . ونزل بحارته الى البر ليقتنصوا بعض الأرانب ، وما حان وقت الظهيرة واجتمع القبطان برجاله بعد ان لموا شعثهم حتى رأى هؤلاء الناس رجلاً يخترق الفضاء بغتة اليهم ثم اقترب منهم وصاح بهم بصوت جلي قائلاً : لقد حان الزمن ، لقد اقترب كثيراً . . .

ومر بهم الشبح مسرعاً وهو يتجه الى البركان ، فتميزوا به شخص زارا لانهم كانوا رأوه من قبل جميعهم ما عدا القبطان وأحبوه كما يحب الشعب مَنْ يخشى

فقال شيخ البحارة — هذا زارا يسير الى الجحيم

وفي الزمن الذي نزل فيه البحارة الى جزيرة اللهب ، كان شاع اختفاء زارا بين الناس وقال صحبه لمن سألوا عنه : انه ابحر على مركب تحت جنح الظلام ولم يعرف أحد الوجهة التي يقصدها

هكذا ساد القلق من اختفاء زارا ، وبعد ثلاثة ايام زاد هذا القلق بعد أن أخبر البحارة بما رأوا ، وشاع بين الشعب ان إبليس قد اختطف زارا ، ولكن صحب زارا لم يأبهوا لهذه الاشاعة بل ضحكوا منها وقالوا : ان ما نعتقده هو ان زارا قد اختطف الشيطان

غير ان اختفاء زارا كان يشغل بال صحبه ، وما مضت خمسة ايام حتى عاد اليهم ، فكان سرورهم عظيما

وهذا ما نقله زارا لهم عن حديثه مع كلب النار . قال: إن للأرض جلداً ولهذا الجلد امراضه ، وأحد هذه الامراض الإنسان وهنالك مرض آخر يدعى كلب النار ، وقد كان هذا الكلب السبب في تناقل الناس الاكاذيب وتصديقهم لها . وما اجتزت البحار إلا لأكشف هذا السر فرأيت الحقيقة عارية من أخمص قدميها حتى عنقها ، فما تخفى عني الآن حقيقة كلب النار ، وحقيقة جميع أبالسة التمرد والأقذار التي لا تتفرّد العجائز بالذعر منها

لقد هتفت قائلاً : اخرج من أغوارك ايها الكلب الناري وقل لي كم هي عميقة اغوارك ومن اين تأتي بما تنفثه علينا . انك تكرع من البحر بشراهة ، وذلك ما تنم عليه مرارة الملح في ثرثرتك ، والحق انك وأنت كلب الاغوار لا تستمد غذاءك إلا من الاماكن السطحية ، فما انت إلا كالمتكلم من بطنه لانني في كل مرة سمعت فيها اقوال أبالسة التمرد والاقذار تبينتهم أشبه بك في دناءتك

واكاذيبك . لقد اتفقت انت معهم على النباح واتفقتم جميعكم على ذر الرماد ونشر الظلام فأنتم اعظم المتفاخرين وتعرفون كيف تدفعون بالأوحال الى الفوران وحيث تكونون لابد ان تحيط بكم الوحول وكل ماهو إسفنجي مضغوط ضيق المسام وما يطلب الانطلاق إلا من اتصف بهذه الصفات . والحرية هي الصرخة التي تفضلونها غير انني فقدت ايماني بالحادثات الجسام منذ رأيت الصراخ والدخان يتعاليان حولها

صدقني يا إبليس الثورات الصاخبة الجهنمية ، ليست اعظم الحادثات في اكثر ساعاتنا ضجيجاً بل هي في أعمقها صمتاً . وما يدور حول موجدي الشعب الجديد بل هو يدور على محور موجدي النظم الجديدة

لا بد لك ايها الشيطان من الاقرار بسخافة ما كانت تنقشع عنه قرقعتك وضباب دخانك وهل من جسام الامور ان تتحول مدينة الى مومياء وان يتداعى عامود الى الاوحال ؟ وهذه كلمة اخرى اوجهها الى هدامي الاعمدة : ان اقصى الجنون هو في إلقاء الملح الى البحر وفي إسقاط الاعمدة الى الوحول ، لان هذه الاعمدة كانت مطروحة على اوحال احتقاركم وها هي ذي تنهض بسيماء الآلهة وقد انطبع عليها الالم الساحر . فهي والحق تدين لكم بالشكر لانكم اسقطتموها ايها الهادمون

وهأنذا الآن اسدي النصح للملوك والكنائس ولكل من اضعفته الفضيلة او اهرمه الزمان فأقول : دع القوة تسقطك لتعود الى الحياة فترجع الفضيلة اليك

هكذا تكلمت امام كلب النار ، فقاطعني بهريره قائلا : (الكنيسة ، وما هي هذه الكنيسة ؟) فقلت : إن الكنيسة شيء أشبه بالدولة ، بل هي من اكذب انواع الدول ، ولكن صه ايها الكلب ، فانك اخبر بنوعك من اي كان . انما الدولة حيوان خبيث على شاكلتك فهي تحب ان تتكلم فترسل بيانها دخاناً وهريراً لتخدع الناس وتجعلهم يعتقدون بأن اقوالها مستمدة من غور الامور . فهي تريد ان تكون أعظم حيوان على وجه الارض والعالم يراها على ما تريد (*)

(*) لا ريب في ان زارا لا يقصد بهذا الوصف الا الدول القابضة على عنق الشعب بالحكم المطلق

وظهرت على وجه الكلب افظع معاني الحسد فصاح: ماذا تقول وهل يعتقد احد ان الدولة هي أعظم حيوان على الارض ؟

قال هذا وخرجت من بين شدقيه إعصار من الدخان وازداد هريره حتى حسبته مقتولا بغيظه . ولكنه ما لبث حتى استعاد السكون فقلت له : — لقد تملكك الغيظ ، يا كلب النار ، وذلك دليل على انني اقول الحق عنك . وهأنذا استمرُّ في إعلان الحقائق فأحدثك عن كلب آخر من اتباع النار وهذا الكلب يتكلم حقيقة من قلب الارض ، فلهاثه من ذهب ، وما يحسب حساباً للرماد والدخان والزبد الحار فإن حوله ترتفع قهقهة تنتشر كأنها سحاب يزهو بعديد الوانه . وهو عدو هريرك وزبد شدقيك وما في احشائك من الاختلال . ان هذا الكلب يأخذ الذهب والضحك من قلب الارض لأن قلب الارض من ذهب ، فاعلم هذا أنت .

وغُلب الكلب على أمره عند سماعه هذه الكلمات فارخى ذيله خجلاً وبدأ يعوي وهو يزحف زحفاً الى مغارته

هذا ما سرده زارا لأتباعه ولكن اتباعه ما كانوا يبالون بما يقول وقد اشتدَّ شوقهم الى إخباره عما حدث للبحارة والرجل الطائر في الهواء

ولما سمع زارا ما قصّوه عليه قال : ماذا عساني اظن بما قلتم ؟ أفأكون شبحاً من الاشباح ؟ ولعل ما رأوه لم يكن سوى خيالي ولعلكم سمعتم حكاية المسافر وخياله ، غير انه من الواجب عليَّ ان اشدِّد النكير على خيالي فلا يذهب كما يشاء نائلاً من شهرتي

وهزَّ زارا رأسه بتعجب متسائلاً عما يقوله في هذا الحادث وهو لا يدري لماذا هتف الخيال قائلاً : لقد اقترب الزمان

هكذا تكلم زارا . . .

العرّاف

« . . . ورأيت الناس يستولي عليهم حزن عميق ، وقد وهنت قوى خيارهم فيما يعملون . فانتشر تعليم يؤدي الى الايمان في ان كل شيء باطل ومتشابه وقيد الزوال . فتجاوبت الاصداء في الهضبات مرددة : كل شيء باطل ومتشابه وقيد الزوال .

لقد حصدنا ولـكن غلالنا اكمد لونها وتهرأت ، فأي شيء تساقط تحت جنح الظلام من وراء كوكبه اللئيم ؟
لقد ذهبت جهودنا سدى وفسد خمرنا فاستحال سماً زعافاً فكأن عيناً حاسدة اصابت حقولنا وقلوبنا فأذوتها
جففنا جميعنا فاذا نزلت بنا حارقة فلا يتطاير منا غير الرماد . لقد تعب منا كل شيء حتى لسان اللهيب
غاضت الينابيع امامنا وتراجع البحر عنا وقد زلزلت الارض تحت اقدامنا ولـكنها لم تفغرفاها لتوارينا . فمن لنا ببحر نغرق فيه ، اننا نصرخ طالبين البحر فيذهب صوتنا بدداً على سطوح المستنقعات
والحق اننا بذلنا اقصى جهودنا طلباً للموت ولما نزل جثثاً تحيا وعيونها جاحظة طي اللحود . »
هذا ما قاله احد العرّافين فذهب قوله نافـذاً قلب زارا فبدّله تبديلا ، واصبح زارا حزيناً متعباً يضرب في الارض شبيهاً بمن ذكرهم العرّاف في نبوءته
وقال زارا لأتباعه : لن يمضي زمن طويل حتى ينسدل هذا الغسق القاتم على وجه الارض ، وانا احاذر الا اجد وسيلة للعبور بنوري الى ما وراءه فأنقذه من الانطفاء . هل من حافظ له بين هذه الاحزان وانا قد اعددته ليضيء في العوالم البعيدة ويشعّ في طيات الظلام السحيق
وسار زارا شارداً يحمل همه في قلبه ، فأمضى ثلاثة ايام لا يذوق فيها طعاماً ولا شراباً ولا يعرف الراحة حتى وقف لسانه عن الـكلام فاستغرق في نوم عميق وجلس صحبه حوله يسودهم القلق طوال الليالي متوقعين ان يفيق ليردوه عن احزانه .
وافاق اخيراً نخاطبهم بصوت كأنه ترديد صدى بعيد قائلا :
(أصغوا اليّ ، ايها الصحاب ، لأقصّ عليكم ما رأيت في حلمي وساعدوني على تعبيره ، فان حلمي قد أغمض عليّ ولم يزل معناه كامناً فيه
رأيتني هجرت الحيـاة واخترت مهنة حارس للقبور على الجبل المقفر حيث يرتفع قصر الموت ، فكـنت أحرس النعوش وهي اسلاب النصر تغص بها الدهاليز المظلمة ، فكـنت ارى الساقطين في معترك الحياة المسجّين في التوابيت المغطاة بالزجاج يحدجوني بنظراتهم المروعة . وهنالك نشقت عرف الابدية غباراً

يتطاير على روحي فيرهقها ولا أستطيع ان انفض عنها هذا الغبار الثقيل

وكانت أصداء الليل تدور بي ومعها شبح العزلة والانفراد ، فكان رفيقي سكون الموت تتعالى فيه من حين الى حين حشرجة المدنفين

وكنت احمل المفاتيح وقد علاها الصدأ اعالج بها اصلب الابواب فتصرف مصاريعها بصراخ أبحّ لئيم يذهب مدوياً في الدهاليز كأن الدرفات اجنحة اطيار تنكمش وتنعق متململة ممن يريد تنبيهها من رقادها

وعند ما كان يخيم السكوت بعد هذا الدوي كان يبلغ رعبي أشده فأبقى وحدي محاطاً بهذا الصمت الرهيب

ومر الزمان متمهلاً ، لو صح ان في مثل هذه الرؤى زمان ، الى ان وقع ما افقت له مذعوراً .

قرع الباب ثلاث مرات بدويٍّ كأنه الرعد القاصف ، فهتفت الدهاليز ثلاث مرات بصدى كأنه الزئير ، وتقدمت الى القفل اعالجه فلم يتزحزح قيد انملة ، وهبت العاصفة بشدة فدفعت بالمصراعين ورمت اليّ بنعش اسود وقد تصدّع الهواء بالصفير والولولة وسقط النعش فانحطم وخرجت منه آلاف من القهقهات فرأيت آلافاً من الاطفال والملائكة وطيور البوم والمجانين والفراشات الضخمة يطفرون حولي ساخرين

واستولى الخوف عليّ فاذا انا مطروح على الارض اصرخ صراخاً مريعاً فانتبهت لصوتي مذعوراً .

وسكت زارا لحظة وهو حائر فاذا بأحب اتباعه اليه ينهض ويقبض على يده قائلاً : « إن تعبير رؤياك انما هو في حياتك نفسها يا زارا . أفلست انت النعش وقد حشدت الحياة فيها سيئاتها وعبوس ملائكتها ؟ أفليس زارا يجتاح اللحود مقهقهاً كالأطفال ساخراً بالساهرين على القبور الخافرين لها ، مستهزئاً بكل مَنْ تقرقع المفاتيح في ايديهم .

لسوف يذعر هؤلاء الناس منك فيطرحهم ضحكك ارضاً فيغمى عليهم ثم ينتبهون وبذلك يثبت عليهم سلطانك .

لقد اطلعت لنا كواكب جديدة في الآفاق ونشرت من الليل ما كنا نجهله من البهاء . والحق انك مددت ضحكك فوق رؤوسنا فأظلنا بعديد الوانه . فمنذ

الآن ستتعالى قهقهة الاطفال من النعوش وستعصف من الجهود القاتلة الريح التي نتوقعها .

لقد مثّلت نفسُك اعداءك فأزعجتك رؤياك ، ولكنك انتبهت منسلخاً عنهم وعدت الى روعك ، وهم ايضاً سينتبهون فيرجعون اليك .

هكذا تكلم التابع، فدار سائر الاتباع بزارا يشدون على يديه محاولين اقناعه بالنهوض من فراشه والانسلاخ عن احزانه ليعود اليهم ، غير ان زارا بقي جالساً على فراشه وعيناه جاحظتان كأنه عائد من سفر بعيد لا يعرف ممن حوله احداً ، ولكن اتباعه رفعوه وأوقفوه فانتبه لجأة وتغيرت سحنته فمد يده يداعب شعر لحيته ورفع عقيرته قائلاً :

— كل هذا سيكون عند ما يحين زمانه . فأعدّوا لنا غذاء طيباً الآن لأكفّر عن الرؤيا التي رأيتَ ، غير ان العرّاف سيجلس الى جنبي ليأكل ويشرب معي وسأريه بحراً يغرق فيه نفسه .

هكذا تكلم زارا ...

ولكنه حدّق في وجه تابعه الذي عبّر له حلمه ، حدّق به طويلا وهو يهزّ رأسه ...

الفداء

وسار زارا يوماً على الجسر فأحاط به رهط من اهل العاهات والمتسولين وتقدم اليه احدب يقول له :

— التفت الى الشعب يا زارا فهو ايضاً يستفيد من تعاليمك وقد بدأ يؤمن بسنّتك . ولكن الشعب بحاجة الى امر واحد ليتوطد ايمانه بك : عليك يا زارا ان تتوصل الى اقناعنا نحن اهل العاهات . وامامك الآن نخبة منهم وما لك بعد مثل هذه الفرصة تنتهزها لتقوم باختبارك على مثل هـذا العدد من الرؤوس . بوسعك الآن ان تشفي العميان والمقعدين فتخفف الاثقال ، وتريح المتعبين. تلك هي الطريقة المثلى لهداية هؤلاء القوم الى الايمان بزارا

فأجاب زارا :

مَنْ يرفع عن ظهر الاحدب حدبته فقد نزع منه ذكاءه . هـذه هي تعاليم الشعب . واذا أعيد النور الى عينيّ الاعمى فانه ليرى على الارض كثيراً من

قبيح الأشياء فيلعن مَنْ سبَّب شفاءه . ومن يُطلق رِجلَ الاعرج من قيدها فانه يورثه أذية كبرى إذ لا يكاد يسير ركضاً حتى تتحكم فيه رذائله فتدفعــه الى غايتها . هذه هي التعاليم التي ينشرها الشعب . وهل على زارا إلا ان يأخذ عن الشعب ما اخذه الشعب عنه ؟

غير أنني منذ نزلت بين الناس سهل عليَّ ان ارى منهم مَنْ تنقصه عين ، و مَنْ تنقصه اذن ، وآخر فقد رجليه ، وهنالك مَنْ فقدوا لسانهم أو انفهم أو رأسهم

وهكذا رأيت اقبح الامور . وهنالك اشياء اشد قبحاً إن اعرضت عن ذكرها فلا يسعني السكوت عن اكثرها .

رأيت رجالاً فقدوا كل شيء ، غير انهم يملكون شيئاً يسوده الافراط ، فهم رجال كأنهم عين عظيمة او فم واسع أو بطن كبير أو عضو آخر كبير لا غير وما هؤلاء الناس الا اهل العاهات المعكوسة .

وعند ما عدت من عزلتي لأجتاز هذا الجسر للمرة الاولى وقفت مندهشاً لا اصدق ما أرى فقلت : هذه اذن ، اذنوسيعة كأنها قامة رجل ، وتقدمتاليها فلاح لي وراءها شيء صغير لم يزل يتحرك وهو ناحل ضعيف يستدعى الاشفاق فان الاذن الكبرى كانت قائمة على ساق دقيق . وما كانت هذه الساق الا انساناً ولو انك تفرّست في هذا الشيء بنظّارة لرأيت فوقه وجهاً يتقطب بالحسد وينمُّ عن روح صغيرة تريد الانتفاخ وتتجف على قاعدتها

وقال لي الشعب : ان هذه الأذن ليست رجلاً فحسب ، بل هي ايضاً رجل عظيم بل عبقري من عباقرة الزمان . غير انني ما صدقت الشعب يوماً اذا هو تكلم عن عظماء الرجال ، فاحتفظت بعقيدتي وهي ان هذا الرجل ذو عاهة معكوسة إذ ليس له الا القليل من كل شيء والكثير من شيء واحد .

وبعدان وجّه زارا هذا الخطاب الى الاحدب ومَنْ تكلم بالوكالة عنهم اتجه نحو اتباعه وقد تحكّم الكدر فيه فقال :

والحق انني اسير بين الناس كأنني امشي بين انقاض واعضاء منثورة عن اجسادها . وذلك افظع ما تقع عليه عيناي فانني ارى أشلاء مقطعة كأنها بقايا مجزرة هائلة . واذا ما لجأت عيني الى الماضي هاربة من الحاضر فانها لتُصدم بالمشهد نفسه . فهنالك ايضاً انقاض واعضاء اشلاء وحادثات مروعة ، ولكنني لا أرى رجالاً !...

ان أشد ما يقع عليَّ ايها الصحاب انما هو الحاضر والماضي وما كنت لأطيق الحياة لو لم اكن مستكشفاً ما لا بد من وقوعه في آتي الزمان ، وما زارا إلا باصرة تخترق الغيب فهو رجل العزم وهو المبدع ، هو المستقبل والمَعْبَر المؤدي الى المستقبل ، هو واأسفاه ذو عاهة ينتصب على هذا المعبر .

وأنتم ايضاً تتساءلون مراراً : من هو زارا ؟ وبماذا نسميه ؟ فلا تتلقون غير السؤال جواباً كما اتلقاه انا .

أهو من يَعِدُ أم من ينفِّذ الوعد ؟ اهو فاتح ام وريث أهو الطبيب ام هو الناقه ؟

أشاعر هو أم رجل حقيقة ؟ ؟ أمحرر أم متسلط ؟ أصالح أم شرير ؟

ما انا إلا سائر بين الناس شطرةً من المستقبل الذي يتراءى لبصيرتي وجميع افكاري تتجه الى جمع وتوحيد كل ما تفرّق على اسرار وتبدّد على الصدف العمياء

وما كنت لأحتمل ان اكون انساناً لو ان الانسان لم يكن شاعراً محللاً للاسرار ومفتدياً لاخوانه من ظلم ما تسمونه صدفة ودهراً . وما الفداء الا في إنقاذ مَنْ ذهبوا ، وتحويل كل ما كان الى ما اريد لو انه كان ...

ما المخلص والمبشّر بالغبطة الا الارادة نفسها وهذا ما اعلمكم إياه يا اصحابي، ولكن اعلموا ايضاً ان هذه الارادة لم تزل سجينة مقيدة .

إن الارادة تنقذ ، ولكن ما هي القوة التي تقيّد المُنقِذ نفسه ؟

ان داء الارادة الوحيد انما هو كلمة « قد كان » تقف الارادة امامها تحرق الإرَم عاجزة عن النيل من كل ما كان ، فالارادة تنظر بعين الشر الى كل ما فات وليس لها ان تدفع بقوتها الى الوراء ، فهي اضعف من ان تحطّم الزمان وما يريده الزمان ، وهذا داء الارادة الدفين .

ان الارادة تُنقذ ، ولكن ما هو تصوّر الارادة في عملها للتخلص من دائها وهدم جدران سجنها ؟

واأسفاه ! ان كل سجين يصبح مجنوناً ، وما تنقذ الإرادة السجينة نفسها الا بالجنون .

ان الزمان لايعود أدراجه . ذلك ما يثير غضب الارادة وكيدها فهنالك صخر لا طاقة للارادة برفعه ، وهذا الصخر انما هو الامر الواقع .

لذلك تهبُّ الإرادة وقد تملّكها الغيظ مقتلعة الاحجار منتقمة من كل مَنْ

لا يجاريها في كيدها وثورتها ، وهكذا تصبح الإرادة المنقذة قوة شريرة تصب جام غضبها على كل قانع بعجزها عن الرجوع الى ما فات . وهل انتقام الإرادة إلا عبارة عن كرهها للزمان لأنه أوقع ما لا قِبَل لها بردّه ؟

والحق ان إرادتنا مصابة بالجنون ، وقد نزلت لعنة على البشرية منذ تعلّم الجنون ان يتفكر. إن خير ما طرأ على الانسان حتى اليوم انما هو فكرة الانتقام، وهكذا سيبقى العقاب ملازماً للألم في كل زمان وفي كل مكان . وهل فكرة الانتقام إلا العقاب بذاته ، فاكلمة الانتقام إلا كلمة مكذوبة يقصد بها التعبير عن الضمير

إن كلّ مُريدٍ يتألم لأنه لا قِبَل له بالرجوع الى الماضي لردّ ما فات ، ولهذا لزم ان تكون الإرادة بل كل حياة على الاطلاق كفّارة وعقاباً

بمثل هذه الاعتقادات تلفّع العقل بالغيوم فانبثق منه الجنون هاتفاً: كل شيء يزول ، فكل شيء يستحق الزوال

إن العدل نفسه يقضي بأن يفترس الزمان ابناءه ، هذا ما اعلنه الجنون

لقد وضع الناموس الأدبي وفقاً للحقوق وللعقاب ، فأين المفرّ من نهر الحياة الجارف وما الحياة إلا عبارة عن عقاب ؟ وهذا ايضاً ما اعلنه الجنون

ليس من حادث واحد يمكننا ان نزيله من الوجود . فهل للعقاب ان يمحو الحادثات ؟ وهل من خلود لغير الأعمال في وجود لا ينفك يحول العمل عقاباً والعقاب عملاً؟ ولا مناص من هذه الحلقة المفرغة مالم تتوصل الارادة الى الفرار من ذاتها فتصبح حينذاك إرادة منفية

إنكم تعرفون ، ايها الاخوة ، هذه الاغاني التي يتشدّق بها الجنون . وقد اقصيتكم من سماعها عند ما علمتكم ان الارادة مبدعة . كل ما فات يبقى مبدداً منثوراً كأنه اسرار ومصادفات رائعة الى ان تقول الإرادة : انني انا اردت هذا. ثم تقول : وهذا ما اريده الآن وسأريده غداً

هل نطقت الارادة بمثل هذا حتى اليوم؟ وأي متى ستنطق به ؟ هل هي تملصت من قيود جنونها فأصبحت تفتدي الحادثات بعزمها وتبشر بالحبور ؟ هل هي اطرحت فكرة الانتقام وتوقفت عن حرق الأرم من كيدها ؟ مَنْ ترى تمكن من تعليمها مسالمة الزمان بل ما يفوق هذه المسالمة ؟

يجب على الارادة ولا أعني سوى إرادة الاقتدار ان توجّه مشيئتها الى ماهو

أعظم من المسالمة . ولـكن أنىّ لها ذلك ومَنْ سيعلّمها ان توجه هـذه المشيئة الى ما فات ؟

وتوقف زارا عن الـكلام فجأة كأن رعباً شديداً حل به فاتسعت حدقاته وشخص باتباعه سابراً أفكارهم غير انه ما لبث ان عاد الى الضحك فقـال بكل هدوء :

— ما تهون الحيـاة بين النـاس لان الصمت صعب على المرء وخاصةً اذا كان ثرثاراً

هكذا تكلم زارا . . .

ولـكن الاحدب الذي كان يصغي الى هذا الحديث وهو يستر وجهه بيديه سمع قهقهة زارا ففتح عينيه مستغرباً وقال : — لماذا يخاطبنا زارا بغير مايخاطب به اتباعه

فقال زارا :— وهل من عجب في هذا؟ أفما يصح ان يُخاطب الاحدب باقوال لها حدبتان

فقال الاحدب : — ولا عجب ايضاً في ان يخاطب زارا تلاميذه كمعلم اولاد، ولـكن لماذا يخاطب أتباعه بغير ما يخاطب به نفسه ؟

حكمة البشر

ليست الأعالي ما يخيف بل الاعماق ، فعلى الجرف تحدّق العين في الهـاوية وتمتد اليد نحو الذرى فيقبض الدوار بالإرادتين على القلب

أفتعلمون ايها الصحاب ما هي إرادة قلبي المزدوجة ؟ إن الخطر المحدق بي على منحدري انما هو اتجاه نظري الى الذروة بينما تتلمس يدي مستنداً في الفضاء. وما أعلق إرادتي إلاّ على الانسان فتشدني اليه مرهقـات القيود لانني منجذب منه الى الانسان المتفوّق فإليه تنـدفع إرادتي الثـانية . انما انا احيا بين النـاس كالضرير لا يعرف من حوله ، كيلا تفقـد يدي ثقتهـا من الوقوع على مستند مكين

انا لا اعرفكم ، ايها الناس تلك هي ظلمتي اتلفّع بها وتعزيتي الجأ اليها

فأنا جالس امام البـاب متوجهاً الى الاوغاد صائحاً بهم : اليّ يا مَن يريد ان يخدعني

إن اول حكمة بشرية احمل بها هي ان استسلم لخــداع الناس فلا اضطر الى الوقوف ابداً موقف الحذِر لأن في الناس مَنْ يخدعون

ولو انني وقفت هذا الموقف في العالم اكان يتسنى للانسان ان يثقل منطادي فيمنعه من الانفلات والانطلاق الى ابعد الآفاق ؟

إن إغفالي للحذر انما هو عناية تسهر عليَّ لإيصالي الى ما هو مقدور

إذا انت امتنعت عن الشرب من كل كأس فانك هالك ظمأً ، فاذا اردت ان تبقى طاهراً بين الناس فعليك ان تتعود الإغتسال بالماء القذر

لـكم ناجيت قلبي لاعزيه ، فقلت له : صبراً ايها القلب الهرم ، انك لم تفلح بهذه النقمة فتنعَّم بها كأنها نعمة

وهذه حكمتي البشرية الثانية: إنني اداري المغرور بأكثر مما اداري الفخور، لان الغرور الجريح مبعث كل النائبات، في حين ان العزَّة الجريحة تستنبت جرحها ما هو خيرٌ منها

اذا لم يحسن الممثلون لرواية الحياة ادوارهم فيها فخير لك الا تشهدها، وليس امهر من اهل الغرور في التمثيل لانهم يقومون بأدوارهم وكل ارادتهم متجهة الى اكتساب رضى المشاهدين وإعجابهم ، وهم لا يدخرون وسعاً في سبيل خلق شخصيتهم وتمثيلها ، لذلك يلذ لي ان انظر من خلالهم الى الحياة فهم خير دواء للسوداء . إنني اداري اهل الغرور لانهم أساة احزاني المقيمون الانسان ممثلاً امام عياني

وفوق ذلك فمن له ان يسبر الاعماق في تواضع المغرور ؟ فانا اريد الخير لمثله واشفق عليه بسبب اتضاعه ، فهو يريد ان يقتبس منـكم ثقته بنفسه متغذياً من نظراتكم ، متسوّلاً الثنـاء من تصدية اكفكم . ان المغرور ليصدّق اكاذيبكم اذا ما احسنتم إيرادها عنه ، فما هو إلا حائر يشك باعماق نفسه في قيمة نفسه

اذا كانت الفضيلة الحقيقية تجهل ذاتها فالمغرور كذلك لا يعرف شيئاً عن تواضعه

اما حكمتي البشرية الثالثة فقائمة على انني لا ادع لاستحيائكم سبيلا الى تنفيري من مشـاهدة الاشرار ، فانا أُسرُّ بالنظر الى ما تخلق حرارة الشمس من عجـائب المخلوقات كالنمور واشجار النخل والافاعي ذوات الاجراس. ولكم بين الناس من

أمثال لهذه المخلوقات العجيبة افقستها حرارة الشمس ايضاً ، وفي الاشرار من البدائع الشيء الكثير . . .

إن اوفركم عقلاً لا يبلغ في نظري منتهى الحكمة ، كذلك لا ارى الشر إلا مبالغاً في وصفه . ولكم تساءلت مشككاً : لماذا لا تزال الافاعي تطن باجراسها ؟

إن لكل شيء مستقبله حتى الشرور ، فالظهيرة البالغة التناهي في إشراقها لم تنكشف للإنسان حتى اليوم . لكم من امور تعتبر شروراً في هذا الزمان وهي لا تتجاوز الثلاث عشرة قدماً حجماً ، ولا الثلاثة اشهر بقاء ، وغداً سيولد ما هو اعظم منها . ولا بد من ان تخلق الحياة التنين المتفوق خليقاً بالانسان المتفوق ، فان شموساً محرقة ستدخل حرارة الإبداع في الغابات الغضة الرطبة التي لم تمسسها يد بعد

لابد من ان تصبح وحوشكم نموراً وعقاربكم تماسيح ، فيجد القناص في الغاب ما يرضيه

والحق ان فيكم كثيراً من المضحكات يا رجال العدل والصلاح . ولشد ما يضحكني خوفكم ممن دعوتموه إبليساً . لقد بعد المجال بين روحكم وكل عظيم ، فاذا ما لاح لكم الانسان المتفوق بصلاحه اورثكم خوفاً ورعباً . فانكم ايها الحكماء والعلماء ، ستولون الإدبار اذا ما لفحتكم الحكمة المشعة على الانسان المتفوق في غبطته وعريه

لقد وقعت عيني عليكم ، ايها العظماء ، فادركت هذا السر ، وهأنذا اعلنه لكم ، انكم ستصفون الانسان المتفوق الذي انبئكم به بانه شيطان الشياطين

اتعبني هؤلاء العظماء ، واشدهم إرهاقاً لي اوفرهم عظمة ، فانا اتوق الى اجتياز مرتبتهم فأفوتها وانا اتجه الى الانسان المتفوق

لقد عرتني هزة عند ما شاهدت خيار العظماء في عريهم فشعرت بجناحين استنبتهما ساعداي لاحلق بعيداً عنهم في آفاق الدهور الآتية . انني اتوجه الى الدهور البعيدة ، الى الظهيرات الغارقة بانوار لم يحلم بها الفن من قبل ، فهنالك تتجلى الآلهة خجولة من كل ما يقع من حادثات على الارض

ليتني اراكم متنكرين، ايها الاخوة والاقرباء ، اهل الصلاح والعدل ،

فتبدون بحللكم وقد نفخها الغرور ، وليتني اجلس بينكم متنكراً انا ايضاً ، كيلا اعرف مَنْ انا ، لان هذه آخر حكمة لي من حكم البشر

هكذا تكلم زارا...

اعمق الساعات صمتا

ماذا جرى لي يا صحابي ؟ لقد سادني الاضطراب فأضعت هداي واراني مندفعاً بالرغم مني الى الرحيل والابتعاد عنكم وآسفاه

اجل ، على زارا ان يعود الى عزلته ، غير ان الدُّب يرجع الى مغارته كئيباً حزيناً . ماذا جرى لي ومن تُرى يضطرني الى الرحيل ؟

انها (هي) مولاتي الغاضبة ، لقد كلمتني فأعلنت لي إرادتها وما كنت ذكرت لكم اسمها حتى اليوم، هي اعمق ساعاتي صمتاً وهي نفسها مولاتي القاهرة، كلمتني امس

وسأقص عليكم ماجرى فلا اخفي عنكم شيئاً كيلا يقسو قلبكم عليَّ وانا افاجئكم برحيلي عنكم

اتعلمون ما هي خشية من يستسلم للكرى ؟ انه الذعر يستولي على الانسان من رأسه الى اخمص قدميه، لأن احلامه لاتبتدىء ما لم تنسحب الارض من تحته

إنني اضرب لكم امثالاً ، فاصغوا الي :

امس عند اعمق الساعات صمتاً خلت الارض من تحتي وبدأت احلامي

وكان العقرب يدبُّ على ساعة حياتي في خفقانها ، وما كنت سمعت من قبل مثل هذا السكوت يسود حولي ويروِّع قلبي

وسمعتها (هي) تقول لي ، ولا صوت لها : انك تعرف هذا يا زارا

فصحت مذعوراً عند سماعي هذه النجوى وتصاعد الدم الى رأسي

فعادت هي تقول ، ولا صوت لها : انت تعرف هذا يا زارا ولكنك لا تعلنه

فانتفضت واجبت بلهجة المتحدّي : — اجل إنني اعرف هذا ولكنني لا اريد ان أعلن ما اعرف

فقالت (هي) ولا صوت لها : أصحيح انك لا تريد ؟ لا تخفِ نفسك وراء هذا التحدّي يا زارا

فأخذت ابكي وارتعش كالطفل قائلاً : ويلاه ، اريد ان أصرّح ، ولكن هل ذلك بامكاني ؟ أعفني من هذه المهمّة لانها تفوق طاقتي

فقالت ، ولا صوت لها : وما اهميتك انت يا زارا قل كلمتك وتحطّم

فقلت : أهي كلمتي ما يهم ، فمن اكون انا ؟ انني انتظر من هو أجدر مني باعلانها وما انا اهل لاصطدم بالمنتظر فأتحطم عليه

فقالت ، ولا صوت لها : وما اهميتك انت ما دمت لم تصل بعد الى ما اريده من الاتضاع ؟ وما اقسى ما يتشح الاتضاع به ، وما اصلب جلده

فقلت : لقد تحمّل جلَدُ اتضاعي كثيراً ، فأنا ساكن عند قاعدة ارتفاعي ولم يدلني احد بعد على ذراه العاليات ، ولكنني تمكنت من سبر اغواري ومعرفتها

فقالت ولا صوت لها : اي زارا ، انت المعدّ لنقل الجبال من مكان الى مكان. أفما بوسعك ان تنقل أغوارك ومهاويك ايضاً ؟

فقلت : لم تنقل كلمتي الجبال بعد ، فان ما قلته لم يبلغ حتى آذان الناس ، لقد اتيت الى العالم غير انني لم اتصل به بعد

فقالت ، ولا صوت لها : وما يدريك . . . ؟ ان الندى يتساقط على العشب في أشد اوقات الليل سكوتاً

فأجبت : لقد هزأ الناس بي عندما اكتشفت طريقي ومشيت عليها ، والحق ان رجليّ كانتا ترتجفان اذ ذاك ، فقال لي الناس : لقد ضللت سبيلك يا زارا ، بل اصبحت لا تعرف ان تنقل خطاك

فقالت ، ولا صوت لها : واية اهمية لسخريتهم ؟ لقد تخلّصت من الطاعة يا زارا فوجب عليك ان تأمر الآن . أفلا تعلم ان مَنْ يحتاج الجميع اليه باكثر من احتياجهم الى اي شيء انما هو مَنْ يقضي في عظائم الامور ؟

ان القيام بالكبائر صعب ، وأصعب من هذا ان يأمر الانسان بها. ان ذنبك الذي لا يغتفر هو انك ذو سلطان ولا تريد أن تتحكّم

قلت : ليس لي صوت الاسد لاصدر اوامري

فقالت — كأنها تهمس همساً — : لا يثير العاصفةَ إلا الكلماتُ التي لا صوت

لها ، إن من يدير العالم انما هي الافكار التي تنتشر كأنها محمولة على اجنحة الحمام. عليك ان تسير يا زارا كأنك شبحٌ لِما سيكون يوماً في آتي الزمان ، هكذا تندفع في سبيلك الى الامام وانت تتولى الحكم

فقلت : ان الخجل يتولاني

فعادت تقول ، ولا صوت لها : عليك ان تعود طفلاً فيذهب خجلك عنك ، ان غرور الشباب لمّا يزل مستولياً عليك لانك بلغت الشباب متأخراً ، ولكن على مَنْ يريد الرجوع الى طفولته ان يتغلّب على شبيبته

واستغرقت في تفكيري وانا ارتجف ، ثم عدت الى تكرار كلمتي الأولى قائلاً : لا اريد . وعندئذ ارتفع حولي صوت قهقهة مزقت قلبي وصدّعت احشائي

وقالت (هي) للمرة الاخيرة : اي زارا ، إن اثمارك ناضجة ، غير انك لم تنضج انت لاثمارك ، فعليك إذن ان تعود الى العزلة لتزيد في قساوتك ليناً

وعاد الضحك يتعالى ، فشعرت انها انصرفت عني (هي) وعاد الصمت يسود باعمق مما كان حولي ، اما انا فبقيت منطرحاً على الارض سابحاً في عرقي

والآن ، وقد اعلنت لكم كل شيء ايها الصحاب ، فهأنذا أعود الى عزلتي وما اخفيت عنكم شيئاً. ارحل عنكم بعد ان علمتكم ان تعرفوا من هو أشد الناس تكتماً ومن يريد ان يكون كتوماً

واأسفاه ، ايها الصحاب ، إن لديّ ما أقوله لكم ايضاً ، ولديّ ما ابذله ، فلماذا لا ابذله الآن ؟ ألعلني أصبحت شحيحاً ؟

وما نطق زارا بهذا حتى ارهقه سلطان حزنه لاضطراره الى الرحيل ، فبكى منتحباً وما تمكن احد من تعزيته ، ومع هذا ما ارخى الليل سدوله حتى ذهب زارا وحده تحت جنح الظلام متخلياً عن صحبه

هكذا تكلم زرادشت

الجزء الثالث

« إنكم تنظرون الى ما فوقكم عندما
« تتشوقون الى الاعتلاء ، اما انا فقد
« علوت حتى أصبحت أتطلّع الى ما
« تحت اقدامي فهل فيكم من يمكنه ان
« يضحك وهو واقفٌ على الذُرى .
« مَنْ يحوّمْ فوق اعالي الجبال
« يستهزيء بجميع مآسي الحياة
« ويستهزيء بمسارحها بل بالحياة نفسها »

زرادشت

القراءة والكتابة . الجزء الاول صفحة
« ٣١ »



المسافر

وكان قد انتصف الليل عنـد ما توجه زارا الى أكمة الجزيرة وهو يجدُّ في السير ليبلغ الشاطىء الآخر عند بزوغ الفجر إذ كان يقصد الأبحار من هذه الجهة حيث ترسو بعض المراكب لتقلّ طلاب المهاجرة من الجزر السعيدة .

وتذكّـر زارا الرحلات التي قام بها منفرداً منذ صباه فمرت بمخيلتـه رسوم الجبال والتلال والذرى التي تسلقها في حياته فقال : « ما انا إلا رحّالة ومتسلق مرتفعات وما تستهويني منبسطات الارض ولا يستقر بي مقام . ومهما قُدِّر عليّ ومهما وقع لي فلا تعدو الحوادث ان تكون في نظري رحلة واعتلاء . فما لي ان ارى من الآفاق إلا ما انطبع منها في نفسي . ولقد مضى الزمن الذي كان لي فيه ان اتوقع الحوادث من خطرات الحظ . وهل لي ان انال من الدهر شيئاً لم يستقر في نفسي من قبل ؟

إن كل ما يطرأ عليّ بعد الآن إنما هو ذاتي العائدة تكراراً بعد انفراطها وتمازجها في الاشياء وتصاريف الزمان . غير انني اصبحت الآن على مدرج آخر الذرى امام اصعب مسلكٍ ما اقتحمت مثله في حياتي، فأنا أبدأ الآن اشدّ رحلاتي عناء واروعها وحشة .

وأنىّ لمثلي ان يتجنّب مثل هذه الساعة التي تهتف قائلة : إنك على مبدأ طريق المجد حيث تتداخل الذرى في المهاوي . انت تسير على هذه الطريق وكنت تراها قبلاً آخر ما تقتحم من اخطار فأصبحت لديك آخر ملجأ تهرع اليه .

إنك تسير على طريق المجد فعليك ان تتذرع بالحزم الأوفى لتقطع بنفسك خطّ الرجوع على نفسك .

إنك تسير على طريق المجد ، فأنت منفرد عليها لا يزحمك احد من ورائك ، وقد محت اقدامك آثار خطاك على ما وراءك من المسالك ، ولاحت كلمة المستحيل مخطوطة على آفاق هذه الطريق .

ولا بد لك إذا ما خلت المدارج تحت اقدامك ان تتسلق قمة رأسك إذ لا سبيل لك للاعتــلاء إلا اذا اتجهت اليه والى ما وراءه وانت تدوس على قلبك ، وهكذا سيُشقيك ماكان يحلو لديك .

ان مَـنْ افرط في ادخار جهوده لا يلبث حتى يُبتلى بالخمول ، تبارك كلُّ جهد يشدُ العزم ، فلا خير في ارض تدُّر اللبن والعسل ، ومن يطمح الى الاحاطة بأمور كثيرة فليتدرب على ارسال ابصاره الى ما وراء حدود ذاته . وعلى كل متسلق للذرى ان يتعزز بمثل هذا الحزم اذ لا يسع من يتحرّى الامور متجسساً بفضوله الا الوقوف عند اسهل الافكار منالا . وانت يا زارا تطمح الى الاحاطة بالعلل والى نفوذ خفايا الامور ، فعليك ان تحلق فوق ذاتك فتجتازها متعالياً حتى ترى ما فيك من كواكب وهي تتصاغر في كل افق دون افقك الرفيع

أجل انـ ذروتي انما هي حيث اقف ناظراً الى الاعماق فأرى فيها ذاتي وكواكبها ، تلك هي آخر هضبة اطمح الى بلوغ قمتها »

بهذا كان يناجي زارا نفسه وهو يصعد المرتفع معللا بالتعاليم الصارمة مافي قلبه من جراح .

وعند ما بلغ الذروة انبسط البحر امام ناظريه فوقف مبهوتاً واستغرق في صمت طويل ، وكانت السماء لا تزال تتــألق بالنجوم والهواء يهب بارداً على الأكمة .

وهتف زارا حزيناً : «لقد تبيَّنت ما قُدِّر عليّ ، وها أَنا ذا مستعد للاقدام فهذه آخر عزلة اقتحمها .

سأنحدر اليك ايها البحر المظلم المنبسط عند اقدامي ، انت الليالي المفعمــة بالاحزان ، انت القضاء والقدر ايها الخضّم البعيد .

انياقصد ارفع جبالي مقتحما ابعداسفاري فعليّ اذاً ان اهبط الى مهاوٍ أبعد في اغوارها من كل ذروة رقيتها حتى الآن .

عليّ انـ اذهب من الاسى الى أغوار ما رسبتُ في مثلهـا من قبــل فأصل الى قرارة مـا في الاحزان من ظلمـات . ذلك ما قُدر عليّ فأنا على اهبّة اقتحامه

لقد تساءلت فيما مضى عن منشأ الجبال فعرفت اخيراً انها نهدت من البحار

كما تشهد صخورها وجروف ذرواتها ، فما يبلغ الأعلى مقامه إلا لانطلاقه من المقام الأدنى »

هكذا تكلم زارا وهو ماثل على قمة الجبل تدور به لفحات الصقيع ، ولكنه مابلغ الشاطيء ووقف بين نتوءات صخوره حتى حل عليه التعب وتزايدت اشواقه فقال :

« إن البحر هاجع ايضاً فعينه الوسنى تحدجني بلفتات غريبة وانفاسه الحرّى تهب عليّ . انه مستغرق في احلامه يتقلب مضطرباً على جافيات مسانده. انني استمع لهديره كأنه يئن بتذكارات مفجعات ، وقد يكون هذا الهدير نذيراً بالشؤم في آتي الزمان

إنني اشاطرك الأسى ايها المدى المظلم الوسيع ، فأنا بسببك ناقم على نفسي أتمنى لو طالت يدي فأنقذك من أصفاد أحلامك »

وانتبه زارا فاذا هو يضحك ساخراً من ذاته فتمرمر وتساءل عما اذا كان سيبلغ به حماسه الى اطلاق إنشاده لتعزية البحار ، وعما اذا كان سيستمر مضعضعاً في سكرة غرامه واستسلامه فقال :

« لقد عرفتك في كل زمان يا زارا تقتحم الامور الخطيرة بلا كلفة وبلا مبالاة ، وقد رأيتك طوال حياتك تدغدغ الوحوش المفترسة فكان يكفيك منها ان تهتاج حبك بأنفاسها الحرّى وبنعومة مخالبها لتجتذبك اليها

ليس من خطر أعظم من الحب يحدق بالمستغرق في عزلته فان المنفرد يحب كل شيء يتنسم فيه الحياة ، وما أعجب جنوني بالحب وتساهلي فيه »

هكذا تكلم زارا وقد عاد الى الهزء بنفسه ، غير انه تذكر مَنْ هجر من خلانه فخيل اليه انه يسيء اليهم بتفكيره فيهم ، فنقم على نفسه وانقلب من ضحكه الى البكاء فسالت دموعه مريرة يتمازج فيها الغضب والشوق

الرؤى والالغاز

— ١ —

وعندما تناقل البحّارة خبر وجود زارا بينهم وكان بلغهم ذلك من رجل دخل السفينة معه قادماً من الجزر السعيدة ساد الجميع شيء من القلق وباتوا يتوقعون

حدثاً في وجوده ، غير ان زارا بقي يومين جامداً تساوره احزانه ، تحدق فيه الانظار فلا يلتفت ، وتوجّه اليه الأسئلة فلا يجيب . واخيراً أصغى لما يقال حوله متوقعاً سماع أبحاث لها خطورتها تدور على هذه السفينة القادمة من بعيد والمتجهة الى أماكن سحيقة . وما كان زارا لينفر من الاسفار البعيدة ومن الأخطـار ، وبعد أن أصغى طويلاً حلت عقدة لسانه فانطلق يقول :

— اليكم ايها الشذّاذ الجريئون ايًا كنتم ، ايها المستسلمون للشراع الغدار على هائجات الامواج

اليكم ايها الثملون بخمرة الاسرار ، المنجذبون بين خيوط الظلمات والانوار الى نغمات كل شبابة تنوح في المجاهل الخفية ، إنكم تنفرون من تلمس طريقكم بيد مرتجفة على ما نصب من دليلات الحبال إذ تفضلون الإدراك بالحس على الادراك بالإستقراء

اليكم دون سواكم أوجه الخطاب لأخبر بما تجلى من ألغاز وبما خطر من رؤى لأشد الناس استغراقاً في عزلته

لقد اجتزت الغسق في أشد فتراته وجوماً . اقتحمته وقد تقلّصت شفتاي وعلا وجهي الاغبرار وكنت شاهدت من قبل شموساً كثيرة تجنح الى الغروب

رأيت أمامي طريقاً يتسلل على جروف المرتفعات ، طريقاً وعراً تعرى جانباه من كل نبات فدفعت عليه اقدامي أتحداه فأسمع صريف حصاه تحتها

مشيت صامتاً أحاول تثبيت الحصى المتطايرة بخطواتي لانجو من الانزلاق عليها

واعتليت فاذا بروح الكثافة وهو عدوي الألد يشدّ بي الى الاعمـاق ، واعتليت ايضاً فاذا بهذا الروح المطبق عليّ كالقزم من الناس والخلد من سكان الاوجار يسكب في اذني ودماغي كلمات ثقيلة كالرصاص فسمعته يقول لي متمهلاً هازئاً :

أي زارا ايها الحجر المدّعي الحكمة، لقد رشقت نفسك الى ما فوق، ولكن اي حجر ارتفع ولم يسقط عائداً الى مصدره ؟

أي زارا ايها الحجر الحكيم المنقذف الى العلا ليزعزع الكواكب في مدارها ما انت الا القاذف والمقذوف معاً فلا بد لك من السقوط ككل حجر

يُرشق الى ما فوق . لقد حكمت بالرجم فكان حكمك به على نفسك ، وهذا الحجر الذي فوّقته سيرجع ساقطاً عليك .

وسكت القزم طويلاً حتى ضاقت من سكوته انفاسي ، فالرفيق الصامت يشعرك بوحشة الانفراد اكثر مما تشعر بها وانت وحدك لا رفيق لك .

وارتقيت ايضاً وأنا تائه في تفكيري واحلامي شاعر بتزايد الضيق في صدري كأنني عليل نبّهته اضغاث احلامه فاستفاق ليشعر بأوجاعه .

غير انني اعهد بنفسي قوة اسميها شجاعة وهي القوة التي ارغمت بها كل وهن في نفسي ، بهذه الشجاعة تذرعت فصحت بالقزم قائلاً :

إن واحداً منا يجب عليه ان يتوارى .

ما من قاتل كالشجاعة التي تهاجم ، وما من فيلق يتقدم إلا وفي طليعته الانغام الحاديات .

ان اوفر الحيوانات شجاعة انما هو الانسان الذي قهر بشجاعته سائر الحيوانات وتغلّب على جميع الاوجاع ماشياً وراء حاديات الانغام بالرغم من ان اوجاع الانسان اشد ما في الكون من اوجاع .

وللشجاعة ايضاً فضيلة ردع الدوار المستولي على الرؤوس حين تحدّق في الاعماق ، وما من موقف للانسان لا هاوية تحته وما عليه الا ان يحدّق ليرى المهاوي من اي موقف في مواقفه .

ان الشجاعة خير ما يقتل فانها تقتل الاشفاق ايضاً ، وما من هاوية ابعد قرارا من الاشفاق لأن نظر الانسان ليذهب وهو يسبر الآلام الى اقصى مدى يبلغه عند سبره الحياة نفسها .

ان خير ما يقتل انما هي الشجاعة اذا هاجمت ، لأنها ستتوصل اخيراً الى قتل الموت نفسه لأنها تقول في ذاتها : « ياللعجب ! أهـذا ما كانت الحياة ؟ إذن لأرجعنّ اليها مرة اخرى » ان في مثل هذه العقيدة أشدّ حداء يدفع الى الاقدام، مَنْ له اذنان سامعتان فليسمع .

— ٢ —

واستوقفت القزم قائلاً : يجب ان يبقى احدنا ويفنى الآخر. انني انا الأقوى لأنك لا تدرك اعمق افكاري ، وما اعمقها الا فكرة لا قبل لك باحتمالها . فارتمى

القزم عن كتفي نخفّف حملي ، فاذا بهذا القزم يجلس القرفصاء على حجر امامي، واذا نحن تجاه باب كأنه وجد صدفة هناك فقلت لرفيقي :

انظر الى هذا الباب فان له واجهتين ، وهنا ملتقى مسالكين لم يبلغ انسان اقصاهما ، احدهما منحدر يمتد الى ابدية ، والآخر مرتفع يمتد الى ابدية اخرى ، والمسلكان يتعارضان متقاطعين عند هذا الباب وقد كُتب اسمه على رتاج واحد « الحين »

فقلت : أتعتقد ايها القزم ان من يتوغّل في احد هذين المسلكين يبقى معتقداً بأن اتجاه احدهما معارض لاتجاه الآخر ؟

فقال القزم بازدراء . ان كل اتجاه على خط مستقيم انما هو اتجاه مكذوب فالحقيقة منحرفة لأن الزمان نفسه خط مستدير اوله آخره .

فأجبته قائلاً : لا تستخف بالامر ايها الروح الكثيف وإلا غادرتك فتعطب رجلك حيث انت ، ولا تنسَ انني انا حملتك الى الاعالي . تفكر في «الحين» الذي نحن فيه الآن ، فان من بابه يمتد سلك ابديّ لا نهاية له متراجعاً الى الوراء ، فإنّ وراءنا ابدية يا هذا

افما كان لزاماً على كل شيء مُعزز بمعرفة السير ان يجتاز هذا المسلك فيما مضى ؟ افما تحتم على كل شيء له طاقة الوصول أن يكون قد وصل فيما مضى فأتمّ سيره وعبر ؟

واذا كان كل موجود الآن قد وجد من قبل فما هو اعتقادك في هذا الحين؟ أفما كان لهذا الباب وجود سابق ؟

أفما ترى الاشياء كلها متداخلة ، وان هذا « الحين » يجر وراءه كل ما سيكون ، بل يجر نفسه ايضاً ؟

أفما يتحتم والحالة هذه على كل معزّز بقوة السير ان يندفع مرة اخرى على هذا المسلك المتجه الى ما فوق ؟

انظر الى هذه العنكبة التي تدب على مهل تحت شعاع القمر ! انظر الى شعاع القمر نفسه والى ذاتي وذاتك مجتمعين تحت هذا الباب تتهامسان باسرار الابد ! أفما تعتقد انه لا بد ان نكون وقفنا جميعاً من قبل في هذا المكان ؟

أفليس علينا ان نعود لنندفع تكراراً على المسلك الآخر الذاهب امامنا متصاعداً مستطيلاً مروعاً ؟ افما لزم علينا ان نعود تكراراً وابداً ؟

هكذا كنت اتكلم بصوت يتزايد انخفاضه وقد ارعبتني أفكاري وما كمن وراء افكاري فاذا بي اسمع فجأة نباح كلب على مقربة منا

خيل اليَّ انني سمعت مثل هذا النباح من قبل، ورجعت بتذكاري الى الماضي فإذا هو يسمعني هذا النباح في أبعد ايام طفولتي ويمثّل لي مثل هذا الكلب الذي اراه الآن وقد وقف شعره ومد رقبته مرتجفاً في أشد الليالي سكونا حيث يتراءى للكلاب ايضاً ان في العالم اشباحاً

ونبّه نباح الكلب اشفاقي إذ تذكرت انه عندما عوى منذ هنيهة كان القمر يطل من وراء البيت صامتاً كالموت ، ومنذ هنيهة كان هذا القمر يستقر فوق السطح كقرص ملتهب يراود ما ليس له، وذلك ما اثار غضب الكلب لان الكلاب تؤمن بالسارقين والاشباح

عند ما سمعت هذا النباح للمرة الثانية عاودني الاشفاق تكراراً

اين توارى القزم الآن ومعه الباب والعنكبة وأحاديث المناجاة ؟ أ كنت في حلم فاستفقت فأنا الآن وحيد بين جرداء الصخور لا سمير لي غير شعاع القمر المنفرد في السماء

لكنني رأيت رجلاً مسجّى على الارض وكان الكلب يقفز وقد اقشعرّ جلده وهو يهدر هديراً ، واذ رآني قادماً نحوه بدأ بالنباح فتساءلت عما إذا كنت سمعت من قبل كلباً ينبح بمثل هذا الصراخ المستغيث

والحق ان ما رأيت في ذلك المكان ما كنت رأيت مثله ، لانني شاهدت امامي راعياً فتياً ينتفض محتضراً ، وقد ارتسم الروع على وجهه وتدلت من فمه أفعى حالكة السواد ، فتساءلت عما اذا كنت رأيت قبل الآن مثل هذا الاشمئزاز والشحوب على وجه من الوجوه . لعل هذا الراعي كان يغط في رقاده عندما انسلت الافعى الى حلقه وانشبكت فيه

وبدأت أسحب الافعى بيدي ، ولكنني شددت عبثاً ، فسمعت من داخلي صوتاً يهيب بالراعي قائلاً : عض عليها باسنانك ولا تني حتى تقطع رأسها ، وهكذا سمعت بهذا الهتاف أصوات رعبي واشمئزازي وضغينتي وإشفاقي كأنها صوت واحد يتعالى مني

فيا ايها الشجعان المحيطون بي ، ايها الشذاذ المكتشفون يا من تقتحمون مجاهل البحار مستسلمين للشراع الغدّار وانتم تسرون بالمعميات والالغاز،عبّروا رؤى المنفرد وحلوا ما رأى من معميات وقد كمن فيها ماكان وما سيكون

ايُّ هذه الرموز يدل على ما فات وايُّها يدل على ما هو آت ؟

من هو الراعي الذي اندسَّت الأفعى في فمه، ومن هو الانسان الذي سيصاب بمثل هذه الداهية الدهماء ؟

على ان الراعي بدأ يشد باسنانه منفذاً ما اشرت به ، وما لبث ان تفل دافعاً براس الأفعى الى بعيد ، ثم انتفض ووقف على قدميه

وتبدلت هيئة الراعي فلم يعد راعياً حتى ولا إنساناً ، إذ جلله الإشعاع وضحك ضحكة ما سمعت حياتي مثلها

لقد سمعت يا إخواني ضحكة ليست من عالم الانسان ولم ازل منذ ذلك الحين احترق بشهوة لا اجد ما يطفئها . إن شهوة هذه الضحكة تنهش احشائي فكيف ارضى الموت بعد الآن

هكذا تكلم زارا . . .

الغبطة القاسرة

وسار زارا يقطع ابعاد البحر تساوره مثل هذه الهموم ، وتدور به مثل هذه الاسرار ، حتى اذا تخطى مجال اربعة ايام عن الجزر السعيدة وما ترك عليها من صحبه ،اشتدت عزيمته فتغلب على آلامه ، وثبّت قدميه في موقفه متجهاً الى مقدراته مناجياً سريرته وقد عاد اليها مرحها وسرورها قائلاً :

لقد فزعت الى عزلتي لانني تقت اليها،فانا الآن منفرد امام صفاء السماء ومدى البحار ، وقد خطا النهار الى عصره وما التقيت باصحابي للمرة الاولى إلا في وقت العصر ، وفي مثل هذا اليوم اجتمعت بهم للمرة الثانية . والعصر هو الساعة التي يهدأ فيها اضطراب الانوار جميعها لان السعادة الذاهبة بدداً منشورة على مسالكها بين السماء والارض تتجه الى الاستقرار في روح الضياء . وها إن السعادة تحوّل اضطراب النور الى سكون

فياالعصر حياتي ! إنّ سعادتي هي ايضاً قد انحدرت يوماً الى الوادي تطلب مستقراً فلقيت هذه الارواح النيّرة تفتح لها الملجأ الأمين

يا لعصر حياتي ! لكم تخليت عن اشياء في الحياة توصلاً الى مغارس افكاري الحية والى انوار الصباح تدور في ذراتها أسمى امانيّ وآمالي

لقد طلب المبدع يوماً رفاقاً له وفتش عن ابناء آماله فأدرك انه لن يجدهم اذا هو لم يخلقهم خلقاً

لقد اتممت نصف مهمتي باتجاهي نحو ابنائي وبعودتي اليهم ، وقد وجب على زارا ان يبلغ نفسه الكمال من اجل هؤلاء الابناء . ومايحب الإنسان من صميم قلبه إلا ابنه ونتيجة جهوده ، وحيث يتجلى الحب الأشد فهنالك تكمن القوة المولدة ، ذلك ما ادركته بتفكيري

إن ازهار ابنائي لا تزال تتفتق في الربيع والريح تهبّ على صفوفهم فتهزّها، فأبنائي اشجار حديقتي ونبت خير اراضيّ

إن هذه الاشجار متراصّة في منابتها على الجزر السعيدة ، ولسوف اقتلعها واحدة فواحدة لأغرسها متفرقة فتتعلم احتمال العزلة وتنشأ فيها الأنفة والحزم لينتصب كل منها تجاه البحر وقد تصلبت جزوعها وتعقدت اغصانها كمنائر حية للبقاء القاهر

على كل شجرة ان تشخص في مهب العواصف المترامية الى البحر حيث يتدافع الغمر الى قاعدة الجبل فلا تغفل ليلاً ونهاراً عن تفحص سرائرها . عليها ان تتحمل التجارب ليعلم انها من سلالتي وانها تحدَّرت من اصلي تعززها الإرادة الجالدة فتبدو صامتة حتى عند ما تتكلم ، واذا ما استسلمت تبدو معطية وهي آخذة . وهكذا يتحوّل مَنْ يمشي على اثر زارا باضرابه وبابداعه الى شخصية تحفر شريعتي على الواحي فيكتمل بذلك كل شيء

وهأنذا من أجل هذه الشخصية وأمثالها أسعى الى تكوين شخصيتي فأمتنع عن ورود السعادة مقتحماً كل شقاء في آخر تجربة احملها لأدرك سريرتي

لقد آن الأوان لرحيلي وقد نبّهني الى وجوب الرحيل خيال المسافر وأطول الازمان واعمق الساعات صمتاً إذ نفخ الريح في فتحة القفل فتراجعت درفة الباب قائلة : هيّا

ولكنني كنت مقيداً بحبي لابنائي يأسرني تشوقي الى هذا الحب لاصبح فريسة لهؤلاء الابناء فأضحي من اجلهم نفسي ، وما الشوق عندي إلا صورة ظاهرة لحقيقة فنائي . ان ابنائي لي وفي هذه التملك يجب ان يضمحل كل شوق مستحيلاً الى عقيدة مكينة

وكان رأسي يلتهب بشمس محبتي فاتحرّق بحرارة دمي فرأيت اشباح الشكوك تدور بي من كل جهة فتمنيت ان يلفحني قرُّ الشتاء حتى تصطك اسناني من رعشة الصقيع ، وما عتم ان اكتسح نفسي ضباب الجليد ، فشق الماضي لحوده و بُعثت منه الآلامُ التي دُفنت وهي حية فيها ، وما تناولها الفناء لانها كانت نائمة على اكفانها

وكان كل شيء يشير اليَّ بان قد حان زمن الرحيل ولكنني كنت لا انتبه الى هذه الدعوة حتى تحركت اعماقي ولسعتني ثائرات افكاري . ويا ليت لي القوة للتغلب على ارتعاشي عندما أشعر بقوة التفكير في اغواري تحاول ان تخترق لها منفذاً ، فانني لا ازال احس باختلاج قلبي عندما اتنصت لدبيب افكاري وهي تحاول الانجلاء لي . إن في صمتكِ نفسه ايتها الفكرة ما يشد على عنقي وانتِ أشد صمتاً من اغواري . ولكم حاولت ان استخرجك من الاعماق ايتها الفكرة فخانني العزم واكتفيت بإضماري إياك في ذاتي . إنني لم اتصل بعد الى جرأة الأسد والى منتهى إقدامه

إنكِ لجدُّ ثقيلة في اغواري ايتها الفكرة ولسوف أجد يوماً قوة الأسد واتخذ لصوتي زئيره فأرفعك من الغور الى المنبسط ، حتى إذا ما تغلّبت بذلك على نفسي تدرجت الى انتصار أعظم اختتم به اعمالي . والى ان ابلغ هذا الظفر سأبقى تائهاً على بحار لا اعرف لها ساحلاً تداعبني خطرات الأحداث فأتلفّت الى ما ورائي والى ما امامي ولا اعلم اين المنتهى

ألم تحن بعد ساعة جهادي الاخير أم هي ماثلة امامي الآن ؟ والحق ان البحر والحياة يحيطان بي بجمالها الفتّان ويعلقان ابصارهما عليَّ

فيالعصر حياتي ، يا للسعادة تنقدم ساعة المساء ، يا للمرسى في وسط العباب ، يا للسكون في قلب الارتياب ، إنني احاذركنّ ولا اثق بكنّ جميعاً

اما والحق إنني اخشى جمالكن الغدّار كما يخشى العاشق ابتسامة تجاوزت حد

التلطف في افترارها. إنني ادفع عني ساعة السعادة كالغيور يصدُّ عن محبوبته ولما يزل العطف يتجلى في قسوته وجفائه

بُعداً لك ايتها الساعة السعيدة ! فقد اجتاحتني بحلولك غبطةٌ قاسرة وانا اتوقع اعمق الاحزان . لقد جئتني في غير الأوان

بُعداً لك ايتها الساعة السعيدة! اذهبي واطلبي لك ملجأ هنالك في مقرّ ابنائي، سارعي اليهم وباركيهم قبل حلول المساء وانيليهم سعادتي

لقد اقترب الغسق وجنحت الشمس الى الغروب فتوارت عني سعادتي

هكذا تكلم زارا . . .

وبات يتوقع نزول شقائه به طوال ليله ، غير انه انتظر عبثاً إذ بقي الليل منيراً ساكناً واستمرت السعادة تخطو مع الساعات مقتربة اليه . وما لاح الفجر حتى بدا زارا يتضاحك قائلاً :

إن السعادة تتأثرني لانني لا اتأثر النساء ، وهل السعادة إلا امرأة ؟

قبل بزوغ الشمس

ايتها السماء الرافعة قبابها فوق رأسي نقية صافية ، ايتها السماء السحيقة وقد غادرتُ في ابعادك الانوار ، إنني اشخص اليك فتتملكني رعشة الاشواق الإلهية

انا لا اسبر اغواري إلا اذا سموت الى عليائك ، ولا اشعر بطهارتي إلا حين يجللني صفاؤك

انك تحجبين نجومك كما يتلفّع الإله بسنائه . انت صامتة وبصمتك تذيعين لي حكمتك

لقد تجليت لي اليوم في سكونك على زبد الآفاق فأعلنتِ لروحي المزبدة ما فيك من حب وعفاف . جئت اليّ جميلة مقنعة بجمالك تخاطبينني بلا كلام وتعلنين حكمتك وما كنت اعلم ما في روحك من عفاف . اتيت اليّ قبل بزوغ الشمس انا المنفرد في عزلتي

انا وانت صديقان منذ الازل فأحزاننا واحدة كارتياعنا ، وعمق اغوارنا وشمسنا واحدة ايضاً . وما نتناجى إلا لوفرة ما نعلم ثم يسودنا الصمت فنتبادل

ما اعرف وما تعرفين بلغة البسمات . افما بُعثت انوارك من مكمن انواري أفليست فكرتك اختاً لفكرتي ؟

لقد تعلمنا كل شيء سوية وتدربنا سوية على الاعتلاء فوق ذاتنا متجهين الى صميمها مبتسمين بافترار لا تعكره الغيوم وبلفتات صافيـة نغرقها في سحيق الابعاد في حين تتدافع كالامطار تحتنا النزعات المكبوتة واهداف الخطيئة .

الى مَ كانت تتوق نفسي عندما كنت اذهب في الليل شارداً على مسالك الضلال وماذا كنت اطلب في تسلقي الجبال نحو قممها ؟ أفما كنت انت مقصدي ايتها السماء . وهل كانت اسفاري جميعها إلا ذهاباً مع حافز التدرب ؟ وهل كان لارادتي من هدف غير التحليق في الاجواء ؟ وهل ابغضت شيئاً بغضي الغمام وكل نقاب يلفع الضياء ؟ لقد كرهت بغضي نفسه لأنه يعكر صفاءك ايتها السماء .

إنني انفر من هذه الغيوم تمر كأنها قطط برية تزحف زحفاً لأنها تختلس مني ومنك أيتها السماء الحقيقة الايجابية الثابتة في كل شيء ، فأنا وأنت ننفر من هذه الدخيلات المعكرات من هذه الغيوم الكاسحات ، فما هي الا كائنات مختلطة في نوعها يسودها التردد فلا تعرف ان تلعن باخلاص ولا أن تبـارك باخلاص .

وخير لي ان الجأ الى مغارة او اسقط في هاوية من ان اقف امامك يا سماء الضياء وقد عكرت صفاءك الغيوم الكاسحات . ولكم وددت لو انني أُسمّر اردانها على آفاقك بسهام البروق الذهبية ثم أُنزل عليها الرعود تهوي قاصفة على مراجل احشائها إنني اود قرعها بعصا الغيظ لأنها تحجب عني حقائقك ايتها السماء الممتدة بأغوار انوارها فوق رأسي كما تحجب حقيقتي عنك .

لخيرٌ لي ان اسمع هزيم الرعود وولولة العواصف من ان أتنصت الى مواء هذه الهررة الزحافة المترددة . ففي المجتمع امثالٌ لهذه الغيوم يسيرون مترددين بخطوات الذئاب وقد وقفت اشد بغضي عليهم .

« على من لا يعرف ان يمنح البركة ان يتعلم إنزال اللعنات » ذلك ما ألهمتنيه السماء الصافية مبدأ ينير سمائي كالكواكب في أشد الليالي قتاماً .

ما دمتِ فوقي ايتها السماء الصافية المتألقة بالانوار فانني لا أنقطع عن منح البركة وايراد بياني ايجاباً وتأكيداً لأنير بعقيدتي جميع الأغوار المظلمة .

لقد جاهدت طويلاً حتى اصبحت مباركاً ومؤكداً . وما ناضلت الاّ لأحرر ذراعيّ فأبسطهما للبركة ، وتقوم بركتي على الاعتلاء فوق كل شيء كما

تعتلي السماء والسقوف المكوّرة وقباب الاجراس والغبطة الدائمة . فطوبى لمن يبارك هكذا . لأن كل الاشياء قد تعمّدت من ينبوع الأبدية وما وراء الخير والشر ، وما الخير والشر الا خيالات عابرة واحزان بليلة وغيوم متراكضة الى الفناء .

والحق ان من البركة لا من اللعنة ان نعلّم بأن فوق كل شيء تمتد سماء الصدفة وسماء البراءة وسماء الحيرة وسماء الاضطراب .

ان كلمة الصدفة لأقدمُ ما في العالم من نسب للاشياء ، وقد ارجعتُ كل الاشياء الى هذا النسب النبيل فانقذتها من عبودية المقصد والهدف . وهكذا رفعت الحرية والغبطة السماوية عالياً ونصبتها كالقباب فوق جميع الاشياء اذ علّمتُ ان ليس من ارادة ابدية تعلو بها لتبسط مقاصدها فوقها .

لقد وضعت حداً لهذه الارادة بل لهذا الجنون وهذا الاضطراب عند ما علّمتُ ان الوقوف عند الحقيقة كان مستحيلاً وسيبقى مستحيلاً . فما هناك الا قليل من التعقل وذرات من الحكمة تتلقفها الكواكب كخميرة امتزجت بالاشياء جميعها ولو لا الجنون لما امتزجت بها .

ليس للانسان ان يُعطي من الحكمة الا قليلاً . غير انني وجدت في كل مكان عقيدةً لها سعادتها وهي تفضيل الرقص على ارجل الصدفة العمياء .

فياايتها السماء الممتدة فوق رأسي ، ايتها السماء الصافية المتعالية ،لقد اصبح كل صفاءك فيك قائماً على اعتقادي بأن ليس في الكون عنكبة خالدة ، وليس فيه من الحكمة ما تنسجه العناكب . فلتكن مجالاتك ايتها السماء مسرحاً لخطرات الصدف الالهية ، او فلتكن خواناً يدحرج عليه الآلهة نردهم ، فلماذا يعلو اديم وجهك الاحمرار ؟ اترى جاء بياني مبهماً ام وردت بركتي لك لعنة عليك ؟ ام اخجلك اني انفرد بك فأردتِ ان اتوارى واكف عن الكلام لأن الفجر قد لاح على الآفاق ؟

ان في العالم من الاغوار ما لا يدركه النهار ، ومن الاشياء ما يجب كتمانه امامه ، وقد باغتنا النهار ، فلنفترق .

ايتها السماء الممتدة فوق رأسي بطهرها واضطرامها . ايتها الغبطة المتجلية قبل بزوغ الشمس ، لقد باغتنا النهار فلنفترق .

هكذا تكلم زارا . . .

الفضيلة المصغرة

— ١ —

ولما وطىء زارا اليابسة . لم يتجه تواً الى جبله وغاره بل ذهب يضرب في الآفاق مستفسراً عن كل ما يرى فكان يقول عن نفسه : ما انا الاّ الجدول يتلوّى على منعطفاته متجهاً الى مصدره لا الى مصبّه .وما قصدزارا من تجواله الا معرفة ما آلت اليه حالة الناس اثناء غيابه ، وهو لايدري أتعاظم الانسان ام تصاغر ،وسار زارا حتى ادّى به المطاف الى مُسلسل من الابنية الحديثة فوقف امامها وهو يعلن دهشته بقوله :

— الى مَ ترمز هذه المساكن ؟ والحق انها ليست من صنع روح جبارة تعلن ذاتها بما تصنع ، ولعلها أُخرجت من حقيبة طفل ، فيرجعها طفل آخر الى مستودع الألاعيب .

أبوسع الرجال ان يدخلوا هذه الُحجَر ويخرجوا منها وهي كأنها مُعدَّة لصغيرات الدُمى الرافلات بالحرير أو لصغار الهررة النهمة التي تحشر ذاتها لتفترس فتصبح فريسة .

وشخص زارا ملياً ثم قال والحزن يهدّج صوته : لقد اصبح كل شيء صغيراً ، فانني حيثما اوجه انظاري لا ارى غير ابواب خُفضت أرتاجها فاذا شاء امثالي ان يجتازوها تحتّم عليهم ان ينحنوا .

أيطول بي الزمان حتى اعود الى وطني حيث لا أُرغم على الانحناء امام كل صغير :

قال هذا وارسل نظراته تخترق الآفاق البعيدة وهو يدفع بزفرة الشوق العميق .

وتمالك زارا نفسه فوقف يلقي خطابه عن الفضيلة الُمصَّغِرة .

— ٢ —

أمرُّ بهذا الشعب مفتحاً عيني منتبهاً الى نفسي فان رجاله لا يغتفرون لي إغضائي عن فضائلهم وترفّعي عن حسدهم عليها .

انهم يلحقون بي نابحين إذ اقول لهم لا يليق بصغار الناس الا صغـيراتُ الفضائل . انهم ينبحون اذ يقصر بي فهمي عن ادراك الفائدة من وجودهم في الحياة . وما اشبهني بديك غريب تثور الدجاجات عليه بمناقيرها ، فلا احقد عليها لأنني تعودت على احتمال التافه من المزعجات وما فوّقت قطُّ سهامي نحو اي صغير حقير فما ينتفش بريشه لأية حركة الا القنافذ .

إن صغار الناس يتحدّثون عني في سُمَرهم دون ان يفتكر احدهم بي ، فتذهب ضجتهم تحوك دثاراً لتفكيري فاتمتع بنوع من السكون ما كنت اعرفه من قبل .

ان واحدهم يقول لرفيقه ماله ولنا ، انه الغمامة الربداء وقد تحمل باهدابها وباءً كاسحاً فلنحذرها .

وقد رأيت امس امرأة تجتذب طفلها اليها لتردّه عن الاقتراب مني ، شدّت به وهي تصيح : ابعدوا الاولاد فان هاتين العينين تحرقان روحهم الغضّة .

إنهم يتكلّفون السعال اذا ما تكلمت حاسبين ان سعالهم يقف بوجه العاصفات فيردها ، وقد خشنت آذانهم فامتنع عليها ان تحس بنبرات السعادة في صوتي .

يقولون لا وقت نقفه على زارا ولكن ما اهمية جيل لا يتسع وقته لزارا ؟

وهب ان هؤلاء الناس جاءوا اليّ لتمجيدي فهل يسعني ان استنيم الى امجادهم وليس ثناؤهم عليّ الا منطقة اشواك لو لمست حقويّ لما تخلصت من اثارها حتى بعد طرحها عني .

لقد تعلمت بين هؤلاء الناس حقيقة اخرى وهي ان مَنْ يسدي الثناء يتظاهر باعادة ما بُذل له وهو لا يرمي في الواقع الاّ الى الاستزادة لنفسه من المديح والاطراء .

سلوا قدميّ، هل غرّهما مثل هذا التزلف ؟ ان قدميّ تمتنعان عن الاخذ بأي وزن مقيد حين يحلو لهما الرقص كما تشتهيان . انهم يصورون فضائلهم الصغـيرة بأروع بيان لاجتذابي اليها كما ينقرون على دفّ سعادتهم الحقيرة استفزازاً لرجليّ الى الرقص . وانا امرُّ بهؤلاء الناس مفتحاً عينيّ منتبهاً الى نفسي لأنهم صغروا ولا يزالون يتصاغرون وما أوردهم هذا الصغار الاّ ما اتخذوه قاعدة لسعادتهم

وفضيلتهم ، لأنهم طلبوا الراحة في الفضيلة فحشدوها تواضعاً وهكذا تمرنوا على الإقدام كما يحلو لهم فمشوا متعارجين متماهلين واقاموا من زرافاتهم عقبة في سبيل من يقدمون على الاسراع في سيرهم .

ان من هؤلاء مَنْ يتجه الى الامام ولكنه لا يفتأ يتطلّع الى الوراء مُتلعاً عنقه معرقلاً سير التابعين .

على الاعين وعلى الارجل الاّ تكذِّب ذاتها وما اكثر الكذّابين بين الوضعاء .

ولقد يكون بين هؤلاء الناس من يريد ولكن اكثرهم منقادٌ تعمل ارادة غيره فيه ، ولقد ترى بينهم مخلصاً غير ان اكثرهم من حُثالة الممثلين ، فمنهم من يمثِّل دون ان يدري ومنهم من يمثل دون ان يريد وما اقلّ المخلصين من هؤلاء القوم بخاصة بين فئة الممثلين منهم .

هنا تسترجل النساء لقلة ما يتصف بالرجولة الرجال ، وما يحرر المرأةَ من خلالها ليخلق فيها المرأة الحقيقية الاّ مَنْ تكاملت الرجولةُ فيه .

واخبث ما رأيت بين هؤلاء الناس تظاهر حاكمهم بفضيلة محكومهم فلا يزال أولو الامر فيهم يترنّمون بتصريف مصدر الخدمة :

« خدم ، خدما ، خدموا — نحن نخدم » وويلٌ للسيد الاول بينهم اذا لم يقل انه اول الخادمين .

لقد ذهب نظري المتجسس ، وأسفاه ! يرود مكامن خبثهم فما خفيت عني سعادتهم فاذا هي سعادة ذُباب يترامى بطنينه الى زجاج النوافذ تتكسر عليه اشعة الشمس ، وما رأيت بين هؤلاء القوم اشفاقاً الا وتبيّنت إزاءه ما يوازيه ضعفاً فتراهم يتعاملون بالانصاف والعطف كحبّوب الرمال تعطف واحدتها على الاخرى

وما رأيت رجلاً فيهم الا وهو يدّعي القناعة فيما اصاب من نذر السعادة غير انه لا يني في قناعته يحدج بعين الشهوة قليلاً من السعادة يضيفها الى ما يملك وما يطمع هؤلاء الناس الاّ بان يتقي بعضهم شرّ البعض الآخر فهم لذلك يلجأون الى التعامل بالحسنى . اما انا فلا ارى الا الخَوَر والجبن في هذه الطريقة وان كانوا يعرّفونها بالفضيلة فيما بينهم .

واذا صدف وتخاطب هؤلاء الناس بشيء من الخشونة فانني لا اتميّز في

نبرات صوتهم الا اثر التهاب الحلق ، فان اقل لفحة تصيب هـذه الاعناق تبحّ اصواتها ، وما اشد هؤلاء القوم حين يحتالون ويمكرون ، ففي انامِلهم كل الرشاقة ولكنّ في قبضة يدهم شللاً وليس لأصابعهم ان تنطوي على راحتها .

وما الفضيلة في عرفهم الا ما يولد الضعة والتآلف وبهذا المبدأ توصلوا إلى جعل الذئب كلباً بل حتى الى جعل الانسان خير الدواجن الخاضعة لتسلط الانسان .

انهم لمغتبطون ، انهم يضحكون قائلين : لقد اتخذنا مقامنا على الحالة الوسطى بين مصارعي الثيران يردون المهالك وبين الخنازير سارحةً لا تبالي .

وما هذه الحالة التي يدعونها اعتدالاً الاّ حالة انحطاط وخمول .

— ٣ —

لقد القيت الى هـذا الشعب بكلمات كثيرة فما وسعه إدراك كنهها ولا حفظها ، وكل ما بدا منه هو استغرابه ألاّ اكون اتيت اليه بالمواعظ لمكافحة الفحشاء والرذائل ، والحق إنني ما جئت نذيراً يدعو القوم الى الاحتراس ممن ينشلون الاموال من الجيوب

لقد استغربوا ألاّ اكون مستعداً لتنبيه الغافلين عن الحكمة وتسديد التفكير في الحكماء فكأنهم لا يزالون بحاجة الى مهرة المعلّمين تخدّش اصواتهم الآذان كأنها صريف أقلام الحجر على اللوحات السوداء

فاذا صرخت بهم قائلاً : أنزلوا لعناتكم على ما فيكم من جبناء الابالسة الذين لا يحلو لهم غير الأنين وضم السواعد الى الصدور للعبادة ، هبّوا منادين بكفر زارا وإلحاده وارتفعت فوق اصواتهم أصوات من يعلّمونهم الاستكانة والصبر ، فـلا املك نفسي من ان اهمس في آذان هؤلاءِ المعلمين لاقول لهم : انا هو زارا الكافر الملحد ، ولولا شعوري بالاشمئزاز منهم لكنت اسحقهم سحقاً لانهم اشبه بالقمل لا يدبّون الا حيث تبدو الحقارة وينتشر الجَرَب

أجل لقد همست في آذان هؤلاء المعلّمين قولي إنني انا زارا الكافر القائل : ارشدوني الى مَنْ هو اشد كفراً مني لاتمتع بتعاليمه وأسرّ بها

انا هو زارا الكافر ، فاين اشباهي ، وما اشباهي إلا من يهبون من ذاتهم لذاتهم ارادةً مطّرحين الصبر كارهين الاستسلام

انا هو زارا الكافر ، انا الصاهر في مرجلي كل ما يُدعى صدفة فلا ازال به حتى ينضج ليصلح لي غذاء ، ولكنْ رأيت الصدف تتقدم اليّ كأنها السيد المطاع فترغمها ارادتي على الركوع أمامي خاشعة مسترحمة طالبة اليّ أن اجد لها مأوى عندي قائلة : ما يلجأ الصديق الاّ الى صديق

ولكن لمن اوجه الخطاب اذا كانت كلماتي لا تطرق اسماعاً تشبه اسماعي؟ غير انني سأرسل صوتي في الفضاء لتهبّ به الرياح قائلاً :

— ايها القوم الوضيع انك لتزيد حقارة من يوم الى يوم انك سائر الى الذوبان فالاضمحلال ، وما يوردك الفناء إلا صغيراتُ فضائلك وتساهلك وصبرك

إنكم تدارون كثيراً ، ايها الناس وتتخلّون عن الكثير وما الارض التي تنمون عليها إلاّ من تراب المداراة والضعف وهل يشتد جزع الدوحة فتتعالى اذا هي لم تنشب اصولها في الأرض القاسية ملتفة حول صلب الصخور ؟

إنكم تنسجون باهمالكم كفناً لمستقبل الانسانية فانتم العناكب العاملة فيما لا يجدي وهي تتغذى من دم الأنسال المقبلة . فيالكم من لصوص بما تأخذون ، ايها المباهون بحقيرات الفضائل ، انكم تسلبون وتهدمون في حين ان للسارقين انفسهم بقيةً من الشرف تقف بهم عند حد السلب اذا لم يكن من موجب للهدم والتحطيم

انكم تأخذون بمادىء صبركم فتقولون ان ما تستولون عليه هو مما يُعطى وانا اقول لكم انه مما يؤخذ ويُسلب وما انتم إلاّ سالبو انفسكم لو تعلمون

فعلى مَ لا تقلعون عن هذا التذبذب في ارادتكم ولماذا لا تختارون الذهاب الى صميم الكسل او الى صميم العمل ؟

ليتكم تفهمون ما اقوله لكم : افعلوا ما تريدون ولكن تعلّموا اولاً ان تريدوا

حبّوا قريبكم كأنفسكم ولكن حبّوا انفسكم اولاً

وهل بينكم من يحب نفسه بالحب الأعظم والاحتقار الاعظم ؟

وهل يجدي القول وليس لكم الاذن التي اسمع بها انا ؟ إنّ ساعتي لم تحن بعد ، وقد جئت بينكم بشيراً لذاتي فانا الصبح وانا الديك الصائح ولمّا يزل الظلام منتشراً على السبل

ان ساعتكم تقترب باقتراب ساعتي ، فانكم تتصاغرون مع مرور الزمان فيزداد فقركم وتزدادون عقماً فما انتم إلاَّ اعشاب مسكينة على ارض أشد مسكنة من اعشابها

لسوف لا يطول الزمان حتى تتعب هذه الاعشاب من نفسها فتحتقرق وهي عطشى الى النار لا الى الماء

انها لأسعد ساعة تلك الساعة التي تنقضُّ الصاعقة فيها ، ويا لها من سرٍّ يستبق الظهيرة ، فانني سأُرسل من هذا السر ومن تلك الصاعقة جداول من نار سارسل انبياء يتكلمون بالسنة اللهيب منذرين بالظهيرة العظمى

هكذا تكلم زارا . . .

على جبل الزيتون

لقد نزل الشتاء ضيفاً ماكراً عليّ ، فمددت يديَّ يلوّحها الازرقاق لمصافحته ، ولكنّي اود ان افلت من هذا الضيف بالرغم من محبتي له ولا سبيل لي للانعتاق منه إلاَّ بالجري على قدميَّ فتدبّ الحرارة فيها وفي افكاري ، فانا اتجه هارباً من الصقيع الى حيث ينقطع هبوب الريح فأصل الى جبل الزيتون ، الى مطرح شعاع الشمس ، وهنالك استقرُّ ضاحكاً من ضيفي القاسي الرابض في مسكن يتلهى بالقرقعة وقتل الذباب ، وضيفي ينفر من طنين ذبابة واحدة او ذبابتين فهو يطمح الى جعل كل مكان مقفراً حتى يرى اشعة القمر نفسها ترتاع من ظلمات السبيل

انه لشديد الوطأة هذا الضيف ، ولكنني احترمه ولا افزع منه الى اله النار كما يفعل المخنّثون ، لانه خيرٌ للانسان ان تصطك اسنانه برداً من ان يلجأ الى الاصنام ، ذلك ما تقول به غرائزي فانا عدو كل صنم ناري يضطرم في وجومه

اذا ما احببت احداً فان حبي له في الشتاء لأشد منه في الصيف وفي الشتاء اراني اقوى على الاستهزاء باعدائي ، فاشعر بالشجاعة عندما التفُّ بدثاري على فراشي لأن سعادتي المولية تأخذ بالترنّم ضاحكة فتضحك معها كاذبات احلامي

اي شيء يكرهني على الزحف ، وما زحفت يوماً سعياً الى اقدام الاقوياء ؟

واذا كنت لجأت احياناً الى الكذب فما كان كذبي إلاّ وليد محبتي وذلك ما يجعلني مرتاحاً الى نفسي حتى وانا على فراشي والسماء معتكرة بالغيوم

انني لأدفأ على الفراش الوضيع البسيط بأكثر مما ادفأ على الفراش المزيّن الوثير فانا حريص على فقري وما يخلص الفقر لي في اي فصل إخلاصه لي في الشتاء ، افيق كل صباح للمشاكسة فابدأ بالاستحمام بالماء البارد لاهزأ بالشتاء فيزمجر بوجهي هذا الصديق القاسي، وعندئذ يلذّ لي ان اداعب ظلامه بانوار شمعة ضئيلة لا هيب به الى ارسال شرر النور من رماد آفاقه

ان روح الاذية لا تنتبه بي في اية ساعة انتباهها عند الفجر عندما تحتك الآنية بالآنية امام سبيل الماء وتصهل الخيل وهي تضرب بحوافرها ارض الشوارع الدكناء عندئذ اقف شاخصاً الى السماء متوقعاً انبثاق انوارها فتبدو كالشيخ تمازجَ السوادُ بالبياض في لحيته ونصعت بالشيب قمة رأسه

فيا لسماء الشتاء من آفاق صامتة تتغلب احياناً على الشمس فتدعها ملفّعة بصمتها ، فهل اقتبستُ من هذه السماء الانقباض على النور في السكون الطويل أم هي تعلمت ذلك مني ؟ ولعل كلاً منا اوجد هذا الوجوم الصامت لنفسه ؟

ان للاشياء الحسنة مصادرها المتعددة لانها تطفر مرحة في الوجود فلا يمكن ان تلوح وشيكا وتتوارى

وما الصمت الطويل إلاّ في عداد هذه الاشياء الحسنة المرحة لذلك صفا اديم وجهي كأديم السماء بعد إمطارها واستقرت اللحظات الهادئة في عيني. فانا احجب شمسي كما تحجب سماء الشتاء شمسها فاخفي ارادتي وقد تعلّمت هذا المكر من الشتاء فبلغت من فني مرتبة منعت بها صمتي ان يفضح بالصمت نفسه ، فاصبحت ألهو بمخادعة المتعظمين وأشغال انتباههم الصارم بالتكلم وباللعب بالنرد وهكذا لن يتمكن احد من سبر اعماق حكمتي واقصى ارادتي . وذلك ما رميت اليه عندما اوجدت السكون الطويل

ولكم رأيت من رجل ماكر يضع نقاباً على وجهه ويعكّر المياه في اعماقه كيلا يتمكن احدٌ من نفوذ اقصى سريرته فالتف حوله كبار الماكرين روّاد المصاعب فاصطادوا جميع ما اخفى من اسماك في قعر مياهه

إن مَن لا يفضحهم الصمت انما هم من نقت نفوسهم وشفّت قلوبهم غير ان أقصى سرائرهم لا تنكشف للنظر وهي السحيقة الاغوار تحت اطباق المياه الشفافة الصافية

إنك رمزٌ لنفسي يا سماء الشتاء بأديمك الابيض وعيونك البرّاقة الصافية وورائك مثل ما تضمر هذه النفس من ثورة واضطراب ولقد حقّ عليّ ان احتجب كمن ابتلع الذهب كيلا اعرّض روحي لمباضع المتجسسين، ولقد وجب عليّ ان انتعل القباقب المرتفعة لاخفي طول قامتي عن أعين مَنْ يدورون بي من لؤماء الحاسدين. انها لن تحتمل النظر الى سعادتي هذه النفوس الجافّة العتيقة المتهرئة المفسّخة . . .

من اجل هذا لا أُظهر لهم غير شقائي والثلوج المكللة لذرواتي مخفياً عنهم ان جبلي تمنطقه الشمس بجميع انوارها، واذا هم سمعوا من مرتعي شيئاً فلا يسمعون الا ولولة الزوابع ادفع بها اليهم فلا يخطر لهم ببال انني امرٌّ أيضاً على الامواج الحارة فاحمل منها لفحات ريح الجنوب

ان هؤلاء الناس يشفقون عليّ لما يطرأ لي من الحادثات ومن تصاريف الزمان في حين انني اهتف قائلاً دعوا الصدفة تأتي اليّ فانها طاهرة كالاطفال .

اكان لهؤلاء الناس ان يطيقوا تمتعي بالسعادة لولا انني لم احط سعادتي بحادثات الشتاء ومصائبه ولم اتدثر بالفراء وعباءة الشتاء ؟

انني ان اشفقت لاشفاق هؤلاء المتألمين في كيدهم وان ارتجفت من البرد امامهم ورضيت بان تدور رحمتهم بي فما ذلك الا لحكمة مرحة في نفسي لا تخفي ما يدور بها من عاصفات الشتاء ولا تستر ما الم بها من قروح الصقيع .

ان بعض الناس يطلب العزلة بالهرب من المريض والبعض الآخر يطلبها بالوقوف امامه .

لأدعهم يصغون الى انيني وشكايتي لصقيع الشتاء، انني بمثل هذا الانين افزع من غرفهم الدافئة فليشفقوا عليّ وليقولوا انني سأقضي بالصقيع في برد معرفتي . اما أنا فأركض برجليّ الدافئتين على جبل الزيتون وأطلق صوتي بالانشاد في مطارح شعاع الشمس هازئاً بكل إشفاق [1]

هكذا تكلم زارا . . .

---

(١) لقد تكون هذه المبالغات في الوصف وهذه المغالات في الاستعارات المبهمة من محاسن البيان في اللغة الالمانية ، غير انها ليست على ما نرى من روح الادب العام على بلاغة يستسيغها كل بيان ، وعندنا ان اللغة العربية خير ما تختبر به عبقرية الكاتبين بكل لسان .

على الطريق

وكان زارا وهو يقصد كهفه وجباله يمرُّ بشعوب عديدة ومدن كثيرة متمهلاً في رحلاته حتى وصل فجأة الى مدينة عظيمة واذ دخلها انتصب بوجهه مجنون فاتحاً ذراعيه ليصدَّه عن التقدم والزبد يرغي على شدقيه ، وما كان هذا المعترض الاَّ مَنْ لقَّبه اهل المدينة بسعدان زارا لأنه كان يقلِّد حركاته ولهجته ويستعير شيئاً من كنوز حكمته .

وخاطب المجنون زارا قائلاً :

ان هنا المدينة العظمى وما لك ان تظفر منها بشيء بل عليك ان تفقد فيها كثيراً .

ما الذي يضطرك في الانغماس في هذه الاوحال ، فاشفق على قدميك وقف عند بابها تافلاً عليه وعُدْ ادراجك .

هنا جحيم كل فكرة فريدة ، هنا تصهر الافكار السامية حتى تصبح مزيجاً مائعاً .

هنا تتهرأ كل عاطفة شريفة ولا يسمح الاَّ للعواطف الجافه بأن تعلن عن نفسها بخشيش اصطدامها .

أفما بلغت انفك رائحة المجازر حيث تنحر الافكار ومطاعم السوقة حيث تباع بأبخس الاثمان ، افما ترى ابخرة العقول المضحّاة تتصاعد منتشرة كالدخان فوق هذه المدينة .

أفما تلوح لك الارواح معلقة معروضة كأنها خرق قذرة بالية فاذا هي تنقلب صُحُفاً تنشر بين الناس .

افلا تسمع البيان الطلي يستحيل هنا الى تلاعب الفاظ وسخائف تغصُّ بها جداول الصحف فاذا هي مصارف اقذار .

ان بعضهم يتحدّى البعض الآخر ولا يعلمون على ما يختلفون ، يأخذ بهم الغيظ كل مأخذ وقد غاب عنهم سببه ، فلا يسمعونك الا طقطقة فلوسهم ورنين دنانيرهم .

لقد استولى عليهم البرد فلا يدفأون الاَّ بكرع الخمور واذا ما دبَّت الحرارة

فيهم لجأوا الى مهبٍّ الافكار الباردة ، فهم ابداً مسوقون بالرأي العام مأخوذون بدرجة غليانه .

هنا مقام جميع الرزائل والشهوات ، وهنا ايضاً فضائل عديدة لها مهارتها ولها مشاغلها ، ولتلك الفضائل الجمة انامل للكتابة وارداف من رصاص وللمتحلين بها وسادات من الجلد علقت عليها الانواط ولهم ايضاً بنات هزلت اردافهن فاصطنعن لهن من القش اردافاً .

وانك لتجد هنا كثيراً من الاشفاق والاحتشام وكثيراً من الاتضاع امام رب الجيوش ، لأن من مقامه الأعلى تتهاوى الكواكب ومعها النفثات ، وكل صدر عاطل عن الكواكب يرسل نحو هذا المقام زفرات شوقه .

ان للقمر جوَّه وفي هذا الجو تدور اتباعه ، والشعب المتسول لا يفترُّ مع الفضائل المتسولة يرفع الصلاة الى كل ما يلتمع في مدار القمر ، وما الصلاة الا كلمات : خَدَمَ ، خدما ، خدموا ، نحن نخدم . يترنَّم بها اهل الفضائل وهم يتجهون الى الحاكم الاعلى متوقعين سقوط الانواط المتوهجة على صدورهم الضيقة غير ان القمر نفسه يدور حول الارض وما عليها من نتاج التراب والحاكم ايضاً يدور حول كل ما هو ارضي وما من شيء اعرق في الارض من ذهب بائعي السلع ، ان رب الجيوش ليس رباً للسبائك فاذا ما الحاكم دبَّر ، جاء بائع السلع فقرر .

أي زارا ، استحلفك بكل ما فيك من نور وقوة وصلاح ان تتفل على هذه المدينة ، مدينة بائعي السلع وتكرَّ راجعاً الى الوراء ، ان الذي يجري في عروق سكانها إنما هو دم مفسود ، فاتفل على المدينة الكبرى لأنها المزبلة التي تتراكم فيها الاقذار .

اتفل على مدينة النفوس الضعيفة والصدور الضيقة ، مدينة العيون الحاسدة والانامل اللزجة ، مدينة الوقحين والفجار والمعربدين والطامعين اليائسين ، المدينة التي يتكدس فيها من تأكَّلهم سوس الفساد من اهل الشهوات المضروبين بالقروح المتآمرين .

ابصق على هذه المدينة وعُدْ أدراجك .

ومدَّ زارا يده مطبقاً فم المجنون المزبد في حدته قائلاً له — اما آن لك ان تصمت لقد تحملت طويلاً حركاتك واقوالك ما الذي دعابك الى الاقامة على ضفاف هذا المستنقع حتى اصبحت انت ايضاً ضفدعاً وعقرباً ؟

افما تسيل في عروقك انت ايضاً دماء المستنقعات الفاسد، فها انت تحسن النقيق وتجيد اللعن

لماذا لم تطفر الى الغاب، لماذا لم تذهب لحرث الارض؟ افليس في كل جهة من البحر جزيرة خضراء؟

انني احتقر احتقارك وقد كان عليك ان تبذل نصحك لنفسك قبل ان تجود به عليّ. فان احتقاري وهو الطائر النذير لن يتعالى من اقذار المستنقعات بل يهب من مواطن الحب والاشواق

لقد لقّبوك بسعدان زارا، ايها المجنون المزبد اما انا فادعوك خنزيري، الا فانقطع عن هذا الخوار والاّ دفعت بي الى استنكار ما مدحت به سكرات الجنون

ما الذي يهيب بك الى رفع هذه الاصوات المنكرة؟ ان الناس لم يوجّهوا اليك ما كنت تتوقع من ثناء، لذلك جلست الى اكوام الاقذار مزمجراً صاخباً، مفتشاً فيها على ما تسلّح به انتقامك اتظن ان امرك قد خفي عليّ؟ وهل هذا الازباد إلاّ من ارغاء الضغينة في قلبك؟

اصمت فان كلماتك تلحق الضرر بي حتى ولو كنت الحقيقة فيها ولو انطوت ألف حقيقة في ما اقول، لانك تسيء اليّ باقوالي نفسها

هكذا تكلم زارا، وهو يتلفّت الى المدينة متنهداً، ثم صرخ بعد صمت طويل:

— لقد كرهت هذه المدينة العظمى انا ايضاً وليس هذا المجنون مَنْ يثير كراهتي لحسب! فهي مثله وهو مثلها وليس فيها ما يقبل اصلاحاً او زيادة فساد

ويلٌ لهذه المدينة العظمى، وليت تجتاحها اعاصير النار فتذريها رماداً. اذ لا بدّ من انطلاق مثل هذه الاعاصير منذرة بالظهيرة العظمى، ولكن انطلاقها مرهون بزمانها ومقدراتها

اما انت ايها المجنون فانني استودعك بهذا التعليم: — اذا امتنع على الانسان ان يبذل حبه فعليه ان يذهب في سبيله!

هكذا تكلم زارا، وسار في سبيله متجاوزاً المجنون والمدينة العظمى

الآبقون

— ١ —

وآسفاه ! كل ما كان مخضلاً وزاهياً بعديد ألوانه على هذه المروج اصبح الآن باهتاً وقد عراه الذبول . ولكم جنيتُ هنا فيما مضى من عسل الآمال فحملته الى قفيري

لقد سطا الهرم على جميع القلوب الفتية ، وما آن للهرم ان يتحكم بهؤلاء الفتيان فما هم الا متعبون يستسلمون للكسل وهم يبررون حالهم بقولهم — لقد عدنا الى ممارسة التقوى

ولكَمْ نظرت اليهم عندما كانوا يندفعون الى السير باقدامهم الجريئة اما الآن فقد تراخت معرفتهم مع اقدامهم فأمسوا وهم يهزأون بما كانوا عليه من الشجاعة في صبيحتهم

لقد كان اكثرهم يختالون كالراقصين معلنين بضحكهم أنهم من اتباع حكمتي فاذا هم يستغرقون لجأة بالتفكير وها هم الآن أمامي وقد انحنت ظهورهم يزحفون على ركابهم نحو الصليب

لقد كانوا فيما مضى يحومون حول النور والحرية كما تحوم الفراشات والشعراء ولكنهم ما شعروا بشيء يسير من وقر الايام ومن صقيعها حتى هرعوا الى الموقد يصطلون كاصحاب القلانس وأدعياء الحكمة

أفقِدَ هؤلاء الشجعان إقدامهم لانني تواريت عنهم في عزلتي فباتوا يتنصتون عبثاً لدويّ أبواقي وصيحات انذاري

وأسفاه ! ما اقل القلوب التي تصمد بوجه الزمان وليس في سواها ما يعزز الروح في حين يسطو الخور على سائر القلوب ، وما اكثر الجبناء فهم السوقة الدخلاء على الحياة

لا بد لمن كان على مثالي ان يصادف في طريقه ما صادفت ولا مناص له من أن يكون رفاقه الاولون أشلاء اموات ومتمرنيّ العاب

واذا ما مرَّ بهؤلاء أتته الفئة الثانية من رهط المؤمنين يسودهم كثيرٌ من الحب وكثيرٌ من الجنون وإجلال الطفولة وخشوعها . فليحترس مَنْ كان على

مثالي ان يولي هذه الفئة عواطفه لان العارف بضعف الانسانية وتقلبها لا يثق بدوام زهو المروج ايام الربيع

ولو كان هؤلاء المؤمنون على غير ما هم عليه من غريزة لتبدلت ارادتهم ، وليس للنقص أن يجاري الكمال ، فعلى مَ نشكو اذا صارت ناضرات الاوراق الى الذبول ؟

دع الاوراق تنتثر ، دعها تذهب مع الريح ، اي زارا ، وكفَّ عن الشكوى، فخير لك ان تساعد بزفيرك الرياح الهابة على اغصانها

انفخ على هذه الاوراق ، يا زارا ، ليتبدد من حولك كل شيء عراه الذبول

— ٢ —

يقول الآبقون انهم الى التُقَى راجعون واكثرهم جبانٌ لا يجسر حتى على التعلل بتقواه في خروجه ، ولكنني انظر الى هؤلاء الخائفين واعلن لهم بوجههم أنهم قد عادوا الى الركوع والصلاة . فأقول لكل منهم : اذا لم تكن اقامة الصلاة عاراً على الناس فهي عارٌ على امثالك وامثالي ممن تنبَّه شعورهم في تفكيرهم ، ان صلاتك تعدُّ منكَراً عليك لانك تعلم أن الشيطان الكامن فيك الذي يحلوله كتف ذراعيه تائقاً الى حياة الرخاء يوسوس في روعك قائلاً لك ان الله موجود . فانت آبق يهرب من النور لانَّ النور يشغل تفكيره فاذهب الآن في ضلالك سادراً . وتوغَّلْ كل يوم في لبدات الظلام

والحق انك احسنت اختيار الحين للانطلاق وقد بسطت طيور الليل اجنحتها فهذه ساعة ابناء الظلام المضربين عن الاعمال لقد حانت ساعة الاصطياد وما هذا الصيد الذي تقدم عليه مهاجمةً وعراكاً بل هو انزواء في كمين وتراخٍ وصمتٌ لا يسمع فيه غير همسات الصلاة ذلك هو صيد ادعياء الحكمة ينصبون فيه شراكاً للقلوب فكلما هتكتُ ستراً رأيت وطواطاً صغيراً ينطلق من ورائه ولعله كان مختفياً مع وطواط صغير آخر لأنني في كل جهة ارى جماعات تستتر وما ينبعث عنها من رائحة التُقَى يستجلب اليها رهطاً جديداً من المتقين . فهم يجتمعون لاحياء الليالي قائلين فلنعد الى حالة الطفولة ولنناجِ الاله الصالح ، يقولون هذا بعد ان تكون معدهم امتلأت بالحلوى من صنع اهل التقى . وهم يجتمعون احياناً في اوقات السمر ليشهدوا حركات عنكب محتال يقف وراء الكمين ملقياً

على رفاقه العناكب مواعظ الحكمة قائلا لهم : ان خير ما يرتاح العناكب اليه انما هو حبك نسيجها في ظلال الصليب .

أتُراهم يقضون اياماً طويلة يلقون الشباك في المستنقعات معتقدين انهم يسبرون الاغوار ولا يعلمون ان من يمضي الوقت بالصيد حيث لا اسماك لا يصح ان يدعو عمله حتى محاولة سطحية .

وتراهم احياناً يمزجون تقواهم بالسرور فيتلقون دروساً للعزف على القيثارة عند موسيقيّ يتلمس الطرق الموصلة الى قلوب الصبايا وقد اتعبه ثناء العجائز .

أو يذهبون الى حكيم لم يستكمل جنونه ليتمرّنوا على الرهبة والخوف فيقف معهم في غرفة مظلمة منتظرين ظهور الارواح وقد طارت ارواحهم شعاعاً .

أو هم يتنصّتون الى دجّال هرم يتجول منشداً بنبرات لقّنها الريح الانين فهو يقلّد الريح داعياً الى الحزن بصوته الحزين .

ولقد اتخذ بعضهم مهنة الحراسة في الليل فتعلموا النفخ في الابواق ليذهبوا في الظلمة ويبعثوا كل قديم طواه الزمان

مررت امس قرب جدران الحديقة وقد اخلقها الدهر فسمعت من حارسين خمس كلمات تدور على القديم البالي .

قال احدهما — ان هذا الإله لا يعتني برعاية ابنائه فالآباء من البشر أشد عناية منه بابنائهم .

فأجاب الآخر — لقد أدركه الهرم فهو لا يهتم لهم .

— وهل لهذا الآب من اولاد ؟ — من سيثبت هذا اذا هو لم يثبته بنفسه. ولطالما تقت ان اراه آتياً ببرهانه عن جد .

— أهو يأتي بالبرهان ، وفي أي زمان اقام شيئاً من الأدلة ؟ إنه ليستصعب الاثبات ولكنّه يتمسك بأن يؤمن الناس به .

— أجل ! ان الايمان ينقذ هذا الأب ، واذا قلت الايمان فانما اعني ايمانه هو بنفسه، وتلك شيمة من بلغوا من العمر عتيّا . أفما نحن شيوخ وكلنا اشباه؟

بهذا كان يتحدث حارسا الليل ، وحرّاس الليل اعداء للنور . ونفخ كل منهما في بوقه بالنغم الحزين .

هذا ما شهدت امس في الليل وانا سائر قرب الجدار القديم ، فكنت أحسّ بقلبي يتفجّر ضحكا ويهزّ أحشائي هزّاً ، والحق انني سأموت مختنقاً بضحكي من

النظر الى الحمير التأملين ومن سماعي أمثال حراس الليل يرتابون بالله .

افما انقضى منذ زمان طويل عهد الوقوف عند مثل هذه الشكوك ؟ و مَنْ يحق له يا تُرى ان يتقدم الى هذه الاشياء المظلمة الثاوية ليبعثها من لحودها؟

لقد انقضى عهد قدماء الالهة فطوتهم الاحقاب وقد كان لهم الفنـاء بالمرح الالهي الذي يليق بهم ، لانهم لم يعروا بالغَسَق ليترامو الى ظلمـة الموت وقد كذب من يدَّعي عكس ما اقول ، فقدماء الآلهة انتحروا انتحاراً وهم بضحكهم يختنقون ، انتحروا عندما تلفَّظ أحدهم بآية الجحود الـكبرى قائلاً : انا هو الرب إلهك لا يكن لك آلهة أخرى أمامي ، فـكأن هذا الاله قد أخـذ بغضبه وغيرته في شيخوخته فذهل هذا الذهول حتى أضحك جميع الآلهة فتمايلوا على عروشهم هاتفين—افليس في هذا النهي اعترافٌ بأن هنالك ألوهية لعدة ارباب ، وليس هنالك ربٌّ واحد

من له آذان صاغيتان ، فليسمع [1]

هكذا تكلم زارا في مدينة — البقرة العديدة الالوان— التي يحبها وكان لم يبقَ امامه سوى مسافة يومين سيراً ليصل الى مغارته ويلتقي نسره وأفعوانه، فامتلأت روحه مسرة وحبوراً

العودة

أنتِ وطني ، ايتها العزلة ، لقد طال اغترابي في بلاد المتوحشين فهاأنذا أعود اليك ايها الوطن وعيناي تذرفان الدموع

---

(١) ورد في الاصحاح العشرين من سفر الخروج : « انا الرب الهك الذي اخرجك من ارض مصر من بيت العبودية ، لا يكن لك آلهة اخرى أمامي ، لا تصنع لك تمثالا منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الارض من تحت وما في الماء من تحت الارض ، لا تسجد لهن ولا تعبدهن . . . »

فيا لامانة نيتشه في وضعه اساس برهانه .

أن هذا الفيلسوف لم يتورع من بتر الـكلام لتحويل معناه الى ما يريد ، فما اشبهه بمن ينادي المؤمنين الى الامتناع عن الصلاة بآية « لا تقربوا الصلاة — وانتم سكارى — » واقفاً عند النهي اطلاقاً

افليس من الغريب ان يعمد فيلسوف الى اثبات تعدد الالهة من نهي النـاس عن الضلال وعن اقامة المعلول مقام العلة واتخاذ الفاني معبوداً امام مبدأ الآزال والآباد ؟

إرفعي شاهدك وهدديني ، ايتها العزلة ، تهديد الأم وانظري اليَّ مبتسمة بابتسامتها ، وسليني عن حال من هرب منك الى بعيد كأنه العاصفة الجامحة ، مَنْ أفلت منك وهو يصيح : لقد طال انفرادي فنسيت الصمت ، سليني هل تعلمت الصمت الآن وقولي لي :

— اي زارا لم تخفَ عني منك خافيةٌ فقد كنت تشعر انك وحيد بين الجميع فيسودك من الوحشة ما لم تعرفه وانت في احضاني

ان الفرق بين الوحدة والوحشة لبعيد ، هذه هي الحكمة التي تعلمتها الآن فادركت انك ستبقى ابداً الغريب المستوحش بين الناس ، حتى ولو بذلوا حبهم لك لانهم يطمعون منك بمداراتهم قبل كل شيء

انك هنا تأوي الى مسكنك فيمكنك ان تقول ما تريد ، ففي العزلة لا يخجل الانسان من خطرات سريرته المتصلبة

كل شيء هنا ينقاد الى بيانك متحبباً طائعاً لان الاشياء كلها تقصدك لتعتليك وتعلو انت رموزها كمطايا تذهب بك مطلوقة العنان نحو الحقائق جميعها

ههنا ، لك ان توجه خطابك الى كل الاشياء لأن كل كلمة اخلاص تقال لها تتلقاها حمداً لها وثناء عليها

ان العزلة شيء والوحشة شيء آخر ، وهلاَّ ذكرت يا زارا صرخة طيرك فوق رأسك عندما كنت مضعضعاً امام جثة ميت في الغاب ولا تدري الى اين المصير، فتتمنى ان يأتي نسرك وأفعوانك لهدايتك بعد ان لاقيت بين الناس اخطاراً لم تشهد بين الحيوان مثلها ، تلك كانت الوحشة بعينها !

افما تذكر يا زارا زمناً توسطت فيه جزيرتك كأنك ينبوع خمر يتدفق بين الدنان الفارغة فيملأها موزعاً خمره على العطاش بلا حساب، حتى امسيت وحدك الظامىء بين المرتوين . فرفعت صوتك بالشكوى تحت جنح الليل متسائلاً عما اذا لم يكن في الأخذ سعادة أوفر من سعادة العطاء واذا لم يكن من السعادة في السرقة ما ليس في الأخذ ، تلك كانت الوحشة بعينها

افما تذكر الزمن الذي طردتك فيه من نفسك أعمق الساعات صمتاً وهي تقول لك همسها : تكلَّم واهدم ، فدفعت بك الى كره صبرك وسكوتك فقضت على ما فيك من شجاعة متواضعة . تلك كانت الوحشة بعينها —

ايتها العزلة لكم في صوتك من نبرات السعادة في عطفه وحنانه ليس بيني وبينك من شكوى ولا عتاب فكلانا نمرّ صريحين من الابواب المشرّعة . لان كل شيء لديك مضيء والساعات تمر فيك عجلى خفيفة ، وما تتثاقل الساعات في النور تثاقلها في الظلام

إنني اشعر ههنا بان لكل شيء روحه ومعناه فكل كائن يريد ان يعبّر عن سريرته وكل ما سيكون يطمح الى تعلّم البيان مني، أما هنالك فكل قول عبثٌ وهراءٌ وخير حكمة للناس هي النسيان والفناء ، وهذا ما تعلمته منهم . واذا ما اراد احدهم ان يفهم كل شيء وجب عليه ان يستولي على كل شيء ، وما تمتد الى الأخذ يداي الطاهرتان . لقد تولاّني الاشمئزاز من رائحة انفاسهم فوأسفاه على زمن طويل قضيته حيث يضجون ويتنفسون

يا للعزلة السعيدة اتمتع بها، ويا للعرف الزكي يتضوّع حولي ، انني انشق بملء رئتيّ هذا الهواء النقي في هذا السكون المتنصّت . اما هنالك فكل شيء يتكلم ولا سميع فاذا ما اذاع احدٌ فضائله بقرع الاجراس خنق الدويَّ في الساحات رنينُ الفلوس الكبيرة تقلّبها أيدي البائعين . هنالك يتكلم الكل وليس من أحد يفهم ما يقال فكل شيء يقع في المياه الجارية ولا ينسرب شيء الى اعماق منابعها . هنالك كل شيء يتكلم ولا شيء يبلغ نجاحاً او تكاملاً . كلٌ يصيح وليس من يرضى باحتضان البيوض في الاعشاش ، كلٌ يتكلم وكل كلام متراخٍ مديد وما كان يقسو من البيان على افواه أبناء الامس أصبح ليناً تلوكه الاشداق في هذا الزمان

هنالك كلٌ يتكلم ولم يبقَ من مستور لم يهتك فما كان يُعدُّ بالأمس سراً كميناً في اعماق النفوس تتناوله اليوم مقارع الطبول وحناجر الصائحين، فيا للطبيعة البشرية ، ماانت الا ضجة في المسالك المظلمة ، لقد تجاوزتك فتركتك ورأي خطراً أنقذت منه . وقد كانت المداراة والرحمة أشد ما تعرّضتُ له من اخطار وكل كائن في البشر يطلب ان يتعامل بالمداراة والرحمة . وما عشت بين الناس الا وانا أحفظ حقائقي في قلبي ويداي واحشائي ترتعش ارتعاش الجنون لأكاذيب الرحمة والاشفاق .

هكذا عشت بين الناس ، جلست بينهم متنكراً اكاد اجحد ذاتي لاحتملهم مقنعاً نفسي بقولي انني مجنون لا ادرك حقيقتهم .

اذا أنت عاشرت الناس فانك لتنسى ماتعرفه عنهم . لأن ما ينطح بصرك من المشاهد الخارجية يصدُّه عن سبر أبعادهم وأعماقهم .

لقد جهلوا حقيقتي فدفعني جنوني الى مداراتهم بأكثر من مداراة نفسي لأنني تعوَّدت ان أقسو عليها فأصبحت هذه المراعاة انتقاماً منها لها .

جلست بين الناس تلذعني حشراتهم السامة وتنال مني شرورهم نوال قطرات الماء المتوالية الانسكاب على الحجر فكنت اقول لنفسي « ان الحقارة تحمل برآتها في ذاتها »

وما رأيت بين الناس حشرات أشد فتكاً بسمومها من الصالحين لأنهم يغرزون حُماتهم بكل صلاح ويكذبون بكل صلاح فكيف أتوقع منهم عدلاً وانصافاً .

ان الرحمة تعلم الكذب لمن يعيش بين اهل الصلاح وهي تضغط بجوّها الثقيل على الارواح الحرة اذ يُمنع عنها أن تتفهَّم جهل الصالحين .

ان ما تعلمته هنالك هو ان استر نفسي واخفي ثروتي لأنني رأيت كل غنيّ بين الناس فقيراً بعقله . وقد أضلَّني إشفاقي فقادني الى النظر في الخفايا وتقدير مازاد وما نقص في عقل هذا وعقل ذاك ، دعوت الحكماء المتعصبين حكماء ولم أزد فتعلمت ان اقتضب كما تعلمت استبدال الكلمات فدعوت حفاريّ القبور مُنقّبين وعلماء .

ولطالما مُني الحفّارون بالامراض ، ففي المثاوي ما ينبعث كريهاً قاتلاً وخيرٌ الاَّ نثير من المستنقعات كوامنها ، وما الحياة الحياة الاَّ على القمم ، وها انذا انشق الهواء الطلق على اعالي الجبل حيث لا أشمُّ روائح المجتمع الانساني .

إن الهواء الحي يدغدغ معاطسي فتتسع لاستنشاق القوة والحياة .

الثلاثة الشرور

— ١ —

ورأيت في آخر احلامي هذا الصباح إنني واقف على جرف ينهار الى ما وراء هذا العالم وقد نصبت بيدي ميزاناً طرحت الدنيا باحدى كفتيه .

أواه ! ليت الفجر لم يباغتني بعنفه فانه لغيورٌ عليَّ من احلام صباحي وعنف أشباحها .

لقد أراني حلمي أن لمَن ملكَ الزمان ان يقيس الدنيا ولمن أحسن الوزن ان يزنها ولمن له جناحان جباران أن يجتاز مداها وكل بصيرة حديدة تقتحم المعضلات بوسعها ان تدرك ما تضمر هذه الدنيا .

بأي صبر تذرّع حلمي اليوم ليزن الدنيا وهو المركب نصفه شراع ونصفه عاصفة ، وهو السابح صامتاً بجناح الفراش والمنقضّ متسارعاً بمخالب الصقور ؟

هل اسرّت حكمة نهاري نجواها الى هـذا الحلم وهي الحكمة الهازيئة بكل « العوالم التي لا حدّ لها » وأنا القائل : حيث توجد القوة فهنالك يتسلّط الكمّ فالعدد هو الاقوى .

لقد أحاط حلمي بكل وثوق بهذا العالم المتناهي فما ذهب مع سائق الفضول ولا التجسس وما ارتعد ولا توسّل .

رأيت الدنيا على متناول يدي كتفاحة ناضجة ذهبية ناضرة المنظر ناعمة الملمس .

رأيت الدنيا على الجرف العالي المشرف على البحر كأنها شجرة تومي اليّ وقد انبسطت أفنانها والتوى جزعها متكأً للمسافر وقد انهكه التعب .

رأيت العالم يتقدم لملاقاتي كأنه يدان تحملان طبقاً نثر عليه كل ما تشتهي الاعين المتعففة الخاشعة .

ان العالم الذي طالما كان بغيضاً مذموماً تجلّى لي اليوم طيباً في انسانيته فهو لا يصدّ الناس بانكماشه على اسراره ولا يخدّر حكمتهم بالاغراق في ابهامه .

انا مدين بالشكر لحلم صباحي لأنه وزن العالم في الساعة الاولى فبدأ لي العالم طيباً في انسانيته وهكذا جاء الحلم معزياً لقلبي ، وهاأنذا أقتدي به وقد طلع النهار فاضع في الميزان الثلاثة الشرور العظمى .

ان الذي علم الناس ان يباركوا علّمهم ايضاً أن يلعنوا فما هي الاشياء الثلاثة المستحقة اللعنة في الارض ، انها الثلاثة التي أريد وزنها : الشهوة والتحكم والانانية ، وهي التي استحقت أشد لعنات الناس حتى اليوم .

هذا هو الجرف الذي وقفت عليه في حلمي وهو يشرف على البحر المتدحرج بقطعانه البيضاء نحوي وما البحر الاّ ذلك الكلب الهرم الامين وذلك المسخ الرائع يشمخ بمئات الرؤوس .

هنا اريد ان انصب ميزاني فوق البحر الهائج واختار شاهداً عليّ هـذه

الشجرة المنفردة الوارفة الظلال المالئة الفضاء بعبيرها الشديد .

على أيّ جسر يتجه الحاضر الى المستقبل وما هي القوة التي تُكره المرتفع الى الانخفاض الى الادنى وتدفع بالارفع الى مرتبة أعلى .

تساوت كفتا ميزاني فقد طرحت في احداهما ثلاث مسائل ثقيلة فاذا في الكفة الاخرى ثلاثة اجوبة تضاهيها ثقلاً .

— ٢ —

الشهوة — هي للمتقشفين المتقمصين الصوف الخشن والمحقّـرين للجسد الحافزُ والمعذّبُ في وقت واحد وهي للمستغرقين في بحران العالم الثاني لعنةُ هذا العالم الاول ، لأنها تهاجم اهل الضلال فتقصيهم وتطردهم طرداً .

الشهوة للئيم نارٌ يتحرّق فيها اللؤماء ، نارٌ بطيئة الاحراق يتصاعد منها إشد الروائح كراهة .

الشهوة للقلوب الحرة عاطفة بريئة حرة فهي سعادة الجنة الارضية وعرفان المستقبل جميل الحاضر .

الشهوة سُمٌّ حلو المذاق لكل من عراه الذبول غير انها شراب القوة وخمرة الخمر للآساد يكرعونها بشمل الخاشعين .

الشهوة اعظم لذة ترمز الى السعادة والامل الأسمى لأن في الحياة اشياء كثيرة حقّ لها ان تتمتع بالاقتران بل باكثر منه ، فهنالك اشياء بعدت شقة الانفصال بينها باكثر من انفراجها بين الرجل والمرأة ومن ترى تمكّـن يوماً من ان يدرك حقيقة تباعد احدها عن الآخر ومدى الشقة بينها ؟

إن الشهوة . . . سأضع حصوناً بين افكاري وأمتنع عن الكلام كيلا يجتاح جنتي الخنازير والمتهوسون .

أما الطموح الى التحكم فسوطٌ يلهب أشد القلوب قسوة وعذابُ استشهاد يُعِدُّ للطغاة لهباً قاتما من محارق الاحياء .

ان الطموح الى التحكم لجامٌ قاسٍ تُراض به أشد الشعوب غروراً فهو المداعب للفضائل الحائرة الممتطية صهوات الخيلاء

ان الطموح الى التحكم زلزال هدّام لكل متداعٍ قديم ، فهو الثائر

المحطم للقبور المكلّسة بزجر ويُنزل العقاب ، وهو نبرة الاستفهام تتعالى تجاه كل جواب مبتسر

ان للطموح الى التحكم نظرات تحني هام الرجال فتجعلهم يزحفون زحفاً وتستعبدهم وتهوي بهم الى دركة أحط من دركة الخنزير والأفعى الى ان يأتيهم الاحتقار بالسكون

ما الطموح الى الحكم إلاَّ المعلم المخوف يلقن الازدراء الأعظم صارخاً بوجه المدن والممالك : أفسحي لي المجال ولا يزال يهتف حتى تنادي قائلة : انني أفسح لك مجالا

ان الطموح الى الحكم يتعالى ايضاً نحو الأتقياء والمنعزلين ليستهويهم فيذهب الى ذرى الاعتزاز بالنفس كأنه غرام مشتعل يرسم في الخيال المسرّات الحمراء الساحرة

ومن له ان يدعو هذه الشهوة للتحكم طموحاً وما هي إلاَّ اندفاع من الاعالي الى الاعماق طلباً للقوة ، وما ارى في مثل هذا الانحدار شيئاً من حرارة الحمَّى ولا من أعراض الادواء

ليس للذُرَى المنفردة ان تبقى ابداً منقطعة الى نفسها ، فلتنحدر الأنجاد الى الاغوار ولتهبَّ الرياح العالية في مناسف الاعماق

إن مثل هذا الطموح لأسمى من ان يصفه بيان فهو « الفضيلة الواهبة » كما دعاه زارا من قديم الزمان. فكان بوصفه هذا يوجِّه الثناء لاول مرة الى الانانية وما الانانية الا توكيد للذات يتفجَّر من الروح المقتدرة ، من روح جبَّارة اتحدت بجسم متكامل في جماله وانتصاره فأصبح كل ما حولها يستمد القوة منها ويعكس كالمرآة خيالها

وما الجسم المرن الذي ينطوي على قوة الاقناع الاَّ كالراقص الذي يرمز بحركاته عن مسرَّة نفسه وهل المرَح الانانيُّ في مثل هذه الارواح والجسوم الاَّ الفضيلة بعينها

ومهما يقل هذا المرح الأناني عن الخير والشر فانه يحوط نفسه بما يقول بغاية مقدسة لوقايتها ، فهو يتمتم باسماء السعادة كتعويذة ترد عنه كل ما يستحق الاحتقار

انه ليقصي كل ما هو دنيء اذ يعتبره شراً وما الدنيء المحتقر لديه الا المتألم لا ينقطع عن الشكوى والأنين ولا يتأخر عن التقاط أية فائدة مهما صغرت

وهذا المرح يكره كل حكمة معولة لان من الحكمة ما لا تنور إلاّ في الظلام فتلوح كأشباح الليل هاتفة — كل شيء باطل —

وهو لا يحترم أبناء الريبة القلقة يطلبون من الناس الايمانات المغلظة بدلاً من النظرة الصريحة واليد الممتدة باخلاص كما انه لا يحترم الحكمة المدّعية الحزم بسوء الظن لان بمثل هذا تنمّ النفوس عن خورها وجبنها

وليست المجاملة باقل دناءة في عينه فهي كالكلب ينطرح متصاغراً على ظهره ولكم من حكمة كهذا الكلب زحّافة خاشعة متلاطفة

ولكن ما يكرهه المرح الاناني فوق كل كره الرجلُ المستنيم للضيم الممتنع عن الدفاع المزدرد ما يتفل الناس على فمه من سموم وما يلقى عليه من النظر الشذر، الرجلُ الموغل في صبره المتحمّل لكل شيء والقانع بكل شيء ، تلك شيمة المُستعبَد المأجور

إنَّ هذه الأنانية السعيدة تتسفل فيوجه كل عبودية فتزدري بكل متصاغر امام الارباب يركلونه بارجلهم وامام الناس وآراء الناس

إنَّ هذه الأنانية تعد شراً كل متّدنٍ منكسر يستسلم للعبودية بعين منخفضة وقلب منسحق وكل مُصانعٍ ينحني مقبلاً الراحات بشفاه متراخية مرتجفة

انها لتدعو حكمة مضلِّلة كل كلمة ناعمة يتلفّظ بها المُستبعَدون ومَنْ دبّ اليهم الهرم ومَنْ أرهقتهم العلل ، وتدعو بهذا الوصف ايضاً ما يتفوه به الكهّان في جنونهم وادعائهم

إنما الحكماء الكذبة جميعُ الكهنة وجميع من سئموا الحياة وكل مَنْ تجول فيهم ارواح النساء والمُستخدَمين ، ان مثل هؤلاء الناس يدسّون للأنانية ويتآمرون عليها ، مدعين أن محاربتها هي الفضيلة بعينها ، ولهذا طمح جميع الجبناء والعناكب المتعبة من الحياة الى الادعاء بالتنزّه عن كل مأرب في أعمالهم

سيتدفق النور مكتسحاً لهؤلاء الناس جميعاً ، وعندئذ يلمع سيف الظهيرة الكبرى ، سيف الدينونة الفضّاح

اما من يمجِّد الذاتية وينادي بالأنانية فذلك وحده يقول بما يعلم عندما يهتف : لقد لاحت تباشير الظهيرة العظمى ولن يطول الزمن حتى تتوهج انوارها في الآفاق

هكذا تكلم زارا . . .

الروح الثقيل

— ١ —

ليس فمي إلاَّ فم الشعب ، فكلماتي قاسية تخدِّش اسماع المتأنقين . وهي أشد وطأةً على اسماع زعانف الكتّاب المسلَّحين بالأقلام

ما يدي إلاَّ يد مجنون ، فويلٌ منها لألواح الشرائع ومنيعات الحصون ، وويلٌ لكل ما يتسع لزخارف الجنون وغرائب سطوره

وما قدميَّ إلاَّ حافرا جواد يتراكضان على الأنجاد وفي الاغوار فاحس بروح ابليس ينفخها المرح فيَّ وأنا أنهب اشواطي

أما معدتي فلعلَّها حوصلة عقاب لأن أفضل ما تشتهيه لحوم النعاج ، وان لم تكن حوصلة عقاب فهي على كل حوصلة مجنَّح من ابناء الفضاء ، لانني اتغذَّى من كل طاهر لذيذ فاتوق ابداً الى الاختطاف والانخطاف ، وكيف لا يكون فيَّ شيء من الطير وانا اهفو الى هذه الحياة

كفاني ان أُعادي كل روح ثقيل لاكون شبيهاً بالطيور ، فانا العدو الالدّ لروح الكثافة بل العدو المقسم الاَّ يحول عن كرهه وقد تكوّن معه في رحم امه، فتلك العداوة لن تطير ولن تتبدد

لسوف أُطلق صوتي بالانشاد مترنماً بهذه المعاني بالرغم من انفرادي في مسكني المقفر حيث لا يسمع أغانيَّ غير أُذناي

لَكَمْ في الارض من منشد لا ينطلق الصوت الشجي من حنجرته ولا تطابق التوقيع حركة يده ولا تشع عيناه ولا ينتبه قلبه الاَّ اذا غص البيت بالسامعين ، وما انا من امثال هذا المنشد

إن من سيعلّم الطيران للناس في آتي الزمان سيدفع كل ما ضُرب حولهم من حدود بل سيذري معالمها هباء ويبدّل اسم الارض باسمٍ يدل على زوال كثافتها وثقلها

ان النعامة تعدو باسرع ما تعدو الخيول الضوامر غير انها لا تزال كالانسان تغرس رأسها الثقيل في التراب الثقيل ، وما الانسان بافضل منها ما زال يجهل كيف يطير ، وما زال يشعر ان الحياة ثقيلة كالارض

مَنْ يريد أن يشعر من نفسه بخفة الطير فعليه ان يتوسّل بالأنانية للانعتاق من كثافته . ليحبّ الانسان نفسه : هذا ما اعلّم به انا

وما ادعو الناس الى إثارة حب الذات بعاطفة المرضى والمحمومين ،فان رائحة السقام تنبعث من انانية المريض والمحموم

تعلّموا الأنانية الصحيحة السليمة لتتمكنوا من احتمال ذاتكم فلا تضلكم انانيتكم . هذا هو تعليمي

وما ضلال الانانية الاّ بذهابها الى « محبة الغير » فان القائلين بالغيرية قد أتوا بأمهر تمويه وما ارهق الغير احدٌ بمثل إرهاقهم

ليس القول بوجوب التمرن على الانانية وصيةً من الوصايا تُنفّذ بين عشية وضحاها فالتدرب على محبة الذات أدق الفنون واصعبها وما يملك زمامه إلاّ المتحيل الجلود ، لان روح الكثافة يجعل المالك في غفلة عما يملك ويعمي صاحب الكنوز طويلاً عن مثاويها. فاننا لا نكاد نُطرح على السرير حتى نُجهّز بالكلمتين الثقيلتين : « الخير » و « الشر » ، ذلك هو ميراثنا ، بل تلك هي الوصية التي لا تُغتفر لنا الحياة إلاّ باتباعها . واذا ما قال قائل : دعوا الاولاد يأتون اليّ فما يدعوهم إلاّ ليمنعهم في الزمن المناسب من أن يحبوا ذاتهم . تلك هى مآتي الروح الثقيل

اما نحن ، فنذهب ساحبين ما اثقلت به كواهلنا الصلبة الى الجبال الجرداء ، حتى اذا شكونا اللغب والسغب قيل لنا : انتم محقون بشكواكم فالحياة اعباء واثقال

والحق ليس في الحياة من اعباء على الانسان غيرُ الانسان نفسه لانه يوقر

كاهله بما لا طائل تحته ، فهو نفسه قد استناخ كالجمل مسلماً ظهره ، فأُثقل بأشد الاحمال . واكثر الناس استسلاماً الرجل الصلب الجلود يرفع على كاهله جماً من الكلمات والوصايا الثقيلة فتنبسط الدنيا امامه صحراء قاحلة مترامية الاطراف

وما يثقل كاهلكم كل دخيل عليكم فحسب ، فهنالك ما يرهقكم وهو منكم وفيكم فداخل الانسان شبيه بحشوة المحار فهو قذرٌ متراخ لزجٌ ينزلق تحت انامك اذا حاولت إمساكه ، لذلك تتكفل القشور والظواهر المزخرفة بستر ما وراءها وما يسهل على المرء ان يستنبت لنفسه قشوراً متعامياً بحكمة عن دخائله ، إنْ هذا إلاَّ فنٌ لابدَّ من التدرب عليــه ، ولَكَمْ على الناس من قشورتمٌ على المسكنة وقد وضح عليها التمويه ولَكَمْ من قوة ومن صفة طيبة تبقى غائرة فلا يلمحها احد وكم من طعام شهي لا يرغب احد فيه . وما خفيت هذه الحقيقة عن النساء فهنَّ يعلمن ان بين المترهلة والنحيلة مجالاً لتمنّي المتعنّتين وقد يتوقف حظهنَّ من الاستغواء على شيء من الترّهل وشيء من النحول

إن اكتشاف خفايا الانسان لمن صعاب الامور وأصعب الامور ان يكتشف الانسان نفسه فكثيراً ما يُضلل العقلُ الشعورَ ، وما ذلك الا من تأثير الروح الثقيل

ليس من مكتشف لحقيقة ذاته الا مَنْ يقول في نفسه : هذا هو خيري وهذا هو شري ، وبهذا القول يُخرس الخلدَ والقزمَ القائلين بان الخيرَ خيرٌ للكل والشرَ شرٌ للجميع

والحق انني اكره ايضاً من يرون كل شيء حسناً ويرون هذا العالم خير العوالم ، إنْ هؤلاء الاَّ القانعون يرتاحون لكل شيء ويتذوَّقون كل شيء وما بهذا يُستدلّ على الذوق السليم، اما انا فأُجلّ الفم الحساس المتصعّب الذي يعرف ان يقول « انا » واريد ولا اريد

وما مَنْ يلتهم كل شيء ويهضم كل شيء إلاَّ من قطيع الخنازير فكل ناهق بالرضى سائرٌ حماراً بين الحمير

أُحب من الالوان الأصفر القاتم والاحمر الفاقع لانهما يُدخلان لون الدّم على جميع الالوان ، ومَنْ موّه جدران بيته باللون الابيض يدل على انه موّه نفسه بهذا اللون ايضاً

إنني أُحب الدمــاء وما يتفق ذوقي واذواق مَنْ يعشقون الجثث المحنطّة

من جهة و مَنْ يعشقون الاشباح من جهة اخرى لان الفئتين معاديتان لكل ما هو لحمٌ ودم ، وانا لا اريدُ الوقوف حيث يصيبني رشاشٌ من بصاق الثرثارين ومايسيل النضارُ من أشداقهم كما يدَّعون ، وخيرٌ لي من المثول امامهم ان اعاشر اللصوص والخونة

واذا ما كرهت الثرثارين فانني اشد كرهاً لمن يتلقون رشاش بصاقهم وما رأيت في الناس مَنْ تشمئز لهم نفسي كمن لا اجد لهم شبيهاً غير الطفيليات ، فمثل هؤلاء يطلبون الحياة من الحب وهم لا يشعرون به

ان مَنْ ادعوهم ايضاً اشقياء في الحياة هم الأُلى لاخيار لهم الاَّ بين حالتين فاذا لم يكونوا حيوانات مفترسة كانوا مذللين لها . وما انا بالضارب خيامي في جوار هؤلاء الناس

وانا ادعو اشقياء ايضاً من يُكرَهون على الانتظار ابداً فما أُحبِّذ حياة الجُباة والتجار والملوك وكل من يقف حارساً لحانوت او لقطر من الاقطار

وانا ايضاً تعلمت الصبر والانتظار الى زمان طويل ولكن ما انتظره انما هو « انا » وما تمرنت عليه هو ان اقف وامشي واركض واقفز واتسلَّق وأرقص . لان تعليمي هو هذا : من يريد ان يتعلَّم الطيران يوماً فعليه ان يتدرَّب اولاً على الوقوف فالركض فالقفز فالتسلق فالرقص ، وليس لاحد ان يطفر الى الطيران طفراً

ما تعلَّمت التسَّلق الى النوافذ إلا بنصب الحبال وما ارتقيت مرتفعات الصواري إلاَّ بعد ان تقوَّت عضلات ساقيَّ ، ان اعظم اللذات هي اعتلاء صارية المعرفة، والاتقاد بلهب يتلوه لهب فان في هذا الاشعاع المتردد هداية السفن الجانحة وأمل المشرفين على الهلاك

لقد بلغتُ الحقيقةَ حقيقتي بسلوكي طُرُقاً عديدة واتخاذي وسائل جمَّةً فما ارتقيت المدارج من سُلَّمٍ واحدة لابلغ القمة التي اتسنَّمها الآن وارسل منها نظراتي الى بعيد

واذا كنت سألت احياناً عن الطريق فما سألت إلاَّ مكرهاً لانني فضلت في كل زمان ان استنطق السبيل عن وجهته فاختبره بنفسي

وهكذا كان تقدمي سؤالا وتلمسا وما يتوصل الانسان الى استنطاق نفسه

وسبله‌ان لم يتمرّن على ذلك ، ولكل ذوقه وهذ هو ذوقي لا أراه خير الاذواق ولا أراه شرّها على انني لا اخجل به ولا أخفيه .

هذا السبيل الذي انتهج ، فاين سبيلكم انتم ؟

بهذا الاستفهام كنت اجاوب من يسألونني : اين الطريق لأن لكل طريقه وليس هنالك جادّةٌ للجميع .

الوصايا القديمة والوصايا الجديدة

— ١ —

ها أنذا جالسٌ أنتظر بين ركام الالواح القديمة المحطّمة والالواح الجديدة ولمّا تُستكمل كتابة الوصايا عليها .

فأي متى تأتي ساعتي : ساعةُ انحداري وجنوحي ، فانني أريد ان انحدر الى الناس ثانية . وذلك هو سبب انتظاري اذ لا بد ان تُعلن لي علامة اقتراب الساعة فأرى الاسد الضاحك وسرب الحمام الزاحف .

والى ذلك الحين اتكلم كمن له سعة من وقته فاخاطب نفسي وأقصُّ عليها ما اعلم اذ لا يقصُّ عليّ احدٌ شيئاً جديداً .

— ٢ —

عندما اتيت الى العالم وجدته جالساً على افتراضات قديمة واثقاً انه عرف كل شيء وميزّ بين خير الحياة وشرّها .

ورأيت الناس يعتقدون ان كل بحث عن الفضيلة قد انقضى زمانه ، وبالرغم من هذه العقيدة كان كل منهم يأتي على ذكر الخير وهو متجه الى سريره طلباً للنوم الهنيء .

فوقفت أنبه الغافلين وانا أعلن ان ليس من احد عرف حقيقة الخير والشر لأن المبدع وحده يعرفها ، وهو من يخلق اهدافاً للناس ويولي الارض معناها ومُقدّراتها فليس سواه من يوجد لكل شيء خيره وشرّه .

وأمرت الناس بأن يهدموا كل قديم وان يقفوا امام كل عقيدة هرمة ضاحكين مستهزئين بمعلّميهم وقدّيسيهم وشعرائهم ومخلصي عالمهم .

امرتهم بان يهزأوا بصرامة حكمائهم وحذرتهم من المفزعات السوداء المنصوبة على شجرة الحياة .

امرتهم ، واتخذت لي مقعداً عند حافة مضيقهم وقد حفل بالنعوش والأشلاء وحامت فوقه الغربان ، وبت اضحك هازئاً بماضيهم المتداعي وقد تناثرت أمجاده وإثور كمن أعطي سلطاناً على الخير والشر وكمن مسّه الجنون صابّا جام الغضب واللعنة على كل كبائرهم وصغائرهم ، وما هزئت الا باحقر ما في خيرهم وشرهم .

لقد كانت اشواقي تتدفق مني هتافاً وضحكا وما اشواقي الا الحكمة المتوحشة التي نشأت في اعالي الجبال بجناحين يملأ حفيفهما الفضاء ولكم تسامت هذه الاشواق بي الى ما فوق الذرى فاندفعت معها كالسهم المرتعش يهزّه حنينه الى مصدر النور ، الى مجاهل المستقبل التي لم تبلغها الأحلام ، الى الظهيرات التي لم يلمس الوهم حرارتها ، الى حيث يرقص الآلهة وقد استحيوا من الاستتار بأي رداء .

ليس لي ان اصف ما هنالك بغير الرموز ، لذلك اجدني محفوزاً الى تتمة ما أقول فاتذبذب كالشعراء . والحق إنني لأخجل من اضطراري الى الاخذ ببيانهم

لقد لاح لي كل شيء رقصاً ونكات الهية لأن العالم قد انطلق هنالك من كل قيد فالتجأ الى نفسه ، فازعاً اليها كما يفزع الآلهة ابداً الى ذاتهم مفتشين عليها بانكارها وبتكرار العودة اليها .

هنالك لاح لي الزمان سخرية بالازمان المجزّأة ورأيت واجب الوجود عبارة عن حرية سعيدة تداعب الحرية نفسها .

هنالك وجدت شيطاني القديم وعدوي الحديث روح الكثافة وما ابدع من قبور وشرائع وضرورة ونتائج وأهداف وارادة وخير وشر .

وجدت كل هذا ميداناً ممهداً لأقدام الراقصين . فليس من مرقص بلا مسرح وليس من روح خفيفة لا تزحف عند اقدامها الخلدانُ والاقزام .

— ٣ —

هنالك ايضاً ظفرت بكلمة « الانسان المتفوّق — وبالتعليم القائم على ان الانسان كائن يجب ان ينشأ منه ما يجتازه ، ليس الانسان هدفاً وغاية ان هو الا عابرٌ يدّعي السعادة في ظهيرته ومسائه .

ان كلماتُ زارا عن الظهيرة العظمى وجميع ما رفعه فوق العالم إنْ هو الاّ غروبٌ ارجوانيٌّ ثان ينفلق من ورائه الفجر الجديد .

لقد عرضت لانظار الناس كواكب جديدة وليالي لا عهد لهم بهـا ونثرت الضحك على غيوم الليل والنهار فضربت قبّةً زاهية بعديد الوانها .

علّمت الناس جميع افكاري وأبنت لهم جميع رغباتي اذ اردت ان اجمع وأوحد ما في الانسانية من بَدَدِ الاسرار وتصاريف الحدثان فقمت بينهم شاعراً احلُّ الرموز وافتديهم من الصدف العمياء لاعلّمهم ان يبدعوا المستقبل وينقـذوا بابداعهم ما انصرم من الاحقاب .

لقد وجهت الناس الى انقاذ الانسانية مما أدرج الماضي في اغوارها بتغيير كل « ماكان » الى ان تنتصب الارادات معلنة ان ما تمَّ هو ماكانت تريد ان يكون وان هذا ما ستريده في كل زمان .

بهذا رأيت السلام للناس وهذا ما علّمتهم ان يدعوه سلاماً .

وأنا الآن اتوقع السلام لي لأعود للمرة الاخيرة للناس لانني اريد ان اذهب من بينهم الى الفناء فاودعهم أثمن كنوزي أسوة بالشمس تلقي على البحار نضارها وهي تتوارى في الظلام ، حتى ترى افقر الصيّادين يداعبون صفحة البحر بالمجاذيف المذهبة .

لقد تعلمت هذا الجود من الشمس عندما كنت اشخص اليها غاربة فتندفق الدموع من عينيّ .

هكذا يريد زارا ان يتوارى فيغرب كما تغرب الشمس ، وها هو ذا جالسٌ ينتظر بين ركام الالواح القديمة المحطمة والالواح الجديدة . ولما تُستكمل كتابة الوصايا عليها .

— ٤ —

انتبهوا ، انني آتيكم بلوح جديد . ولـكن اين هم اخوتي يحملون معي هذا اللوح الى الوادي لتحفر وصاياه على اعشار القلوب .

ان محبتي لمن سيأتون فيما بعد تقضي بهذه الوصية : — لا تدارِ قريبك — لان الانسان معبرٌ يجب علينا اجتيازه للتفوق عليه .

وقد أعطي للانسان ان يجتاز نفسه على طرق عديده وبوسائل عديدة ، فما

عليك الا ان تتجه للوصول وليس غير الممثل المضحك مَنْ يقول بامكان التفوق على الانسان طفراً وقفزاً .

تفوّق على نفسك في ذات قريبك فلا تدعه ينيلك حقاً بوسعك ان تأخذه اقتداراً فان ما تفعله لا يبادلك اياه احد لان ليس من مكافأة في العالم ، ومن لا قِبَلَ له بحكم نفسه وجبت الطاعة عليه .

ان في العالم كثيرين يعرفون ان يتحكموا بانفسهم ولكنهم لا يعرفون كيف يطاوعونها .

— ٥ —

ان النفوس النبيلة تأنف ان تأخذ شيئاً بلا بدل فهي تردُّ الحياة قبل كل شيء اذا هي لم تكتسب عيشها ، اما القطيع البشري فيريد ان يعيش دون ان يبذل شيئاً .

لقد وُهبت لنا الحياة فعلينا ان نفكر في كل حين بخير ما يمكننا ان نبذل لقاء هذه الحياة ، وهل اشرف من ان نقول : يجب ان نحقق للحياة ما وعدتنا به

ليس للمرء ان يتمتع بلذة اذا هو لم يبذل لذة ، فما اللذة عبارة عن التوجه للتمتع بها ، لان التلذذ كالطهارة كلاهما حيٌّ ممنَّع وليس لاحد ان يفتش عليها اذا هو لم يملكها امتلاكا . وخيرٌ له ان يفتش في هذه الحال على الدنس والاوجاع

— ٦ —

كل طليعة تُضحّى ، ايها الاخوة ، وهل نحن الا طليعة مُنذرَة . تنزف جراحنا دماً في هيكل الاسرار وتُقدَّم محرقة يذوب لحمها تمجيداً للاصنام القديمة

ان خير ما فينا لم يزل غضاً رطيباً وذلك ما يهيج شهوة الاشداق الهرمة ، فلحمنا طريٌّ وجلودنا جلود حملان ، فكيف لا نثير جشع الكهّان في هياكل الاوثان ؟

ان كاهن الاوثان الهرم لم يزل يسكن ذاتنا الخفية وهو يتهيأ لاقامة وليمة يبتلع فيها خير ما فينا — فكيف تَسلَمُ الطليعة ، ايها الاخوة ، من ان تصبح ضحية وقرباناً ؟

ولكن بهذا تقضي مهمتنا وانا احب مَنْ لا يتمسك بالبقاء ، ومَنْ يتوارون أُرفقهم بكل عطفي لانهم يذهبون الى الجهة الاخرى

— ٧ —

ما أقل من يعرفون الصدق والاخلاص والعارف لحقيقة الصراحة لا يريد ان يكون صريحاً فاكثر الناس تمويهاً هم المشفقون لانهم لا ينطقون ابداً بالحق ، ومثل هذا الاشفاق مرض كامن في العقل

إن الرحماء يرضخون ويستسلمون للقلب يملي ارادته فيهم على العقل والعقل يمتثل دون تروّ وادراك ، فما تتكون الحقيقة في الرحماء إلاّ من تراكم كل ما هو شرّ في عينهم ، فهل لديكم من الشر ما يكفي لايجاد مثل هذه الحقيقة ، ايها الاخوة !

لا تولد الحقيقة إلاّ من تزاوج الوقاحة وسوء الظن والرفض القاسي والكره والشقاق في الحياة ، وما أصعب ان تتوافق وتتحد جميع هذه المقدمات

ان الضمير الشامل قد نشأ حتى اليوم قرب الضمير الشرير فهيّا ايها الأخوة الى تحطيم الالواح القديمة اذا كنتم تفتشون عن مبدأ المعرفة

— ٨ —

اذا رأيت المعابر منصوبة فوق مجاري المياه والجسور معقودة فوق الانهار فهل تصدق من ينادي بالثبور ويُنذر بالغرق ؟ اذا كان الحكماء انفسهم يكذبونه ؟

ان كل ما يعلو النهر من معابر، كل ما هو خير وكل ماهو شر ثابت مكين. وعندما يجيء الشتاء المتسلط على الانهار يرتاب في ثبات كل الاشياء اشدّ الناس فطنة . غير ان من يحبون الاستغراق في نوم الشتاء والاستسلام الى بطالته يحلو لهم ان يعتقدوا برسوخ المعابر وسكون كل حركة في الاعماق ، ولكنّ الهواء المذيب للجليد يكذب هذه الطمأنينة اذ يهبّ كأنه الثور الهائج ضارباً الجليد بقرنيه واذ يتحطم الجليد تتداعى الجسور ، وعندئذ تغرق في المياه كل المعابر فلا يجد احدٌ ما يستند اليه من الخير والشر

يا لشقائنا ، بل يا لسعادتنا ! لقد هبت الارياح تذيب الجليد . فاذهبوا يا اخوتي على الطرق مبشرين بهبوبه

— ٩ —

ان من الجنون جنوناً قديماً عُرِّفَ بالخير والشر فدار حتى اليوم على محور العرّافين والمنجمين

لقد ساد الاعتقاد فيما مضى بالعرافة والتنجيم ، لذلك أمن النـاس بالقضاء المحتوم فقـالوا بالواقع وجوباً وداخلهم الشك في الـكشف فارتدوا الى الارادة الحرّة ينادون بها قائلين : اذا انت اردت فقد قدرت

ايها الاخوة ، كل ما بني حتى اليوم على استنطاق النجوم والمستقبل لم يكن الاّ افتراضاً يقوم على افتراض ، لذلك لم يعرف احد شيئاً عن الخير والشر وماقيل عنهما لم يتعدَّ حدود الرجم بالغيب

— ١٠ —

لا تسرق ، لا تقتل :

تلك كلمات كانت مقدسة في غابر الزمان ، اذا سمعها انسان جثا على ركبتيه . واحنى رأسه وخلع نعليه

غير انني أسألـكم فاجيبوا : — هل وُجد في الدنيا لصوص وقتلة اوفر سرقة وأشد فتكاً ممن استفزّتهم هذه الكلمات المقدسة ؟

أفليست السرقة والقتل من طبيعة الحياة نفسهـا ؟ وهل كان تقديس هذه الـكلمات النافية الاّ قتلاً لحقيقة الحياة ؟

أكان القصد من مغالطة الحياة والردع عنها اذاً دعوةً في سبيل الموت والفناء

اي اخوتي ! حطِّـموا هذه الالواح القديمة ولا ترددوا

— ١١ —

إنني لاشعر باشفاق على الماضي وقد اصبح متروكاً مهملاً . معرّضاً لما سينشأ في الاجيال الآتية من اعتبار وتفكير وجنون فان هذه الاجيال ستصطنع لنفسها جسراً من كل قديم مضى عهده

لقد يجيء طاغيةٌ له روح إبليس يتسلّـط على الماضي بلطفه وعنفه فيعالجه حتى يصبح معبراً لاقدامه وشعاراً له ومكاناً يصيح عليه ديك فجره

غير ان إشفاقي ينطوي ايضاً على توقّع الخطر : لان تفكير من ينشأ من الغوغاء لا يذهب الى عهد أبعد من عهد جده وهنالك يتناهى في تقديره الزمان القديم

الا ان الماضي اصبح متروكا — وقد تسود الغوغاء يوماً فتدفع الى اللجج بميراث العصور

لذلك وجب ان تقوم فئة لها نبلها الحديث تناويء الغوغاء وتصدّ الطُغاة ، فئة نبيلة تنزل الشرف وصية محفورة على الواح جديدة

لا يقوم النبل ان لم يكثر عدد النبلاء وقد اوردت هذا المبدأ ورمزت اليه عندما قلت : بتعدّد الآلهة لا بالإله الواحد تقوم الألوهية

— ١٢ —

انني اوليكم النبل الجديد ، ايها الاخوة ، عندما أقتضي منكم ان تبدعوا وتعلّموا وتلقوا بذوركم لآتي الزمان

تلك كرامة لا يسعكم ابتياعها بذهب التعامل كالمتاجرين وما ازهد قيمة ما يباع ويشرى

لن يكون حَسَبُكم بعد الآن مشرّفاً لكم بل الهدف الذي تتجهون اليه إن شرفكم كامنٌ في إرادتكم وفي الخطوة التي تندفعون بها الى التفوق على انفسكم واجتياز حدودها ، ذلك هو شرفكم الجديد

ان خدمتكم لامير لا تنيلكم شرفاً ، وما هو قدر الامراء ، وهل يشرّفكم ان تقفوا كالحصون حول ما هو كائن لتزيدوا في مناعته وتطيلوا بقاءه ؟

انسحبوا من السلالة التي تعلّمت التلوّن في القصور وتعودت الوقوف ابداً امام المياه الآسنة ، ان علم الوقوف على القدمين يُعدّ فضيلة لخدّام القصور وهم لا يتوقعون الحصول على لذة الاستراحة الا اذا طرحهم الموت عن مواقفهم

ليس شرفكم ايضاً في انتسابكم الى اجداد قذف بهم روحٌ يدعونه روح القدس الى ارض الميعاد ، الى الارض التي لا اجد فيها ما يُحمَد وهل تحمد تربة

أنبتت أسواء الاشجار : عود الصليب[1]

وهل سارت فيالق الفرسان ايان كان يدفعها هذا الروح القدس الا ومن ورائها قطعان الماعز والبط ورهط المجانين والمعتوهين

أي ، اخوتي ، ليس الى ما ورائكم يجب ان يتطلع نبلكم بل الى ماهو خارج عن سبيلكم ، عليكم ان تنفوا نفوسكم من جميع البلدان والمواطن التي سكنها اجدادكم

لا تعلقوا قلوبكم الا على أوطان ابنائكم ، وليكن هذا الحب حسبكم النبيل الجديد ، تلك هي الاوطان التي لم تطأها قدم بعد وراء البحار السحيقة ، وانا آمركم بنشر شراعكم للتفتيش على مراسيها .

عليكم ان تكفروا امام ابنائكم عن ذنب تحدركم من ابائكم وبغير هذه الكفارة لن تنقذوا الماضي .

هذه هي الوصية الجديدة أعلق لوحها فوق رؤوسكم

— ١٣ —

لماذا نحن نحيا ، وكل شيء باطل ! وهل الحياة الا عبارة عن دق سنابل والاصطلاء قرب نار تحرق ولا تدفي

هذه هي الثرثرة القديمة لا تزال تحسب حكمة والناطقون بها شيوخ تفوح منهم رائحة الانزواء ، والتعفن يكسب نبلاً فهؤلاء الشيوخ لتعفنهم يكرمون وما يقصر الاطفال عن الاتيان بمثل وصاياهم ، لقد لذعتهم النار فهم يخافونها ، ان كتب الحكمة القديمة مشحونة بكثير من الاوهام الصبيانية

ان من يدق السنابل لا يحق له ان يهزأ بمن يستخرج القمح منها ، ان هؤلاء المستهزئين لمجانين يجدر بنا تقييدهم ، فأمثالهم يجلسون الى الموائد دون ان يأتوها بشيء حتى ولا بشهية للطعام . فهم يجدفون قائلين : ان كل شيء باطل

صدقوني أيها الاخوة ان من يحسن الاكل والشرب لا يمتلك فناء باطلاً

(١) ان كل ما امكن للفلسفة المستغرقة في الآرية ان تدركه من حياة عيسى هو ما حوله الغرب الى معميات ... وما كان اجدر بنيتشه وهو المتهم المسيح بادخال الاشفاق القاتل للمجتمع الا يرى الصليب مقتطعاً من شجرة السوء لانه قتل المشفق الاكبر ولكن التناقض شر بلايا الفكر واسهل ما يقع المفكر فيه اذا هو مد بمقياسه الى ما يعلم والى ما لا يعلم دون تحقيق

حطّموا ، حطّموا ألواح الوصايا التي كتبها مَنْ لا يزالون أبداً ساخطين متذمرين

— ١٤ —

« ان الطاهر يرى كل شيء طاهراً » هذا ما يقول به الشعب

أما أنا فأقول لكم ان كل شيء خنزيري في عين الخنازير

ولذلك يقف المأخوذون بالتواضع وانسحاق القلب داعين الناس الى الاعتقاد بان العالم مستنقع أوحال وأوضار ، وما الاوضار الاّ في عقول هؤلاء الوعّاظ الذين لا يحلو لهم ان ينظروا الدنيا الاّ مدبرة فما يستهويهم منها الا قفاها . . .

الا انني اصرخ بوجه هؤلاء المأخوذين وان جنحت عن حدود اللياقة لاقول لهم ان العالم لشبيه بالانسان فله ايضاً قفاه ، وفي هذا العالم كثير من الاقذار ايضاً ولكنه ليس مستنقعاً يغص بالاوضار على رحبه

لقد ارادت الحكمة ان يكون في العالم اشياء كثيرة تنبعث الروائح الكريهة منها فان الكراهة تستنبت الاجنحة وتولّد الشوق الى صافيات الينابيع

ان خير مَنْ في الحياة لا يخلون مما يوجب الاشمئزاز بل في ارقاهم ما يجب اجتيازه والتفوق عليه ، فمن الحكمة اذاً ، يا اخوتي ، ان تكون الاقذار كثيرة في هذا العالم

— ١٥ —

لكم سمعت الاتقياء المأخوذين بالعالم الآخر يناجون ضمائرهم بأقوال سداها الضلال ولحمتها الشر ، يقولونها مصدقين بها لا مواربين ولا مازحين

« دع العالم على حاله ولا تحرك اصبعاً لاعتراضه في سبيله . دع الناس يستسلمون لأية يد تشد على خناقهم ، دعهم يتناحرون ويتضاربون ويتعاملون بالسوء ويتسالخون ، اياك ان تحرك اصبعاً لردعهم ، دعهم وما يفعلون فانهم بذلك ينتهون الى الزهد بهذا العالم

« احذر حكمتك لأنها هي ايضاً من هذه الدنيا وعليك ان تكبتها وان تنحرها نحراً لأنك بذلك تتعلم أنت ايضاً الزهد بهذا العالم »

أي اخوتي ، تقدّموا الى هذه الالواح القديمة ، الواح وصايا الاتقياء وحطموها تحطيما ، بل اقضموا باسنانكم هذه الوصايا فلا تتفوه شفاهكم بها لأنها كلمات المشنّعين بالحياة

— ١٦ —

سمعت الناس يتهامسون في الأزقة المظلمة قائلين :

« من يتعلَّم كثيراً يفقد شهواته العنيفة كلها

ورأيت الواح وصيةجديدة تُعلق حتى في الساحات العمومية وقد كُتب عليها « الحكمةُ مرهقةٌ . ولا شيء يستحق العناء ، فلا تعلّق شهوتك على شيء»

سارعوا ، أيها الاخوة الى تحطيم هذه الألواح الجديدة ، وما علقها فوق الرؤوس الا مَنْ تعبوا من الحياة ، ماعلّقها الاّ كهّان الموت وحرّاس المواخير وهل هذه الوصية الاّ دعوة الى العبودية

لقد تعلم هؤلاء الكهنة والحراس ولكنهم اتبعوا منهجاً سيئاً فاغفلوا من العلوم خيارها ، تعلموا قبل الاوان متسرّعين ، فازدردوا ما تناولوا حتى استحكم في مَعَدهم الداء. وماعقلهم الامعدة عايلة ساء هضمها ولهذا ينادي عقلهم بالفناء

ان الحياة ينبوع مسرّة ، ولكن المنتصت الى عقله الممعود وقد ساء التمثيل فيه وحكمته السوداء يخيل له أن في كل ينبوع سموماً

ان المعرفة مسرةٌ لمن تعززه ارادةُ الأسد ، وما المتعب تسيرّه ارادة سواه إلاّ قطعةٌ عائمة تتقاذفها الأمواج . وهل الضعفا الا من أضلوا سبيل حتى اذا نفدت قواهم وقفوا متسائلين عمن دفع بهم الى السير قائلين ان لا شيء يستحق الاهتمام . هؤلاء هم مَنْ يلذ لهم سماع الداعين الى الاستعباد بقولهم : لا شيء يستحق الاهتمام ، فعليكم ان تشلوا ارادتكم

اي اخوتي ، ان زارا يهبُّ كالهواء اللافح مدغدغاً معاطس كل مَنْ أتعبهم السير على طرقهم ، وهذا الهواء الطلق يخترق حتى جدران السجون ويبلغ حتى سجناء التفكير

لا تخلّص إلاّ الأرادة لان الارادة مُبدعة ، هذا هو تعليمي . وعلى الانسان ان يتعلم ليُبدع . وعليه ان يأخذ عني دون سواي الطريقة التي تبلغه العلم

من له اذنان سامعتان فليسمع

— ١٧ —

لقد أُعدّت السفينة فهي متجهة الى بعيد ولعلها سائرة الى لجة العدم ، فهل فيكم مَنْ يريد السفر الى المجهول المفترض ؟

ليس منكم واحد يريد ان يركب هذه العائمة ، سفينة الموت فعلى مَ تريدون اذاً ان تسئموا الحياة؟

ايها المتعبون من الدنيـا قبل ان يستعيدكم ترابها ، ما عهدتكم الاَّ متشوقين للارض عاشقين لمتاعبكم منها

هذه شفتكم تتدلى بشهوة ترابية تعلقت فيها وهذه نظراتكم تجول فيها خيالات ملذات أرضية لمَّا نسيتموها بعد

إن على الارض مُبْدَعات وفيرة بعضها للفـائدة والبعض الآخر للتنعم، فأحبوا الارض من اجل هذه المبدعات ، وفيها ما جمع كنهود الـكواعب بين ما يفيد الحياة ويبهج الحياة

اما انتم ، ايها المتعبون من العالم ايها المتكاسلون ، فقد حق عليكم ان تدغدغ جلودكم السياط لتشتد عزائمكم وقوائمـكم . لانكم اذا لم تكونوا ممن نفدت قواهم فتعبت الارض منهم فانتم ولا ريب من فئة المحتالين المتكاسلين او من المنتقمين المنقطعين الى اللذات كالهررة الجشعة الخبيثة . اذا انتم اصررتم على اختيـار الجمود وامتنعتم عن الركض بفرح وحبور ، فما لـكم إلاَّ ان تتواروا عن الوجود

لا دواء للداء العُقام ، هكذا يعلّم زارا ، فاغربوا إذاً عن الحياة

ولـكن الاتيان ببيت الختام في قصيدة أصعب من نظم بيوت جديدة فيها ووضع حد للحياة يستلزم من الشجاعة ما لا يقتضيه البقاء فيها ، وذلك ما يعرفه الشعراء ولا يجهله الاطباء

— ١٨ —

أي اخوتي ، لقد كتب التعب وصاياه كما كتب الـكسل وصاياه ايضاً وبالرغم من ان نص كليهما واحد فان معنى كلٍ منهما يختلف عن الآخر وهل كالـكسل ما يدخل التعفن الى النفوس

انظروا الى هذا الرجل وقد تراخت عزيمته ولم يبقَ بينه وبين هدفه الا قيد شبر واحد ولـكن التعب اضناه، فاصبح وهو الجسور المقدام منطرحاً على الرمال متبرماً حانقاً

ها هوذا يتثأب من لغبه وقد سئم الطريق والارض والهدف حتى سئم نفسه، فهو لا يريد ان يخطو خطوة واحدة بعد

ان الشمس ترشقه بسهامها وقد دارت به الكلاب متحفزة لتلغ ما تصبب من عرقه وهو لا يزال ممدداً ممتّعاً بعناده مفضلاً على النهوض ان تنثره الشمس رماداً

يا للغرابة أن يفنى الانسان وهو على قيد شبر من هدفه ! تقدموا وجرّوا البطل بشعره لابلاغه الجنّة التي تاق اليها

ولكن لا ! خيرٌ لهذا الرجل ان تدعوه حيث انطرح ليأتيه الوسن المعزّي ويتساقط عليه الرذاذ المبرّد من السحاب

دعوه يغط في نومه الى ان ينتبه لنفسه، الى ان يتغلّب وحده على التعب وعلى كل ما علّمه ان يتعب

ولكن اطردوا من حوله الكلاب الخبيثة الكسولة واسراب الذباب المالئة جوّه بالطنين ، وما هي الا أرهاط المثقّفين المتغذين مما تنضحه رؤوس الابطال

— ١٩ —

انني ارسم حولي خطوطاً وانصب التخوم حدوداً مقدسة ، لذلك يتناقص عدد من يتسلقون الجبال معي كلما ازددت ارتفاعاً نحو الذرى، فاحذروا، يا اخوتي، في اي مرتقى ان يندسّ بينكم الطُفيليون، ان الطفيلي حشرة تتغذى من كل خلية عليلة فيكم ، فهي تهتدي بالغريزة الى مواطن ضعفكم وتدرك بسليقتها الزمن الذي تهي فيه عزائمكم ، فلا تلبث ان تعشش في مكامن استيائكم ووهن معزتكم

إنّ مثل هذه الحشرة لا تتخذ مقرّها الكريه الا في مكامن الضعف من الاقوياء وفي مواطن الاشفاق من النبلاء ، وحيث تلوح لها علّة حقيرة لعظيم فهنالك تتخذ مسكناً لها

ان أدنى فئة وأحطها في اي نوع انما هم الطفيليون وما يغذّي هذه الفئة الدنيئة الا أرفعُ فئة وأشرفها في ذلك النوع . وكيف لا يتراكم العدد الاوفر من الطفيليين على نفس طال سُلَّمُها فطال المدى بين احط مدرج وأعلى مدرج فيها كيف لا يتراكمون على نفسٍ رحب مداها فتراكضت فيه تائهة مستسلمة

للطارئات ، على نفس تستغرق في آتي الزمان وتندفع الى أغوار الارادة والشوق، على نفس تفزع من ذاتها وتفزع الى ذاتها مندفعة منجذبة في افسح دائرة وابعد مجال ، على نفس تناهت في الحكمة فراودتها على مهل طلائع الجنون ، وتلك هي النفس التي أحبت ذاتها فوق كل حب فبدت فيها مصاعد ومنازل لكل الاشياء واتسعت لكل جزر ومدّ فكيف لا تعلق باكبر النفوس أحقرُ فئات الطفيليين . . .

— ٢٠ —

ما احسبني قاسياً عاتياً . ومع ذلك فانني اقول لكم : اذا ما رأيتم متداعياً الى السقوط فادفعوه بايديكم واجهزوا عليه

ان كل شيء يتفسخ ويتداعى في هذا الزمان، فمن ترى يحاول دعم ما هوى؟ اما انا فانني اريد سقوطه

واذا كنتم لم تتذوّقوا لذة دفع الصخور من ذرى المنحدرات فانظروا الى رجال هذا الزمان يتدهورون الى اغواري

ما انا الاّ اول المدحرجين وسيأتي بعدي من تفوق مهارته مهارتي ، فاقتدوا الآن بي

كل انسان تعجزون عن تعليمه الطيران علّموه على الاقل ان يسرع بالسقوط

— ٢١ —

انني احب الشجعان ، وما يقنع اعجابي منهم بإحكامهم ضرب السيف اذ عليهم ايضاً ان يمهروا في اختيار مَنْ يضربون

ولقد يكون الإقدام الأوفى في الإحجام احياناً وفي الاحتفاظ بالقوة لمن يستحق ان تبذل له

لا تتخذوا لكم من الاعداء الا مَنْ يستحق البغضاء وتجاوزوا عن عداء مَنْ لا يستحق الا الاحتقار اذ عليكم ان تباهوا بعدوكم وما هذه اول مرة آتيكم فيها بهذه الوصية

احتفظوا بقوتكم وما اكثر مَنْ يجب ان تمروا بهم متغافلين وأحقّهم

بإغفالكم اولائك الزعانف الذين يحدّثون اذآنكم بما يتصايحون به عن الامم والشعوب

أعرضوا عما يهاجمون به من حجج وعما يدافعون به من براهين فما اقوالهم الا مزيج توافر حقه وباطله ، ومن أصغى اليها لا يأمن ثورة غضبه ، فاذا هو منقاد الى إرسال ضرباته يمنة ويسرة في الجموع ، لذلك سارعوا للالتجاء الى الغابات ودعوا سيوفكم مرتاحة في أغمادها

سيروا في طريقكم ودعوا الأمم والشعوب تتبع مسالكها ، انها لمسالك جللها الظلام فلن يلوح عليها بارق لأمل

على تلك السبل لا يسود الا المتاجرون بالسلع حيث لا بارقة الا من لمعان دنانيرهم ، فقد انقضى عهد الملكية وما هذه الكتل التي يسمونها شعوباً لتستحق قيادة الملوك

انظروا الى هذه الأمم وقد اصبحت تمثل دور بائع السلع بمجموعها تروها تجمع حقيرات الأرباح من اقذار أية دمنة لاحت لها ، لقد انتصبت كل أمة ترصد الأخرى وتقلدها وتدعي جميعها حرمة الجوار . فيا له عهداً سعيداً ذلك الزمان الذي كان يهب فيه شعب معلناً ارادته بان يسود غيره من الشعوب

اقول هذا ، يا اخوتي ، لأن من حق الأفضل ان يحكم ولأنه يريد ان يحكم ، ولا تسود قاعدة غير هذه القاعدة الا حيث لا أفضل منها يعمل بها .

— ٢٢ —

ويل لهؤلاء الناس لو ان خبزهم يوزع مجاناً عليهم ، فانهم لا يجدون من يصبون غضبهم عليه ، باي حديث يتحدثون اذا حرموا قساوة الحياة ؟

إن هؤلاء الناس الا وحوش كاسرة ، في اعمالهم ترصد واختطاف وفي ارباحهم مراوغة واحتيال ، فكيف تلذ لهم الحياة اذا هي خلت من الشدة والقسوة ، وهم يرون الارتقاء في التفوق على الحيوانات افتراساً ومراوغة لأن الانسان في اعتقادهم افضل حيوان كاسر

لقد اقتبس الانسان صفات جميع الحيوانات لذلك كانت حياته اوفر شدة عليه من حياة أية فئة منها ، ولكن الانسان لم يرتفع فوق الاطيار بعد ، وويل له اذا هو تعلم الطيران ايضاً ، اذ لا نعلم الى اي ارتفاع سيندفع بجشعه وحرصه

— ٢٣ —

إنّ ما اريده للرجل وللمرأة هو ان يكون أهلاً للكفاح وان تكون اهلاً للتوليد وان يكونا كلاهما أهلاً للرقص برأسيهما وأرجاهما

لنعدّ كل يوم يمرّ بنا دون ان نرقص فيه ولو مرّة واحدة يوماً مفقوداً ولنعتبر كل حقيقة لا تستدعي ولو قهقهة ضحك بياناً باطلاً

— ٢٤ —

انتبهوا لكل زواج تعقدونه واحذروا العقود الفاسدة لأنكم اذا تسرعتم بها لا تجنون غير حلّها . على ان فسخ الزواج خيرٌ من تحمّله بالمصانعة والمخادعة

قالت لي أمرأة :

« ما حطمتُ قيودَ زواجي حتى حطمتْ هذه القيود حياتي »

ما رأيت زوجين لاتكافوء بينهما الاّ وتبينت فيهما عاطفة الانتقام اذ يتحوّل نفور كل منهما الى عداء للناس وقد امتنع عليه أن يسيرَ طليقاً لوحده

لذلك وجب على أهل الاخلاص ان يثقوا بصدق ما يشعرون به وان يوجهوا قواهم للاحتفاظ بعواطفهم كيلا ينخدعوا بما يعاهدون عليه . وليطالبوا بالاتحاد الى حين ليثقوا من امكان اتحادهم الى امدٍ طويل فليس من هيّنات الأمور ان يجتمع اثنان الى مدى العمر

ذلك ما اوصي به المخلصين لانني ان قلت بغير هذه الوصية عدمت محبتي للانسان المتفوّق ولكل ما اتوقعه لآتي الزمان

ليس ما فُرض عليكم ان تتناسلوا وتتكاثروا فحسب بل عليكم ان ترتقوا ايضاً، فلتكن جنة الزواج مدخلكم الى المرتقى

— ٢٥ —

ليس إلاّ لمن اختبر حادثات الزمان القديم ان يدرك في الينابيع العتيدة ما سيندفق منها من حادثات لمستقبل الازمان

لن يطول الزمن ، ايها الأخوة ، حتى تنشأ شعوب جديدة وتبدأ ينابيع جديدة بالهدير في مجاهل الأغوار

تزلزل الارض زلزالها فتكرع المياهَ الدافقةَ فيكثر عددُ الظامئين ولكنها في الوقت نفسه تقذف من باطنها الى النور بالقوى الخفية وبكثير من الأسرار ، وهنالك زلازل تفجّر من الأعماق على الارض ينابيع جديدة ، فاذا ما انخسفت البسيطة بالشعوب القديمة تدفقت تلك الينابيع

في ذلك الحين اذا ما وقف رجلٌ يدعو الناس هاتفاً : تعالوا ! ههنا عينٌ تروي كثيراً من العطاش فتشدد القلوب الواهية وتخلق العزم فيمن فقدوا إرادتهم ، يهرع الشعب اليه طالباً ان يجرّب وما يطمح الناس في تجاريبهم الاّ الى التمييز بين من له أن يأمر ومن عليه أن يطيع ، ولكم ستقتضي هذه المحاولة من تفتيش واستقراء ومشاورة واختبار

ان ما يرسو عليه المجتمع الانساني انما هو المحاولات لا النظام المبرم بالعقود ، هذا ما اعلّمه انا وما هدف هذه المحاولات الاّ وجود من يحسن الحكم

فاعرضوا يااخوتي عن كل قول اخر مصدره القلوب الخائرة والافكار العاجزة عن وجود الطرق الحاسمة

— ٢٦ —

اين يكمن الخطر الاعظم المهدد لمستقبل الأنسانية ، يا اخوتي ؟ انني اراه كامناً في نفوس أهل الصلاح والعدل ، وهم القائلون في نفوسهم « اننا نعرف ما هو صلاحٌ وعدلٌ وهو كائن فينا فويلٌ لمن يريدون ان يوجهوا أبحاثهم اليه »

ان ما يرتكبه الاشرار من المآتي لا يوازي بضرّه ما يرتكبه الاخيار فأن وطأتهم لأشدّ على العالم من وطأة المفترين عليه

أي اخوتي ، لقد تطلّع يوماً أحدُ الناس الى قلوب اهل الصلاح والعدل قائلاً : « هؤلاء هم الفرّيسيون » فما فهم احدٌ قوله وما كان الصالحون العادلون ليفهموه ايضاً لأن عقلهم سجين في ضميرهم إنّ حماقة الصالحين حكمة لا يدرك كنهها احد . ولكن لا مفرّ لهم من وصفهم بالفريسيين ، وقد قضي عليهم ان يصلبوا كل من يبتدع لنفسه فضيلتها . تلك هي الحقيقة لا مريّة فيها

لقد جاء رجل آخر فاكتشف مواطن الصالحين والعادلين وما خفيت عنه أرضهم ولا قلوبهم فاورد سؤاله واجاب عليه :

أيُّ انسان يصب عليه هؤلاء الناس اشد كرههم ؟

— إنهم لا يكرهون احداً كرههم للمبدع ، لأنه في نظرهم المجرم الهدّام لتحطيمه الواح الوصايا القديمة

ذلك لأن اهل الصلاح عاجزون عن الإبداع ، وما هم الا بداية النهاية ، فلا بدع اذا صلبوا من يحفر وصايا جديدة على الواح جديدة ، واذا ضحّوا المستقبل لأنفسهم ، والمستقبل للعالمين أجمعين

هل كان اهل الصلاح في كل حقبة من حقب الزمان الاّ بداية النهاية (١)

— ٢٧ —

أفهمتم يا اخوتي هذه الكلمة وما قلته لكم اولاً عن الأنسان الأخير ؟

افما اتضح لكم ان الخطر الأكبر المهدّد مستقبل الانسانية انما هو كامن في مباديء اهل الصلاح واهل العدل

هيا ! حطِّموا الصالحين والعادلين

وعساكم تدركون معنى هذه الكلمة ايضاً

— ٢٨ —

اراكم تذهبون بدداً من حولي ، اراكم ترتعشون فكأنّ كلمتي هذه ادخلت الرعب الى قلوبكم

أي اخوتي إنني ما دفعت بسفينة الانسان نحو الغمر الاّ عندما أهبت بكم الى تحطيم الألواح وإسقاط الصالحين ، وها إن الرعب الأعظم يستولي على مَن دفعتُ الى اجتياز الغمر فقد غارت عيناه وحكمه دوّار البحار

لقد اراكم اهل الصلاح وجهات الأمور الخادعة وعلّلوكم بحالات أمن كاذب ، وكنتم واجهتم أكاذيبهم وانتم اطفال فما انقطعتم عن الالتجاء اليها

لقد شوّهوا كل شيء وافسدوه حتى في اصوله

(١) ما لصاحبنا نيتشه يعترف بتمرد عيسى على شر من يدعوهم اهل الصلاح والعدل ، وما له يباهي باقتفاء اثر هذا السامي الضعيف ، على ان عيسى ما جاء ناقضاً بل مكملا وما جاء محطما للوحي الوصايا ولا مبتدعا فضيلة لنفسه على ما يقصد نيتشه بل رفع منار فضيلة يهتدي بها الناس اجمعون

ولكن مَنْ اكتشف الانسان لم يفته اكتشاف مستقبل الأنسانية فكونوا لي ايها الأخوة البحّارة الشجعان المجالدين وهيّا بنا الى الأمام نشق عباب البحر مقتحمين أمواجه الصاخبة ، تعلَّموا السير على الوجهة المستقيمة فان كثيرين يحتاجون الى الاقتداء بكم

البحر هائج وفي البحر كل شيء ، فالى الامام ايتها العزائم ، عزائم البحّارة القدماء

ما يهمنا ما يدور بنا ، اننا ننشر الشراع قاصدين وطن ابنائنا ما وراء الغمر حيث ترغي وتزبد اشواقنا الهائجات

— ٢٩ —

قال الفحم يوماً للماس : من اين لك هذه الصلابة ؟ افما نحن نسيبان

وانا اقول لكم — افما انتم اخوتي ، فمن اين جاءكم هذا الخَوَر ؟

لِمَ هذه الليونة لِمَ هذا الميعان ؟ اين توكيد الذات في قلبكم واين غارت سطور مقدراتكم فلا تلوح في احداقكم ؟

اذا انتم أطرحتم العزم الحاسم فكيف تتوقعون الظفر يوماً الى جانبي ؟ وكيف يتسنَّى لكم ان تشاركوني بالإبداع اذا لم يكن لعزمكم لمعان الجراز ومضاؤه ؟

هل يكون المبدع الاّ صلباً شديداً ؟ وهل من غبطة لكم اعظم من ان تطبعوا يدكم على صفحات القرون فترتسم عليها كارتسامها على قطعة من الشمع ؟

انها لأعظم غبطة ان يكتب الانسان على ارادة الوف الاجيال والاجيال أقوى من الصلب وأسمى شرفاً . لأن أصلب الاشياء اشرفها

انني اعلّق فوق رؤوسكم لوح هذه الوصية :

اتصفوا بالصلابة وتشدّدوا

— ٣٠ —

أي إرادتي لقد آن لنا ان نضع حداً لكل الصغائر ، وما لي من مطلب سواك لانك وحدك سؤلي ومقصدي ، انقذيني من كل انتصار حقير

وانتِ ايتها الصُدفة التي أدعوها مقدراتي ، انت القائمة في ذاتي فوق ذاتي احفظيني وأعدّي للعظائم نفسي

احتفظي ايتها الارادة للخاتمة باخر عظمة فيك ، كيلا يهي عزمك عند نوالك الظفر . لأن ليس من احد لا يسقط عندما يبلغ الانتصار

وآسفاه ! أية عين لم يغشاها الظلام في سكرة الظفر ، سكرة الغسق . وآسفاه ! أية قدم لم تتعثر ولم تتحول عن مسلكها ساعة الانتصار

انني أُعدُّ نفسي لا كون ناضجاً للظهيرة العظمى ، فالقاها صلباً ألا نته النار للانطباع وغمامة تتمخض بالبروق وضرعاً يتفجر بدَّره

اريد ان اهيأ ذاتي وصميم ارادتي فاصبح كالقوس ألتوى شوقاً لاحتضان سهمه وكالسهم يطير شوقاً نحو كوكبه

اريد ان اكون الكوكب المتألق بانواره في الظهيرة العظمى ، وقد هزته الغبطة والسهم السماوي يخترقه ليفنيه

اريد ان أتحوَّل شمساً وإرادة شمسٍ لا تتزعزع . فاكون مهيأً للاندثار في أُفق الانتصار

هذا ما اطمح اليه فلنضع حداً يا إرادتي لكل الصغائر ، انت مقصدي ، فاحفظيني للظفر الأعظم

النقاهة

— ١ —

وما كانت مضت ايام طويلة على عودة زارا واستقراره في غاره ، حتى هبَّ يوماً من رقاده كالفاقد الرشد واخذ يصيح ويعربد مشيراً الى مرقده كأنَّ عليه شخصاً غريباً يحاول طرده ، وساد القلق حيوانيّ زارا فدارا حوله وحكم الرعب جميع الحيوانات الاخرى فاذا هي تدب وتزحف وتتطاير هاربة الى بعيد

وبقي زارا في موقفه قائلاً :

هيا ! انهضي ايتها الفكرة الرائعة المنبثقة من اعماق ذاتي لقد كنت لك فجراً واعلنت انجلاءك كالديك الصائح ، وانتِ لا تزالين منطرحة كالتنين ، افتحي اذنيك واسمعي ، لانني اريد ان تطاقي صوتك انت ، انهضي فان هنا من الصواعق ما يعلِّم حتى القبور ان تصيخ سمعاً

افركي اجفانك واسمعي بعينيك ما اقول لك فان صوتي يهب النظر حتى لمن ولدوا عميانا، فاذا ما انتبهت مرة فلن يعاودك الرقاد لانني ماتعودت إيقاظ الجدود الأقدمين لأسمح لهم بالرجوع الى نومهم العميق

اراك تتحركين وتتثاءبين ، فانهضي وتكلمي ، ان زارا يدعوك إن مَنْ يهيب بك للنهوض انما هو الكافر زارا

انا هو زارا مؤكدُ الحياة ، مؤكد الالم ، مؤكد الدائرة الأبدية ، أدعوك يا اعمق فكرة بين افكاري

يا لابتهاجي ! انني أراكِ قادمة فها أنذا اسمع صوت هاويتي لقد نهضت نحو النور آخر اغواري

يالسروري ! تقدمي اليَّ . . . هاتي يدك

لا . . لا . . ارجعيها . . . يا للكراهة . . . ويا لشقائي

— ٢ —

وما نطق زارا بهذه الكلمات حتى سقط على الارض كالميت وطالت غيبوبته حتى اذا ثاب اليه روعه حكمه ارتعاش شديد وشحب وجهه وانطرح سبعة ايام على فراشه لا يتناول طعاماً ولا شراباً وكان تابعاه من الحيوانات لا يبارحانه ، ولكنَّ نسره كان يذهب في طلب الغذاء ويعود حتى كدَّس انواع البقول والفاكهة حول المرقد وطرح امامه نعجتين اختطفهما بكل عناء من القطعان السارحة وقد نام عنها رعاتها

وبعد سبعة أيام جلس زارا على مرقده واخذ تفاحة ينشق نكهتها فخيل لحيوانيه ان الزمن قد حان فقالا له :

لقد مرت سبعة أيام يا زارا وانت مثقل الأجفان افما آن لك ان تنهض . اخرج من غارك فأن كل شيء يتشوق اليك فالهوا يهب بالعطور نحوك والغدران تتسارع الى لقياك . وكل شيء يتوق الى معالجتك وشفائك

هل أتاك يقينٌ جديد. فارهقك بثقله وفعلت خميرته فعلها فيك ؟ فقد رأيناك ساكناً كالعجين المنتفخ باختماره وشعرنا بروحك تتدفق من جنبيك

فأجاب زارا : اذهبا في ثرثرتكما ، يا حيوانيَّ ودعاني أشدِّد عزمي بالاصغاء الى هذه الروح . إن الثرثرة لتبسط العالم كله امامي كحديقة مترامية الاطراف

ان العذوبة كلها كامنة في الـكلمات والاصوات فما هي الا جسور من الوهم ممدودة بين الـكائنات المنفصلة الى الابد

لـكل نفسٍ عالمها فهي تجد في كل نفس اخرى عالماً آخر . وكلما ازداد التشابه بين الاشياء ازداد خداع السراب بينها . وأصعب المآزق اجتيازاً اضيقها

انني لا ادرك كيف يمكن ان يوجد شيء ليس فيَّ انا ، لأن نفي الذات ممتنع ، غير ان جميع الاصوات تنسينا هذه الحقيقة وخيرٌ لنا ان نتمكن من نسيانها

ما أُعطيت الاسماء والاصوات الا لتشديد عزم الانسان ، وهل اللغة إلا جنون له لذته ؟ أفما ترى الانسان يُرقص بيانه على كل شيء

ما ألذ الـكلمات وما احلى خداع الاصوات فانها ترَّقِص حبنا على جميع ما في قوس قزح من الالوان

فاجاب الحيوانان قائلين : « إن من له عقليتنا يرى الاشياء متراقصة لنفسها لأن كل الاشياء تتقدم الى مسرح الوجود فتتصافح وتضحك وتنسحب ثم تعود

الكل يذهب والكل يرجع وعجلة الكون تدور الى الابد . كل شيء يموت وكل شيء يعود فتنّور ازهاره ودوائر الوجود لا انتهاء لها

تتحطم الأشياء فتتبدد ثم تعود فتلتئم لتجديد بناء الوجود. يتفرَّق الشمل على وداع فاذا بعده تسليمٌ لخلقة الـكون أمينة لذاتها الى الأبد

ان الوجود يبدأ في كل لحظة فعلى محور « هنا » تنفتح دوائر الأجواء « هنالك » فالمحور مرتكز في كل مكان وطريق الابدية كله تعاريج »

وعاد زارا الى ابتسامه قائلاً :

« يا لطيشكما ! انـكما تعلمان جيداً ما وجب ان يتمَّ في سبعة ايام . ويا للمسخ الذي زحف الى داخل عنقي ليكتم انفاسي ، غير انني قضمت عنقه باسناني فقطعت رأسه ولفظته الى بعيد ، فاتيتما تعيدانه الى نصابه

انا الآن متعب مما قضمت ولفظت ، ولا ازال مريضاً من اجهاضي

لقد شهدتما كل هذا ، فهل اردتما التلذذ بأشد اوجاعي أسوة بالناس ؟ والانسان اقسى حيوان في الوجود . لأنه لا يجد ارتياحاً على الارض الا بمشاهدة المآسي ومصارعة الثيران والصلب وما تمتع بلذة الجنان على ارضه الا يوم اخترع الجحيم

اذا ما صرخ رجلٌ عظيم سارع صغيرٌ الى نجدته والحسد يكاد يدلي لسانه من فمه ولكنه يسمي هذا الحسد رحمة واشفاقاً

انظر الى صغار الناس وأخص منهم الشعراء باي بيان ملتهب يشكون الدهر وتصاريفه ، واذا ما اصغيت الى هذا الانين الشاكي فلا يفوتنك ان تنصت لنبرات اللذة في كل شكوى

ان الحياة تقول لمن يشكو وهي تتحكم فيه بغمزة من عينيها : انك عاشقي فانتظرني لحظة لأتفرّغ لك

ما يقسو حيوانٌ على نفسه قساوة الانسان ، فاذا ما سمعت أنين من يدّعون انهم مرتكبو آثام وحَمَلةُ صلبان وتائبون فتنصّت الى أنينهم وشكواهم تسمع فيها شهقات الشهوة المتلذذة

وهل اقصد انا الآن بما اقول ان اشكو الانسان ؟ أي نسري وافعواني ان الشر الاعظم ضروري للخير الاعظم بين الناس هذا ما تعلّمته وما تعلّمت سواه حتى الآن

ان الشر الاعظم لخير ما في قوة الانسان لانه الحجر الأشد صلابة لنحت المبدع ، وعلى الانسان ان يتكامل في خيره وفي شره

لم احمل على عاتقي صليباً لأذهب مفتشا عما اذا كان الانسان شريراً ، بل وقفت هاتفا بما لم يهتف سواي بمثله فقلت :

« يا للأسف ! ان يكون اعظم شر في الانسان واعظم خير فيه لا يتجاوزان هذه الصغارة »

ان هذا الاحتقار العظيم للناس هو الثعبان الذي تغلغل في حلقي فكاد يخنقني كما كاد يخنقني ايضاً ما انبأ به العرّاف اذ قال : كل الاشياء متساوية ولا شيء يستحق العناء ، فالمعرفة تخنق طلاّبها

وهكذا رأيت الغسَق ينسحب متعارجاً امامي وسمعت صوتاً حزيناً متعباً كأنه نبرات سكران راوده الموت يقول لي :

« سيعود دوراً فدوراً الى الأبد الانسانُ الذي يرهقك : الانسان الصغير »

ذلك كان حزني المتعارج غسقاً طال انسحابه فأورثني الأرق ورأيت ارض

البشر تستحيل امامي الى مغارة اتسع صدرها ضاماً اليه كل حي فلاح لي كل شيء ركام اقذار واكوام عظام وردوم قرون

ذهب زفيري يجول بين المدافن متراميا على لحود الناس ملتصقاً بها وقد حُكم عليه الاّ يغادرها فبات هنالك منتحباً يشكو ويردد ليلاً ونهاراً :

« وأسفاه إن الانسان سيعود ، سيعود الانسان الصغير دوراً فدوراً الى الابد »

ولقد رأيت الناس من قبل ، رأيت كبيرهم وصغيرهم، فما أشبه الأكبر بالأصغر فيهم فكلهم مستغرق في بشريته

ما اصغر الأكبر بين الناس ! ويا للشقاء في أن يعود الصغار ابداً . إنّ هذا ما يرهقني من الوجود

واندفع زارا يردد قوله : يا للكراهة . . . يا للكراهة وهو يتنهد ويرتعش متذكراً داءه واوجاعه

وقاطعه نسره وافعوانه قائلين :

— توقف عن الكلام ، ايها الناقه ، اخرج من هنا واذهب الى حيث تنتظرك الدنيا في حدائقها ، الى الورود والنحل والحمام ، وقف عند أسراب الاطيار المترنمة لتتعلّم أناشيدها . وما اجدر الناقهين بالانشاد فان المتمتعين بالعافية يتكلمون واذا هم تغنّوا فبغير ما يتغنى به الناقهون

فقال زارا — اسكتا ايها الاحمقان اراكما عرفتما السلوى التي اوجدتها لنفسي في سبعة ايام . ولسوف أعود الى الانشاد الذي اوجدته للسلوى فيكون لي منه الشفاء ، افتريدان ان أعدل عن هذا ايضاً

فصاح الحيوانان : انقطع عن الكلام أنسيت انك ناقه ؟ أعدّ قيثارة جديدة لنفسك ، فما تجاري القيثارةُ القديمة انشاداً جديداً

أطلق اغنيتك ، يا زارا ، ولتذهب داوية كالعواصف ، أشفِ نفسك بها لتنهض بما قُدِّر لك وما قُدِّر لاحد قبلك

ان حيوانيك يعرفان مَنْ انتَ ، يا زارا ، وما ستكون ، فما انت الاّ النبي المعلن تكرار عودة الاشياء الى الابد . وهذا ما قُدِّر عليك القيام به منذ الآن : ان تكون اول من ينشر هذا التعليم وكفاك بهذا العمل علةً واخطاراً

ما غرب عنا تعليمك يا زارا فانت تقول بان جميع الاشياء تعود ابداً

ونحن معها عائدون وبأننا وُجدنا من قبل مراراً لا عداد لها ومعنا جميع الاشياء ايضاً

انت تقول بالسُّنة العظمى المتكررة وهي كالساعة الرملية تنقلب كلما فرغ اعلاها ليعود ادناها الى الانصباب مجدداً ، وهكذا تتشابه السنوات كلها باجمالها وتفصيلها كما نعود نحن مشابهين لأنفسنا اجمالاً وتفصيلاً في هذه السنة العظمى

اذا ما شئت ان تموت الآن يا زارا ، فاننا نعلم ما ستناجي به نفسك ، ولكن نسرك وافعوانك يرجوانك الاّ تضع حداً لحياتك الآن

اذا انت عزمت على الرحيل ، فانك لتدفع بزفرة الارتياح لا بأنين الالم اذ تطرح عن عاتقك وانت الصلب الجلود وقرك الثقيل وكربتك المضنية ، قائلاً :

ها أنذا اموت واتوارى وعما قليل اصبح عَدَماً فان الارواح تفنى كما تفنى الجسوم ، غير ان شبكة العلل الدائرة بي ستعود يوماً فتخلقني مجدداً فما انا الاّ جزء عن علل العودة الابدية لكل شيء

ساعود بعودة هذه الشمس وهذه الارض ومعي هذا النسر وهذا الافعوان سأعود لا لحياة جديدة ولا لحياة أفضل ولا لحياة مشابهة بل انني ساعود ابداً الى هذه الحياة بعينها اجمالاً وتفصيلا فأقول ايضاً بعودة جميع الاشياء تكراراً وأبداً ، وابشّر ايضاً بظهيرة الارض والناس وبقدوم الانسان المتفوّق

هذه هي كلمتي نطقت بها وقد حطمتني هذه الكلمة ، ذلك ما قُدّر عليّ ابداً ، فانا اتوارى مُنذراً وبشيراً

لقد حانت الساعة الآن ، الساعة التي يبارك فيها نفسه مَنْ يتوارى . وهكذا ينتهي جنوح زارا الى المغيب »

قال النسر والافعوان هذا وتوقعا ان يجيبهما زارا بشيء ولكنّ زارا لم يعلم ان حيواناه سكتا عن الكلام لانه كان قد استغرق في مناجاة نفسه فظهر كأنه نائم وما كان نائماً

ووجم النسر والأفعوان امام سكون زارا وذهبا على مهل من قربه

الامنية العظمى

اي نفسي ! لقد علّمتك ان تقولي كلمة « اليوم » كما تتلفظين بكلمتيّ « امس وما قبله » وان ترقصي فوق كل منذر اينما كان

أي نفسي ! لقد حرَّرتك من كل قيد خفي وطهَّرتك من الأدران واقصيت عنك العناكب وكل نور يخالطه ظلام

أي نفسي ! لقد نفضت عنك صغائر حيائك وكمينات فضائلك واقنعتك بالخروج عارية امام عين الشمس

لقد نفخت عاصفة الفكر على بحرك المضطرب وجلوت الغيوم السوداء من آفاقك وقضيت فيك على الأثم القاتل

أي نفسي ! لقد اوليتك الحق بان تقولي «لا» كما تقول العاصفة وان تقولي « نعم » كما تقول صافيات الآفاق ، فاصبحت هادئة كالنور يجتاز العواصف النافيات المانعات

أي نفسي ! لقد اطلقت لك الحرية تتسلَّطين بها على ما هو كائن وعلى ما لم يتكوَّن بعد ، فما شعرت نفسٌ بمثل ما تشعرين من ملذات آتي الزمان

أي نفسي ! لقد علمتك ان تحتقري احتقاراً لا ينخر كالسوس علمتك الاحتقار الذاهب الى أقصى المحبة او الى اقصى التحقير

أي نفسي ! لقد علمتك الإقناع حتى خضعت الاسبابُ والمقدمات لما ترتأين فاصبحت كالشمس تُقنع البحارَ بأن تتعالى الى مدارها

أي نفسي ! لقد نزعت منك كل خضوع وخنوع ومتابعة واستعباد حتى رأيتك سائدة لكل شقاء ومتحكمة في الدهر لانك انت هي المقدور

أي نفسي ! لقد منحتك اسماء جديدة ومتَّعتك بالعاب متنوعة فدعوتك المقدور ومحيط المحيط وقطب الزمان ومأذنة الآفاق

أي نفسي ، لقد أغدقت الحكمة كلها على مملكتك الأرضية وأترعت كؤوسها بخمرة المعرفة المعتَّقة منذ اقدم العصور

أي نفسي ! لقد غمرتك بجميع الأنوار والظلمات وكل ما في الكون من سكنات وشهوات ، فرأيتك تنمين امامي كما تنمو الجفنة في الكروم

أي نفسي ! ما انت الآن الاَّ دالية في الكرمة اثقلك جنيك ونهدت اثداؤك عناقيد يلوِّح سمرتها النضار ، لقد ارهقتك السعادة الكامنة فيك فانت صابرة خجولة من صبرك

أي نفسي ! ليس في الكون من نفس اشد منك حباً ورحابة وحناناً فاين يتقارب الماضي والمستقبل ان لم يتقاربا في مجالك

أي نفسي ! لقد وهبتك كل ما ملكت يدي والآن اراك تبتسمين قائلة : على اي من كلينا حقت كلمة الشكران ؟

أفليس على الواهب ان يشكر مَنْ تفضّل بقبول هبته ؟ وهل العطاء الا حاجة في نفس مَنْ اعطوا والأخذ الا إشفاق في نفس الآخذين ؟

أي نفسي ! انني ادرك مغزى ابتسامتك ومعنى شجونك فانت الآن تمدين راحات اقبالك مترعة بشهوة العطاء ، وتمدين أبصارك على البحار المزبدة وقد ابتسم في عينيك صفاء السماء

مَنْ له ان يردّ دموعه عن الفيضان ، اذا لاحت له ابتسامتك يا نفسي ؟ ان ما في هذه البسمة من العطف والحنان ليستهوي الملائكة للبكاء

إن عطفكِ وقد تجاوز حدّه يمتنع عن النواح والعويل في حين ان ابتسامتك تتشوق الى البكا وتحرك يتهدج بالنحيب

انك تتناجين قائلة : ان كل دمعة فيها انين وفي كل أنين شكاية — ولذلك تفضلين الابتسام على الجهر بما تتحملين من خيراتك ، ومن شوق يهزّ جوارحك بارتعاش الكرمة تتوق الى مقاطع القاطفين

فاذا ما كنت تمتنعين عن البكاء ، يا نفسي ، مُغضية باجفانك الحمراء ، فعليك ان ترفعي صوتك بالإنشاد

انظري اليّ في ابتسامي وانا منبئك بانك ستطلقين اناشيدك بصوت مرعد يجعل البحار تتنصت لنبرات شهوتك ، الى ان تسبح عليه العائمة المذهبة والمحلاّة بكل ما هو حسن في روغانه وغرابته ، حيث ينتصب السيد المجمّل بالعزم وفي يده المقطع الماسيّ لعناقيد الكروم ، ذلك هو مخلّصك ومحررك يا نفسي ، ذلك هو الكريم الذي أضمر اسمه في اناشيد المستقبل ، والحق ان في انفاسك شيئاً من اريج هذه الاناشيد . فانت الآن مستسلمة للاحلام تنقعين غليلك من الآبار حيث يدوي السكون وتلقين باشجانك الى اناشيد آتي الزمان لتجدي فيها الراحة من العناء

أي نفسي : لقد وهبتك كل شيء حتى فرغت يداي وآخر ما وهبتك إهابتي بك للانشاد ، فقولي لي الآن مَنْ منا وجبت عليه كلمة الشكر

تغني يا نفسي (اطلقي اناشيدك من اجلي ودعيني أوجّه اليك آيات شكراني هكذا تكلم زارا . . .

نشيد آخر للرقص

— ١ —

أرسلت نظراتي الى أعماق عينيك الساهدتين ، ايتها الحياة ، فوقف نبضان قلبي اذ رأيت الذهب متوهجاً فيها ورأيت مركباً ذهبياً يشعُّ على بحر الظلام يشدُّ بمهدٍ مذهَّب مشرف على الغرق

ورشقتِ قدميَّ المصابتين بجنون الرقص بنظرة مسكرة مذيبة ضاحكة مستفهمة ، وما قرعت يداك الصغيرتان ضربتين على دفّك حتى تحفزت قدماي للوثوب وتنصَّت عَقَب كل منها لاوزانك ، وأُذن كل راقص مفتوحة في عقب قدمه

وثبتُ اليك ، ايتها الحياة ، ولكنك تراجعت عني وتوليت فاذا بغدائر شعرك المتطاير تسمعني فحيح الافاعي وتريني من السنتها نصالا

قفزت متراجعاً عنك وعن افاعيك ، فاذا بك متعالية تتحولين مقبلة عليَّ وقد تدفقت بالشهوات عيناك ، مشيرتين اليَّ بنظراتها المنحرفة ان اتبع السبل الملتوية ، وهكذا تعلمت قدماي المراوغة على منعرجات الطريق

انني أخشاك قريبةً واحبك بعيدةً ، ايتها الحياة ، فيجذبني إعراضك عني ويوقفني اقبالك نحوي ، فانا معذب بك وأي عذاب لا احمّله من أجلك ، انت المحرقة ببردك ، الساحرة بكيدك ، الجاذبة بإدبارك المحيِّرة بسخريتك

أيُّ إنسان لا يكرهك ، ايتها الآسرة الغامرة الساحرة التي لا يفوتها مقصدٌ تتجه اليه ، ومن لا يحبك وانت البريئة الرَعْناء المسارعة الى المعصية والاثم وفي عينيك لفتات الأطفال ؟

الى أين تقودينني الآن ايتها الطفلة المهذبة الشاردة ؟ اراك تفرّين من امامي حلوةً طائشة أيتها الجاحدة الفتيّة . وها أنذا اتبعك راقصاً حتى الى المآذق التي لا أعرف لها منفذاً

أين انت ؟ مدي اليّ يدك او اصبعاً من كفك . فليس امامي الاّ مغاور ومضائق ، ففي . . . افلا ترين البوم والوطاويط تتطاير حولنا

مهلاً يا طير الظلام ، أفأنت ساخرٌ بي ؟ اين نحن الآن ؟ لقد تعلمتَ من

الكلاب نباحهم فاراك تكشّر عن أسنانك الصغيرة وتحدجني بنظراتك المتقدة من وراء لبدتك الصغيرة الجعداء

أية رقصة تريد أن أرقص ، أجبليّة أم بحرية ؟ انا هو الصياد ، افما يحلو لك ان تكون كلبي أم تفضل ان تكون طريدتي ؟

أنتِ هذا الطير ايتها الحياة فتعالي الى جنبي الآن ايتها القفّازة الشريرة : ارتفعي وسيري الى الجهة الاخرى

ويلي لقد قفزتُ فوقعت ، فانظري اليّ طريحاً يتوسّل اليك افما كان خيراً لي ان اتبعك على مسالك اجمل من هذه ؟ على مسالك الحب بين الشجيرات الزاهية بعديد الوانها أو على شاطىء البحيرة حيث تتراقص الأسماك المذهبة

لقد اضناك التعب الآن وهنالك خرفانٌ ترعى عند الغروب أفلا يلذّ لك ان ترقد حيث تصدو شبّابة الراعي

انني سأحملكِ الى هناك فمدي معصميك اليّ . لعلك عطشى ولقد اجد ما اروي به ظمأكِ ولكنّ شفتيك تتحولان عن كل شراب

لقد انقلبتْ أفعى ، هذه الساحرةُ الرشيقة الوثّابة الزاحفة فلا ادري في أي الأوكار تغلغلت ، بعد ان صفعت وجهي وأبقت عليه طابع يدها الحمراء

لقد تعبت من رعايتك والسير ورائك ، ايتها الساحرة لقد اسمعتك اغانيّ حتى الآن فلسوف تسمعينني صراخك ، هيّا : ارقصي على نقرات سوطي ألهبك به ، فانني ما نسيت سوطي

— ٢ —

وسدت الحياة أذنيها واجابتني قائلة :

« لا تقعقع بسوطك ، يا زارا ، فانت تعلم ان الضجة تشلّ التفكير وقد بدأت تتوارد عليّ الخواطر ، فما انت وانا الاّ من زمرة المتكاسلين ، لقد وجدنا جزيرتنا ومروجنا الخضراء ما وراء الخير والشر ، وما اكتشفها معنا احد ، لذلك وجب علينا ان يحب احدُنا الآخر . وهب ان حبنا لا يخرج من صميم القلب أفيحق لنا ان نتبادل من اجل هذا عاطفة النفور

أنت تعلم انني كثيراً ما احبك واتجاوز الحد في حبك وما ذلك الا لغيرتي من حكمتك فياويلاه من هذه الحكمة المجنونة الهرمة ، ولكن اذا ما هجرتك هذه الحكمةُ يوماً فلا يطول الزمن حتى تهجرك محبتي ايضاً »

وادارت الحياة انظارها ما وراءها وما حولها وقالت : لست بالامين الوفي يا زارا فمحبتك أبعد من ان تصل الى الحد الذي تصف باقوالك . وانا اعلم أنك تفكر في هجري عما قليل

ان على المرتفع جرساً ضخماً قديماً يدق ساعات الظلام فيصل رنينه الى اعماق غارك ، وعندما يؤذن بانتصاف الليل يخطر لك ان تغادرني في مدى الساعة الاولى من الهزيع الثاني ، انني اعلم ذلك يا زارا فانت مصمم على هجراني

فاجبت متردداً « أجل » ولكنك تعرفين امراً آخر ، وتقدمت أسرُّ في أذنها كلمة اخرى بين غدائر شعرها الذهبية المتطايرة ، فقالت :

« اذاً ، انت تعرف هذا ، يا زارا ! وليس من يعرفه سواك »

وتراشقنا اللحظات وعدنا نسرّحها على المروج الخضراء وقد دغدغها نسيم المساء البليل واستخرطنا كلانا بالبكاء . وعندئذ شعرت ان الحياة اعزّ عليّ من حكمتي

هكذا تكلم زارا . . .

— ٣ —

١ — كن على حذر ايها الانسان

٢ — ماذا يقول نصف الليل في غوره ؟

٣ — « لقد نمتُ ، لقد نمتُ

٤ — « ثم افقتُ من حلم عميق

٥ — « إنّ العالم عميق

٦ — « فهو أعمق مما يعتقد النهار

٧ — « والآمه عميقة

٨ — « واعمق من أحزانه أفراحه

٩ — « تقول الآلامُ للعالم اعبر وانقضِ

١٠ — « ولكنّ الافراح تطلب الأبدية

١١ — « تطلب الابدية العميقة

١٢ — « ! !

الاختتام السبعة

او

نشيدُ البداية والنهاية ، الالف والياء

— ١ —

انا العرّاف الممتلئ بالروح الكاشفة الذاهب صُعّداً على السلسلة المتعالية بين بحرين ، السائر بين ما مضى وما سيأتي كغمامة كثيفة متملصة من جميع الاعماق الخانقة والمعادية لكل متعبٍ ليس له ان يحيا وليس له ان يموت

انا تلك الغمامة المُعِدّة صدرها المظلم للمعات الانوار المنقذة ، المتمخّضة بالبروق المُثبِتة الضاحكة مما تثبت ، انا الغمامة الحاملة للصواعق الكاشفة ، ويا لسعد مَنْ تمخّض بمثل هذه الصواعق ! ولكنه ملزمٌ بأن يلتصق طويلاً بالذروة كما تلتصق الغمامة المثقلة إذ عليه أن يشعل يوماً انوار مستقبل الزمان

كيف لا أحنّ الى الابدية وكيف لا اضطرم شوقاً الى خاتم الزواج الى دائرة الدوائر حيث يصبح الانتهاء عودة الى الابتداءِ

انني لم اجد حتى اليوم امرأة اريدها أماً لابنائي الاّ المرأة التي احبها ، لانني احبك أيتها الابدية !

إِنني احبكِ ايتها الابدية

— ٢ —

اذا كنتُ تهجّمت بغضبي على القبور فانتهكت حرمتها ونبذت قصياً معالم الحدود وألقيت بألواح الشرائع لحطمتها على مهاوي الاغوار

واذا كنت بسخريتي نثرت الكلمات المتداعية وهببت كالريح أكسح نسيج العناكب وأُطهّر مغاور الموت المتعفنة القديمة

واذا كنت جلست مَرِحاً مسروراً حيث دُفنت الهة الأزمان المنصرمة لابارك العالم واغمره بالحب قرب أنصاب من افتروا عليه، فما ذلك إلاّ لانني أتوق الى رؤية المعابد ومدافن الآلهة عندما تخترق عينُ السماء الصافية قبابها المحطمة ، فأجلس على الركام المتهدمة كالعشب الاخضر والشقائق الحمراء

فكيف لا احنُّ الى الابديـة ولا اضطرم شوقـاً الى خاتم الزواج ، الى دائرة الدوائر حيث يصبح الانتهاء عودةً الى الابتداء

انني لم اجد حتى اليوم امرأة اريدها أُماً لأبنائي إلاَّ المرأة التي احبها ، لانني احبك ايتها الابدية

إنني احبك ايتها الابدية

— ٣ —

اذا كانت هبَّت عليَّ نسمةٌ من نسمات الإبداع الإلهية التي تُكرِه حتى الصدف العمياء على الدوران راقصة كتراقص الكواكب في الافلاك

اذا كنت ضحكت بقهقهة البرق المبدع يصحبه إرعاد العمل

واذا كنت تراشقت الزهر مع الآلهة على نرد الارض حتى ارتجفت الارض وتشققت قاذفة لهاث النار في الاجواء، فما ذلك إلاَّ لأن الارض نردٌ الهي يرتعش لوقع الكلمات المبدعة الجديدة ولتساقط الازهار الالهية

فكيف لا أَحنُّ الى الابدية ولا اضطرم شوقاً الى خاتم الزواج ، الى دائرة الدوائر حيث يصبح الانتهاء عودةً الى الابتداء

انى لم اجد حتى اليوم امرأة اريدها أُماً لابنائي الاَّ المرأة التي أُحبها، لانني احبك ايتها الابدية

إنني احبك ايتها الابدية

— ٤ —

اذا كنت كرعت ما في هذه الكأس من دواء تمازجت جميع العقاقير فيه ، واذا كنت مددت يديَّ فضممت الأبعد الى الأدنى وجمعت بين النار والتفكير وبين المسرات والاحزان مازجاً أقبح الاشياء باحسنها

واذا كنت انا ذرَّة مفتدية في بحر الرمال أعمل على مزج الاشياء في كأس العقاقير ، فما ذلك إلاَّ لأن في الوجود ملحاً يلتحم به الخير مع الشر وما الشر الاَّ احد التوابل التي تُزبد الكأس فترغي طفاحاً

فكيف لا أحنُّ الى الابدية ، ولا أضطرم شوقاً الى خاتم الزواج الى دائرة الدوائر حيث يصبح الانتهاء عودةً الى الابتداء

إنني لم أجد حتى اليوم امرأةً اريدها أماً لابنائي الاّ المرأة التي أُحبها، لانني احبك ايتها الابدية

إنني احبك ايتها الابدية

— ٥ —

اذا كنت احببت البحر وكل ما يشبه البحر وما اشتد هيامي به الاّ عند مقاومته لي بزوابعه ، واذا كنت احملُ في نفسي غبطة المستكشف ، الغبطة التي تدفع بالشراع الى المجاهل وتملأ روّاد البحـار حبوراً ، واذا كنت قد صرخت في حبوري : لقد توارت أواخر الشواطىء عن عياني ، فتحطمت بتواريها آخرُ حلقةٍ من قيودي ، فها أنذا الآن فيوسط المدى الفسيح الصاخب بعيداً عن توالي الأمكنة والأزمان ، فهيَّا بنا ، يا قلبي الهرم الى الامام !

أواه ! كيف لا اتوق الى الابدية واضطرم شوقاً الى خاتم الزواج ، الى دائرة الدوائر حيث يصبح الانتهاء عودةً الى الابتداء

إنني لم اجد حتى اليوم امرأةً أُريدها أُماً لابنائي الاّ المرأة التي احبها ، لانني احبك ايتها الابدية

إنني احبك ايتها الابدية

— ٦ —

اذا ماكانت فضيلتي فضيلة الراقصين ، واذا كنت كثيراً ما رقصت مأخوذاً باشعاع الزمرد والنضار واذاكان شرّي شراً ضاحكاً يأنس الى حقول الزنابق واغصان الورود ، فذلك لان كل ما هو شرير يتحد بالضحك ولكنه يتحد مبرّراً ومحرراً بغبطته نفسها

ان الالف والياء عندي هما ان تتحول كل كثافة الى لطافة فيصبح كل ثقيل خفيفاً وكل جسم راقصاً وكل فكر طائراً . والحقِ ان في هذا كل بداية وكل نهاية

فكيف لا أتوق الى الابدية واضطرم شوقاً الىخاتم الزواج ، الىدائرةالدوائر حيث يصبح الانتهاء ابتداء

انني لم اجد حتى اليوم امرأةً اريدها أماً لابنائي الاّ المرأة التيأُحبها،لانني أُحبك ايتها الابدية

إنني احبك ايتها الابدية

— ٧ —

واذا ما كنت بسطت فوقي سماواتٍ يسودها السكون واطلقت جناحي في مجالات سماواتي ، واذا ما كنت سبحت في أعماق مدى الانوار فلكت حكمة الطيور في حريتي ، فما ذلك الا لان حكمة الطيور تقول : « ليس في الكون فوقٌ ولا تحت ، ألقِ بنفسك هنا او هناك ، اذهب الى الامام او تراجع الى الوراء ما دمت خفيفاً ، أطلق صوتك بالتغريد ولا تتكلم بعد . أفليس التكلم شيمة اهل الكثافة والثقل ، وهل يتصاعد كل قولٍ الا نحو الخفيف اللطيف، غرّد ولا تتكلم بعد »

أواه ! كيف لا أحنُّ الى الابدية واضطرم شوقاً الى خاتم الزواج، الى دائرة الدوائر حيث يصبح الانتهاء ابتداء

إنني لم أجد حتى اليوم امرأة أريدها أماً لابنائي الا المرأة التي أحبها ، لانني أحبك ايتها الابدية

إنني احبك أيتها الابدية ! . .



هكذا تكلم زرادشت

الجزء الرابع

« أين تجلّى الجنون في الارض باشدّ
« مما تجلّى بين المشفقين ، بل أي ضرر
« لحق بالناس أشد من الضرر الناشىء
« عن جنون الرُحماء ، ويلٌ لكل مُحب
« ليس في محبته ربوةٌ لا يبلغها إشفاقهم
« قال لي الشيطان يوماً : إن
« للربّ جحيماً هو جحيم محبته للناس
« وقد سمعت هذا الشيطان يقول اخيراً
« لقد مات الاله وما أماته غيرُ رحمته

زرادشت

الرُحماء — الجزء الثاني صفحة ٧٦



تقدمة العسل

وكرّت الأشهر وتوالت السنون على زارا وهو لا يشعر بها ، مع أنها جلّلت بالبياض ناصيته وفوديه

وجلس زارا يوماً على حجر أمام غاره وأرسل نظراته الى بعيد ترود تعاريج الأودية وقد ظهر شيء من افق البحر عند منتهاها السحيق ، وبينما هو مستغرق في تفكيره دار حوله نسره وأفعوانه ثم مثلا أمامه قائلين له :

— علامَ ترسل نظراتك ، يا زارا ، أتراك تفتش على سعادتك ؟

فاجاب — مالي وللسعادة ، لقد انقضى الزمان الذي كنت أتوقع السعادة فيه فما أتشوّق الآن الاّ الى أعمالي

فقال الحيوانان — إنك تتكلم كمن تغلغل الخير فيه أفما أنت عائم على بحيرة من السعادة ينعكس على صفحتها أديم السماء ؟

فاجاب زارا وهو يبتسم — لقد أجدتما التشبيه ولكنكما تعلمان ايضاً ان سعادتي ثقيلة ولا شبه بينها وبين الأمواج هجوماً وتراجعاً فهي تزحمني ولا تبتعد عني وتلتصق بي كأنها الراتنج المذوب

ودار الحيوانان مرة ثانية حول زارا وعادا يتفرّسان به قائلين له — لقد عرفنا السبب اذاً في اصفرار لونك واكمداده وتحول لون شعرك الى لون القنّب ، أفلا ترى انك غارقٌ في المادة الراتنجية اللزجة وفي شقائك ؟

وتضاحك زارا قائلاً — والحق انني جدّفت عندما ذكرت المادة الراتنجية فما حدث لي الا ما يحدث لكل ثمرة يتداركها النضوج ان العسل هو ما يخثّر دمي ويزيد نفسي استغراقاً في صمتها

وتقرّب النسر والافعوان من سيدها وقالا — ان الامر كما تقول ولكن أفلا تريد اليوم ان تصعد الى الجبل العالي فالهواء نقيٌّ يشعرك بلذة الحياة

فقال — انكما تعربان عن مشتهاي فانا اتوق اليوم الى تسلق المرتفع ولكن عليكما ان تتداركا لي عسلاً من القفير الذهبي ، عسلاً اصفر وابيض من أجوده وأبرده لأنني اريد ان ابذله تقدمة الى الذُرى

ولما وصل زارا الى القمة واطلق للحيوانين سراحهما رأى نفسه منفـرداً فابتسم وأدار لحاظه ما حوله قائلاً :

لقد تعللت بتقدمة العسل لأتمكن من الانفراد بنفسي فاتكلم حراً طليقاً على القمة بعيداً عن منازل النُّساك وحيواناتهم

عندما كنت أذكر التضحية كنت أبدّد ما وهبَ لي بألف راحة منبسطة فكيف اجسر ان ادعو هذا العمل اليوم تضحية ؟

انني عندما طلبت العسل لم اطلب سوى طعمة للشَّرَك فاردت أخذها من القفير المذّهب الذي تتشوّق الى التلذذ به الأطيار والدببة

طلبت خير طعمة يستعملها الصائدون على اليابسة وفي البحار . فان الدنيا عبارة عن غابة تغص بالحيوانات وحديقة يتنعّم بها كل صائد وحشي ولعلها أشبه ببحر زاخر لا قعر له . فهي والحق بحر محتشد بالأسماك على انواعها وعديد الوانها مما يثير شهية الآلهة انفسهم حتى انهم ليصبحوا صيادين يرمون بشباكهم الى هذا العالم المليء بالعجائب والغرائب كبيرها وصغيرها : واخص من الدنيا عالم الناس برّهم وبحرهم فانا ارسل في مجالاته شبكتي المذهّبة هاتفاً ، انفتحي ايتها الأغوار البشرية

انفتحي واقذفي اليّ باسماكك اللامعة فلسوف اتمكن اليوم بخير طعمة استهوي بها الأسماك البشرية من اصطياد خيارها . وما هذه الطعمة الا سعادتي نفسها انشرها الى الابعاد بين المشرق والجنوب والمغرب وانظر ما اذا كان العدد الغفير من الاسماك البشرية يتعلمون تذوّق سعـادتي والاشتباك بها ، حتى اذا تغلغلت في حناجرهم طعمتي يضطرون الى الارتفاع نحو مستواي وهكذا يرتقي أشد الأسماك تعلقاً بالاغوار الى قرب اشرّ صياد يصطاد بني الانسان . وما انا الاّ ذلك الصياد منذ نشأتي وفي أعماق روحي فانا الجاذب المستهوي المزحزح الرافع والمثقف المعلّم . انا من قال من قبل — يجب عليك ان تصير مَنْ انت

فليرتفع الناس اليّ الآن لأنني أنتظر الاشارات التي تعلن لي ان زمن نزولي قد حان ، فانني لم انزل بين الناس بعد كما وجب عليّ ان انزل ، لذلك انتظر هنـا على

قمة الجبل مراوغاً مستهزئاً دون ان أعيل صبري ودون ان يعيل هو ، انتظر كمن نسي الصبر لأنه لا شفقة فيه

لقد اوسعتْ مقدَّراتي مجـالَ الزمان أمامي ، فهل هي تناستني فشُغِلَت باصطياد الذباب مستظلة وراء صخر كبير ؟ والحق انني ممتنٌ لما قدّر الأبد عليّ لأنه لا يزحمني بل يترك لي متسعاً من الدهر لأتلاعب وأرتكب الشرور حتى انه اجاز لي اليوم ان اتسلّق هذا الجبل لاصطاد عليه الاسماك . وهل سمعتم بانسان يصطاد الأسماك على الذُرى ؟ لقد يكون ما طلبته جنوناً على انه خيرٌ لي ان يحكمني الجنون من ان يسودني الجمود فاتلوّن بالاخضرار والاصفرار وانا ساكن على الانتظار في الاعماق . فانا لا اريد ان اكون كهؤلاء المتحرقين في غيظهم لطول انتظارهم كأنهم عاصفة مقدسة تصيح بالوديان : أصغي الي والاَّ فانني اجلدك بسياط الله

ما يكيدني مثل هؤلاء الثائرين فانني اقف باعتباري لهم عند حد الاستهزاء ولا يفوتني سبب غضبهم لأنني اعلم انهم ان لم يقرعوا طبولهم اليوم فلن يقرعوها الى الابد

اما انا ومقدَّراتي فما نوجه خطابنا لا الى اليوم ولا الى الابد وبوسعنا ان نصبر على الصمت لان امامنا مدى طويلاً وسيأتي زمن لن يكون فيه للقادم ان يعبر ويتوارى . ومن هو هذا القادم ؟ إن هو الاَّ الصدفة العظمى اي ملك الانسان إذ يحكم فيه زارا الف عام

واذا كان هذا الملك لم يزل بعيداً فما يهمني هذا البعد وانا الواثق من انه لا بدَّ قادم . انني استند من هذه الثقة الى الأسس الابدية ، الى هذه الصخور والجبال القديمة المنتصبة بين الرياح مترصدة ماكان وما سيكون

فاضحك أيها الشر الـكامن فيَّ وارسل قهقهتك الهازئة من اعالي هذه الجبـال والقي بشباكك لاصطياد خير الاسماك البشرية ، اذهب رائداً جميع البحار فان كل ما فيها هو لي التقط الجميع وارتفع به اليَّ . ان هذا ما يتوقعه اوفر المتصيدين شراً

اذهبي في عرض البحار أيتها الطعمة وغوري في الاعماق لاصطياد سعادتي ، واقطر احلى قطراتك المعسولة ايها القلب طُعمةً شهية تحلُّ في احشاء المصائب المروّعة الدكناء

ان أنظاري تمتد الى اعمق الآفاق فياالبحار تتسع امامي ويالمستقبل الانسانية يفلق الضُحى وما فوقي ينبسط السكون على تورّد الآفاق ، فياالصفاء لاتكدّره الغيوم

استنجاد

وفي صبيحة اليوم التالي ، جلس زارا على مقعده الحجري أمام غاره ، وسار نسره وأفعوانه يتجوّلان في الارض لتدارك اطعمة جديدة وعسلاً جديداً لان زارا كان بدّد حتى آخر قطرة من العسل القديم

وبينما كان مستغرقاً في تفكيره وهو متكيء على عصاه يتفرّس في ظلّ جسده، انتفض فجأة اذ لاح له ظلّ آخر يرتسم قرب ظله . ووقف متلفتاً الى ما وراءه فاذا بالعرّاف واقفاً على مقربة منه وهو من قاسمه الغذاء يوماً على مائدته فأهاب الى الخمول قائلاً « إن كل الامور متشابهة ولا شيء يستحق العناء لأن لا معنى للوجود والحكمة خانقة قاتلة »

ولكن ملامح هذا العرّاف كانت تبدّلت منذ ذلك العهد وما امعن زارا النظر فيه حتى استولى عليه زعر مما رأى على سحنته من طلائع الشؤم

وأدرك العرّاف ما يمرّ في خاطر زارا فبسط كفه ماسحاً وجهه كأنه يريد محو ما ارتسم عليه ومسح زارا وجهه ايضاً حتى اذا عاد الاطمئنان الى كليهما تصافحا فقال زارا :

اهلاً بك يا بشير التراخي والجمود ولعلك استفدت شيئاً من نزولك ضيفاً عليّ فيما مضى ، فاجلس اليوم ايضاً الى مائدتي واسمح ان أجالسك انا الشيخ المتليء غبطة وحبوراً

فهزّ العرّاف رأسه قائلاً — يخيل اليك انك شيخ يتدفّق غبطة وحبوراً ولكنك على اي حال كنت وأياً كنت يا زارا ، لن يطول زمن حبورك على هذه الذرى فلسوف تجتاح سفينتك العواصفُ عما قليل

فقال زارا — وهل انا بمأمن من هبوبها

فقال العرّاف — إن الأمواج تدور بجبلك من كل جانب فهي تعلو وترتفع دون انقطاع وعما قليل ستبلغ هذه الأمواج ، أمواج الشقاء والآلام ، هذه الذرى فتذهب بسفينتك وتذهب بك ايضاً

وصمت زارا متعجباً

فاستطرد العرّاف — افلا تسمع الآن شيئاً؟ افما يبلغ اذنيك صخب الأغوار وهديرها

وبقي زارا باهتاً يتنصّت فاذا به يسمع صوتاً مديداً تتلقفه اصداء المهاوي كأن لا هاوية منها تطيق الاحتفاظ بمثل هذا النداء الفجيع!

فصاح زارا بالعرّاف — أجل يا نذير الشؤم، انني اسمع صوت استنجاد يصرخ به انسان. ولعلّه آتٍ من بحر الظلمات، ولكن مالي ولمدّد الناس! افما تعلم ما هي آخر خطيئة قُدرّت عليّ؟

فاجاب العراف — بلى إنها الرحمة

وتدفق قلبه سروراً فرفع ذراعيه هاتفاً — لقد جئت لاسقطك في هذه الخطيئة

وعاد الصوت يدّوي اوسع امتداداً واشد ارتياعاً كأن مصدره يقترب

فقال العراف — اتسمع يا زارا، ان النداء موجه اليك، تعال، تعال... فقد لا تصل إلاّ بعد فوات الاوان

وبقي محتفظا بصمته ولكنه شعر باضطراب زعزع إرادته فسأل متردداً — ومن ذا يناديني من بعيد؟

فأجاب العرّاف — انك تعرفه فعلى مَ تتجاهل؟ ذلك هو الانسان الراقي يناديك مستنجداً

وارتعش زارا قائلاً — ماذا يريد مني؟ ماذا يطلب الانسان الراقي هنا؟

وبدا جلده يتصبّب عرقاً

اما العرّاف فلم يأبه لاضطراب زارا بل انحنى فوق الهاوية متنصتا واذ طال السكوت في الغور ادار ظهره فرأى زارا لم يزل منتصباً مكانه وهو يرتجف فقال له بصوت حزين

— لا يلوح لي انك الرجل الراقص لسعادته، فارقص اذا شئت الاّ تقع على الارض ولو انك رقصت بكل حركاتك امامي الآن فانني لا أصدّق انك آخر من يتمتع بالسعادة بين الناس. واذا ما تسلّق احدٌ هذه الذرى آملاً ان يجد آخر السعداء فانه ليفتش عبثا عليه اذ لا يجد سوى المغاور يختبئ فيها من يحب

الاستتار ان مكامن السعادة ليست في هذه الارجاء . وهل من سعادة ترتجي بين من دفنوا انفسهم وتنسّكوا ؟ فهل وجب عليّ ان افتش على السعادة في الجزر السعيدة بعيداً وراء البحار ؟

ولكن مالي ولهذا مادام لا شيء في الوجود يستحق العناء والاهتمام وعبثا نفتش فان الجزر السعيدة قد توارت من الوجود

وبعد ان أنهى العرّاف خطابه ودفع آخر زفرة من صدره عادت الغبطة الى زارا فاذا به ينتفض كمن يخرج من الظلمة ليستقبل النور ويقول وهو يلعب بلحيته

لا وألف لا . . . انني أعلم منك ، فالجزر السعيدة لاتزال مكانها فاصمت ايها الندّاب ما انت إلاّ غمامةٌ تمطر على بسمة الصباح وقد بللتني دموعك ولكنني أنفضها عني وافزع منك الى بعيد ، أفما تراني أعاملك بالحسنى ؟ لا تعجب لهذا لانك نازلٌ في مملكتي

ها أنذا ذاهبٌ الى مصدرصوت الاستنجاد في هذا الغاب لافتش على الانسان الراقي فلعلّه معرّضٌ للخطر بين الوحوش الضارية ، وانا احاذر ان يلحق به ضرر في مملكتي وما اكثر الضواري فيها

وما تحفّز زارا للسير حتي قهقه العرّاف ضاحكاً وقال :

— أي زارا ، ما انت إلاّ مراوغ محتال ، انك تقصد التخلص مني فتفضل مطاردة الوحوش ، ولكن هربك لن يجديك شيئاً فلسوف تجدني محتلاً غارك عند رجوعك ، ستراني متربعاً فيه كحزمة حطب ثقيلة

فقال زارا وهو سائر نحو الغاب — ليكن ما تريد ان كل ما في غاري هو لك ايضاً لانك ضيفي . واذا ما وجدت فيه شيئاً من العسل فلك ان تلحسه لتخفف ما في نفسك من المرارة ايها الدبّ المزمجر لاننا سنفرح ونطرب سوية هذا المساء لانقضاء هذا اليوم فتشترك معي بالغناء والرقص دباً متقّفاً

أراك تهز رأسك كأنك لا تصدق ما اقول ، فاذهب في سبيلك اذاً ايها الدب الهرم ولكن اعلم انني عرّاف انا ايضاً

هكذا تكلم زارا . . .

محادثة مع الملكين

وما مضت ساعةٌ على سير زارا وتوغله في جبـاله واحراشه حتى اعترضت طريقه قافلةٌ غريبةٌ . فرأى ملـكين كل منهما متوّج وممنطق بالارجوان، يسوقان أمامهما حماراً محمّلاً . فقال زارا في نفسه : ماذا يطلب هذان الملكان في اراضيّ ، وأسرع الى الاختفاء وراء عوسجة حتى اذا اقتربت القافلة من مكمنه تمتم بصوت خافت — يا للغرابة ! انني ارى ملـكين ولا ارى غير حمار واحد

وتوقف الملـكان وهما يبتسمان ويلتفتـان الى مصدر الصوت الخـافت فقال ملك الميمنة — ان مثل هذه الافـكار تمرُّ في الخاطر عندنا ولـكن لا يعبّر احدٌ عنها

فهزّ ملك الميسرة كتفيه وقال — لعل المتكلم راعٍ او ناسكٌ عاش طويلاً بين الصخور والاشجار فالابتعاد عن المجتمع مفسدٌ للأخلاق المهذبة

فقال الملك الآخر وقد ظهرت عليه إمارات الـكدر : الاخلاق المهذبة ! وهل غادرنا مجتمعنا الاّ هرباً من اخلاقـه المهذبة ؟ لخيرٌ لنا ان نعيش بين النسّاك والرعاة من ان نعيش بين قومنا وقد اتشحوا المذّهبات واستعادوا من الطلاء ملامحهم الـكاذبات ، ما تجدي الانساب العريقة اذا كان من يباهون بها قد تهرأوا وغدا أفسدَ ما فيهم دمُهم لِما عاث فيه من امراضٍ قديمة ولِما ادخله عليه الأساةُ الجاهلون

لخيرٌ من هؤلاءِ القوم الفلاّح السليم فهو بخشونته واحتياله وصبره ومجالدته أشرف انواع الانسان في هذا الزمان

ان فلاّح هذا الزمان خير ما في المجتمع وطبقته اولى بالحـكم ولكنّ الشعب هو الحاكم وما أُخدع به بعد الآن فهو عبارة عن غوغاء من جميع الطبقـات يختلط فيه القدّيس والسافل والصعلوك المغرور واليهودي فكأنك منهم تجاه ما جمعت سفينةُ نوح

كيف نذكر العادات الحسنة وليس عندنا الاّ الرياء والفساد وقد نسي الجميع معنى الاحترام . لقد اردنا ان نهرب من كل هذا فلا نعود نرى الـكلاب يقتلها الجشع والفضول وتبهرها السُعُـف المذهّبة

لقد بلغ الاشمئزاز مني مداه لاننـا نحن ايضاً اصبحنا كاذبين نرفل ببرود

اجدادنا وقد اخلقها الزمان وتتقلّد الانواط لنبهر اجهل القوم واشدّهم احتيالاً ولئالىء جميع من يتعاملون بالربا الفاحش مع كل سلطة .

لسنا اولَ المالكين فعلينا الاّ نكون على ما كانوا . لقد تعبنا وشبعنا مخادعة واحتيالا

لقد أعرضنا عن الشعوب وتولينا عن هؤلاءِ المشاغبين وهذه الهوامِ القابضة على الاقلام فهربنا من رائحة الحوانيت الكريهة ومن الانفاس الخانقة تحشرج في صدور الجهود القاصرة

أفٍ للحياة بين الشعوب ويا لشقاء مَنْ يعشون في طلائعها ، اية اهمية للملوك! ما لك ولهم

فقال ملك الميسرة : لقد عاودك داؤك القديم ، لقد استولت نوبة الاشمئزاز عليك يا اخي ، ولكنك نسيت ان هنا مَنْ يسمع حديثنا

وخرج زارا من مكمنه وقد سمع كل ما دار من حديث بين الملكين فتقدم اليهما وقال :

إنَّ من أصغى اليكما فراقه ما سمع إنما هو رجل يدعى زارا . وانا هوزارا القائل :

— اية اهمية للملوك بعد

فاغتفرا لي مسرّتي لسماعي منكما ما قلته من قبل

انتما الآن في مملكتي وتحت سلطاني ، فماذا عساكما تطلبان فيها ؟ لعلكما وجدتما في طريقكما من أفتش عليه ، فانا أفتش على الانسان الراقي

وقرع الملكان صدريهما قائلين— لقد كُشف أمرنا . فقد اخترقتَ بكلمتك هذه اعماق قلبنا وادركت سبب بلوانا . نحن ذاهبون للعثور على الانسان الراقي، الانسان الذي يفوقنا بالرغم من اننا في مرتبة المُلك وقد اتينا اليه بهذا الحمار لان على الانسان الاعلى ان يكون المعلّم الاعلى

إن أقسى ما يجتاح الارض من نوازل ان لا يكون اصحاب السلطان على الناس أفضل الناس كيلا يسود الكذب والفظائع فتلتوي الامور ذاهبة على غير مجاريها، لانه عندما يكون ارباب السلطان من زعانف القوم بل ومن حيواناته يتعالى الشعب ويتعالى حتى ليسمعك صوته قائلاً إنني انا هو الفضيلة

فهتف زارا : ماذا أسمع أعند الملوك مثل هذه الحكمة ؟ لقد اثارت هذه

الكلمات تريحني ولسوف انظم مقطعاً عما اوحته اليّ . ولعلّ ما سانظم لا تقبله آذان الكثيرين ولكنني منذ زمان طويل نسيت مداهنة الآذان الطويلة

ونهق الحمار كأنه يحتج ، فقال زارا :

« في ذلك الزمان ، في السنة الاولى من التاريخ الجديد ،
« هتفت الهة الاقدمين دون ان تكرع خمراً ، فقالت :
« الويل . . الويل . . لقد ساءت الحال !
« يا للانحطاط ان العالم لم يسقط الى مثل هذه الدركة قبل الآن ؟
« فقد استحالت روما الى عاهرة
« وتدنّى قيصرها الى مرتبة الحيوان
« حتى ان الله نفسه استحال يهودياً . . .

— ٢ —

واستحسن الملكان نشيد زارا ، وقال ملك الميمنة — لقد كان من حظنا إن خرجنا على الطريق فلقيناك ، وقد كان اعداؤك عكسوا لنا صورةً منك على مرايا نفوسهم فرأيناك شيطاناً ضاحكاً ساخراً ادخل الرعب الى قلوبنا . ولكنّ كلماتك ومباديك كانت تخترق آذاننا لتهزّ احشائنا فتغلّبت على ما ادخلت صورة وجهك من الاضطراب في روعنا . فقررنا ان نجيء اليك وأنت القائل « عليكم ان تحبوا السلم كوسيلة توصلكم الى حروب جديدة وان تفضّلوا فترة السلام القصيرة على الهدنة الطويلة الامد . وما نطق احدٌ قبلك بآية حربية كقولك « لا خير يضاهي الشجاعة وغاية الحرب الحُسنى تبرر كل واسطة »

أي زارا ان دم اجدادنا قد ثار في عروقنا عندما سمعنا آيتك فكأنه الخمر المعتق يغلي في الدنان لسماعه همسات الربيع . وهل كان اجدادنا يشعرون بلذة الحياة الاّ عند اشتباك النصال اشتباك الافاعي تقطر دماً ، وهل كانت شمس السلام في اعينهم الا نوراً خاسئاً ، فكل هدنة طويلة الامد كانت تلفّعهم بالعار

لكم من زفرة دفعها آباؤنا وهم ينظرون الى النصال المرهفة تتدلى صابرة على جدران القصور فانهم كانوا يشعرون في احشائهم بظمأ النصال نفسها وما لمعان الحديد الاّ وهج شهوته وتحرقه الى شرب الدماء

وبينما كان الملكان يتحدثان بحرارة عن سعادة آبائهما ، ثارت عوامل التهكم في زارا وهو ينظر الى ملامح الملكين التي تنمّ على الدعة والسكون غير انه

امتلك حوافزه وقال : هيّا بنا الى الذروة . الى غارزارا فسيعقب هذا النهار سَمَرٌ طويل ، وانا مضطر لمغادرتكما لان صوت مستنجد يدعوني من المدى البعيد

ستنال مغارتي الشرف من نزول ملكين فيها ، حيث لا بد لهما من الانتظار طويلاً . ولن يصعب الانتظار عليكما وقد تعودتماه في بلاطيكما . وهل بقي للملوك من فضيلة سوى فضيلة الصبر والانتظار ؟ !

هكذا تكلم زارا . . .

العلقة

وتابع زارا طريقه وهو مستغرقٌ في تفكيرة فانحدر من الاعالي حتى بلغ المستنقعات فاذا به يصطدم وهو ذاهل برجل هزّته الصدمة فصرخ متألما وأتبع صرخته بالشتائم تترى قبيحة سمجة . وبوغت زارا في استغراقه فرفع عصاه على الرجل ولكن روعه عاد اليه فسخر من نفسه وقال :

— ارجو عفوك واستميحك أن أضرب لك مثلاً عما وقع لنا •

بينما كان رجلٌ سائراً في طريق مقفر وقد سرحت افكاره في مجالات بعيدة عثر بكلب نائم تحت شعاع الشمس فوقفا الواحد بوجه الآخر كعدوّين لدودين يرتعشان خوفاً وحذراً . ولو ان الصدف تحوّلت قيد انملة لكان تداعب الكلب والمنفرد ، أفاهما في القفر فريدان »

فقال الرجل المصدوم والغضب لا يزال آخذاً منه مأخذه ، — كُن مَنْ تشاء يا هذا ، فما انت الا معتدٍ عليَّ بمثلك بأكثر مما اعتديت بصدمتك ، انظر اليّ ، أفكابٌ أنا ؟

وكان هذا المتكلم جاثماً على الارض وقد غرس ذراعه في المستنقع كأنه يتصيد منه شيئاً فنهض ساحباً ذراعه العاري من الاوحال

ورأى زارا دماً غزيراً يقطر من ذراع الرجل فصاح به — ماذا جرى لك ايها التعس ، هل لسعك حيوان

فاجاب غضوباً هازئاً وهو يدير ظهره ليذهب في سبيله :

— ما يعنيك يا هذا ، انني مقيم في ملكي وليس عليّ ان أرد على أهوج

وأمسك زارا بالرجل وقد اشفق عليه فقال له — لقد اخطأت فلست في ملكك بل انت في ملكي حيث يجب ان لا يضار احد . ادعني بالاسم الذي تشاء

فما انا إلاّ مَنْ يجب ان اكون وقد أسميت ذاتي زارا . تعال اتبعني الى مغارتي لأضمّد جراحك ، فما انت الاّ تعسٌ خانك الحظ ، لقد لسعك الحيوان ثم جاء الانسان بعد ذلك يدوس عليك

وما سمع الرجل اسم زارا حتى تبدلت سحنته وهتف قائلاً : — أي شيء أهتم له في الحياه غير هذا الانسان الفريد « زارا » وغير هذا الحيون الفريدالذي يعيش من غبّ الدماء « العَلَقة »

ما انطرحت على الارض الاّ طلباً لهـذا الحيوان فقُرصت يدي عشر مرات واذا بزارا نفسه يقرصني ايضاً

يا لسعادتي ، إذ قضي لي أن اكون اليوم في هذا المستنقع لأبارك خير حجّام بين الاحياء ، لأبارك زارا اعظم من عاق على الضمائر ليمتصّ منها

وفرح زارا لسماعه هذه الكلمات فقال للرجل وقد مدّ اليه يده ليصافحه — من انت يا هذا ؟ ان ما بيننا اموراً كثيرة يجب ان نجلوها ، غير انني لا اجد مشقة في الايضاح وها قد وضح بيننا النهار

فاجاب الرجل — أنا « ضمير الفكر » وليس من عامل أشد صلابة واكثر تقيداً مني غير زارا معلمي . وقد تعلمت منه انه خيرٌ للانسان ان يكون مجنوناً في عين نفسه من ان يكون حكيماً في نظر الناس

انا هو الذاهب الى الاعماق ولا ابالي بضيق المدى أو باتساعه ولا فرق عندي أكان الغور مستنقعاً أم سماء ، وانه ليكفيني من الارض سعة الكف اذا جمدت وصلحت مستقراً للقدم فليس امام العِلم الموالي للضمير من شيء يعدّه صغيراً او كبيراً

فقال زارا — لعلك اذاً مَنْ يحاول إدراك منشأ العلقة ، فتذهب الى الغور في بحثها جرياً مع ضميرك

فاجاب — لا يا زارا ، كيف لي ان اقوم بهذا العمل الفظيع ولا معرفة لي الا بدماغ العلقة وفي دماغها ينحصر الكون في نظري ، افليس هذا الحيز كوناً بنفسه ؟ ارجو عفوك اذا ما اظهرتُ كبرياءً بقولي انني انا الاستاذ في هذا المطلب ولذلك قلت لك ان هنا مُلكي . لقد مرّ عليّ زمان طويل وانا احصر اهتمامي في بحث دماغ العلقة كيلا تفوتني الحقيقة في دقائقها ، ان في هذا المطلب تمتد سلطتي وقد اعرضت عن كل ما عداه ، لذلك يتمشى علمي موازياً لجهلي . وقد قضى عليّ

ضميرُ تفكيري ان اعرف شيئاً واجهل سائر الاشياء فاصبحت كارهاً لكل عمل فكريّ لا يتعدّى نصف مرحلته ولكل انسان اعتكر فكره في حماسه وتردده

ان عماوتي تبدأ حيث يتناهى اخلاصي لعقيدتي وانا راضٍ بالعمى واذا ما اردت معرفة شيء انصرفت اليه قاسياً طالباً متعصباً لا الوي على شيء في سبيل محجّته

أفما انت القائل يا زارا : ان الحياة نفسها مبضع يشق الحياة

ان قولك هذا قد جعلني تابعاً لتعليمك ، فتمكنت بذلك من اكتساب معرفتي ببذل دمي

فقال زارا — ان الواقع يثبت قولك

وأشار الى ساعد الرجل وهي تدمي وعليها عشر علقات تمتصّ منها ، واردف قائلاً :

— إن في حالك عِبَراً ، ايها الانسان ، فانت بنفسك تعليمٌ ولن اقدم على اسماعك كل تعاليمي

لنفترق هنا ، غير انني أود ان القاك بعد الآن ، ان هذه الطريق المرتفعة تؤدي الى غاري فانزل فيه اهلاً هذا المساء بين ضيوفي . لأنني اريد ان استرضيك عما الحقته بك من اهانة عندما دست عليك بقدمي ، فانا افكر بهذه الترضية الآن ولكنني مضطر الى مبارحتك الى حيث يستنجدني الصوت البعيد

هكذا تكلم زارا . . .

الساحر

— ١ —

وما دار زارا بالصخر على منعطف طريقه حتى لاح له رجل يأتي بحركات غريبة ثم يدور كالمجانين وينطرح زاحفاً على الارض ، فوقف وقال في نفسه : لعل هذا هو الانسان الراقي الصارخ المدد ، ولعلني أوفّق الى نجدته . واذ وصل اليه رآه شيخاً ارتجفت اعضاؤه وجحظت عيناه ، فهرع اليه محاولاً رفعه عن الارض ولكنه حاول عبثاً ، فبقي هذا الشيخ كأنه في غيبوبة لا يحس بوجود احد قربه واستمرّ يتلفت الى ما حوله ويبدي اشارات اليائس المتروك ، وبعد ان تململ وانطوى على نفسه بدأ يرسل أنينه وشكواه قائلاً :

من يدفئني ؟ من يحبني بعد !
اليَّ بالايادي الحارَّة ، اليَّ بالقلوب المتقدة
انا المحتضر المحتاج الى أكف تفرك رجليَّ الباردتين
انا المنتفض تتأكلني الحمّى الخفية ، المرتعش تهبُّ عليَّ الرياح اللوافح ،
انا طريدك ايها الفكر الذي لا اسم له ، ايها المحجَّب المخوف الملفَّع بالغمام
عيناً تحدجني في طيات الظلام
ها أنذا طريحٌ اتلوّى بعذاب الأبد تحت ضرباتك ، ايها الصياد العاتي ، انت
ايها الإله المجهول . . .

***

انزل عليَّ باشد ضرباتك ، اضرب ايضـاً ، اخرق هذا القلب وقطع نياطه
تقطيعاً ،
مالك تطيل تعذيبي فلا ترشقني إلاَّ بسهام فُلَّت حرابها ،
علامَ تطيل النظر ، وفي عينيك الساخرة بريق الألوهية أفما مللت عذابَ
بني الانسان ؟
انت تمتنع عن القتل ولا تقصد إلاَّ التعذيب ، لماذا تعذبني ايها الإله الساخر
المجهول ؟

***

آهٍ ، اراك تقترب مني زاحفاً في الليل
ماذا تريد ؟ تكلَّم
اراك تزحمني وتدفعني ، ها انت تلاصقني
انك تتنصَّت الى حشرجة انفاسي وخفقان قلبي ،
فيالك من حسود ! وعلامَ تحسدني ؟
اذهب عني . . . اذهب عني . . .
ما هذه السُلَّم تحملها اليَّ ؟ اتريد ان تعلو عليها لتلج قلبي ؟
اتريد ان تنفذ الى اغوار افكاري ؟
ارجع ايها المتطاول المجهول . . . ايها السارق

***

ما الذي تريد اختطافه ؟ وما الذي تطلب سماعه ؟

ما الذي تريد اختلاسه ، انت ايها المعـذّب ؟
انت ايها الإله الجلاّد ؟
اتريد ان اترامى كالـكلب على قدميك ؟
اتريد ان اتقدّم ثاملاً لا اعي زاحفاً احمل اليك غرامي ؟

***

انك تضرب عبثاً ، فاضرب يا أقسى العُتاة !
أنا لست كلباً ! أنا لست فريسةً لك ، أيها الصياد !
أنا لست اسيرك ، ايها اللصُّ الملفّع بالغمام
تكلّم ايها المتواري وراء السحب ، تكلّم أيها المجهول !
قل ، ما الذي تطلبه مني ، أيها الـكامن لعابري السبيل ؟

***

اتطلب فديةً ؟ يا للغرابة !
وما هي الفدية التي تقتضيها ؟
إن عزّة نفسي تشير عليك بان تطلب كثيراً
غير أن عزّتي الثانية تشير عليكَ بالإيجاز فيما تقول
آه ! ان ما تطلبه هو انا بكليتي !

***

يا لجنونك ! انك ترهقني بتعذيبك ، انك تعذب عزّتي
اعطني المحبة . . . مَنْ يدفيئني . . . من يحبني بعد
اليّ بالأيادي الحارّة . . . اليّ بالقلوب المتقدة
أعطني . . . انا المنفرد المتشوّق في الصقيع حتى الى اعدائه ،
اطلب اليك أن تستسلم لي ، وانت أقسى من يعاديني .
ولـكنه توارى ! توارى رفيقي الوحيد ، اكبر اعدائي ، الكائنُ المجهول ،
الإلهُ الجلاّد . . .

***

لا . . . لا تذهب . ارجع . . . عُدْ اليّ بتعذيبك
عُد الى آخر المنفردين فان دموعي كلها تنهمر شوقاً اليك
واخر أشعة من فؤادي تترامى نحوك

آواه . عُد اليَّ ، يا الهي المجهول ، يا ألمي يا منتهى سعادتي !

— ٢ —

وبلغت الثورة في زارا حدَّها فرفع عصاه واخذ يقرع بها الرجل الذاهب بنواحه وشكواه ، قائلاً له بضحكة ملؤها الغضب : — توقف ايها المشعوذ ، ايها المزيَّف ، ايها الكذاب ، لقد عرفت من انت

سألهب ساقيك فانا اعرف كيف اعامل امثالك . فانتصب الشيخ وصاح : توقف عن ضربي يا زارا ، فان ما شهدته مني لم يكن الاَّ مزاحاً ولعباً ، وما اللعب الاَّ فنٌ من فنوني . لقد اردت ان اعرّضك للتجربة . والحق انك نفذت الى أعماق سريرتي ، فأبنت لي ايضاً ما تنطوي انت عليه ، انك لحكيم قاسٍ يا زارا وعصاك ذات العقد تضطرني الى ان اقول لك انك تجلد الناس بحقائقك جلدا

فقال زارا وهو لا يزال على حنقه: لا تداهن يا مشعوذ الارواح ما أنت إلاَّ مظهرٌ لا ينمُّ على حقيقته فليس لك ان تذكر الحقائق بفمك

باي دور كنت تقوم امامي يا طاووس الطواويس، ايها البحر الزاخر بالأباطيل، ايها الساحر المشئوم . أظننت انني كنت مصدقاً أنينك وشكاياتك؟

فقال الشيخ — كنت أمثّل دور كفارة العقل ، أفما انت المخترع لهذا التعبير ؟ فتكلمت بلسان الشاعر الساحر الذي ينقلب عليه عقله بعد تبدُّله لادراكه فساد عمله وفساد ضميره

أفما خُدعتَ بتمثيلي يا زارا ؟ وهل تكشّف لك خداعي قبل أن آمنت بشقائي والقيت راحتيك على رأسي ؟ وقد سمعتك تقول آسفاً « لم يُمتّع من الحب الاَّ بالنذر اليسير » فرقص شرّي حبوراً في داخلي

فقال زارا — لا ريب في انك خَدعتَ من قبلي مَنْ هم أقوى فراسةً مني وما انا مَنْ يتحوَّط لنفسه تجاه المخادعين لان من واجبي الاَّ احاذر احداً، هكذا قُضي عليَّ

أما أنت فقد قُضي عليك بان تخدع الناس فما يخفى أمرك عليَّ فانا اعرفك واعرف ان لكل كلمة من كلماتك معنيين بل ثلاثة واربعة معانٍ،حتى انما اعترفت به الآن ليس فيه الصدق كله ولا الكذب كله

وهل بوسعك ان تكون على غير ما انت عليه أيها الشرير الكاذب ايها

المزيف ، وانت اذا ما وقفت عاريا امام طبيبك يوما فانك لتجعل داءك نفسه يتنكّر عليه ، هكذا موّهتَ أمامي كذبك نفسه ونكرّته عندما قلت لي : — ان ما شهدته مني لم يكن إلاّ مزاحاً ولعباً . فقد ضمّنت كذبك شيئاً من الحقيقة وانت شبيه من بعض الوجوه بالمكفّر عن ذنوب العقل

لقد تكشفت لي سريرتك فانا اراك بلغت من السحر ما تستهوي به الناس ولكنك لا تجد من الكذب والرياء ما تستهوي به نفسك ، لقد انكسر خيالك وعثرت اماآلك لانك لم تجن غير الكره حقيقة لا حقيقة لك سواها فاصبحت ولا كلمة صادقة عندك ، فكلُ شيء مزيفٌ فيك الاّ شفتاك او بالأحرى ماالتصق بهما من كره او اشمئزاز

وصاح الساحر بصوت جلجلت الكبرياء فيه — مَنْ انت يا هذا ليحق لك ان توجه اليَّ مثل هذا الخطاب وانا أعظم الاحياء في هذا الزمان ؟

ونزل الساحر على زارا بنظرة التمعت باشعتها الخضراء ولكنه وجم بغتةً واردف قائلاً بصوت حزين :

— آي زارا . . . لقد تعبتُ من كل هذا . . . لقد كرهتُ جميع فنوني فما انا بالعظيم وما يجدي التظاهر شيئاً . ولكنني طلبت العظمة كما تعلم . اردت ان أمثل دور الرجل العظيم فتمكنت من اكتساب ثقة الكثيرين ولكن اكاذيبي تجاوزت طاقتي ووقفتْ دوني حائلاً اصطدمت به فانحطمت

اي زارا . . . ان كل ما فيَّ اكاذيبٌ باكاذيب . . . ولا حقيقة عندي سوى انحطامي

فاجاب زارا وهو ينكث الارض بنظراته : لقد كان طلبك للعظمة مشرّفاً لك وقد خانك مقصدك فما انت بالعظيم

ان ما اكرّم فيك وما أراه خير صفة لديك هو تعبك من نفسك وهتفتك « انني لست عظيماً » . لذلك اكرّمك كمكفّرٍ عن العقل ، وهب ان تكفيرك هذا لم يدم الاّ لحظة واحدة فانك كنت في هذه اللحظة صادقاً

ولكن قل لي ماأتيت تطلب هنا في غاباتي وبين صخوري واذا كنت انطرحت على طريقي لتلقاني فاي برهانٍ قصدت نواله مني ؟ باية وسيلة اردت ان تنصب شركَ تجربتك لي ؟

هكذا تكلم زارا وعيناه تقدحان شرراً ، فوجم الساحر الشيخ ثم قال : وهل

حاولت تجربتك؟ ما كنت الاَّ مفتشاًوما أُفتش عليه هو الانسان الصادق المستقيم الانسان الذي لا يُظهر الا ما يضمر ، ان ما اطلبه هو إناء الحكمة الصادقة هو الرجل العظيم

افما تعلم يا زارا انني اطلب زارا

وساد السكوت على المتخاطبين ، وأغمض زارا عينيه مستغرقاً بالتفكير ، ثم قبض على يد الساحر وقال له بكل تأدب

— هنالك على المرتفع الطريق المؤدي الى مغارتي ، وفي هذه المغارة ستجد مَن تطلب ، فاذا ما بلغتها سَلْ نسري وافعواني ليساعداك بالتفتيش في طولها وعرضها

لا اكتمك انني ما رأيت الرجل العظيم حتى الآن لأن العيون لا تزال في خشونتها قاصرة عن تفحّص اية عظمة ، فاننا في عهد سيادة الشعوب

ولكم رأيت من متعاظم يتمطّى وينتفخ والشعب يصيح حوله هذا هو الرجل العظيم ولكن ما يفيد منفخ الحداد تمدده اذا كان الهوا لا يلبث فيه

هكذا يخرج الهواء ايضاً من الضفدع حين ينتفخ لينشقّ . وليس من لعبة أشد تسلية من غرز مِنصلٍ في جلد منتفخ فاسمعوا هذا يا أبنائي

ان يومنا هذا يوم الشعوب فمن له ان يميّز بين الكبير والصغير فيها ومن له ان يطلب العظمة فيظفر بها غير المجانين وهل من ظافر غير من فقد رشده

اراك تفتش على الرجل العظيم ايها المجنون الغريب فمن ترى اوعز اليك بهذا ؟

أفي مثل هذا الزمان يوجد العظيم ، ايها المراوغ ؟

لماذا تحاول نصب شراكك امامي ؟

هكذا تكلم زارا وقد سلا همومه فضحك وسار في طريقه

المعتزل

وما سار زارا شوطاً في طريقه حتى لاح له رجلٌ كبير الهامة يتشح السواد جالساً على جانب السبيل وعلى وجهه نحولٌ وشحوب ، فازعجه هذا الشبح وقال

في نفسه ويل لي انني ارى قناع الاحزان ، فهذا الرجل من طغمة الكهنة، وما يطلب هؤلاء الناس في مملكتي ؟

لقد تخلصت من ساحر لأقع على مناجٍ للاموات ، على ساحر آخر يأتي بالعجائب بنعمة الله وهو يذم الحياة ! فليت الشيطان يختطفه . ولكن الشيطان متغيب ابداً عند الحاجة اليه ، واذا ما لبى هذا الملعون الطلب جاء متأخراً

وكان زارا يتمتم بهذه الكلمات وهو يفكر في وسيلة تمكنه من المرور امام الرجل الاسود دون ان تقع انظاره عليه ولكن هذا الرجل لمح زارا من بعيد فنهض كمن يظفر بما يتوقع واسرع الى ملاقاته قائلاً له :

— ايها المسافر المتجول أياً كنت ، أنجد هذا التائه الشيخ المعرّض للمخاطر في هذه الارجاء ، إنني أسمع زئير الوحوش من كل جانب ، وقد كان هنا رجل بوسعي ان الجأ اليه ولكنه توارى وعبثاً فتشت على مستقره ، وهذا الرجل هو آخر الاتقياء ، هو الناسك الصالح الذي لم تبلغ أذنيه الكلمات التي ذاعت بين الناس في هذه الايام

فقال زارا — وما هي هذه الكلمات ؟ لعلها قولهم بان الاله القديم الذي كانوا يؤمنون به من قبل قد مات

فاجاب الرجل بلهجة حزينة — لقد قلتها وانا قد خدمت هذا الاله حتى الساعة الاخيرة من حياته . وهاأنذا أعتزل الآن ولاسيد لي ولكنني لم أنل حريتي ، لذلك أصبحت ولا أمل لي بالسعادة الا اذا تلمستها بايامي الماضيات.وقد اتيت الى هذه الجبال لأقيم شعائر الدين وأحتفل بالعيد على ما يليق برئيس أعلى وأب من آباءِ الكنيسة الأقدمين ، فأنا هو اخر « البابوات »

ولكنّ الناسك الذي كان هنا ، القدّيس الذي كان يسبّح الله بصلواته وأناشيده قد مات وقد فتشت عليه في كوخه فما وجدت الاّ ذئبين يعويان أمام بابه ناديين فقد كانت جميع الحيوانات تحنّ اليه في حياته . لذلك ذهبت في طريقي تائهاً وانا مصمم الاّ أعود بصفقة المغبون فبدأت افتش على رجل آخر هو في تقديري أتقى الجاحدين ، بدأت افتش على زارا

قال الشيخ هذا وهو يحدج مُخاطبه بنظرات حادّة فمد زارا يده وقبض على راحة الشيخ وبعد ان قلبها وتفرّس فيها ملياً قال له :

— ما اجمل يدك ايها المحترم فانها والحق يدٌ تعودت ان تبارك ، وها هي ذي الآن في يد زارا نفسه

انا هو زارا الجاحد القائل : اين اجد من يفوقني جحوداً لافرح بتعاليمه

وارسل زارا نظراً كالسهم يخترق عيني الشيخ سابراً افكاره وما وراء افكاره الى ان قال الشيخ :

ما فقد الله أحدٌ باكثر مما فقده مَنْ تناهى في حبه له وفاق الكل بامتلاكه انظر اليَّ ، افما ترى انني أشد جحوداً منك ، ولكن مَنْ منا اشد سروراً بذلك من الآخر ؟

وفكر زارا لحظة ثم قال — أخدمتَه الى آخر حياته ؟ اذاً قل لي بأية ميتة قضي ، أصحيحٌ ما يقال من أن الرحمة قد قبضت على عنقه فاردته مخنوقاً اذ رأى الانسان معلّقاً على الصليب فثقل عليه ان يصبح حبه للناس جحيماً يورده الفناء ؟

وسكت الشيخ وهو يتلفت ما حوله مرتعشاً وقد اكفهر وجهه وبدت دلائل الألم عليه

فاستمر زارا في كلامه :

— دعه وشأنه ، دعه يذهب ، فانه هالكٌ لا محاله ، وانت تعلم ، وإن حق الاّ يُذكر الامواتُ الاّ بالخير ، انه كان يتبع مسلكاً غريباً

فقال الشيخ — اذا لزم ان نتكلم بين ثلاثة عيون « وكان المتكلم أعور » عن احوال الله واموره ، فانا احق بذلك لأنني أخبر من زارا بهذه الأمور بعد ان خدمت الله سنوات طويلة واستسلمت لمشيئته ، وكم يعلم الخدّام من احوال ساداتهم ما يخفونها هم عن انفسهم . . .

لقد كان إلهاً خفياً ملفّعاً بالاسرار ، وفي الحقيقة ان ابنه لم يأتِ اليه الاعن الطريق الملتوي ، لذلك كان الزنا اول مرحلة من مراحل الايمان به *

---

* الى مثل هذه النتائج دفع لا هوت الغرب وفلسفته الدينية عن رسالة عيسى بالعدد الغفير من جبابرة التفكير بين شعوبه . اما والله ان كفر نيتشه فيما يقول عن هذه المرحلة من الايمان انما هو كفر بالصورة المشوهة التي عرضت عليه لا بالمسيح الذي عني أمثاله بقوله « اغفر لهم يا رب لانهم لا يدرون ما يفعلون »

من يسبّح الله كأنه رب المحبة فقد قصرت مداركه عن بلوغ مرتبة الحب السامية . افما اراد هذه الاله ان يقيم نفسه قاضياً ؟ والمحب يجتاز اي حد من حدود العقاب والثواب .

لقد كان هذا الإلهُ الشرقيُّ في شبابه قاسياً تجول فيه روح النقمة فاوجد جحيماً لتسلية محبه ، ولـكنه شاخ مع الايام فاصبح متراخياً رحيماً وانقلب جداً بعد ان كان أباً بل انقلب جدةً هرمة تتداعى .

وجلس يوماً قرب الموقد يصطلي وقد تجعّدت أسارير وجهه وتقطّب جبينه لشعوره بوهن رجليه ، فأحس بتعبه من ارادته ومن العالم وما عتم حتى قضى مختنقاً بعميم رحمته

فاستوقفه زارا قائلاً — أرأيت ذلك بعينك ؟ فلقد يكون قضى على هـذا الوجه كما يكون قضى بصورة اخرى فان الأرباب اذا ماتت تموت باسباب متنوعة

وعلى كل فأياً كان السبب ، فانه قد قضى ، وشرُّ ما اذكره به هو انه كان يشوّش عليّ ابصاري وأسماعي ، فانا احب كل من صفت نظراته وكلماته وقد كان هو كما تعلم على شيء مما تتصف به انت ايهـا الـكاهن الشيخ وما يتصف به كل كاهن ، فقد كان مبهماً غامضاً

افما كان في تفكيره كثيرٌ من الإبهام ؟ ولـكم ثار علينا بغضبه لأننا لم ندرك غوامض اقواله وكان الاجدر به ان يأتي ببيان صريح لا يحتمل تأويلاً

واذا كانت اذاننا هي التي اساءت سماع اقواله فعلى مَ جهزّنا باذان لا تحسن السمع ، واذا كان في آذاننا طينٌ يسدها فمن ترى وضع هذا الطين فيها ؟

ولـكم انحطم من اناء تحت يد هذا الخزاف الذي لم يُتمّ تعلّمه ولم يتقن صنعته ، فعلى مَ ينتقم من مخلوقاته التي أبدعها اذا كانت خرجت مشوّهة من بين يديه ؟

افما كان هذا العمل خارجاً على ما يليق ؟ حتى ان اللائق نفسه في الرحمة هتف قائلاً انقذوني من هذا الاله فخير لي الاّ يكون لي اله فاتحكّم في مقدراتي ، خير لي ان اصاب بالجنون فاقيم نفسي الها . . .

عندئذ صاح الحبر القديم قائلاً : ما اسمع منك يا زارا والحق انك بلغت من التقوى ما لا تدرك مداه فلا بد ان تكون لقيت إلهاً هداك الى كفرك ، لأن

ايمانك نفسه قد صدّك عن الاعتقاد بالله ولسوف يقودك اخلاصك اخيراً الى ما وراء الخير والشر

لقد قُدّر لك ان تأتي بالبركة الابدية بعينيك وبيدك وفمك فليست اليد وحدها اداة للبركة

انك تحاول الظهور امامي كأشد الناس كفراً ولكنني أشتمّ منك عطر البركة المستمرّة فاشعر منها بلذة يخامرها الألم . دعني انزل ضيفاً عليك ولو ليلة واحدة فليس في الارض مكانٌ ارتاح فيه ارتياحي بقربك

واستولت الدهشة على زارا فقال — ليكن ما تريد ، فهناك على القمة الطريق المؤدي الى مغارة زارا . وكنت أود ان اذهب بك اليها ، ايها المحترم ، فانني احب جميع الاتقياء ولكنني مضطر الى الاسراع نحو صوتٍ تعالى مستنجداً بي

اذهب الى مغارتي حيث لا يتعرّض احدٌ لضرر فهي ميناء السلام لكل قاصد وانا أود ان يستقر على ارضها الجامدة كل حزين

ولكنني ارى نفسي أضعف من انأ بدّد أحزان روحك ولقد يمر زمان طويل قبل ان يجيء احدٌ بوسعه ان يقيم إلهك من الموت ، وقد مات هذا الاله القديم ولن يحيا بعد

هكذا تكلم زارا

اقبح العالمين

وعاد زارا يتوغّل في الاحراش وبين الجبال مرسلاً ابصاره الى كل جهة دون ان يعثر على الصارخ المستنجد غير انه كان يقفز في سيره فرحاً وهو يقول لقد كفّر هذا النهار عن سيئات صباحه فما اغرب مَنْ تحدثت اليهم في طريقي ولسوف ألوك كلماتهم وأمضغها حتى ازدرها غذاءً لنفسي

ولما وصل زارا الى منعطف سبيل تصدّه صخرة عالية انكشف له مشهد جديد رأى فيه نفسه في مملكة الموت ، اذ صدمت ابصاره مهاوٍ حمراء دكناء ليس عليها شجرة ولا نبتة ولا يُسمع فيها صياح طير أو زقزقة عصفور وقد نفر من ذلك الوادي كل ذي حياة حتى الوحوش فما كان يرتاده من حين الى حين

الا الأفاعي الجسيمة الخضراء عندما كانت تحس بالهرم وتطلب الفناء . ولذلك دعى الرعاة هذا الوادي مقبرة الأفاعي

وراودت مخيلة زارا تذكارات قديمة وشعر بانه قد مرّ بهذا الوادي فيما مضى ، فأثقل دماغه وبدا يتباطىء في سيره حتى امتنع عليه نقل قدميه فاذا به يفتح عينيه فجأة فيرى على حافة الطريق شخصاً له وجه انسان وليس له من هيئة البشر شيء كائناً لا اسم له بين اسماء الكائنات . واستولى على زارا نوع غريب من الخجل فاستحت عيناه مما رأتا فاحمر وجهه حتى منابت شعره الابيض فتولّى وأراد ان يبارح هذا المكان فاذا به يسمع صوتاً كالهدير أو كبقبقة المياه اذا سدّت مجاريها وما عتم حتى استحال هذا الصوت الى نبرات تشبه الكلام وهي تقول— أي زارا . . . أي زارا . . . حلّ رمزي اذا قدرت واعلن الحقيقة عن « الانتقام من الشاهد »

قف مكانك وتراجع الى الوراء فالأرض متجلّدة أمامك ، حاذر ان ينزلق غرورك عليها فتنكسر قوائمه

انت تحسب نفسك حكيماً يا زارا ، فحلّ الرمز المعروض عليك . اذا كان لك ان تكسر أصلب القشور لاكتشاف نواتها فقل لي مَنْ انا

وما سمع زارا هذه الكلمات حتى هزّه الإشفاق هزاً فهوى على الحضيض كشجرة توالت على جزعها ضربات الفؤوس ، ولكنه ما هوى حتى نهض وقد ارتسمت القساوة على وجهه فقال :

— لقد عرفتك يا هذا فأنت قاتل الإله ، دعني منك فانا متولّ عنك . لقد ثقل عليك ان يكون هنالك من لا يزال ينظر اليك ويتفرّس في قبحك ، وأنت أقبح العالمين ، فأقدمت على الانتقام من هذا الشاهد

قال زارا هذه الكلمات وتحفّز للسير ولكن الكائن الذي لا اسم له تمسّك برجليه وصاح به متمتما — لا تذهب . ابقَ هنا فقد عرفت ما هي الصدمة التي ألقتك صريعاً ، مرحى لك لانك تمكنت من النهوض . لقد ادركتَ ما يشعر به قاتل إلهه ، تعالَ واجلس الى جانبي ، انك لن تضيّع اويقاتك معي سدىً .لانني اذا لم اتوجه اليك فألى من أتجه ، اجلس ولكن لاتنظر اليّ ، فانك لتكرّم قبحي باغضائك عنه

انهم يطهدونني ، وقد اصبحت انت الآن ملجأي الأخير ، انهم يطهدونني

لا بحقدهم ولا بقوة جنـدهم وما تهمني هذه القوة بل انني لأفخر بمصادمتها لي وأسرٌ وهل في العالم نجاحٌ يضاهي نجاح المطَّـهَـدين مجداً ؟ ان المُطَارِدَ ينتهي بالمتابعة وهو الراكض دوماً وراء متبوعه.ان ما يؤلمني منهم هو انهم يطهدونني باشفاقهم . وما اهرب الآ من هذا الاشفاق طالباً ملجأ في اكنافك ، فاحمني يا زارا ! انك ملجأي الوحيد وقد نفذت سريرتي وعرفتَ ما يشعر به قاتلُ إلهه. ابقَ هنا واذا ما اردت الارتحال ايها الرَّحالة اللجوج فلا تنصرف من الطريق التي اتبعتها انا لأصل الى هذا المـكان ، انها لبئس الطريق

لعلك لا تنقم عليَّ لتوجيهي هذه الـكلمات اليك ولاسدائك نصحي . إن انا الآ أقبحُ العالمين . ان رجلي أضخم الارجل وأثقلها فما مررتُ على طريق الا ودمَّرتها

لقد رأيتك متجها نحوي وانت تقصد المرور بي خلسة ولاح الاحمرار على وجهك فعرفت انك انت زارا . ولو ان غيرك مرَّ بي لـكان تفحنى بصدقةٍ او بذل لي إشفاقه بنظرة او بكلمة ، ولـكننى كما عرفت لم أصل من التسوّل الى درجة أرضى فيها بتصدّق الناس عليَّ

ان لديَّ ثروة وافرة من العظائم بل من أقبحها وافظعها لذلك شرَّفني خجلك يا زارا

وما توصلت الاَّ بشق النفس الى التخلص من إزعاج الرحماء لأجد الانسان الوحيد القائل في هذا الزمان بان الاشفـاق نقمةٌ وليس نعمة ، وهل من قائل بهذا سواك ، يا زارا ؟

ان الاشفاق إهانة للكرامة سواء أصدر من الناس أم من إله الناس . ولعلَّ في حبس المعونة من النبل ما ليس في المسارعة الى بذلها

ولـكن صغار البشر يحسبون ان في هذه المسارعة الى الاشفاق فضيلة لا تضاهيها فضيلة . فهم لا يحترمون الشقاء اذا تعاظم ولا القبح اذا تناهى ولا التشويه اذا لم يبقِ ولم يَذر

إن أنظاري تمرٌّ على هؤلاءِ الرحماء كما يمرٌّ نظر الـكلب على ظهور الأغنام المتزاحمة فما اراهم إلا صعاليك ترَّمد صوفهم وامتلأت رؤوسهم بافكار الانعام

انني اقف كالبجعة تحدج المستنقعات بنظرات الاحتقار لارسل أنظاري على تدافع صغيرات الامواج وكل ارادة واهية وكل نفس حقيرة

لقد طال زمن الاعتقاد بهؤلاء الاصاغر وأولاهم الناس الصواب حتى تولوا القوة واصبحوا يقولون بان لا خير الا ما يرونه هم خيراً

ان ما يُعتبر حقيقة في هذا الزمان إن هو الاّ ما علّمه ذلك البشير الذي نشأ بين هؤلاء الصعاليك ، ذلك القديس الغريب الاطوار الذي وقف مدافعاً عن قومه وهو يشهد لنفسه قائلاً « انا هو الحق »

ان هذا المدّعي قد أفسح المجال منذ زمان طويل لهؤلاء الصعاليك فتطاولوا منتصبين على اظلافهم ، ان هذا القائل انا الحق قد علّمهم ضلالاً عظيما

لقد أورد قوله هذا فما تلطّف احدٌ تلطفك بالرد عليه يا زارا اذ مررت امامه وصحت به — لا . . . لا . . . والف مرة لا . . .

لقد حذّرت الناس من ضلاله، فكنت اول المحذّرين من الاشفاق ،وماوجهت خطابك للمجتمع ولا للفرد بل وجهته لنفسك ومن هم من مرتبتك، فانت تبدي استحياءك من خجل الآلام العظمى فتقول « كونوا على حذر ايها الناس ان الغمامة الواسعة تمتد من منشأ الاشفاق »

ثم تقول « ان المبدعين قساةٌ ، والمحبة العظمى تتعالى فوق إشفاقها »

اي زارا لقد كنتَ مدركاً إنذارات زمانك عند ما نطقت بهذا

ولكن عليك ان تحاذر انت ايضاً ما فيك من إشفاق ، لان كثيرين خرجوا على طريقهم يقصدونك وما ا كثر الغارقين ومن جمّدهم الصقيع

ولأدعونّك حتى الى الاحتراس مني ، فانك قد حللت لغزي من وجهيّ حسنه وقبحه وعرفت مَنْ انا وما فعلت فعرفت من ذلك ما يمكنه ان يصدمك ويصرعك

وعلى كل ، فقد وجب على الإله أن يموت لانه كان يحدّق بعين نافذة لاتخفى عليها خافية فيسبر اعماق الانسان وأغواره مستكشفاً جميع ما كمن فيه من قبح وعيوب

لقد كان اشفاقه خالياً من الحياء ، فكان يذهب هاتكا الأستار عن قبائح ذاتي ، افما حقّ على هذا الفضولي الرحيم ان يموت ، افما كان لي ان انتقم ممن تحرّش بخفاياي او اختارُ الموت تخلصاً منه

ان إلهاً يرى كل شيء حتى الانسان لأجدر به ان يفنى وما يحتمل الانسان مثله شهيداً

هكذا تكلم أقبح العالمين ، فنهض زارا وقد أحس بالصقيع في أحشائه وقال:

— يا مَنْ لا يُعرَّف ولا يُسمى ، لقد حولتني عن اتباع طريقك وأنا ادعوك مكافأة لك الى اتباع طريقي ، انظر الى الذروة ، هنالك مغارة زارا

ان مغارتي متسعة مديدة كثيرة السراديب يجد فيها طالب الخفاء خباء. وعلى مقربة منها حفر وأوجار لكل حيوان من الزحافات والدبابات والأطيار . فاقتدِ بي يا مَنْ هجرت العالم وكرهت الحياة بين الناس وارهقك إشفاق الناس تعلَّم كما تعلمت انا فلا يتعلم الا العامل المختبر

ليكن أول ما تتعلمه التحدّث مع نسري وأفعواني فالاول أعظم الحيوانات كبراً والثاني أشدهم مكراً . فليكونا لك ولي خير مَنْ نستشير

هكذا تكلم زارا وسار في طريقه وقد ازداد تفكيره إسراعاً ومشيته تمهلا اذ كان يسائل نفسه عن امور كثيرة فلا يجد لها جواباً

وقال في قلبه : ما أشقى الانسان وما أقبحه مليئاً بالضغينة والعيوب الخفية

قيل لي ان الانسان محبٌ لذاته ، فأية درجة يجب ان تبلغ الأنانية لتتغلب على ما في الذات من صفات حقيرة

لقد مررت الآن بكائن يحب ذاته وهو يحتقرها فهو في نظري متناهٍ في عشقه واحتقاره . لأنني ما عثرت قط من قبل بمثله كائناً يحتقر ذاته الى هذا الحد إن في مثل هذا الاحتقار تعالياً وسمواً ولعلَّ هذا الانسان هو الانسان الراقي الذي أرسل بصرخة الاستنجاد

انني احب رجال الاحتقار العظيم لأن على الانسان ان يفوت ذاته ويتفوّق عليها

مختار التسول

وعندما بارح زارا أقبح العالمين أحس بوحدته ومشى الصقيع في أعضائه لما مرَّ في رأسه من افكار غريبة لاحقة ، ولكنه ذهب يجدُّ السير تارة على المراعي المخصبة المشرفة على البحر وطوراً وراء الجبل حيث جفَّ النهر فانكشف مسيله الموحش تحفُّ به الصخور ، فتشددت عزيمته وعادت اليه حرارته فقال في نفسه:

« لعلني على مقربة من إخوان لا أعرفهم يدورون في هذه الارجاء ولعلّ ما احس به من أنس بعد الوحشة ومن حرارة بعد الصقيع يهبُّ من انفاسهم فتهش لها نفسي »

وتطلّع من موقفه الى ما حوله فاذا به يرى قطيعاً من الأبقار على مرتفع فادرك ان ما ضاع من لهاث هذه القطيع قد كان السبب في انعاش قلبه

وما احست الابقار بقدومه اذ كانت موجهة انتباهها الى خطاب كان يلقى عليها . وما تقدم زارا بضع خطوات حتى سمع صوت انسان يرتفع من وسط الحلقة وقد ادارت الأبقار رؤوسها الى مصدر الصوت فاسرع زارا الى اختراق الحلقة فاذا برجل جالس على الحضيض يتكلم محوّلاً كل جهده لاقناع الابقار بالاّ تنفر منه

وكان المتكلم احد انصار السلام ومن وعّاظ الجبال المتصفين باللطف وقد أشع العطف من عينيه

وتقدم زارا وسأله بدهشة عما يفعل ، فاجاب الرجل — إنني اطلب هنا ما تطلبه أنت ، فانا أفتش على سعادة الحياة ، وقد اردت ان تعلمني الابقار حكمتها فضت نصف الصبيحة وانا أهيب بها الى التكلم حتى كادت تنطق فأتيت أنت تكدر صفونا

اذا نحن لم نرجع فنصير مثل هؤلاء الابقار فلن ندخل ملكوت السماء ... لأن علينا ان نقتبس من الأبقار اجترارها

والحق لو ان الانسان ربح العالم كله ولم يتعلم الإمعان في تفكيره كما تُمعن الأبقار في مضغها فأية فائدة له من الحياة ؟ لانه اذا لم يجترّ بتفكيره فلا شفاء له من أشد ادوائه وداء الانسان العقام اليوم انما هو داء الاشمئزاز ومَنْ من ابناء هذا الزمان لا تتقزز نفسه وعيناه وفمه ، أفما انت كسائر الناس يا هذا ؟ انظر الى الأبقار

قال واعظ الجبل هذه الكلمات ثم أمعن النظر في زارا بعد ان كان يعلقه على أبقاره فتغيرت سحنته وهتف قائلاً — من هو مَنْ أخاطب ؟

ونهض عن الارض فجأة وهو يقول :

- هذا هو المتعالي عن كل اشمئزاز ، هذا هو زارا بعينه ، هذه عينه وهذا فمه وهذا قلبه

وسارع الى تقبيل يدي زارا وعيناه تفيضان بالدموع كأنه لقي كنزاً ارسلته السماء ووقفت الأبقار تنظر الى الرجلين مندهشة حائرة

وتباعد زارا قائلاً — مالك والتكلم عني ، تحدَّث عن نفسك ، أفما انت مَنْ اختار التسوّل متخلّياً عن ثروته الكبرى ، أفما انت من رأى العار في الغنى وأربابه ففزع الى الفقراء ينشر عليهم نعمته ويجود عليهم بقلبه ، فردَّه الفقراء خائباً ؟

فاجاب المتسوّل — أجل لقد عدت بالخيبة فلجأت الى هذه الابقار ، وانت تعرف ذلك يا زارا

فقال زارا — وهنا تعلّمتَ فعرفت أن الإجادة في العطا أصعب من الإجادة في الأخذ وأن العطاء فنٌ يتوقف إتقانه على إدارة العطف والتحكم في خطراته

فقال المتسوّل — بخاصّة في هذه الايام التي ثار فيها كل سافلٍ نفور متكبر مباهياً بطبقة الغوغاء التي ينتمي اليها ، وما خفي عليك ان الساعة قد دنت لثورة طبقات المُستبعَدين وهي ثورةٌ سيطول أمدها ومداها

إن الصغار يتمرَّدون على كل ما هو إحسان وتصدُّق فلينتبه أرباب الثراء وليحذروا

الويل لكل وعاءٍ متضخّم لا يتسرب ما فيه الا قطرةً فقطرة من فوهته الضيقة فان أعناق هذه الآنية معرضةٌ للكسر في هذه الازمان ، وقد اصطدمت بالحسد الفاحش والشهوة الغاضبة والظمأ الدافع الى الانتقام وبكل ما في الغوغاء من غرور ، لقد كذب من قال ان السعادة سائدةٌ بين الفقراء من الناس ، فما يتمتع غير الأبقار بملكوت السماء

وسأل زارا — ولماذا لا يتمتع الأغنياء بالملكوت

فاجاب المتسوّل — لماذا تجرّبني يا هذا وانت أدرى بالأمر مني. وهل فزعتُ الى الفقراء الا كرهاً لاغنيائنا ؟ وهم أسرى اموالهم وعبيدها وهم ذوو العيون الباردة والقلوب التي تقرضها شهوة الاثراء فتوحي اليهم بكل وسيلة يستغلّون بها أية كومة من كوم الاقذار ، أفما هربتُ من هؤلاء الناس وسفالتهم الصارخة بوجه السماء ، كما هربت من الطبقة الموشّاة بالذهب والمزوّرة تزويراً المتحدّرة من جدود كانت اصابعهم مخالب من حديد فعاشوا عقباناً او جامعي خرق ، من

الطبقة التي ماتت النخوة في رجالها فسرحت نساؤها فاحشات سائبات لا فرق بينهنّ وبين البائحات في المواخير

لقد رأيت الغوغاء في الطبقة العليا كما رأيتها في الطبقة الدنيا فلا فرق بين الاغنياء والفقراء في هذا الزمان ، لذلك هربت وامعنت في الهرب حتى أدّى بي المطاف الى هذه الأبقار

هكذا تكلم رسول السلام والعرق يتصبب منه لاندفاعه بتيارخطابه،فوجمت الابقار مضطربة ، غير ان زارا كان لا يزال يحدّق بالمتسوّل وهو يبتسم حتى اذا وقف عن الكلام قال له :

— لقد أجهدتَ نفسك بعنف خطابك فما لفمك ان يتفوّه بهذه الكلمات الجافية وما لأذنيك ان تسمعاها . وما ارى معدتك نفسها قادرة على هضمها وتحمّل مثل هذا الغضب المتدفق ، فمعدتك بحاجة الى غذاء أخف وما انت بالرجل الشره ولعلك من اكلة الأعشاب والبقول تحب مضغ الحبوب ولعق العسل

فقال المتسوّل — لقد اصبت فانا احب العسل وامضغ الحبوب فافتش على ما لذّ طعمه وطابت نكهته ، وما يساعد بمضغه على امرار الزمان شأن الكسالى وليس امهر في الاجترار من الابقار فهي التي اخترعته كما اخترعت التمدد تحت شعاع الشمس فتخلّصت من كل تفكير جديّ عميق مضخّم للقلب

فقال زارا — اذاً عليك ان تشاهد نسري وأفعواني فليس لهما على الارض نظير . تلك هي الطريق المؤدية الى مغارتي فانزل فيها ضيفاً عليّ هذا المساء لتتحدث مع النسر والأفعوان عن سعادة الحيوانات ، وهنالك تنتظرني الى ان اعود لأن صوتاً استنجدني من بعيد وانا ذاهب الى مصدره . ولسوف تجد في المغارة عسلا جديداً أخذ من القفران الذهبية وهو بارد كالثلج فلك ان تأكله

استأذن ابقارك الإنصراف ايها الرجل الغريب فانها خير مَنْ أخلص لك واصدق من علّمك الحكمة

فقال المتسوّل — ما هي أخلص واصدق منك يا زارا فأنت بطيبة قلبك خيرٌ من الأبقار

فقال زارا — سحقاً ، ايها المداهن ! لماذا تقصد إفسادي بمعسول القول والثناء ؟

اذهب بعيداً عني ،

ورفع زارا عصاه غاضباً فاسرع المتسوّل بالهرب

الظـل

وما توارى المتسوّل وشعر زارا بانفراده ، حتى سمع صوتاً آخر يهتف به من ورائه قائلا له — توقف وانتظرني ، انا ظِـلّك ، يا زارا

ولكن زارا لم يصغ سمعاً وقد ازعجه ان تكون جباله آهلةً بمثل هذا العدد من الناس ، وتسأل عما آلت اليه عزلته فقال ان مملكتي ليست من هذا العالم فلاذهبنّ مفتشاً على جبالٍ جديدة

ها ان ظلي يدعوني ، ولكن ما يهمني هذا الخيال وعليه هو ان يتبعني ، اما انا فاهرب منه

ومشى زارا فاذا به يرى المتسوّل يركض امامه وظلُّه يجدّ في السير من ورائه ، غير ان زارا ادرك ان الجنون كاد يستولي عليه فوقف فجأة ينفض عن نفسه ما علق بها من كيد واحتقار ، وهو يقول : انما يتعرَّض امثالي القدّيسون الشيوخ الى اغرب الحادثات ؟

والحق ان جنوني قد تزايد في هذه الجبال وها أنذا اسمع قرقعة ستة اقدام حكمها الجنون

لا حق لزارا ان يخاف من خيال فيسطو عليه الوهم حتى يرى رجليّ خيـاله اطول من رجليه

ووقف بغتةً والتفت الى ما ورائه فاذا بظِـلّه يصطدم به فيكاد يسقط الى الارض ، وتفرّس في هذا الخيال فساده الرعب كأنه يرى شبحاً من وراء القبور لما رأى من هزاله وهرمه ، وصرخ قائلاً :

— من انت ، ولماذا تدَّعي انك ظِـلّي . ومنظرك لا يروقني

فأجاب الظلّ — اعذرني اذا اصررت على ما ادَّعي واذا كان حالي لا يروق لك ، فأنني اهنيك على حسن ذوقك . ما انا الا جوّابة آفاق اقتفي خطواتك منذ

زمن بعيد فاذهب على طريق لا تنتهي عند حد ولا مسكن لي فكانى اليهودي التائه الى الأبد بالرغم من انى لست يهودياً ولا خالداً

لماذا قضي عليّ ان ابقى دائماً على سفر دون قرار فتحملنى عواصف جميع الأرياح ، حتى تعبتُ من ذرع هذه الكرة الارضية التي لا اول لها ولا آخر

ليس من سطح لم انطرح عليه كالغبار المتهاوي بعد ثورته على المرايا وزجاج النوافذ ، وكل شيء المسه يختلس منى ولا آخذ منه شيئاً فهاانذا ناحلٌ واكاد اكون هباء

انت يا زارا متبوعي الذي سرتُ وراءه ولم يرني . خفيتُ عنك ولكننى كنت اصدق ظلّ لك فما حططت رحالك مرة الا وحططتُ قربك رحالي ، ثم هببت معك أجول في ابعد العوالم واشدّها صقيعاً كالأشباح يلذُّ لها ان تنطرح على السطوح المثقلة بالثلوج

ذهبت في إثرك متشوقاً الى كل محظور بعيد والى كل شرّ ، فاذا كنتُ اكتسبت من الفضائل شيئاً فما اكتسبت الا اقتحامي كلّ ممنوع . وفي إثرك حطمت كل ماكان يعبده القلب وقلبت كل معالم الحدود ومحوت كل الصور وانا اتهافت على اشد الشهوات خطراً . والحق انني ارتكبت هذه الجرائم كلها . وفي إثرك ايضاً فقدت ثقتي في معاني الكلمات وفي الشرائع المقدسة وفي الاسماء العظمى ، انما يبدّل الشيطان اسمه كلما استبدل جلده ، وهل الاسماء الا جلودٌ ، بل لعلّ الشيطان نفسه جلدٌ ليسُ الاّ

وكنت أحث نفسي على السير فاقول «لا حقيقة في الوجود وكل شيء جائز» فاندفعت أشق برأسي وقلبي اشد المياه صقيعاً . ولكم خرجت بعدها عارياً وقد لوّح الصقيع جلدي بناره

ويلاه ! ماذا فعلت بالعطف وبالحياء وبالايمان بالصالحين وأين توارى الطهر الكاذب الذي كنت اتشح به من قبل ، طهرُ الصالحين في اكاذيبهم الشريفة ؟

لكم اتبعت الحقيقة وانا اترسّم خطاك فرجعت الحقيقة اليّ لتصفعني على وجهي وما لمست الحقيقة حين لمستها الا عندما كان يلوح لي انني اقول الكذب

لقد انجلت امورٌ كثيرة أمامي لذلك لم يعد لي شيء وكل ما احببته قد مات فكيف يسعني ان أحب نفسي بعد !

ان ما اريده هو ان اعيش كما اشتهى والاّ نخيرٌ لي الاّ اعيش ، وتلك هي

ايضاً إرادة أقدس الناس ولـكن انّى لي أن أجد لذةً بعد، وقد اضمحلّت مقاصدي واهدافي وليس امامي من ميناء ينطلق اليه شراعي

ما تهمني الريح المناسبة ؟ وهل لمن لا يعرف وجهته أن يراقب مهبّ الرياح

لم يبقَ لي غير قلب متعب وقح وارادة لا قرار لها وجناح مهيض وظهر تفككت فقراته

لقد فتشت على مسكني فاشقتني محاولتي ، وانت تعلم يا زارا، اي شوق اكابده من اجله !

أين هو هذا المقرّ؟ لقد طلبته فما وجدته فهو ابداً في كل مكان وابداً لامكان له بل هو العبث ألابدي

هكذا تكلم الظلّ فارتسم الأسى على وجه زارا فقال :

أنت هو ظليّ . وما الذي تقتحمه من هيّنات المخاطر ، ايها الروح المطلق المتجوّل ، لقد كان يومك ثقيلاً عليك فاحذر ان يكون مساؤك أشدّ إرهاقاً

ان التائهين امثالك يعثرون على سعادتهم اخيراً ولو في سجن من السجون ، افما رأيت كيف يرقص السجناء على جرائمهم وقد بلغوا الأمان

احذر ان يتسلّط عليك ايمانٌ جديد يضيّق عليك المجال باوهامه القاسية لانك منذ الآن مُعرّضٌ لاستهواء كل ضيق شديد

لقد غاب هدفك عنك ، فكيف تقدر على الذهاب في حزنك او بلوغ السلوان وقد ضللت طريقك ، فيالك من خيال تائه وفكر شريد ، فاذا ما اردت الراحة في ملجأ هذا المساء ، أيها الفراشُ المنهوك ، فاصعد الى مغارتي

ذلك هو الطريق المرتفع المؤدي اليها ، وها أنذا أبتعد عنك لانني اشعر بشيء كالظلّ يثقل عليّ

سأذهب راكضاً وحدي لأتبيّن النور ما حولي ، فالى مغارتي هذا المساء لاننا سنُحيي ليلةً راقصة هناك

هكذا تكلم زارا

في الظهيرة

وذهب زارا راكضاً في سبيله فلم يصادف عليه احداً، فلذّ له الانفراد بنفسه واستغرق مفكراً ساعات طويلة بما يسرّه واذ تبكدت الشمسُ السماء مرسلة أشعتها عمودياً على رأس زارا رأى أمامه شجرة هرمة تعقّدت أغصانهـا وقد التفّت عليها جفنةُ كرمٍ طوّقتها من كل ناحية حتى اختفى جزعها وتدلّت من أعاليهـا العناقيد صفراء ناضجة فاهاب الظمأ به ليمـدّ يده ويقتطف عنقوداً يطفي إواره ولكنه أحس بحافز آخر يدعوه الى التمدد تحت ظل الدالية طلباً للراحة والنوم ، فانطرح على العشب وما عتم حتى نسي ظمأه فاستسلم للوسن ولكنّ عينيه بقيتـا مفتوحتين تحدقان بجفنة الكرم والشجرة وقد شاقه عشقهما ، فقال في نفسه :

سكوتاً . . . لعلّ العـالم قد أُكمل الآن فانني اشعر بما لا عهد لي به من قبل

أحس بالوسن يهبُّ عليّ كنسمات تخطر على مويجات البحر اللامعة ، فهو لا يغمض أجفاني بل يترك لروحي انتباهتها ولكنه يتوغل فيها فكأنها تتمدد وتتسع مجالاتها وقد اضناها التعب فهل حان مساء يومها السابع في وسط النهار ؟

ان روحي الغريبة تنطرح ممددة بطولها فكأنها بعد ان ذاقت ألذ الأشياء لا يحلو لها الأسى بعد فهي تبدي امتعاضها

وها هي تلتصق بالتراب كقارب دخل فُرضته متعباً من أسفاره على البحار المجهولة ، أفليست اليابسة أصدق من غادرات البحار ؟

انها تستغني عن حبلٍ يشدها الى مرساها نخيط عنكبة يكفيها ليصلقها بترابها

ها أنذا كالقـارب في فُرضته أرتاح على التراب الأمين مشدوداً اليه بأوهى الخيوط

يا لسعادتي ! علىمَ لا ترفعين صوتك بالإنشاد يا نفسي وأنت منطرحة على العشب في الساعة التي لا يعزف فيها راعٍ على شبّابته

لا . . لا تنشدي ! ان حرّ الظهيرة يرتاح على المروج فاحفظي الصمت يانفسي لأن العالم قد أُكمل

لا . . . لا تنشدي ! ان عصافير المروج نفسها صامتة لا تزقزق ، انظري !
هذه الظهيرة الهرمة راقدة تحرك شفيتها . أتراها ترتشف قطرة من السعادة ؟
قطرة معتّقة من الخمر الذهبي تحمل السعادة الى هذه الظهيرة فتبتسم ! سكوتاً .
إنها لابتسامة الآلهة

كنت اعتقد من قبل وانا احسبني حكيماً ان السعادة تنشأ من أقل الاسباب ولكن الزمان علّمني انني كنت مجدّفاً وان مجانين الحكماء لا يرتكبون مثل هذا الخطأ

لقد عرفت الآن ان على الأقل من القليل يتوقف خير الشعور بالسعادة لأنها تقوم على ألطف الاشياء واعمقها صمتاً . على حركة حرباء بين الاعشاب ، على لفحة نسيم ، على لحظة سكوت ، على طرفة عين

ماذا جرى لي ؟ تنصّتي يا نفسي : هل توارى الزمان ؟ أتراني اهوي ساقطا في غور الأبد

أحس بطعنة في صميم قلبي : فانحطم ايها القلب ، خيرٌ لك ان تقف عن نبضاتك بعد ان شعرت بهذه السعادة وبعد ان نزلت الطعنة النجلاء عليك

ياللعجب الم يكتمل العالم الآن افما اتمّ استدارته ونضوجه ؟ الى اين تطير هذه الأكرة المذهبة ؟ وهل انا ذاهبٌ وراءها ؟

سكوتاً ! . . .

وعندها احس زارا بانه نائم فتثاءب وشدت به عضلاته ، فقال في نفسه :

— انهض ايها الكسلان النوّام ! أفٍ لكما أيها الساقان الهرمان لقد دهمنا الوقت وامامكما شقةٌ طويلة بعد

لقد نمتَ مدة تبلغ نصف الابد يا هذا فانهض ، انهض ايها القلب الشيخ فلقد تحتاج الى زمن طويل لتعود الى انتباهك بعد هذه الرقدة

وتسلّط النعاس على زارا ثانياً فانطرحت روحه بالرغم منه تطلب الراحة قائلة : اسكت ودعني افما أكمل العالم ! يا لجمال هذه الكرة المذهبة

وصاح زارا بروحه — انهضي ايتها الكسولة ، ايتها المختلسة ، مالك تتثاءبين وتزفرين وتتهاوين الى الاغوار

مَنْ أنت ايتها الروح ؟

وانتفض زارا مذعوراً اذ وقعت اشعةٌ من الشمس على وجهه

وصاح — أيتها السماء المنبسطة فوقي ، انك تنظرين اليّ وتصغين الى روحي الغريبة

اي متى تتشرّبين قطرة الندى التي تساقطت على كل شيء في هذا الوجود ؟ أي متى تتشرّبين هذه الروح الغريبة ؟

أيتها الأغوار الأبدية ، ايها القاع المليء جزلاً ، أيتها الظهيرة التي يرتعش لها كل شيء ، أما آن لك ان تتشرّبي روحي فتندغم فيك ؟

هكذا تكلم زارا ونهض من مرقده تحت الشجرة كأنه يفيق من سكرة فاذا بالشمس لا تزال في كبد السماء فعرف انه لم ينم الاّ زمناً قصيراً

السلام

وكان العصر قد خطا خطوة كبرى نحو المساء عندما بلغ زارا مغارته بعد طول المسير وبعد ان ذهب جهده في التفتيش على المستنجد عبثاً

ولكنه ما أصبح على قاب عشرين قدماً من مسكنه حتى وقف مذعوراً اذ سمع صوت الاستنجاد يدوي في اذنيه وازدادت دهشته اذ تأكد ان الصوت خارج من مغارته نفسها . غير ان الهتاف كان يصل اليه كأنه هتافات عديدة يدفعها فمٌ واحد

واسرع زارا فولج مغارته فاذا هوماثل امام جميع من التقاهم في طريقه: ملك الميمنة وملك الميسرة والساحر الشيخ ورئيس الاحبار والمتسوّل والظل وضمير العقل والعرّاف الحزين والحمار

وكان اقبح العالمين واضعاً تاجاً على رأسه وملتفّاً بدثارين من القرمز ، لان هذا الرجل كان يحب ان يتنكّر ويتجمّل ككل قبيح

وكان نسر زارا منتصباً بين هذا الجمع وقد انتفش ريشه ولاح الاضطراب عليه لاضطراره الى ابداء الجواب على مسائل تنال من غروره وكان الأفعوان ملتفاً حول عنقه

ودهش زارا مما رأى وذهب نظره يتفرّس في كل وجه من وجوه ضيوفه ويطالع صفحات نفوسهم ، وكان هؤلاء الضيوف وقفوا عن مقاعدهم وكل منهم ينتظر بخشوع خطاب زارا

وبعد صمت قصير قال زارا :

— ما كان صوت الاستنجاد الاً صوتكم اذاً . . . فانا اعلم الآن اين يجب ان أفتش على الانسان الراقي

إنه جالس في مغارتي هذا الانسان ، وما أعجب لهذا لانني انا دعوته واهبت به للحضور وقد وعدته بالعسل والسعادة . ويلوح لي انكم لا تتصلون الى الاتفاق فيما بينكم فكل منكم يسبب الكدر لرفاقه وانتم مجتمعون هنا في حين انكم تستنجدون بصوت واحد فانتم بحاجة الى من يعيد ضحككم اليكم ، الى رجل مرح رقاص استولى عليه الجنون

اغتفروا لي هذه اللهجة التي لا تليق بضيوف مثلكم يستسلمون لليأس ولكنكم لا تعلمون ما يشدّد العزم في قلبي ، ان مشهد اليائسين يدفع بكل انسان الى محاولة مواساتهم وتعزيتهم وهذا ما اشعر به الآن وانا مدين لكم بهذا الشعور . لذلك اقدم لكم ما أملك . فانزلوا على الرحب في مغارتي هذا المساء وليقم نسري وأفعواني بخدمتكم

ولكن عليكم ان تردوا عنكم كل يأس فانتم في منزلي حيث يسود الاطمئنان والسلام

فانا إذاً أُقدم لكم الأمان اولاً ثم اقدم لكم خنصر يدي لانكم اذا ما قبضتم عليه تقبضون على ساعدي ، فأنا لا اتردد في تقديم قلبي لكم ، فأهلاً وسهلاً بكم

هكذا تكلم زارا وهو يضحك ضحكة الحب والشر ، فانحنى الضيوف يردون السلام باجلال واحترام وتكلم ملك الميمنة باسم الجميع قائلاً :

— لقد عرفنا انك انت زارا من طريقة تقديم يدك واهداء سلامك لقد تواضعت امامنا حتى كدت تُخجل حرمتنا لك ، وما سواك من يعرف التواضع فيقف منه عند حدّ العزة ، فقد اتيتنا بقدوة تُصلح من أخلاقنا فتسدد نظرنا وتشدد قلبنا

اننا لن نتردد في تسلق جبالٍ أعلى من هذا الجبل اذ كان من اعتلائنا ما يبسط امامنا مشاهد تقشع الغشاء عن العيون وتجعل بصرها حديداً

لقد انقطعنا الآن عن الصراخ في طلب النجدة لأن قلوبنا قد تفتحت وامتلأت حبوراً ونكاد نستعيد قوانا وشجاعتنا

أي زارا ، ليس في الارض شيء أدعى الى السرور كالارادة القوية السامية فهي أشرف ما ينبت التراب ، فاذا ما نمت دوحة واحدة من هذا النبات سرت القوة في كل ما حولها من حدائق ومروج

ان من يعلو مثلك يا زارا لشبيه بشجرة الصنوبر ترتفع صامتة فريدة صلبة العود وتمدّ فروعها القوية الخضراء كأنها تريد اللحاق بما تنشر من سيادة وكأنها تستنطق الرياح والعواصف وكل ما يبدو على الذرى العاليات ، واذا ما أرسلت جواباً ارسلته بنبرة عالية ظافرة آمرة

مَنْ يتردّد في تسلّق الذروة ليشاهد مثل هذه الدوحة ؟ ان كل من يسوده الأسى القاتم يطرح عنه الاستسلام اليه اذا هو نظر الى دوحتك يا زارا ، وفي النظر اليك طمأنينة مَنْ لا قرار له وشفاء القلوب الحائرة

والحق إن عيوناً كثيرة تتجه اليوم نحو جبلك ودوحتك وقد تنبّهت الاشواق اليك وقد تساءل الكثيرون عن حقيقة زارا . وجميع من وصلت معسولات اناشيدك الى اذانهم ، جميع المنفردين افراداً وازواجاً يقولون — اترى لم يزل زارا في الحياة ؟ اذا نحن لم نعش معه كانت الحياة باطلة لا خير فيها . لماذا لا يجيء الينا بعد ان اعلن قدومه طويلاً . أذَهَبَ فريسة عزلته ، أم علينا ان نسعى نحن اليه

إن العزلة نفسها قد تراخت وتفككت في هذا الزمان فكأنها قبرٌ ينشّق عمن ثوى فيه ، ففي كل بقعة بعثٌ ونشور

وها ان الأمواج تتعالى حول الجبل وبالرغم من ارتفاع ذروتك لقد حق على الكثيرين ان يرقوا اليك وقد حان الزمن لاطلاق سفينتك من مأواها

اذا كنت ترانا الآن امامك نحن مَنْ حكمنا اليأس فتغلّبنا عليه الآن فما ذلك الا دليل على ان من هم خيرٌ منا قد خرجوا الى طريقهم متجهين اليك ، ان البقية الاخيرة من اتباع الله بين الناس يسيرون اليك ايضاً وهم مَنْ تناهى فيهم الشوق والكره والتخمة من الدنيا ، هم مَنْ لا يريدون الحياة الا اذا أعطي لهم أن يتدرّبوا على الأمل ، الا اذا تعلّموا منك الأمل الأعظم يا زارا

هكذا تكلم ملك الميمنة وقد قبض على راحة زارا قاصداً تقبيلها ولكنّ زارا تراجع عنه وابتعد عن الجميع في صمته العميق ثم عاد اليهم يحدجهم بلفتاته الخارقة لسرائرهم فقال :

— أيها الرجال الراقون، ايها الضيوف ، اصغوا اليَّ انني سأخاطبكم بالألمانية وبكل صراحة فأقول لكم إن مَنْ أنتظرُ قدومه الى هذه الجبال ليس أنتم

فقال ملك الميسرة : انه سيخاطبنا بالالمانية وبصراحة . . . أفلا يتضح أن هذا الحكيم الشرقيَّ لا يعرف مَنْ هم الألمان . وكان الاجدر به ان يقول سأخاطبكم بالالمانية الخشنة ، وما هي بأقبح ما في هذا الزمان

فاردف زارا قائلاً : لقد تكونون جميعكم رجالاً راقين اما انا فلا اراكم بلغتم ما يستلزمه التفوُّق من العظمة والقوة . هكذا انتم في تقديري أو بالحري في تقدير الارادة الصارمة الكامنة في نفسي وهي صامتة الآن ولكنها لن تسكت ابداً . لقد تكونون من اتباعي ولكنكم لستم مني في مقام ساعدي الأيمن . لأن مَنْ يمشي على ارجل مريضة كأرجلكم يحتاج الى عناية ومداراة سواء أعرف نفسه أم خفيت حاله عليه ، وانا لا أداري ساعديَّ ولا رجليَّ ولا اداري المجاهدين تحت أمرتي . فكيف تقتحمون ما أصلي من معارك

اذا انا اعتمدت عليكم عرَّضت للفشل انتصاري لأن اكثركم ينطرح صريعاً لأول قرعة تهدر بها طبولي

ما انتم من البهاء على ما ارجو ولا من النَسَبِ على ما أطلب وانا اطلب المرايا الصافية لأعكس عليها تعاليمي ، فاذا ما انعكست صورتي على مراياكم جلتها مشوَّهة للناظرين

ان كواهلكم مثقلةٌ بعديد الأحمال وبخيالات الزمان المنصرم وفي خباياكم شرورٌ كثيرة ففيكم من الغوغاء خصالٌ مستترة فانتم وإن صلحتم وحَسُنَ أصلكم لا تزال فيكم عيوبٌ عديدة وأمهر حدَّاد لا يسعه تقويم اعوجاجكم

ما انتم الا جسور يعبر عليها من هم خيرٌ منكم ، ما انتم الا مدارج يرقاها المتجه الى الاعتلاء فوق ذاته ، وعليكم ان تلينوا له ظهوركم ، لقد يولد منكم يوماً من يصبح وارثاً لي ولكنَّ هذا اليوم لا يزال بعيداً في مجال الزمان أما أنتم فما لكم ان تحملوا اسمي ولا ان ترثوا خيراتي في هذه الحياة

لستم أنتم مَنْ أنتظر هنا في هذه الجبال ، لستم انتم مَنْ سأستصحب عندما أهبط بين الناس للمرة الاخيرة ، فما أنتم الا طليعة القادمين اليَّ وهم اعظم منكم لأنهم من غير مَنْ تناهى فيهم الشوق والكره والتخمة من الدنيا ومن غير الفيئة التي تدعونها البقية الأخيرة من اتباع الله على الارض

لا . . والف لا . . . انني انتظر سواكم هنا على جبالي العالية ولن اتحرك للخروج الى العالم قبل ان يصلوا الي . فهم ارفع منكم واقوى ، هم رجال المرح الأصحاء من رأسهم الى اخمص اقدامهم ، ولا بد ان يأتي اليّ هؤلاء الاسود الضاحكون

افما بلغكم ايها الضيوف خبر ابنائي وهم قد خرجوا على طريقهم يقصدون مقرّي ؟

حدّثوني عن حدائقي وجزري السعيدة ، حدثوني عن نوعي الجديد . لماذا لا تحدّثونني عن كل هذا ؟

استحلفكم بحق ضيافتي لكم ان تذكروا لي ابنائي ، فما جمعت الثروة الاّ لهم وما تحمّلت للفقر الاّ من أجلهم فامتنعت عن العطاء

انني أفدي بكل شيء هؤلاء الابناء وهم النبت الحي ، أدواح الحياة المجسّمة لأعز آمالي

وتوقف زارا فجأة عن الكلام لتغلب شوقه عليه فأغمض عينيه وأطبق فمه متنصتاً لخفقان فؤاده

وساد الصمت جميع مَنْ في الغار غير ان العرّاف الشيخ أخذ يرسم بيديه إشارات غريبة

العشاء السري

وتقدم العرّاف كمن عيل صبره وقبض على يد زارا قائلاً : — ولكن . . . أفما انت القائل إنّ بعض الامور مقدمٌ على بعض . افما دعوتني الى تناول الطعام وهنا مَنْ قطعوا شوطاً بعيداً للوصول اليك ، فهل ترى ان تشبعنا كلاماً ؟

لقد تحدثتم كثيراً عن الموت برداً وغرقاً واختناقاً ولكن لم يذكر احد منكم بليّتي انا وهي الخوف من الموت جوعاً

وما سمع النسر والأفعوان هذا الكلام حتى سادها الرعب فهربا اذ تأكدا ان كل ما جمعاه منذ الصباح حتى المساء لن يكفي لاشباع العرّاف وحده

واردف العرّاف قائلاً ولم يذكر احد منكم الخوف من الموت عطشاً ، اما انا

فبالرغم من انني سمعت تدفق الفصاحة كالنهر فانني لا ارتوي منها بل اطلب خمراً، لان الخمر وحده يرتجل الصحة ارتجالاً ويقضي على المرض بالشفاء العاجل

وبينما كان العرّاف ذاهباً في كلامه يطلب خمراً كان ملك الميسرة يقول: لقد تداركت الخمر فاحضرنا منه حملاً ولكن الخبز ينقصنا

فضحك زارا وقال — ان المنفردين لاخبز لديهم ، ولكن ليس بالخبز وحده يحيا الانسان بل بلحم الخراف ايضاً ولديّ خروفان ، فليُذبحا وليعدّا ليُعطرا فانني احب لحم الخروف معطراً ولديّ ايضا اعشاب وأثمار تكفي اهل الشراهة واهل الذوق وعندي من الجوز وسائر المُغلقات ما يشغلنا كسره وكشف خفاياه

سنجلس عما قليل لنتناول خير غذاء ولكن على الجميع ان يمدوا سواعدهم للعمل وليشتغل الملكان كالآخرين . لان زارا وهو ملك يمكنه ان يكون طباخاً ايضاً

وفرح الجميع بهذا الاقتراح ما عدا المتسوّل المتطوع الذي كان يأنف من اللحوم والخمور والتوابل ، فقال : اسمعوا ما يقول زارا في شراهته ! فهل يتسلق الانسان الجبال ليتنعّم بوليمة ؟ وانني لأفهم الآن ما كان يقصد بتعليمه اذ قال « ليكن الفقر مباركا ، وادرك لماذا يريد إفناء المتسوّلين

فقال زارا — كن مرحا مثلي يا هذا واحتفظ بما تعودته امضغ حبوبك واشرب ماءك وامتدح طبخك اذا كان هذا يورثك الحبور . فما انا امثلّ الشريعة الا لاتباعي ولي ولست شريعة للناس اجمعين . ولكن من اراد ان يتبعني فعليه ان تقسو عظامه وتخف رجلاه، عليه ان يكون فرحا في الولائم فيطّرح عنه الهموم ويبقى مستعداً لاقتحام الصعاب قوياً صحيحاً

. إنّ خير ما في الارض لي ولأتباعي واذا مُنع عنا أخذناه عنوة واقتداراً ، لنا الذّ غذاء وانقى سماء وأقوى الافكار وأجمل النساء

هكذا تكلم زارا ، ولكن ملك الميمنة أجابه قائلاً :

أليس من الغريب ان يقول حكيمٌ بمثل هذا القول الصواب ! والحق لمن الغرابة بمكان ان يجمع الحكيمُ بين الأمرين ولا يكون حماراً

هذا ما قاله ملك الميمنة وهو يبدي دهشته فآمن الحمار على قوله بالنهيق

وهكذا بدأت هذه الوليمة الطويلة التي دعيت بالعشاء السري في كتب التاريخ وما دار حديثٌ اثناء هذا العشاء الا على الانسان الراقي

الانسان الراقي

— ١ —

عندما جئتُ الى الناس لأول مرة اتيت الجنونَ الأعظمَ الذي يرتكبه المنعزلون ، فوقفت على الساحة العمومية ، ووجهت الخطاب الى الكل فكأنني ما كلمت احداً ، غير انني امسيت ورفاقي حبالٌ وجثثُ امواتٍ بل كنت انا نفسي جثةً باردة

ولكن عندما انبثق الصبح الجديد تبلّجت لعيني حقيقةٌ جديدة علّمتني أن أقول « مالي وللساحة العمومية ولعامّة الناس ولضجتهم وآذانهم الطويلة »

ايها الرجال الراقون ، تعلّموا مني قولي « لا يؤمن احدٌ في الساحة العمومية بالانسان الراقي ، واذا شئتم ان تتكلموا على هذه الساحة كما تشتهون فان العامّة تتغامز قائلة « إننا جميعنا متساوون »

ايها الرجال الراقون ، إن طبقة الشعب تنكر الانسان الراقي فهي ترى الناس على اختلاف طبقاتهم انساناً واحداً امام الله

اما المساواة امام الله فما لنا ولها ما دام هذا الإله قد مات ! ولكن العامة كائنة ونحن نأبى المساواة امامها ، فاعرضوا عن العامة ، ايها الرجال الراقون وابتعدوا عن ساحاتها

— ٢ —

أمام الله ! . . ولكن الله قد مات في هذا الزمان ، ايها الرجال الراقون وقد كان عليكم الخطر الأعظم ، ولولا اندراجه في لحده لما كنتم انتم تبعثون

في هذا الزمان تعود الظهيرة الى ذرّ انوارها ويصبح الانسان المتفوّق سيداً

افهمتم معنى كلمتي هذه ؟ يا اخوتي . اراكم ترتعشون فهل أصيب قلبكم بالدوّار ؟ وهل فغرت الهاوية فاها أمامكم ايضاً . أيعوي كلب الجحيم في إثركم يا تُرى ؟

الى الأمام ، أيها الراقون ، لقد آن لطود المستقبل الانساني ان يلد

لقد مات الله ، ونحن نريد الآن ان يحيا الانسان المتفوّق

— ٣ —

إنّ أوفر الناس اهتماماً في هذا الزمان يتساءلون عما يحفظ حياة الانسان ، اما زارا فهمّه ان يعرف كيف يتفوّق الانسان على إنسانيته

ان الانسان المتفوق قبلة انظاري وعواطفي ، وما اهتمّ للانسان ولا للقريب ولا للفقير ولا للمحزون ولا لخيار الناس

أي اخوتي ، انا لا أحب من الانسان الاّ كونه مرحلة وجنوحاً .وفيكم ايضاً اجد صفاتٍ عديدة تحبّبكم اليّ وتبعث الآمال في قلبي

لقد عرفتم الاحتقار ايها الراقون ، وذلك ما يشدّد بكم أملي لأن عظماء المحتقرين هم ايضاً عظماء الحرمة والجلال

لقد بلوتم اليأس وذلك ما أكرّمه فيكم لانكم لم تتمرنوا على الاستسلام وعلى دناءة الاحتياط

ان زعانف القوم هم سادة هذا الزمان الداعون الى التجلّد والصبر والتواضع والتحذّر والثباتِ والى ما هنالك من حقيرات الفضائل

انهم لأشباهُ الرجال يتصفون بصفات النساءِ والمستخدَمين ويقودون الغوغاء طامحين الى التسلُّط على مقدرات الدنيا ، فيا للكراهة ! . . وأفٍ لهؤلاء القوم أشباه الرجال ، فانهم لا ينون يتساءلون عما يطيل حياة الانسان متلذذاً متنعماً . وبهذا يسودون في هذا الزمان

اعتلوا فوق هؤلاء الناس يا اخوتي فانهم ألدُّ أعداء الانسان المتفوق

اعتلوا ايها الراقون فوق صغائر الفضائل والمحاذرات ومراعاة ذرّات الرمال واكوام النمل وملذات الذات وطلب السعادة للعدد الاوفر بين الناس

وخيرٌ لكم ان تتمنعوا بيأسكم من ان تستسلموا ، انني احبكم لانكم لا تعرفون ان تحيوا في هذا الزمان ، ايها الراقون ، وبذلك تتمتعون بافضل ما في الحياة

— ٤ —

أشجعانٌ انتم، ايها الاخوة؟ ولا اعني تلك الشجاعة التي لا تنجلي في الانسان الاّ امام شهود، بل شجاعة المنفرد الذي لا يراه احد: شجاعة النسور التي لم يعد لها من إله شهيد!

ان الارواح الجامدة والبغال والعميان والسكارى لا تعرف ما هي قوة القلب وما تَثبُتُ الجَنان الاّ مَنْ عرف الخوف فتغلَّب عليه ومَنْ سبر أعماق الهاوية فما نالت الاعماق جَنانه بروعةٍ واضطراب

الشجاعُ مَنْ حدَّق في القاع السحيق بمقلة النسر ومن قبض على الاغوار بمخلبه، ذلك هو الشجاع

— ٥ —

لقد قال الحكماء إن الانسان شريرٌ طلباً لتعزيتي، ويا ليت هذه الحقيقة تنطبق على أحوال هذا الزمان، فان الشرَّ قد اصبح خيرَ ما في الانسان من قوة، فعلى المرء ان يزداد ارتقاء في خيره وفي شرّه ايضاً، هذا هو تعليمي انا ... فان اعظم شرّ انما هو أعظم خير للانسان المتفوّق

إنَّ الدعوة الى احتمال العذاب وحمل خطايا العالم كانت تليق ببشير الطبقة الحقيرة بين البشر، اما انا فانني اسرُّ بالخطيئة العظمى كأعظم تعزية

على ان مثل هذه الاقوال لا تُبذل لمن استطالت آذانهم وما تليق كل الكلمات بجميع الافواه، فان من الحقائق ما تدقّ عن الافهام العادية فتتوارى وراء الابعاد. وليس لارجل الخرفان ان تتراكض للحاق بها

— ٦ —

أيها الراقون، اتعتقدون أنني أتيت لأصلح ما شوهتم باخطائكم؟ او لأهتمّ بتهيئة المراقد الوثيرة للمتألمين منكم او لأدلّ التائهين في الجبل على المغاور ليخرجوا من مآذقهم؟

لا ... فليذهب الى الفناء الخيارُ في نوعكم، اذ يقتضي ان يتزايد ضيقكم مع كرور الايام — لأن بهذا الضيق وحده يتعالى الانسان الى الذرى حتى يبلغ مرامي الصاعقة المحرقة القاتلة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انا لا اتوجه بتفكيري واشواقي الا نحو العديد القليل ونحو الحادثات الدائمة البعيدة في مجال الازمان وما يهمني شقاؤكم وآلامكم الحقيرة الزائلة

انكم لا تزالون مقصّرين في مجال الشقا وما بلغت آلامكم ما عليها أن تصل اليه ، لانكم من اجل ذاتكم تتألمون لا من أجل الانسان : وان ادعيتم بتحمّلكم هذا العذاب فانتم كاذبون . فليس بينكم واحد تحمّل ما تحمّلت من اوصاب وآلام

— ٧ —

انني لن ارضى بتوقف الصاعقة عن انزال الاذى ولا أُريد أن تتحوّل عن مسلكها حين تنقضّ ، بل أُريد أن تسدد مرماها وتخدم مقاصدي

لقد تجمّعت حكمتي طويلاً وتكاثفت غمامةً يتزايد اربدادها وسكونها ذلك شأن الحكمة التي قُدِّر لها أن تقذف بالصاعقة يوماً من الايام

أنا لا اريد ان اكون نوراً لابناء هذا الزمان ولا ان أُدعى نوراً ما بينهم ، لانني اريد ايراثهم العمى ، فلتنزل على اعينهم صاعقة حكمتي

— ٨ —

لا تطلبوا شيئاً يفوت قواكم ادراكه ، فمن طلب ما لا طاقة له به فقد كذّب نفسه . لانه اذ يطلب العظائم وهو مزوّر ومقلد تنفر منه العظائم حتى يرى ذاته زائغ البصر جماداً مطليـاً في فمه كلماتٌ كبرى وبين يديه قرقعة لا جدوى لها

كونوا على حذر من طلاّب العظائم ايها الرجال الراقون فالقناعة خير الكنوز

أفليست العامّة من يسود هذا الزمان ؟ وهي مع ذلك لا تميّز بين العظيم والحقير والطريق السوي والمسلك الملتوي ، فالعامّة متقلّبة كاذبة دون ان تشعر بجريمة كذبها

— ٩ —

تمنّعوا بالحزم ايها الراقون ، يا رجال الشجاعة وحرية الضمير فهذا الزمان زمان العامّة ، وما تعلّمته العامةُ وقبلت به دون تعليل لا يسعكم هدمه بالبرهان في عقيدتهم

إنّ الاقناع لا يقوم في الساحة العامة على المعقول بل على الحركات والنبرات ولا شيء يلقي بالنفور في روع العامة كالبرهان

واذا انتصرت الحقيقة مرة هنالك فتساءلوا بكل ارتياب عن الضلال الذي دافع عنها فأولاها انتصارها

احذروا العلماء ايضاً فانهم يكرهونكم لعلة عقمهم ، وعيون العلماء باردة جافة لا تلقي نظرها على طير حتى تعرّيه عن ريشه ، انهم يباهون بامتناعهم عن الكذب ، فاحذروا من هذه المباهاة لان المجال بعيد بين مَنْ عجز عن الاتيان بالكذب ومَنْ أحب الحقيقة

إنّ فقد الحرارة شيء ورزانة الحكمة شيء آخر ، ولا ثقة لي بالعقول الباردة فمن لا يعرف أن يكذب لا يعرف ما هية الحقيقة ولا كيفيتها

— ١٠ —

اذا اردتم بلوغ الذرى فتسلّقوها بارجلكم ، ولا تطلبوا ان تُحملوا اليها حملاً على ظهور الغير ورؤوسهم

قل لمن يمتطي جواداً ويسير خبباً نحو هدفه ، لا تنسَ ان رجلك العرجاء راكبة معك ولسوف تترجل في آخر الشوط فتهوي على ذروتك الى الحضيض

— ١١ —

ايها الرجال الراقون ، انتم المبدعون ولا تحمل المرأة في احشائها الاّ ابنها لا ترتكبوا شططاً . اعلموا من هو القريب ولا تظنوا ان بامكانكم ان تفعلوا من اجله شيئاً كما لا يمكنكم ان تبدعوا بالنيابة عنه

اعرضوا عن كلمة « من اجل » وتناسوها ، ايها المبدعون ، لان فضيلتكم تتوقف على الاّ تفعلوا شيئاً من اجل احد وبسبب احد او لأية علة . اصموا آذانكم دون هذه الادوات الكاذبة

ان العمل من اجل القريب فضيلة صغار القوم وقدجرى بينهم القول بالتبادل وبان احدى اليدين تغسل الاخرى . ومثل هؤلاء لا حق لهم بأنانيتكم ولا قوة لهم على الاتصاف بها

ان في انانيتكم ، ايها المبدعون ، حزم الحبلى ومحاذرتها ، لان محبتكم تحيط بالثمرة التي لم ترها عين بعد ، فتحفظها وتمدّها بالغذاء . فاذا ما كان حبكم كله منصبّاً على ولدكم تجلّت في ذلك كل فضيلتكم ، لانه هو واجبكم وارادتكم فلا تضللكم كاذبات الشرائع

— ١٢ —

اعلموا ايها الراقون المبدعون ان كل مَنْ سيَلِد مريضٌ ، وان كل مَنْ وَلِدَ قد تنجّس

سلو النساء لتعلموا ان لا لذّة في التوليد فالدجاج تبيض صائحة والشاعر يبدع متألماً

لقد حلّ بكم نجس الوالدات ، ايها المبدعون

كل مولود جديد يأتي برجس الى العالم ، فعلى كل مبدع ان يطهّر نفسه

— ١٣ —

اياكم وممارسة الفضائل بما لا طاقة لكم به ، ولا تكلفوا نفوسكم ما يستحيل حكماً

اقتفوا ما ابقت فضائل ابائكم من آثار ، اذ كيف يتسنّى لكم الارتقاء اذا لم ترتقِ معكم ارادة آبائكم ، ولكن ليحذر الطامح الى بلوغ الطليعة ان يصبح آخر السائرين ، احذروا ان تدخلوا اية قداسة على رزائل آبائكم ، فمن العبث ان يطالب بالعفة من تمرّغ آباؤه بالنساء وكرعوا الخمر والتهموا لحم الخنازير

انكم لتطلبون كثيراً اذا اقتضيتم العفاف من مثل هذا الرجل فحددتم له امرأة او اثنتين او ثلاث ، اما انا فلا اصدق بارعوائه حتى ولو انشأ ديراً وكتب على بابه « هذه طريق القداسة » إنْ هذا الدير الاّ ملجأ ومقرٌ لمحاولات الجنون ، فما ينمو في العزلة من الانسان الاّ ما استصحبه اليها من حوافز . وهنالك المجال لنمو الحيوان الكامن

من الخير ان نردع الكثيرين عن العزلة والانفراد

هل على وجه الارض في هذا الزمان من يفوق دنساً القدّيسين المتنسّكين في الصحراء يدور حولهم الشيطان من جهة والخنزير من جهة اخرى ؟ . . .

— ١٤ —

ما رأيتكم مرةً تنتحون مكاناً قصياً عن الناس وقد بدت عليكم دلائل اليأس

والخجل ، ايها الرجال الراقون ، الاّ وتمثّلتكم كالنمر فات فريسته أو كاللاعب خانه الزهر على صفحة نرده

ولكنكم لا تبالون فانكم ما تعلمتم إجادة اللعب والتحدّي ! وهل نحن في الحياة الاّ جلاّس مائدة كبرى للسخرية والمقامرة

ألأنكم اخطأتم وفاتتكم المقاصد العظمى تريدون ان تفوتوا انفسكم ، ولأنكم فشلتم تريدون أن يفشل الانسان ؟

— ١٥ —

كلما تعالت المُثل صعب تحقيقها ، افما أنتم ايها الرجال الراقون نماذج فاشلة للمثل الاعلى ؟

ولكن لا تبالوا بهذا بل أقدموا واضحكوا من انفسكم اذ لا عجب في انكم نماذج فاشلة او نصف فاشلة لان نصفكم منحطم ، ومستقبل الانسان يسير سيره البطيء وهو يتكامل فيكم

افما يتدافع ويغلي في مراجلكم ابعد واعمق ما في الانسان افما يكمن فيكم اعتلاؤه الى السهى وقوته العظمى ؟

وهل من عجب اذا تصدّعت مراجل عديدة من بني البشر فاضحكوا يا اهل الرقي فما اكثر الممكنات في مستقبل الانسان

افما نجحت محاولات عديدة فيما مضى ، ولكم على الارض من امور بلغت كمالها وان صغرت

احيطوا نفوسكم بهذه الاشياء الصغيرة المتكاملة فانها تنيل قلوبكم الشفاء بنضوجها فلا شيء يعلّمنا الامل الاّ ما بلغ الكمال

— ١٦ —

ان اعظم ما ارتُكِبَ في العالم من اخطاء هو قول القائل «ويلٌ للضاحكين في هذه الدنيا » فان مَنْ جاء بهذا الانذار قد قصّر في التفتيش فما وجد على الارض شيئاً يستحق الضحك في حين ان الاطفال يجدون ما يضحكهم

لقد كان حبُّ هذا النذير قصير المدى فما اتصل الينا منه شيء نحن الضاحكين ، بل أنه ابغضنا ووجّه الينا لعنته وهو يتهددنا بالبكاء وصريف الاسنان

افليس من فساد الذوق ان يندفع الانسان الى اللعن اذا هو لم يحب ؟ هذا ما فعله ذلك النذير لانه ابن العامّة المتعصب . ولو انه عرف الحب لما كان احتدم غضباً لانه لم يُحَبّ ، فكل محبةٍ تتناهى لا تطلب محبةً . . . بل تطلب اكثر من المحبة

ابتعدوا عن جميع هؤلاء المتعصبين فهم نوعٌ من الانسانية مريضٌ فقير ، هم من العامة التي تزوغ نظراتها من الحياة وتصيب الارض بسمٍّ أعينها

ابتعدوا عمن لا يعرفون التساهل فان خطواتهم ثقيلة على التراب وقلوبهم مثقلة في الصدور ، إنهم لا يعرفون الرقص فكيف لا يثقل عليهم التراب

— ١٧ —

إنّ جميع الاشياء الحسنة تسير نحو اهدافها على منعرجات السبيل فترفع ظهورها كالهررة هادرةً لما تتوقع من سعادة قريبة المنال ، فالاشياء الحسنة تضحك ابداً

لك ان تعرف من خطوات الناس اذا كانوا ظفروا بطريقهم السويّ ، فانظر الى خطواتي تدرك حالي ، واذا رأيتني راقصاً فاعلم أنني اقتربت من هدفي

والحق انني ما استحلت تمثالاً ولا انقلبت عاموداً لا حياة ولا حس فيه ، فانا أحب الجري في المجال البعيد ، لأن في الارض مستنقعات كثيرة ومعاثر لا تجتازها الا الأرجل الراقصة المنزلقة

ارفعوا قلوبكم الى ما فوق ، ايها الاخوة ولكن لا تنسوا ارجلكم ، اذ عليكم ان ترفعوها ايضاً واذا اردتم اجادة الرقص فعليكم الا تأنفوا من الانقلاب على رؤوسكم

— ١٨ —

انا المتوّج نفسي ملكاً على الضاحكين باكليلٍ ضفرْته من الورود يداي ، وليس سواي من يقوى على تطويب ضحكه كما فعلت

انا زارا الرّقاص ، الخفيف الخطوات الضارب بجناحيه متحفزاً للانتفاض الى الأعالي مشيراً الى جميع الطيور بنشر أجنحتها ، انا من بلغ الرشاقة الالهية

أنا زارا العرّاف ، انا الضاحك الصبور المتسامح المحب للوثوب وتجاوز المحدود ، انا المتوّج نفسي بنفسي

— ١٩ —

ارفعوا قلوبكم الى العلا ، إخوتي ، ولا تنسوا ان ترفعوا ارجلكم ، ايها الراقصون المجيدون بل انتصبوا على رؤوسكم ايضاً

ان بين طلاّب السعادة حيوانات ضخمة ثقلت حركتها وبينهم مَنْ ولد كسيحاً فمثل هؤلاء يحاولون الرشاقة كالفيل يجرّب أن ينتصب على قمة رأسه ، غير ان المجانين بالسعادة خيرٌ ممن يجنّون بالشقاء والراقص متثاقلا أفضل ممن يتعارج في مشيته

تعلّموا الحكمة مني ، انّ لأقبح الاشياء وجهتين لهما حسنهما، ولشرّ الناس رِجْلَين للرقص فتعلّموا ايها الرجال الراقون ان تقفوا سوياً على اقدامكم

أعرضوا عن أشجان العامّة واحزانهم ، فان للمهرّجين بينهم في هذا الزمان سيماء الغارقين في الاحزان . ذلك لأن هذا الزمانَ زمان العامّة من بني الانسان

— ٢٠ —

كونوا كالهواء المندفع من مغاور الجبال فهو يهبُّ راقصاً على هواه فيرتعش البحر متراقصاً لدغدغة نسماته

تباركَ من يستنبت أجنحةً للحمير ومن يمدُّ انامله لضرع اللبؤة فيحتلبها ، إنْ هو الاّ الروح الطيّب الثائر يهبُّ كالعاصفة من أجل ما هو عتيد ومن أجل ما سيكون . إنْ هو الاّ عدو الرؤوس الشائكة والرؤوس المنثلمة عدو كل الأعراش الذابلة وكل ما دبّ فيها الفساد

تباركَ روحُ العاصفة روحاً وحشياً طيباً حراً طليقاً يرقص على مستنقعات الاحزان كانه يتمايل منها على ناضرات المروج . تباركَ من روحٍ يكره الغوغاء المستكلبين الفاقدين الصواب وكلّ ناقصٍ يتعزز بالعبوس

تباركَ روحُ العاصفة من قوةٍ تهبُ الحياةَ لكل فكرة حرة ، تباركَ من زعزعٍ يذري الرمال وهو ضاحكٌ على عيون مقروحة لا ترى في الوجود الا قتاماً

ايها الرجال الراقون ، إنَّ شرَّ ما فيكم هو انكم لم تتعلَّموا الرقص على اصوله لتتوصلوا الى الانطلاق بخطواتكم فوق رؤوسكم ، وما يضيركم الاَّ تتوفقوا اذا حاولتم

انَّ الممكنات كثيرةٌ ، ايها الراقون، فتعوَّدوا ان تضحكوا ولوعلا ضحككم فوق رؤوسكم

ارفعوا قلوبكم ايها الراقصون المجيدون الى ما فوق ولا تنسوا ان تضحكوا ضحكاً جميلاً

انني القي اليكم باكليل الورود فهو تاج الضاحكين لقد طوَّبتُ الضحكَ ايها الرجال الراقون فتعلَّموه . . .

نشيد الاشجان

— ١ —

وعندما لفظ زارا الكلمات الاخيرة من خطابه ، رأى نفسه أمام مخرج غاره فترك ضيوفه وانطلق يستنشق الهواء النقي هاتفاً :

— يا للنفحات الطيّبات ويا للسكينة السعيدة ، تعاليا اليَّ يا نسري وأُفعواني وقولا لي أراقتكما رائحةُ هؤلاءِ الرجال الراقون . إنني أشعر الآن بمقدار حبي لكما

إِنني احبكما يا نسري وأُفعواني

ودار الحيوانان حول زارا وحدَّقا به طويلاً وبقي الثلاثة يستنشقان هواءً بليلاً لا يظفرون بمثله في مجلس الرجال الراقين

— ٢ —

وما خرج زارا من الغار حتى وقف الساحر الشيخ مرسلاً نظرات التجسس ما حوله وهو يقول — لقد أُخلي المكان

فيا ايها الرجال الراقون وما ادعوكم بهذا النعت الاَّ تشبُّهاً بزارا في ثنائه عليكم ، فانه ماكاد يخرج هو حتى عاد فاستولى عليَّ روحي الخداع الماكر الساحر وما هو الاّ شيطان اشجاني . العدو اللدود لزارا فلا تلوموا هذا الشيطان اذا

طمح الى إبداء ضروب سحره أمامكم وقد اجتاحته نوبةٌ من نوباته ولطالما حاولت مقاومتها بلا جدوى

ان روحي الشرير عدوٌّ لزارا وهو صديقكم جميعاً ، سواء أدُعيتم رجال الفكر الحرّ أم رجالَ الحق أم رجال كفّارة العقل أم رجال الثورة أم رجال الشوق الاعظم أنتم المصابين بما أُصبت به من الكراهة العظمى ، أنتم المؤمنين بأن الله قد مات دون ان يكون على احد الأسرّة إلهٌ آخر تشدُّه الاقمطة في طفولته

اني اعرف مَنْ انتم يا اهل الرقيّ واعرف ايضاً مَنْ هو زارا الذي اتوّجه اليه بحبي مرغماً لأنني احس بأن قدّيساً سينبثق منه ، ويلوح لي احياناً أنه هيكل يسكن فيه شيطانُ الاشجان فاحبه ايضاً لحلول روحي الشرير في سريرته

لقد اوشك هذا الروح ان يستولي عليّ ، وها هو ذا يصرعني ، فيا له من شيطان يتقمّص اشجان الغسق !

افتحوا اعينكم ايها الراقون انّ هذا الروح يتجسّد ولا ادري ايظهر عارياً في هيئة رجل ام في هيئة امرأة

لقد بدأ ستار العتمة ينسدل حتى على خير الاشياء

اعيروا سمعكم وحدّقوا ، اهو رجلٌ ام امرأةٌ هذا الروح ، روحُ اشجان المساء

هكذا تكلم الساحر الشيخ ثم ادار لحاظه فيمن حوله وقبض على قيثارته

— ٣ —

عندما يعتلُّ الهواء ، ويتساقط الندى المعزّي دون ان تراه العيون ، وما تسقط الانداء الاّ خفيةً ككل عزاء

افما تذكر ايها القلب الملتاع كم ظمئتَ الى دمع السماء ، الى قطرات الانداء؟

لقد كنتَ منهوكاً يرهقك السغب والشمس تلقي اشعتها على الاعشاب الصفراء متراكضة حولك من خلال الادواح القاتمة فتبهرك في روغانها ، وتلقي في روعك انك تائقٌ الى الحقيقة ، وما هي الا خادعة ساخرة

لا . . ما انت الا شاعرٌ ولست الى الحقيقة متطلعاً مشوقاً

ما انت الا حيوانٌ وحشيٌّ زحّافٌ عليه ان يتفوّه بالكذب ، حيوانٌ

مفجوعٌ بالغنائم ، يُسدل على وجه قِناعاً تعدَّدت الوانه ، وهو نفسه قناع لقناعه وغنيمةٌ لفجعته

أأنت يا هذا طالبُ حقيقةٍ وحق ؟

لا . . ما أنت الاَّ مجنونٌ ، ما انت الا شاعر

انك تتكلم بالاستعارات والتشابيه ، وترتفع عقيرتك مُقنَّعاً بوجه معتوه متراكضاً على معابر من كاذبات البيان تائهاً على اقواس قُزَح مزيَّفة تحت آفاق لا حقيقة لها

إنك تائه يتراكض في كل مكان

ما أنت إلاَّ مجنون ، ما أنت إلاَّ شاعر !

***

أأنت طالبُ حقيقةٍ وحق ؟

ما انت الا مَسخُ تمثالٍ الهيّ يلتمع في صقيعه ، وليس له جلال هذا التمثال ولا صمته منصوباً على مدخل بيت الله

ما انت الا عدو كل هيكل مشيَّدٍ للفضيلة فمسرحك القفارُ حيث تشبُّ حراً طليقاً ، واذا ما حُصرتَ في مسكنٍ قفزتَ من نوافذه مستسلماً لتصاريف الحدثان ذاهباً بهدير شهوتك في مجاهل الغاب بين الوحوش الكاسرة الرقطاء الجميلة كالمعصية وقد قطرت اشداقها شَبقاً ودماء فتسرح بينها متوحشاً زحّافاً كاذباً

أو انت اشبه بالنسور التي تحدّق طويلاً في الاغوار حتى اذا لاحت الخرفان في مراعيها انقضَّت عليها ؟ انها لعدوّة الخراف وكل من له نظراتها وصوفها ووداعتها

***

ما شهوة الشاعر الاّ شهوة النسر والنمر

تلك هي شهوتك المقنَّعة بألف وجهٍ ايها المجنون . ايها الشاعر !

لقد نظرتَ الى الانسان كأنه نعجة فمزَّقتَ الله فيه كما مزَّقتَ النعجةَ وانت تقهقه ضاحكاً

تلك هي لذتك ، ايها الشاعر ، إنْ هي الا لذة نسر ونمر ، لذة شاعر ومجنون

لقد جنحتُ يوماً في الهواء البليل جنوحَ الهلال الحسود على وهج انوار

الغروب ، هارباً من النهار عدوه اللدود متوارياً عن شُجيرات الورود الى ان يغمرها الظلام ماحياً اشباحها

أجل لقد جنحتُ فيما مضى جنوحَ الهلال هارباً من جنون الحقيقة وشهوة النور ، تعبت من النهار ومن أضوائه فانحدرتُ عليلاً نحو المغرب الى مطارح الظلام ، وقد احرقتني الحقيقة بسعّارها

أفما تذكر ايها القلب الملتاع مِحنةَ تعطُّشك في ذلك الحين ؟

مالي وللحقائق جميعها ، سحقاً لها

ما انا الا مجنونٌ ما انا الاّ شاعر

المعرفة

هذا ما أنشده الساحر ، موقعاً في شراك نغمه الغدّار الحزين جميعَ مَنْ حوله ما عدا صياد العلقة المقيّد بضمير العقل فانه لم يقع كالآخرين بل نهض واختطف القيثارة من يد الساحر صارخاً : — لقد سمّمتَ هواء الغار يا هذا جددوا الهواء ، أدخلوا زارا الينا

إنّ سحرك أيها المراوغ يدفع بالناس الى الشهوات ومجاهل القفار ، ويا لشقائنا اذا كان أمثالك يتكلّمون عن الحقيقة ويولونها اهمية ، وويلٌ للافكار الحرة اذا كانت لا تحذر الساحرين ، انها لتفقد حريتها باهمالها

إنك تدعو للرجوع الى السجون وتقتاد الناس اليها ايها الشيطان الحزين ففي انينك دعوةُ مستترة فما اشبهك بمن يمجّدون العفاف فيجيء تمجيدهم دعوةً الى الملذات

هكذا تكلم صاحب ضمير العقل ، غير ان الساحر كان يجيل ابصاره في مَنْ حوله وهو يتنعّم بظفره فتتغلّب لذته على حنقه من خصمه ، واخيراً نظر اليه قائلاً بلطف : — ان الأغاني الجميلة تثير خير الأصداء ولذلك يجب ان يعقبها السكوت الطويل ، افما ترى هؤلاء الرجال الراقين يتنصّتون ، ويلوح لي انك لم تفهم شيئاً من نشيدي لان تفكيرك محصورٌ في دائرة السحر

فاجاب صاحب الضمير — إنك تثني عليّ بالإقرار بالفرق بينك وبيني ، وحسناً فعلت ، ولكن انتم ايها الراقون ما لي اراكم وانتم ذوو النفوس الحرة ساكتين

كمن تطلّع طويلاً الى رقص غانيةٍ عارية متهتكة فاذا بروحه ترتقص في داخله

افليس فيكم ايها الراقون القوة التي لا تنال منها خزعبلات الساحرين !

ولكنني اراكم في وادٍ وانا في واد . لقد تسنى لي ان اتحدث اليكم طويلاً قبل ان عاد زارا الى مغارته فعرفتُ انني معكم على خلاف ، فانتم لا تطلبون ما اطلب عن عقيدة راسخة وما جئت الى زارا الاّ لانني اعلم انه معقل الارادة الثابتة التي لا تتزعزع في هذه الازمان التي يتصدّع فيها كل شيء ويتداعى

اما انتم فإن نظراتكم تدل على انكم تطلبون الريبة وتتشوّقون الى الشك ، فتودون لو يزيد الارتعاش وتعمُّ الزلازلُ الارض لتزداد حياتكم اضطراباً ، فما اتخوّف منه انا تتوقون انتم اليه فتستهويكم حياة الوحوش في الغابات والمغاور

إنكم لتنفرون ممن يدعوكم الى اجتناب الاخطار فلا تأنسون الاّ الى المضلّلين الساحرين

ولكن اعلموا ان هذه الاماني الكامنة فيكم لن يكون لها ان تتحقق ، لان الخوف شعورٌ غريزيّ اوليّ في الانسان يفسِّر كلَّ شيء ويجلو حقيقة الخطيئة الاصلية والفضيلة الاصلية ، وفضيلتي انا قد نشأت عن الخوف واسمُها « العِلمُ »

لقدعاش الانسان طويلاً يسوده الفزع من الحيوانات الكاسرة وبينها الوحش الكامن فيه والذي يدعوه زارا « الحيوان الداخلي ». وقد استحال هذا الخوف مع كرور الزمان الى ذُعرٍ روحي يدعى « عِلماً »

هكذا تكلم صاحب ضمير العلم ، وكان زارا قد عاد الى الغار وسمع نهاية الخطاب فاخذ ينثر اوراق الورد على رأس صاحب الضمير وهو يهزأ به قائلاً :

— ماذا اسمع ؟ والحق انك مجنونٌ والاّ كنت انا مجنوناً . لذلك أُبادر الى إنزال الحقيقة على رأسك دفعة واحدة . فاعلم ان الخوف شذوذٌ في الانسان لانه ما نشأ في الاصل الاّ مفطوراً على الشجاعة طمّاحاً الى تقلبات الحدثان مأخوذاً بلذة الشك مدفوعاً لاقتحام المجهول ، فالشجاعة أُولى عواطف الانسان ، اذ استهوته فضائلُ الضواري وأشد الحيوانات عزماً وإقداماً فماعَتمَ حتى غنم هذه

الفضائل منها وهكذا صار إنساناً

ويلوح لي ان هذه الشجاعة الراقية الوثّابة إنسانية بجناح النسر وروغان الأفعى تدعى اليوم . . .

فضحك جميع الحاضرين وهتفوا بصوت واحد

— تدعى زارا

وارتفع من بين الحشد شيء أشبه بالغمامة السوداء وتوارى فبدأ الساحر بالضحك ايضاً وهو يقول :

— لقد خرج روحُ الشرّير مني افما دعوتكم الى الحذر منه عندما اعلنت لكم انه روحٌ مكّار مخادعٌ كذاب ، ويتناهى مكره بخاصة عندما يتجلّى عارياً . ولكنني اعجز من ان اقاوم سحره فما انا مَن خلَقه وما انا مَنْ خلقَ العالم

فلنعد الآن الى صلاحنا وسرورنا . انظروا الى زارا فإنّ في عينيه قتاماً واراه ناقماً عليّ غير انه لن يثبت على نقمته حتي يجيء الظلام فسوف يسترجع حبه ويعود مثنياً عليّ لانه لا يستطيع البقاء طويلاً دون ان يرتكب مثل هذا الجنون

ان زارا يحب اعداءه وهو بين مَنْ صادفتُ في حياتي اقدرهم في هذا الفن ولكنه في سبيل حبه لاعدائه ينتقم من اصدقائه

هكذا تكلّم الساحر الشيخ فصفّق له الحاضرون حتى اضطر زارا الى الدوران في غاره وهو ينفض راحتيه متبرّماً من أصحابه بعاطفةٍ تمازج شرُّها بجبهافكأنه يحاول عذر الناس والاعتذار اليهم في آنٍ واحد ، وعندما وصل الى مخرج الغار شاقه الهواء الطلق وتذكّر نسره وافعوانه فاندفع طالباً الخروج

بين غادتين في الصحراء

— ١ —

وعندئذٍ صاح المسافر الذي دعا نفسه خيال زارا قائلاً : — لا تذهب ابقَ بيننا لئلاّ تكرّ علينا أحزاننا بعد ان تولّت عنا ، فقد أغدق علينا الساحر شرّ ما عنده حتى ان رئيس الاحبار الوافر التقوى بدا يسكب الدمع من عينيهويتوه

في بحر الشجون . وليس بيننا من احتفظ بحزمه غير هذين الملكين لتعوّدهما التحكم بسيائهما ولو انهما كانا على انفراد لكانت تبدو عليهما ألاعيب الغيوم وتعصف ريح الخريف باكية فوقهما فنسمع إعوالاً ونواحاً . ابقَ هنا يا زارا . لا تذهب فهنا ويلاتٌ خفية تريد ان تتكلم ، هنا ظلماتٌ وغيوم وهواءٌ كثيف يضغط على الصدور

لقد بذلت لنا الغذاء الأنساني وأتيتنا بالآيات تتدفق قوة وأملاً فلا تسمح ان تجتاحنا في ختام هذه الوليمة روح التراخي والكسل

ليس لسواك ان ينفخ حولنا هواء القوة والنقاء فانني ما نشقت في العالم ما يهبُّ عليَّ في غارك من لفحات صافيات ، وقد جبت الاقطار ومررت بمعاطسي على اجواء واجواء فما راقني شميمٌ الاَّ حيث تقيم

لأصدقنَّ القول ، لقد راقني مرة مثل هذا الشميم من قبل عندما أنشدت ما اوحي اليَّ بين غادتين في الصحراء حين ملأت صدري من نسمات الشرق المشبعة عطراً في صفائها وانا بعيد عن اوروبا الهرمة تكدّر جوها الغيوم وترهقها رطوبتها واشجانها

ذلك زمان عشقت فيه غادتيّ الشرق في صحرائه فهنالك سماء غير هذه السماء لا تتلبد فيها الغيوم ولا تعتكر على اديمها الافكار

انكم لأعجز من ان تتصوروا سحر هاتين الغادتين وهما معرضتان عن الرقص جالستان وفي سكونهما اجمل حركات الفنون وقد كمن الفكر في صدرهما فكأنهما اسرارٌ وألغاز تتماوج اشكالاً وألواناً فلا يعروها قتام ، وهكذا الالغاز المستسلمة لمن يحل مكنونها

لقد أُوحي اليَّ هذا النشيد للتشبيب بغادتيّ الصحراء

هكذا تكلم المسافر المدعو خيال زارا ولم يدع مجالاً ليجاوبه احد فقبض على قيثارة الساحر ولفَّ ساقاً على ساق وهو يحدج من حوله بنظرات تشعُّ حكمة ووقاراً وقد انفتحت ارنبتا انفه تنشقان الهواء ملياً فكأنه غريبٌ في بلاد بعيدة يتنسَّم اجواءها

وبدأ ينشد بصوت يزأر زئيراً

— ٢ —

ان الصحراء تتسع وتمتد فويلٌ لمن يطمح الى الاستيلاء على الصحراء

يا للمهابة :

يا للبداية تليق بمهابة صحراء افريقيا ،

تليق بأسد او بنذير يهيب بالناس الى مكارم الاخلاق

إنها لروعةٌ لم تسطُ عليكما يا صديقتي عندما أُتيح لي انا ابن اوروبا ان اجلس عند اقدامكما تحت ظلال النخيل . حيَّا على الصلاة !

***

يا للعجب !

اراني ماثلاً امام الصحراء ولكنني عنها جدُّ بعيد ، وما ابتلعتني الواحات الصغيرة ، بل انفرجت امامي كأطيب الثغور نكهة فارتميت فيها وها انذا عند اقدامكما يا صديقتيَّ العزيزتين ، حيَّا على الصلاة !

***

إنني أُمجّد تلك الواحة اذا كانت عزَّزت مَنْ نزل فيها . . .

وانما تدركان ما في رموزي من الحكمة

طوبى لاحشائها اذا كانت كهذه الواحة ، ولكنني اشك في ذلك فانا قادم من اوروبا ، اشد العرائس جحوداً .

اصلحها الله إنه السميع المجيب

***

ها انذا جالسٌ في ظلال اصغر الواحات فما اشبهني بتمرة سمراء مذهَّبة تتشوّق الى ثغر كاعبٍ يفترُّ عن اسنان محدَّدة ناصعة كالثلج ، وهل تحلم قلوب التمر الملتهبة الاَّ بمثل هذه الثغور ؟ حيَّا على الصلاة

***

ما اشبهني بهذه التمور عند الظهر ، تتطاير حولها الهوام المجنَّحات وتدور بي شهواتٌ اصغر من هذه الهوام واشد منهـا جنوناً وشراً ، والى جانبي « دودو وزليخا » صامتتين كأبي الهول

انني انشق نسمات الجنان والهواء حولي مفضض باشعة ما ارسل القمر مثلها في الاجواء ، فهل ارسلها صدفة ام عن قصدٍ كما قال الشعراء الاقدمون ؟

اما انا فأشك فيما قيل لانني آتٍ من اوروبا وهي أشد العرائس جحوداً أصلحها الله إنه السميع المجيب

انني انشق الهواء مِلءَ معاطسي وليس لي امسٌ ولا غدٌ، فأجلس معلّقاً ابصاري على النخلة وهي تتأوّد وتتثنّى وتهزُّ ردفها فكأنها راقصةٌ دارت طويلاً على رجل واحدة ، حتى لا يسع من يراها الاّ ان يقلدها ، ولعلّها نسيت ان لها رجلاً ثانية

وقد فتشتُ عبثاً على هذه الرجل الصغيرة الساحرة تحت الاردان الخافقة ، صدقاني يا عزيزتيّ ان هذه الرجل الاخرى قد ذهبت في سبيلها

ويلاه ! اين استقرت تلك الرجل التائهة واين حطت رحالها ولعلها الآن وحيدةٌ منفردة ترتجف فرقاً من هجمات وحش كاسر او اسد اصفر تجعّدت لبدته ولعلها الآن ممزقةٌ إرباً . حيّا على الصلاة !

***

لا تبكيان يا عزيزتيّ فقلبكما رقيقٌ وصدركما يدرُّ حناناً

أي زُليخا كوني كالرجال وتشدّدي ، وانت دودو الشاحبة لا تذرفي الدمع بعد

ولكن لا بدّ في هذه الارجاء من قوة تشدد القلوب لا بد من آياتٍ تفوح عطراً وتتسامى جلالاً

***

ارتفع يا مظهر الجلال ولتهبّ مرة اخرى نسمة الفضيلة

ويا ليت اسد الفضائل يزأر ايضاً امام غادات الصحراء فزئير الفضيلة يا بنات الصحراء ، اقوى ما ينبه اوروبا ويحفز بها الى النهوض

ها انذا ابن اوروبا ، لا يسعني الاّ الخشوع والانتباه لدويّ هذه الآيات البيّنات

وقد توكّلت على الله

ان الصحراء تتسع وتمتد ، فويلٌ لمن يطمح الى الاستيلاء على الصحراء . . .

الانتباه

— ١ —

وبعد ان انشد كلٌ من المسافر والخيال نشيده ضجّ الغار بالحركة والضحك فأخذ الجميع يتكلمون في آن واحد حتى الحمار نفسه فوقف زارا غاضباً ساخراً بضيوفه بالرغم من تسرّب شيء من فرحهم الى قلبه اذ رأى في هذا الحبور اول اعراض الشفاء . فانسحب الى خارج الغار وبدأ يخاطب نسره وأفعوانه قائلاً :

أين ذهب يأسهم ، اراهم نسوا ذلك اليأس عندي ولكنهم لم يَنسوا الصراخ بعد

وسدّ زارا أذنيه اذ تعالى نهيق الحمار يزيد في جلبة هؤلاء الرجال الراقين وقال — انهم فرحون ولعلهم تعلموا مني ولكن ضحكتهم ليست ضحكتي

لابأس فهم شيوخ يمثلون الى الشفاء بالذهاب على سبيل تخيّروه ولقداحتملت أذناي من قبل أشد من هذه الجلبة وهذا الصخب

انه ليوم انتصار هذا اليوم لأن الروح الكثيف يتراجع الى الوراء وهو عدوي اللدود ، لقد بدأ هذا النهار شؤماً ولعله ينتهي الى خير

ها ان المساء قادم ممتطياً جواده قاطعاً البحار على سرجه الأرجواني

ان السماء تحدجه بلفتات الحبور والارض تتراخى على أسرارها ، فالحياة تستحق الاهتمام قربي ايها النازلون ضيوفاً عليّ

واذ دارت الجلبة في الغار أردف زارا قائلاً :

انهم تعلّموا الضحك لنفسهم فقد فارقهم الروح الكثيف وهذا تأثيرغذائي وآياتي ، والحق انني ما قدّمت لهم من الاغذية ما تنتفخ به الاحشاء بل ما يليق بالمجاهدين فنبّهت فيهم شهوات جديدة

ها ان سواعدهم واقدامهم تمتلىء املاً جديداً وقد تمددت قلوبهم فوجدوا بياناً جديداً يولّد المرح في تفكيرهم

وما اجهل أن مثل هذا الغذاء لا يُبذل للاطفال ولا للنساء المتراخيات سواء أكنّ عجائز أم صبايا فان للاطفال والنساءعلاجات غير هذا العلاج لاقناع إمعائهم وما انا بطبيبهم ولا بالقوّام عليهم

لقد تخلّى هؤلاء الراقون عن اشمئزازهم وفي ذلك ما أعده ظفراً لي لقد أحسوا انهم في مأمن عندي فتعرّوا عن كل حياء سخيف وها هم يعربون باخلاص عما يشعرون

إنهم يفتحون قلوبهم ويعودون الى اويقات الصفا ويجترّون ممتنّين والامتنـان خير دليل على الرجوع الى الصواب فلن يطول الزمان حتى يرفعوا الانصاب لذكرى افراحهم القديمة

إنْ هم الاّ ناقهون !

هكذا تكلم زارا وقـد استولى عليه الفرح ودار حوله نسره وأفعوانه محترمين سعادته وسكونه

— ٢ —

وبعد هنيهة اضطربت أذنا زارا لانقطاع الجلبة من الغار وقد ساد فيه سكوت الموت ولـكنّ رائحةً عطرية انتشرت منه كأن هنالك مجمرة تحرق فيها رؤوس الصنوبر

وتساءل زارا عما يفعل القوم في غاره وتقدم نحو الباب فاذا به يشاهد امراً من أغرب الأمور فصاح — لقد عادوا الى التقى ، فهم يؤدون شعائر الدين ويصلّـون ، لقد جنّـوا

وكان جميع مَنْ في الغار جاثين على ركبهم كالأطفال والعجـائز يعبدون الحمـار

وبدا اقبح العـالمين يهدر ويتلوّى ويستعد للترنم وما عتم حتى بدأ ينشد قائلاً :

المجدُ والحـكمة والمنة والثناء والقوة لإلهنا الى أبد الآبدين

فجاوبه الحمار بنهقة مستطيلة

— إنه يحمل أثقالنا ويقوم بخدمتنا ، فهو الجلود الصبور الذي لا يرد طلباً ومن احب إلهه ادّبه بصرامته

فجاوبه الحمار بنهقة

— انه صموتٌ لا ينهق الا إيجاباً لطلبات العالم الذي أبدع فهو يتمدح عالمه واذا سكت فما سكوته الا لمـكره ، لانه لا يستهدف للخطأ

فجاوبه الحمار بنهقة

— انه يمرّ ولا من يأبه له في الحياة ، فلون جلده رمادي يستر به فضيلته واذا كان له عقلٌ فهو يستره لذلك يؤمن الجميع بأذنيه الطويلتين

فجاوبه الحمار بنهقة

— يا للحكمة الخفية : ويا لصاحب الأذنين الطويلتين لا يجيب الاّ بالايجاب ولا يرد طلباً أفما خلق العالم على صورته ومثاله فجاء العالم على أشد ما يكون حماقة وسخافة ؟

فاجاب الحمار بنهقة

— انك تتبع طرقاً مستقيمة وطرقاً ملتوية وما يهمك ما يدعوه الناس استقامه والتواء فان ملكوتك قائمٌ ما وراء الخير والشر فبرآءتك هي جهلك للبرآءة

فاجاب الحمار بنهقة

— انظر كيف أنك لا تدفع احداً عنك فتقبل الصعاليك كما تقبل الملوك وتدع الاطفال يأتون اليك واذا ما جاءك الخطاة استقبلتهم بنهقة الترحيب

فاجاب الحمار بنهقة

— انك تحب الأنثى والتين الناضج فلست متصعّباً في غذاءك فلا تأنف من قضم الشوك اذا جعت . وفي هذا كمنت حكمتك الآلهية

فاجاب الحمار مصدّقاً بالنهيق

عيد حمار

وعند هذا المقطع من المدائح عيل صبر زارا فبدأ ينهق هو ايضاً واندفع الى وسط ضيوفه وقد استولى عليهم الجنون صارخاً — ماذا تفعلون يا ابناء الناس

وتقدم يرفعهم الواحد بعد الآخر عن الحضيض قائلاً :

الويلُ لكم لو رآكم احدٌ غير زارا ، إذن لحكم الكل عليكم بانكم في دينكم الجديد من افظع المجدّفين او من أشد العجائز تخريفاً وجنوناً

أنت يا رئيس الاحبار كيف تسنى لك دون أن تجحد نفسك وان تعبد حماراً كأنه إله

فاجاب الحبر الكبير — عفوك يا زارا إنني أعرف منك بامور الله ومن الحق أن اكون هكذا ، وخيرٌ لنا ان نعبد الله في حمار من الاَّ نعبده مطلقاً . تمعّن في كلمتي هذه ايها الصديق العظيم يتضح لك ان فيها كثيراً من الحكمة

إن من قال « إن الله روحٌ » قد خطا الخطوة العظمى نحو الجحود وليس من السهل إصلاح ما تفسده مثل هذه الكلمة في العالم

إن فؤادي يرتقص فرحاً إذ بقي على الارض شيء يمكننا ان نعبده

اغتفر يا زارا لرئيس أحبار تقيّ ما يشعر به

والتفت زارا الى المسافر والخيال قائلاً :

— وانت يا من تُدعى الفكر الحر بل من تتصور انك فكر حر ، كيف تمثّل هذا الدور الغريب وتتعبد للوثن

انك تفعل الآن ما لم تفعله بين الغادات السمر ذوات الدلال يا مَنْ اتخذ لنفسه عقيدة جديدة

فاجاب المسافر والخيال — الأمر محزن وانت مصيب ولكنني عاجز عن الاتيان باي عمل فان الإله القديم قد بُعث فقل ما تشاء يا زارا

إن السبب في هذا كله هو اقبح العالمين فهو باعث الاله ولو قال انه هو قاتله فليس موت الاله الاّ عقيدة لا ترتكز على شيء

فقال زارا — وأنت ايها الساحر القديم المراوغ ماذا فعلت ؟ من سيؤمن بك بعد الآن في ازمنة الحرية هذه اذا كنت تؤمن بمثل هذه الحماريات الالهية

لقد اتيت حماقة فكيف اقدمتَ عليها وانت على ما تعلم من المهارة والاحتيال

فاجاب الساحر — لقد اصبتَ فما أتيتُ الاّ حماقة ولقد كلفتني جهداً كبيراً

فقال زارا — وأنت يا ضمير العقل ، تفكّر وضع اصبعك في انفك ، أفما يبكتك ضميرك على ما فعلت ، افما تدنس فكرك من هذه العبادة ومن هذا البخور المتصاعد ؟

فوضع ضمير العقل اصبعه في انفه واجاب — ان في هذا المشهد شيئاً يرتاح له ضميري . وقد لا يكون لي الحق بأن اعبد الله غير انني أرى ان الهاً على هذه الشاكلة يستحق الايمان

يجب ان يكون الاله خالداً بحسب ما شهد به الاتقياء ، فمن كان له مثل هذا الزمان الطويل له ان يمنح نفسه خير الازمان وان يعيش على مهل وبالسخافة التي تحلو له ، فيبلغ الهدف الذي يريد ومن له الفكر المتجاوز حده يميل الى السخافات والى الجنون

افلا ترى يا زارا انك معرَّضٌ بأفراط حكمتك الى ان تصير حماراً

افلا يتجه الحكيم الى السبل المتعرجة ، وهلا تجد في نفسك ما يثبت هذه الحقيقة ؟

ونظر زارا الى اقبح العالمين فاذا به لم يزل منطرحاً على الارض وهو يقدم للحمار خمراً ليشرب فقال له

— ماذا انت فاعل : لقد تبدلت يا هذا فعينك تشعُّ نوراً وقد اتشح قبحك بُرْدَ الجلال . أصحيحٌ ما يقوله رفاقك ؟ اأنت بعثّته من الموت ؟ وما الذي اهاب بك الى إحيائه ؟ فهل كنتَ على خطأ عند ما قتلته والحقته بغابر الزمان ؟

إنني اراك انت راجعاً الى الانتباه بعد غفلتك فماذا فعلت ولماذا هديت نفسك ؟ تكلم ايها السر الغامض

فقال اقبح العالمين — ما أنت الا لئيم يا زارا . وأنا اسألك فأجب مَنْ منا أعلم فيما اذا كان هذا الاله لا يزال حياً أم انه مات حقيقة

غير انى اعلم كما علمتني فيما مضى ان من يريد ان يقتل قتلاً لا حياة بعده يلجأ الى سلاح الضحك فالغضب لا يقتل ، أفما قلت هذا يا زارا أنت المستتر ، أنت الهادم بلا غضب والقدّيس الخطِر ! فما أنت الاّ لئيم

— ٢ —

ودهش زارا لما سمع من اجوبة فاندفع الى باب غاره ووقف هنالك يصيح بأشد نبراته :

لماذا تخفون سرائركم أمامي ، ايها الطائشون ، افما ارتعشت قلوبكم في صدوركم لأنكم عدتم اطفالاً اي من أهل التقى ففعلتم فعل الاطفال وضممتم اكفّ الضراعة قائلين « ايها الإله الصالح العزيز »

ألا فاخرجوا الآن من غرفة الأطفال ، ان مغارتي قد شهدت اليوم جميع الاعيبهم . اذهبوا وتأملوا خارجاً في طيش طفولتكم وفي نبضان قلوبكم

لا ريب في انكم اذا لم تعودوا أطفالاً فلا تدخلون ملكوت السماوات« قال هذا ورفع اصبعه نحو السماء »

فقالوا — لا . . . لا نريد ان ندخل ملكوت السماوات لاننا وقد اصبحنا رجالاً لا نطلب في غير الارض ملكوتاً

— ٣ —

واستأنف زارا الخطاب فقال :

— أي اصدقائي الجدد ، ايها الرجال الغريبو الأطوار ، انتم ايها الراقون انني لأعجب الآن بكم ، لقد عاد سروركم اليكم فتوردت وجوهكم وقد حق لكم كازهار جديدة ان تعيّدوا فاقمتم للحمار حفلة إذ اردتم ان تسروا وان يجيء زارا المَرِحُ بجنون شيخوخته لينير ارواحكم

لا تنسوا هذه الليلة وهذا العيد ، ايها الرجال الراقون فقد ابدعتم فيما اخترعتم وما يوجدُ مثلَ هذه الاعياد الاّ الناقهون لانها نذير الشفاء

فاذا ما احتفلتم بهذا العيد عيد الحمار ، فاصنعوا هذا محبةً بأنفسكم ومحبةً بي ، اصنعوا هذا لذكري . . .

هكذا تكلم زارا . . .

نشيد الثمل

— ١ —

وبينما كان يتكلم خرجوا الواحد تلو الآخر الى الهواء الطلق وقبض زارا على ذراع أقبح العالمين وخرج به ليريه مشاهد الليل والشلالات المتدفقة قرب غاره مفضضة بشعاع القمر. وأمام هذه الشلاّلات وقف جميع هولاء الشيوخ وقد تسرب العزاء الى قلوبهم فشدّد عزائمهم وكان كلٌ منهم معجبا بذاته ، وقال زارا في نفسه ، لكم تشوقني رؤية هؤلاء الراقين الآن

وعندئذٍ وقع أغرب حادث شهده القوم طوال يومهم اذ رأوا أقبح العالمين يهدر مفتشاً على كلمات لبيانه فاذا به يتناول مسألة خطيرة ذهبت تهزّ احشاء السامعين

قال : — ايها الأصحاب ، هذه لأول مرة أحيا فيها الحياة كلها بيوم واحد

فقد كفاني هذا العيد بصحبة زارا لا تعلم محبة الارض ، فيمكنني الآن ان أقول للموت — أهذه هي الحياة ؟ إذن أعدني اليها مرة أخرى

أفلا تريدون ايها الاصحاب ان تقولوا للموت ما اقوله له أهذه هي الحياة إذن اعدنا اليها من اجل محبة زارا مرة أخرى

هكذا تكلم أقبح العالمين وكان الليل قد قارب الانتصاف

وأحس الرجال الراقون عندئذ بأنهم تحولوا عما كانوا عليه وقاربوا الشفاء وعلموا ان زارا قد بدّل من حالهم فاقبلوا عليه يلثمون راحتيه حباً واحتراماً فضحك بعضهم وبكى البعض الآخر وكان الساحر القديم يرقص طرباً. ولعله كان مأخوذاً بالسكر ، على ما ينقله بعض الرواة ، ولكنه ولا ريب كان ثاملاً من حياته الجديدة بعد ان تخلى عن حياة التراخي والكسل . وقال بعض الرواة إن الحمار نفسه بدأ يرقص متأثراً مما سقاه أقبح العالمين ، وقد لا يكون الحمار استسلم للرقص في ذلك المساء فليس للامر اهمية ما دامت الحوادث الجسام التي وقعت حينذاك تفوت ما لرقص الحمار من شأن

إن من آيات زارا قوله — واية اهمية لهذا —

— ٢ —

وعندما نطق أقبح العالمين بما ذكرنا كان زارا في حالة اضطراب شديد إذ انعقد لسانه وارتجفت ركبتاه وتماوت نظره ، ومن يدري ما كان يدور حينذاك في خلده . فكأنه كان يذهب بفكره مداً وجزراً ويتحفز للطيران وقد شخص الى الابعاد مطلاً من الذروة على بحرين او سائراً كغمام كثيف بين الدابر والمقبل من الزمان

وأحاط الراقون بزارا يسندونه بسواعدهم الى ان ثاب رشده اليه فدفع عنه القوم المسارعين الى تمجيده دون ان يقول شيئاً ولكنه شخص كمن يسمع صوتاً فوضع سبابته على شفتيه وصرخ :

تعالوا . . .

وساد الصمت ودوت من بعيد رنة جرس ، فتنصت زارا ومن معه ثم عاد يقول وقد وضع سبابته على شفتيه ثانية :

— تعالوا . . . تعالوا . . . لقد اقترب نصف الليل

وتغيرَّت نبرات صوته ولكنه ظلَّ في موقفه
وعاد السكوت يثقل على الكل حتى على الحمار والنسر والأفعوان والفار والقمر الباهت والليل نفسه
ورفع زارا سبَّابته للمرة الثالثة الى شفتيه وقال :
— تعالوا . . . تعالوا . . . هيا فقد دنت الساعة ، هيا بنا الى الليل

— ٣ —

أيها الرجال الراقون لقد انتصف الليل ، ولسوف أُسرُّ اليكم بما أسرَّه اليَّ الجرس القديم في رنينه
سأناجيكم بالرهبة والاخلاص الذين ناجاني بهما جرسُ نصف الليل القديم البالغ من العمر ما لا يبلغه الأنسان الفرد
لقد عدَّ هذا الجرس من قلوب آبائكم نبضاتها فهو يزفر ساعة نصف الليل زفيراً ويرسلها ضحكاً في قلب الظلام
انصتوا ! إن من الاشياء ما لا تُعلن في نور النهار اما في هذه الساعة وقد اعتلَّ الهواء وسكنت ضوضاء قلوبكم فان الاشياء تتناجى وتتفاهم وتتسلل الى أرواح السَمَر فيمتد بها ويطول ، فاسمعوا زفير ساعة الليل وضحكها في أحلامها
أفلا تسمعها انت تناجيك برهبة واخلاص ، افلا تسمع ما تقول ساعة نصف الليل في قِدَمِها وعمقها ؟
— ايها الانسان كن على حذر !

— ٤ —

ويلٌ لي ! اين تسرَّب الزمان ؟ أفما وقعتُ في آبار لا قعر لها
لقد نامت الدنيا ، ويلاه انني اسمع هرير الكلب وارى لمعان القمر ، إنني لأفضل الموت على ان أبوح لكم بما يعتقده فؤادي عن نصف الليل
لقد مت وقضي امري !
لماذا تمدّين نسيجك حولي ايتها العنكبة ، اتطلبين دماً ؟ ويلاه لقد تساقطت الأَندا ودنت الساعة ، الساعة التي سأرتجف فيها برداً واتحول منها الى جليد ، الساعة التي تسأل وتسأل ولا تكفُّ عن السؤال قائلةً « مَنْ سيجرأ على هذا ؟

مَنْ سيكون سيد العالم ، من يرضى ويريد ان يهتف بالأنهار كبيرها وصغيرها :
سيري على ما أُقرر لك

لقد دنت الساعة ، ايها الانسان الراقي، فكن على حذر انهذا الخطاب موجه
الى مرهفات الاسماع ، الى أسماعك

— ماذا يقول نصف الليل في أعماقه ؟

— ٥ —

إنني محمولٌ الى هنالك ، وروحي ترقص في كل يوم ! من سيكون سيدالعالم
يا ترى ؟

لقد نوّر القمر وسكن الهواء ، وآسفاه ، هل تسنّى لكم ان ترتفعوا
بطيرانكم ، لقد رقصتم ولكن الساق ليست جناحاً

ايها المجيدون في رقصكم ، لقد انقضى زمن الحبور فاستحال الخمر الى خميرة،
لقد فرغت الكؤوس وعلت همسات القبور

إنكم لم تبلغوا الأعالي في طيرانكم لذلك تنادي القبور « انقذوا الاموات ،
لماذا طال بنا الليل ؟ فهل اسكرنا شعاع القمر ؟ »

فيا ايها الراقون أنقذوا القبور، ما لكم لا تُنهضون الاموات ، كي الديدانَ
ما رعت ! لقد دنت الساعة

لا يزال الجرس يدوي برنينه فالقلب يزفر زفرات الاحتقار . إن سوس
القلب ينخر شغافه

ويلاه ! ما اعمق هذا العالم

— ٦ —

ايتها القيثارة ! لكم أُحب نغمات اوتارك كأنها تتعالى من بعيد ومن الزمان
المنصرم عن ضفاف نهر الغرام

ما انت ايها الجرس الا هذه القيثارة المشجية فلكم قرعتْ قلبَك الاحزانُ،
احزان الآباء والاجداد والسُلفاء الأقدمين ، حتى انضجت دعوتك الازمانَ
فغدت كالخريف المذّهب وكقلبي المنفرد فاصبح صوتك كلاماً والعالم نفسه قد
نضج كالعناقيد لوّحها الاسمرار فهو يريد ان يموت مكفّناً بحبوره

افما تنشقون يا رجال الرقي عبيراً يضوع خفياً . إنْ هو الا عبير الأبد ،

رائحة خمرة السعادة المعتّقة، السعادة الشاملة بشوقها الى الموت المطلقة انشادها في نصف الليل قائلة :

ان العالم عميق ، ان العالم اعمق مما كان يظن النهار

— ٧ —

دعني. . . دعني ، انني اطهر من ان تمسّني يدك وقد اكمل عالمي ، دعني ايها النهار الأحمق العبوس الثقيل ، أفليست ساعة نصف الليل اشد منك اشراقاً ؟

يجب على الاطهار ان يسودوا العالم وهم المجهولون الاقوياء تكمن فيهم ارواح نصف الليل المشعّة بأنوار اعمق واصفى من انوار النهار

ايها النهار ، انك حولي وتراود سعادتي لأنك تجد فيّ انا المنفرد ينبوع كنوز لا تفنى

أنت تطلبني ، ايها العالم ، وما انا بالعالميّ ولا بالدينيّ ولا بالآلهيّ ، ما اثقلك أيها النهار وما اثقلك أيها العالم

لتذهب ايديكما على هدىً ، لتذهب قابضةً على سعادة اعمق وشقاء أعمق ، لتذهب مستولية على أحد الآلهة ولتدعني وشأني

أيها النهار ، ان سعادتي عميقةٌ وشقائي عميق ولكنني لست إلهاً ولست حتى جحيم اله ، وما اعمق اوجاع العالم

— ٨ —

أيها العالم الغريب ، ان اوجاع الأله أعمق من اوجاعك فاقبض على اوجاع الاله ودعني وشأني ، فما انا الا قيثارة تفيض عذوبة وسحراً

أنا قيثارة نصف الليل ، انا جرسٌ لا يفهم أحدٌ بيانه وعليه ان ينطق امام الصمّ ، وانتم ايها الراقون لا تفهمون ما أقول

لقد قُضي الأمر وتوارى الشباب مع الظهيرة والعصر فآن وقت المسا وأقبل الليل ونصف الليل ، وهذا الكلب وهذا الريح كلاهما يعوي

وهل الريح الاّ كلبٌ يئن ويعوي ، فيا لصوت الريح من زفير وضحك وحشرجة عند انتصاف الليل

انها لشاعرةٌ سكرى تجاوزت حدود النشوة وطال سهدها ، هذه الساعةُ القديمة تداعب أوجاعها عند نصف الليل وتداعب أيضاً مسرّاتها ، والمسرّةُ عند اشتداد الالم تفوق الألم شدةً وعمقاً

— ٩ —

لماذا تمتدحينني ، ايتها الكرمة ، أفما قطعتُ جفنتك بقساوة فقطرت دماً فما لثنائك يتجه الى قسوتي الثاملة ؟

أسمعك تقولين — كلُّ شيء بلغ كماله ونضوجه يطلب الموت تبارك منجلُ الكرّام . فما يتمسك بالحياة الاّ ما لمْ يبلغ النضوج بعد

ان الألم يقول لنفسه مرَّ وانقض ولكنَّ المتألم يطلب الحياة قاصداً أن ينضج ويصبح مرحاً مليئاً بالشهوات متشوّقاً الى الأبعد والأعلى والأشد صفاء ، فكل من يتحمَّل العذاب يصيح « أريد ورَثةً لي ، انما مقصدي هو أولادي لا أنا» في حين أن المسرّة لا تطلب ورثةً ولا اولاداً . لا تقصد المسرّة الا ذاتها ولا تتشوق الاّ الى الخلود ، الى عودة الأشياء بعد عبورها والى كل ما يشبه ذاته مستقراً الى الأبد

يقول الألم : انحطم يا هذا : اقطر دماً ايها القلب اذهبي ايتها الساق وتطاير ايها الجناح بعيداً نحو الأعالي فما أنت الاّ آلامٌ واوجاع

فهيا اذاً يا قلبي الهرم ما دامت الآلام تقول لك مُرَّ وانتهِ . . .

— ١٠ —

أيها الرجال الراقون ما تُراكم تحسبونني؟ أنيٌ انا أم متوهمٌ أم ثاملٌ أم معبرُ أحلام ام جرسٌ يدوي في نصف الليل ؟

أأنا ندىً ام بخورٌ من الابدية !

افما سمعتم ؟ افما شعرتم بان عالمي قد اكتمل ؟

ان نصف الليل هو الظهيرة ايضاً

ان الالم لذّةٌ واللعنةُ بركةٌ والليلُ شمسٌ مشرقة

ابتعدوا كيلا يقال عنكم ايضاً ان الحكيم مجنون

اذا كنتم احسستم بفرح فقد أحسستم ايضا بجميع الاتراح لجميع الاشياء متسلسلة متداخلة متعاشقة

افما اشتهيتم ان تعود المرّةُ مرتين فهتفتم ارتياحاً للذّة ! لحين من الدهر ولطرفة عين ؟ انكم بهذا التمنّي وددتم لو تعود الاشياء جميعها ، متسلسلة متداخلة متعاشقة . وهكذا احببتم العالم ، ايها الخالدون ، فكان حبكم ابدياً لا نهاية له . قلتم للآلام ان تنقضي ولكنكم دعوتموها لتعود ، لأن كل لذة تطلب الخلود

— ١١ —

ان اللذات تطلب الخلود لكل شيء، فتريد عسلاً وخميراً وساعة ثاملة في نصف الليل ، تريد قبوراً وتريد الدموع تنسكب مؤاسية على القبور والشمس الجانحة بنورها الذهبي الى الغروب

واي شيء لا تتشوق اللذّة اليه فهي اشدُّ ظمأ وجوعاً من الالم وفيها ما ليس فيه من روعة واسرار ، فاللذة تطلب ذاتها وتنهش ذاتها فهي إرادة تناضل في حلقة مفرغة ، تريد حباً وتريد بغضاً ، تتمتع بالسعة فتجود وتقذف بما تبذل، تتسوّل تسولاً لتهب نفسها وتشكر من يأخذها ، فهي تشتهي ان تُقابَل بالبغضاء

اللذة المتمتعة تشتهي الاوجاع والاحتراق في الجحيم والعـار وكل ما عراه التشويه ، فهي تلتهب بظمأ الحياة ، وما خفيت عنكم الحياةُ في هذا العالم

ان اللذّة الثائرة السعيدة تشتاقكم ايها الراقون وتحنُّ الى آلامكم ايها الفاشلون لان اللذة الابدية تتشوق ابداً الى كل محاولة فاشلة ، فهي تطلب ذاتها إذ تطلب الالم

انحطم ايها القلب فانت اللذّة وانت الالم

تعلّموا هذا ايها الراقون : إن اللذّة تطلب الخلود

ان اللذة تطلب الخلود لجميع الاشياء ، خلوداً لا نهاية له

— ١٢ —

أتعلّمتم نشيدي الآن ! أأدركتم مغزاه ؟

هيّاً إذاً ايها الرجال الراقون ، ترنموا بهذا النشيد ، فهو نشيدي وعنوانه « مرةً اخرى » ومعناه « مدى الابد »

تغنّوا جميعاً بنشيد زارا

ايها الانسانُ ، كن على حذر

ماذا يقول نصف الليل ؟

« لقد استسلمتُ طويلاً للوسن

« وها أنذا انتبه من رقادي

« ان العالم جدُّ عميق

« فهو اعمقُ مما يعتقد النهار
« والآمه عميقة
« واللذّةُ اعمقُ من الآلام
« يقول الألم — مرَّ يا هذا وانقضِ
« ولكن ليس من لذّة لا تطلب الخلود
« خلوداً لا نهاية له !!!

النذير

وفي صبيحة اليوم التالي نهض زارا من مرقده فشدَّ حقويه بنطاق وخرج من غاره ملتهباً قوياً كالغزالة التي كانت حينذاك تذر قرنها من وراء الغمام

وانتصب زارا يناجي الشمس كما ناجاها من قبل قائلاً :

« لو لم يكن لك من تنيرين . أكانت لك غبطة ايتها المقلة المتوهجة بانوار السعادة »

افما يعزُّ عليك أيها الكوكب العظيم أن يبقى من تنير في مكامنهم وأنت طالع لتهب الأنوار وتنشرها على العالمين

لقد نهضتُ انا اما هؤلاء الرجال الراقون فلا يزالون مستغرقين في نومهم ، أفيكون هؤلاء الرجال رفاقي الصادقين ؟ لا ليسوا هم من انتظر بين هذه الجبال

أريد ان ابدأ عملي من اول نهاري وهم يجهلون نذير صباحي وصوت اقدامي لا ينذرهم بالشروق

إنهم راقدون في غاري ولم تزل أحلامهم ترتوي من نشيدي في نصف الليل فليست آذانهم بالآذان المرهفة لسماع اقوالي

وكان زارا ذاهباً في نجواه والشمس تصعد في الافق فاذا به يسمع صرخة نسره على الذرى فقال : لقد انتبه معي نسري وأفعواني للتسبيح امام الشمس في شروقها ، فالنسر يقبض بمخلبه على النور الجديد ، انني أحب الحيوان الصادق ولكن أين رجالي الصادقون ؟

وفي ذلك الحين أحس زارا كأن زرافات من الطيور تدور به واشتد حفيف الاجنحة حول رأسه حتى اضطر الى اغماض عينيه . فاذا به يشعر بوقع

سهام عليه كأنها مفوقة من قوس عدو جديد وما كانت تلك الوخزات الا مداعبة طغمات الحب للحبيب الجديد

فقال زارا في نفسه وقد استولت الحيرة عليه :

— ما ألمَّ بي يا تُرى ؟

وقعد باحتراس على الحجر الكبير أمام باب غاره ، وبدأ يلوِّح بيديه ليردَّ عنه الطيور المتدافعة بجناحها اليه ولكنه شعر بان راحتيه تغوران في لبدةٍ وسمع من ملمس يديه زئير أسدٍ ، زئيراً ملؤه اللطف والحنان

فصاح زارا — لقد جاء الانذار

وأحس بقوة تبدُّل من قلبه . ففتح عينيه فاذا بوحش ضخم اصفر اللون ممدد عند قدميه وقد أسند رأسه على ركبتيه كأنه كلبٌ وجد صاحبه القديم فلازمه لا يريد عنه انفكاكا

وكانت اسراب الحمام لا تزال تتطاير حول زارا واذا أصاب جناح احدها انفَ الأسد كان الأسد يهزُّ رأسه مندهشاً ويستغرق في ضحكه

عند هذا المشهد لم يقل زارا غير كلمة واحدة « لقد اقترب ابنائي » وصمت صمتاً عميقاً . غير انه أحس بسقوط حمل ثقيل عن قلبه فانهمرت دموعه غزيرة تبلُّ راحتيه ، وذهل عن كل ما حوله لا يبدي حراكاً فجاءت طيور الحمام تقع على كتفيه وتداعب شعره الأبيض ولا تني تغدق عليه عطفها وحنانها . وكان الأسد مستمراً في ارسال لسانه على راحتي زارا مجففاً ما عليهما من دموعه وهو يزأر متمهلاً خاشعاً

وطال هذا الموقف ولعله لم يطل فليس لمثله على الارض من زمان

وكان الرجال الراقدون نهضوا من رقادهم في هذه الاثناء وتهيأوا للخروج الى زارا ليقدموا له تحية الصباح، ولكنهم ما أطلوا من باب الغار حتى وثب الأسد وهجم عليهم وهو يزمجر فصرخوا جميعاً والذعر يملأ روعهم وتراجعوا ثم اختفوا عن العيان

ونهض زارا عن معقده وقد استولى عليه الذهول فادار لحاظه في كل جهة وهو يتساءل عما جرى له وعما رأى وسمع ثم ثاب اليه رشده فانجلت امامه حوادث يومه فقال وهو يمرُّ انامله على لحيته :

— في صبيحة الأمس كنت جالساً على هذا الحجر فتقدَّم العرَّاف الي وسمعت

لأول مرة صراخ الاستنجاد فيا ايها الرجال الراقون ، ان ما أنبأني العرّاف به أمس انما كان فشلكم لا غير وقد اراد ان يقودني نحوكم لتجربتي فقال لي : اي زارا لقد اتيت لاوقعك في آخر اخطائك

وقهقه زارا ضاحكاً غاضباً من كلمة « آخر اخطائك » وتساءل عما تحتفظ هذه الخطيئة له !

وعاد فاستوى على الحجر الكبير واستغرق في تفكيره ثم نهض بغتة وهو يهتف

« هي الرحمة ! الرحمة للرجال الراقين !

وظهرت قساوة الفولاذ على سيمائه فقال :

« لقد كان للرحمة زمانها »

أية اهمية لشهواتي ورحمتي ، ما انا طالب سعادة، إنّ ما اسعى اليه هو المهمّة التي وضعتها نصب إرادتي

والآن وقد جاء الأسد ، فقد اقترب زمان ابنائي . اما انا فقد بلغت النضوج ودنت ساعتي !

هذا هو الشفق يلوح على صبيحتي وقد طلع نهاري . فاشرقي بانوارك ايتها الظهيرة العظمى

هكذا تكلم زارا وهو يبارح مغارته مليئاً بالعزم والقوة كشمس الصباح المنبثقة من وراء الغيوم

انتهى

ملحق

لقد أُخِذَت الشذرات التي خُصص هذا الملحق لها من مفكرات فردريك نيتشه الخاصة ولعله دوَّنها ليكتب رسالة يوضح فيها ما يجلو الإبهام في بعض اقوال زرادشت وقد رأينا إلحاقها بهذا الكتاب تكملة لها شأنها لادراك نظريات هذا الفيلسوف



- ١ -

لقد تزعزعت الأهداف جميعها، وذهبت التقديرات في ميادين التفكير متصادمة متناقضة

يُدعى صالحاً مَنْ يتبع ما يوحي اليه قلبه كما يُدعى صالحاً ايضاً من لا يصيخ الاّ لصوت الواجب

يُدعى صالحاً الرجل اللطيف المسالم كما يدعى صالحاً ايضاً الرجل الجسور العنيد القاسي

يُدعى صالحاً مَنْ لا يكبت نزعاته كما يدعى صالحاً ايضاً من يتحكّم فيها

يُدعى صالحاً من يطمح الى الحقائق مطلقاً كما يدعى صالحاً ايضاً من يموّه مظاهر الاشياء

يُدعى صالحاً مَنْ يجاري نفسه كما يدعى صالحاً ايضاً من يتصف بالخشية والتقوى

يُدعى صالحاً الرجل الممتاز النبيل كما يُدعى صالحاً ايضاً الرجل الذي لا يحتقر احداً ولا يترفّع على احد

يُدعى صالحاً الرجل الطيب الذي يتّقي الجدَل كما يُدعى صالحاً ايضاً الرجل المتشوّق ابداً الى العراك والظفر

يُدعى صالحاً مَنْ يطمح الى المقام الأول ويُدعى صالحاً ايضاً مَنْ لا قبل له بالانتفاع مما يُلحق الضرر بسواه

— ٢ —

إن في الانسان قوةً عظمى من الحوافز الادبية غير انها لا تجد لها هدفاً واحداً تتجه باجمعها اليه فهي تذهب متعاكسة متناقضة لانها نشأت من شرائع تعددت ألواحها

في العالم قوة أدبية لا حدَّ لها ولكن العالم قد حُرم من مقصد واحد تُبذل هذه القوة في سبيله

— ٣ —

لقد هُدمت الاهدافُ جميعها ، فعلى الإنسانية ان تقيم لها هدفاً ومن الخطأ ان نعتقد بوجود غاية ترمي الإنسانية اليها حيثُ لا هدف . لقد اقامت جميعُ الفرق لنفسها غاياتٍ غير ان هذه الغايات اضمحلَّت جميعها بتبدل حالاتها الاصلية

إن العِلم يهدي السبيلَ ولا يدلُّ على الهدف غير انه يورد من المبادىء ما يصوِّر الغاية تصويراً

— ٤ —

عَقم القرن التاسع عشر

ماصادفتُ حتىاليوم رجلاً أتى بمَثَلٍ أعلى جديد ، غير ان الموسيقى الالمانية فتحت مجالاً لأماني واولتني الاعتقاد بأنها ستوحِّد بين القوى

إن نظرة واحدة تكفي المتأمل ليرى ان كل شيء يتداعى ، فيجب ان يعمل الهادمون بطريقة تدع للاقوياء مجالاً لإقامة الحياة على شكل جديد

— ٥ —

إن انحلال المبادىء الأدبية ينتج عنه بالفعل تفكك الشخصية في الفرد وفي المجموع فيسود الاضطرابُ كلَّ شيء لذلك لا بدَّ من وجود غاية يتجه الاستقرار نحوها ، لا بدَّ من محبة جديدة

— ٦ —

لقد كنت أتنفس بحشرجة المختنق ومبادئكم الأدبية معلّقةٌ فوق رأسي فعمدت الى قتلها كما تُقتل الأفاعي ، أردتُ الحياة فوجب عليّ ان اموت

— ٧ —

ما دمنا في حاجةٍ الى العمل والقيادة ، فليس لنا ان نستغني عن الشخصية الادبية ، ولا بدّ لنا من الرضى بالواقع لأن القائد لا يسير الى ما وراء هدفه اذا هو لم يجد لذّة في عمله

— ٨ —

ليس من احد يرضى بتحمل تبعة العمل اذا لم يصدر به امرٌ ولكنّ الناس يهرعون جميعاً الى القيام باصعب الأعمال اذا امرتهم انت

— ٩ —

لمن صعاب الامور ان يتغلّب الانسان على ما كمن فيه من ماضي الزمان فينظّم الحوافز لدفعها متحدة الى هدف واحد ، ذلك لان هذا العمل لا يقوم على الغاء الغرائز الشريرة فحسب بل يستدعي منك ايضاً ان تمحو الغرائز الطيبة لتعود الى بعثها

— ١٠ —

حذارِ من الطفرة على مسالك الفضيلة ، فعلى كل فرد ان يسير في طريقه وإنْ جنح عن طريق الآخرين دون ان يطمح الى بلوغ الذروة وحده اذ على كل سائر ان يكون جسراً للمتقدمين وقدوة للمتأخرين

— ١١ —

قد يصبح الانسان العادي السطحي محتملاً ولا بأس به اذا هو اتجه بارادته

الى اعانة سواه والإشفاق عليه راضياً بالطاعة مبتعداً عن التهجم ، فاحذر ان تزعزع اعتقاد مثل هذا الانسان بان هذه الصفات انما هي الفضيلة بعينها

— ١٢ —

اذا امكن للانسان ان يجعل للعمل قيمة ، فكيف يتسنى للعمل ان يجعل الإنسان ذا قيمة

— ١٣ —

إن المباديء الأدبية تُشغل من لا قبل لهم بالاستغناء عنهـا فهي جزء من اسبـاب حياتهم ولا يمكن لأحد ان يدحض اسباب الحياة . . . الاّ اذا كانت معدومة أصلاً

— ١٤ —

لو صحّ ان ليس في الحياة ما يستحق التمسك فيه ، لـكان ذو المباديء الأدبية يُلحق الضرر بابناءِ جنسه من جرّاءِ غيريّته وفضيلة إحسانه ليستفيد من هذا الضرر لنفسه

— ١٥ —

إن الأمر بمحبة القريب معناه لا تهتمّ لقريبك ، وعدمُ الإهتمام بالقريب انما هو أصعب ما تقضي به الفضيلة

— ١٦ —

إن الانسان الشرير انما هو طفيليّ ، وليس من النبل الاّ يحيا الانسان الاّ ليتمتع بالملذات

— ١٧ —

إن العاطفة النبيلة تصدّنا عن ان نحيا للتمتع بالملذات فقط ، إذ علينا ان نقوم بشيء لقاءها ، ولكنّ طبقة العامة تعتقد بأن للانسان ان يحيا دون ان يتقاضى الحياة شيئاً وفي هذه العقيدة علة انحطاطها

— ١٨ —

ان الانسان المنحط يخضع للسُنن المتناقضة ، فاذا شئت ان تزرع الفضيلة فيه وجب عليك ان تسلخه عن حياته إرغاماً وتسوده طغياناً

— ١٩ —

الحق المطلوب :

يجب أن تتم الشُرعة الجديدة ، ولن تتم الا بزوال الشرائع العليا وزرادشت ينتصب بوجهها لالغاء شريعة الشرائع وهي الآداب

إن الشرائع في مقام السلسلة الفقرية من المجتمع لذلك وجب ان نوحِّدها بالقضاء منها على ما كان يخضع له الانسانُ حتى اليوم بسائق العبودية

— ٢٠ —

يجب ان يكون زرادشت في الانتصار على نفسه قدوةً تتبعها الانسانيه للانتصار على نفسها في سبيل الانسان المتفوّق لذلك وجب على الانسانية ان تتغلّب على المبادىء الأدبية

— ٢١ —

ما هي سِماء المشترع وما هو ارتقاؤه وما هي آلامه ؟ وما هو معنى الاشتراع بوجه عام ؟

ليس زرادشت الا نذيراً بمشترعين عديدين

— ٢٢ —

عناصر مختلفة :

١ — الحاكمون ، وهم مَنْ لا يتوقون الاّ الى الصور التي يبدعونها . لأنهم غزيرو المادة مطلَقون يتفوّقون على ما هو كائن

٢ — المطيعون ،وهم المتحررون الذين يجدون سعادتهم في الحب والاحترام ويدركون معنى الرقي — وعليهم ان يتجهوا بالتأمل الى الغاء ما فيهم من عيوب

٣ — المستعبَدون ، وهم الطبقة المستخدَمة — وعليهم تأمين رغد العيش وايجاد الرحمة بين افرادهم

— ٢٣ —

الواهبُ والمبدع والمعلم ثلاثةٌ ينذرون بقدوم مَنْ سيسود

— ٢٤ —

كلُّ فضيلة وكل انتصار على الذات ليسا الاّ تمهيداً لطريق مَنْ سيسود

— ٢٥ —

كل ضحية يقوم بها السائد تُحتسب له ميئة ضعف

— ٢٦ —

إذا ما قام قائد الجند او الامير او المسؤل تجاه نفسه بتضحيةٍ فقد حقّ له ان يُمجَّد على ملاٍ الاشهاد

— ٢٧ —

إن خارقة السائد الذي يثقف نفسه هي انه يقيم فيها صورةً للشعب الذي يطلب السيادة عليه ، حتى اذا تجلّت هذه الصورة للشعب أسلس له قياده

— ٢٨ —

يعمل المثقّف الكبيرُ عمل الطبيعة في ما يعترض سيرها ، فيدع للحوائل مجالاً للتراكم حتى يتغلّب عليها

— ٢٩ —

ليس المعلّمون المجدّدون الاّ الخطوط الأولى يضعها الرّسام الأعظم فتبقى هذه الخطوط مطبوعةً على غرارهم

— ٣٠ —

إن ما يؤسسه عظماء الافراد يبقى مجسِّماً لشخصيتهم الى أن ينمو ويأتي بثماره

— ٣١ —

يحاول الناس ابداً ان يستغنوا عن الأفراد والعظماء فيتوسّلون بانشاء الجمعيات والهيئات ولكنهم يبقون مطلقاً تابعين لهؤلاء الأماثل فينسجون على منوالهم

— ٣٢ —

إن الأهداف الاجتماعية ترجع بالإنسان القهقرى ، فهي توجد طبقةً عاملة وتخلق نوعاً من الناس لا بدّ من عبوديته في المستقبل

— ٣٣ —

ليس من ظلم أروع من حق المساواة بين الجميع لانه يقيم نظاماً يُنزل الإرهاق الأشدّ بأهل الرقيّ

— ٣٤ —

ليس في الكون ما يصحّ ان يُسمى حقّ الأقوى لان الأقوى والأضعف متساويان في أنّ كلاً منهما يمدّ سلطانه على قدر استطاعته

— ٣٥ —

تقديرٌ جديدٌ للانسان : السؤال اولاً
عن عدد القوى الكامنة فيه
عن عدد الغرائز المختلفة
عن مؤهلاته المؤثرة ومؤهلاته المتأثرة
ما هي مميزات رب السيادة ؟

— ٣٦ —

إن زرادشت مرتاحٌ الى انتهاء العراك بين الطبقات واستتباب النظام على أساس الميزة الفردية ، وقد كانت الخطوات الاولى نحو التمهيد للشعبية مليئة بالاحقاد ، فلم يبقَ الآن بعد اجتياز هذه المرحلة الموفقة الاّ القيام بعمل آخر فيه حلٌّ المشكل الاجتماعي

ان تعاليم زرادشت قد وجهت الى الطبقة المعدّة للسيادة في آتي الزمان لأن على مَنْ سيحكمون الأرض أن يقوموا مقام الآلهة ليخلقوا في الطبقة المحكومة الثقة التامة الأصيلة . فعليهم اولاً ان يمهدوا سبل السعادة لمن هم دونهم بتضحية لذّاتهم وراحتهم وعليهم ان ينقذوا مَنْ لا يصلحون للحياة بالقضاء عليهم دون إمهال ثم ينشرون أدياناً وطرائق تتوافق وكل حلقة من سلسلة المجتمع

— ٣٧ —

ان جهاد السائد انما يكون في توفيقه بين محبته لمن حوله ومحبته لمنْ سيأتون في المستقبل البعيد

ان صلاح المبدع لا يتحمّل التجزئة فهو صلاحٌ واحد ولكنه يتناول الأقربين من جهة ويمتد الى الأبعدين من جهة اخرى

— ٣٨ —

يقوم الشعور بالسلطان على نضال بين أقانيم الذات للاهتداء الى الفكرة التي تتعالى كالنجم على سُهى الانسانية وما الذات الاّ الأوّلية المتحركة

— ٣٩ —

ان زرادشت يدعو الى الكفاح للاستفادة من السلطان المتجلّي في البشرية

— ٤٠ —

ان بلوغ المثل الأعلى انما يقوم على الكفاح في سبيل السلطان على منهج لا يناقض هذا المثل

***

— ٤١ —

ان سُنّة الرجوع انما هي مدارُ القطب للتاريخ

— ٤٢ —

ان مجال الحقيقة ينفرج بغتةً امام البصائر ، فالمعرفة الصعبة المنال تتحصن في السريرة وتكفل مناعتها بالتحوط والتخفّي ، وقد عشتُ حتى الآن ونفسي تواري شيئاً عن نفسي . غير أن ما بذلته من جهد مستمر في رفع الصخور أولى غريزتي قوة لا حدَّ لها وها انذا أقلب الصخر الاخير ، وها انذا امام الحقيقة وجهاً لوجه

استغاثة الحقيقة من اعماق اللحود — لقد اوجدنا الحقيقة ببعثها من مرقدها فكان في ذلك اشدُّ مظهر للشعور بالسلطان فيجب علينا احتقار التشاؤم على ما فهم الناس منه حتى اليوم

إننا في عراك مع الحقيقة — وقد رأينا أن لا سبيل للصبر عليها إلاّ بإيجاد الانسان الذي يقدر على احتمالها ، والاّ فلا بدَّ من ان نعود الى الوقوف أمامها مبهورين حتى تورثنا العمى ، وليس بوسعنا ان نقف هذا الموقف بعد الآن

لقد أُوجدنا الفكرة التي كلّفتنا اوفر الجهود فلنبدعنّ الآن انساناً يستخفّ حملها فتوليه السعادة

واذا ما اردنا التمتع بسلطان الإبداع وجب علينا ان نمنح انفسنا من الحرية ما لم تُمنَحهُ في أي زمنٍ من الازمان ، ولن نبلغ ما نرجو ما لم نطرح عبء المبادىء الادبية ونكتسب الرشاقة بالحبور ، يجب علينا ان نشعر بما نتوقع لآتي الزمان ونمجّد المستقبل دون الماضي، علينا ان نصوّر باجمل بيان شعريّ أسطورة المستقبل فنحيا بجميل الامل نعيش به زمنا رغداً ثم نسدل الستار ونحوّل تفكيرنا الى الأهداف القريبة المعيّنة

— ٤٣ —

على الانسانية ان تنصب هدفها ما وراء مجالها الحالي لا في عالم الأوهام بل في امتداد كيانها نفسه .

— ٤٤ —

كلما أُوجدت ارادةٌ تندفع الى الآتي وجِدَتْ حولها بيئتُها ولزم أن نتوقّع حدثاً عظيماً

— ٤٥ —

ان ما فُطرنا عليه هو ان نخلق كائناً يتفوّق علينا . تلك هي غريزة الحركة والعمل . وكما ان كل ارادة تستلزم افتراض هدفٍ لها هكذا يدعو وجودُ الانسان الى افتراض كائنٍ لم يوجد بعد وهو هدف حياة الانسان نفسه

إن في الهدف مُستقراً للحب وللاحترام وفيه مكمنٌ للشوق ومنه تنبعث رؤى الكمال

— ٤٦ —

ان ما أُطالب به هو خلق أُناسٍ يعتلون فوق كل نوع إنسانيّ وعلينا ان نضحّي في هذا السبيل أنفسنا وأبناءِ جنسنا

ان للآداب التي سادت حتى اليوم حدودها في مجال الزمان والمكان فقد كان لها نفعها لانها سارت جميعها بالجنس البشري الى حالة الاستقرار المطلق ، ولهذا وجب ان يُقتلع الهدف لتركيزه على موقع أرفع

ولا اجد فائدة من العمل على ايجاد المساواة بين الناس ، بل ادعو بعكس ذلك الى تقوية الفروق وتعميق المهاوي لالغاء المساواة وخلق الرجال الاشداء ، وبهذا يولد الانسانُ المتفوّق

وما نقصد ان تصير الانسانية الى حالة يتسلّط المتفوّقون فيها على المتقهقرين ، بل يجب ان تبقى الفيئتان مفترقتين قدر المستطاع فلا تهتم إحداها بالاخرى ، فيستتب الامر على مثال ما تصوّره ابقراط لآلهته

— ٤٧ —

ان للانسان المتفوّق في دائرته العليا ما يقابله في الدائرة السفلى من جنسه . فقد أوجدتُ المتفوّق والمتقهقر في آن واحد

— ٤٨ —

كلما ازدادت حرية المرء وانجلت ارادته ازدادت مطالبُ شوقه حتى تؤدي به الى مرتبة التفوّق اذ يصبح كلُّ ماهو دون هذه المرتبة عاجزاً عن ارضاء محبته

— ٤٩ —

في وسط الشوط يولد الانسان المتفوّق

— ٥٠ —

لقد سادني الاضطراب بين الناس فكنت أود الحياة بينهم ولا اجد مايرضيني فيهم ، فذهبتُ الى العزلة حيث انفردت بنفسي وأبدعت الانسان المتفوّق ، ملقياً عليه ستار التحوّل تشعُّ فوقه انوار الظهيرة

— ٥١ —

اننا نريد ان نخلق كائناً نحوطه بالحب جميعاً ونحنو عليه ، لذلك وجب علينا ان نحترم انفسنا

لنضع نصب اعيننا هدفاً نتبادل الحب من اجله ولنُعرض عن سائر الأهداف فانها أولى بالهدم

— ٥٢ —

إنّ مبدأ زرادشت هو ان خير النــاس اقواهم جسماً وروحاً فيجب ان نستثمر منهم الآداب العليا : آداب المبدعين . ان زرادشت يريد استعادة خلق الانسان على صورته ومثاله . وارادتُه هذه تتمّ عن اخلاصه

— ٥٣ —

ان العبقرية لتجد في زرادشت مجسّم تفكيرها

— ٥٤ —

ان العزلة الى حين ضرورية لاتساع الذات وامتلائها فالعزلة تشفي ادوائهــا وتشدّد عزمها

يجب ان تُبنى الجماعات على اساس العراك والنضال والاّ فمصيرها الى الإقدام على الملاهي والتراجع امام كل هجوم . انني ادعو الى الحرب حرباً لا حديد فيها ولا نار تتقارع فيها المبادىء ويتبارى اصحاب الافكار في ميدانها

يجب ايجاد فئة النبلاء بانتخاب الأصلح واختيار مراسم جديدة لتأسيس الاسرة

تقسيم النهار تقسيما جديداً ونشر الرياضة بين الجميع كباراً وصغاراً واعتبار النضال مبدأً اولياً

النظر الى المحبة الجنسية كجهاد من اجل مَنْ سيأتون بعدنا

تعليم التسلط قساوةً ولطفاً ، وعند نوال قوة التحكم في حالة ، السعي الى نوالها في الحالة التي تليها

اقتباس ما يمكن اقتباسه عن الاشرار وفتح مجال للنضال أمامهم ، اذ يجب استخدام المنحطين ايضاً

يجب ان يرسو حق العقاب على اتخاذ المجرمين ادوات للتجارب العلميّة — ومنها التجارب لايجاد طريقة جديدة للتغذية — وبذلك يُبرر استخدام الفرد لخير المجموع

إننا نعامل بالمداراة مجتمعنا الجديد لانه معبرٌ يؤدي الى المثل الأعلى في آتي الزمان ، وما نعمل نحن وندفع بالآخرين الى العمل الا في سبيل هذا المثل الأعلى

— ٥٥ —

وجود الطرق والوسائل للاندفاع الى ما وراء الانسانية ، وعلينا ان نجد من الانسان نوعه الاعلى والاشد

يجب ان نتمثّل ابداً بما في الأصاغر من نزوع الى الافضل ، الى التكامل والنضوج ، الى الصحة وإشعاع القوة

يجب ان يعمل كل واحد عمله اليومي بعاطفة الفنّان لابلاغ ما يقوم بصنعه حدّ الكمال والنظر الى ما يجب صنعه بدون مغالاة كما يليق باهل الاقتدار

— ٥٦ —

تذرعوا بالصبر فان الإنسان المتفوّق مرتبتكم التالية فيجب عليكم ان تتصفوا بالاعتدال والرجولة

لنرفعنّ الانسان فوق مستواه أُسوة باليونان فلا نطمح الى الخوارق العقلية ، وخيرٌ لنا أن نستبعد العقل الراجح اذا قيدّه الخلقُ الضعيف والأعصاب المتهدمة ، وليكن هدفنا إنماء الجسد كله لا الدماغ وحده

— ٥٧ —

ما الانسان الا كائن يجب التفوّق عليه ، نظرة الى خطوات اليونانيين المتزنة بلا تسارع ولا ابطاء

نظرة الى طلائعي : هرقليت وامبيدوكل وسبينوزا وغوته

— ٥٨ —

١ — التضجر من الذات . ترياق ضد الندم . تحوّل الامزجة « الوسائل الغير العضوية » . الارادة في عدم الارتياح . يجب ان يصل عطشنا الى أشد حالاته قبل ان نحاول اكتشاف ينبوع لاروائه

٢ — تحويل الموت ليصبح وسيلة للظفر والمجد

٣ — المرض وما يتخذ تجاهه . حرية اختيار الموت

٤ — الحب الجنسي كوسيلة لبلوغ المثل الاعلى « التشوّق الى الفناء في القوة المعاكسة » محبة الالوهية المتألمة

٥ — التوليد كأقدس الاعمال ، الحبل . إبداع الرجل والمرأة الذين يتجهان بإيجاد الطفل الى التلذذ بوحدتهما ورفع هيكل لاتحادهما

٦ — الاشفاق كخطر . إيجاد الأحوال الملائمة ليتمكن كل فرد من معونة نفسه ومن التمتع بحريته في قبول المساعدة أو رفضها

٧ — الثقافة في اتجاه الشر ليثير الانسان شيطانه الكامن

٨ — الجهاد الداخلي كوسيلة للرقي

٩ — حفظ النوع وفكرة العودة المستمرة

— ٥٩ —

سنّة اوليّة : تخطي المراتب دون طفرة وبلوغ الكمال في كل مرتبة بالشعور بالارتياح فيها

العمل اولاً في التشريع . ان فكرة العودة المستمرة فكرة بعد الوعد بالانسان المتفوّق مروّعة ولكنها اصبحت مقبولة الآن

— ٦٠ —

ان الحياة نفسها قد اوجدت فكرةً هي أصعب ما تحتمل الحياة لأنها تطمح الى تذليل اعظم عقباتها ، وهي ان يطلب الانسان العدم ليتمكن من العودة الى الوجود يوماً

لتكن حياتك عبارة عن تحول في ألف روح ، وليكن هذا ما قُدِّر عليك ، فتصبح ارادتك منصبَّة على قبول هذه الحلقات المتوالية

— ٦١ —

ان أعظم ما نطمح اليه هو ان نرضى بخلودنا ونتحمَّله

— ٦٢ —

ان الفترة التي اتيت فيها بفكرة العودة المستمرة انما هي فترة خالدة أحتمل من اجلها هذه العودة

— ٦٣ —

ان مبدأ العودة المستمرة يرهق النبلاء لأول وهلة لأن هذه العودة تؤدي في الظاهر الى القضاء عليهم للاستبقاء على مخلوقات سخيفة أقل ضرراً — ولعل النبلاء يقولون « يجب إبادة هذا المبدأ وقتل زرادشت »

— ٦٤ —

يتردد اتباع زرادشت ويقولون « سنتوصل الى الاعتياد على هذا المبدأ غير انه سيدفع بنا الى القضاء على العدد الاوفر من الناس »

يضحك زرادشت ويقول « لقد وضعت المطرقة في يدكم وعليكم ان تستعملوها »

— ٦٥ —

اني لن اخاطبكم كما اخاطب الشعوب لان كل شعب يقضي على نفسه باحتقارها ويتبادل الشعوب الاحتقار فيفني احدهم الآخر

— ٦٦ —

ان طموحي الى فعل الخير يضطرني الى الصمت غير ان ارادتي المتجهة الى ابداع الإنسان المتفوق تأمرني بان اتكلم واضحي حتى من أحب
عليّ ان اتطبع وأتحول فاطبعكم واحولكم ولا سبيل لنا بغير هذا الى احتمال هذا الانسان المتفوق

— ٦٧ —

منشأ الانسان الراقي . إن ثقافة الرجل الأفضل تقوم على الألم الأشد . بيان عن المثل الاعلى الذي يتجه اليه زرادشت ويستدعي ما تحمل من تضحية في سبيله اذ ترك مسقط الرأس والاسرة والوطن . الحياة عرضة لتحقير الفضيلة السائدة . آلام التجاريب وصدمات اليأس، التخلي عن الملاذ التي تتاح للانسان عند اتجاهه الى المثل الأعلى القديم ، وهي ملاذ يتذوق منها الحرّ طعم الاشياء المضرة او يشتم منها نكهة غريبة

— ٦٨ —

ان القلب المبدع قد أولى الاشياء قيمتها ومعناها ، ثار شوقه فعمد الى الابتداع موجداً اللذة والألم ثم طمح الى إشباع شهوته المًا
فعلينا ان نتحمل كل ما أحس به الإنسان والحيوان من آلام فيما مضى ، وعلينا ان نجعل لهذه الآلام صفة مثبتة وان نقيم لنا هدفاً يبرر احتمالنا لها

— ٦٩ —

من الأوليّات « إن بوسعنا ان نعتبر الالم نعمة والسُم غذاء » . نظرة في ارادة الألم

— ٧٠ —

إن الإعداد للآتي يستلزم بطولة ولا سبيل لان يحتمل الانسان نفسه اذا هو لم يتشوّق الى الرقي المطلق

علينا الاّ نكتفي بالاتجاه نحو الرقي في حالة واحدة ، اذ من الواجب ان نطمح الى مجاراة الحياة فنصير الى إعداد انفسنا لتكرار الرجوع في حالات متعددة

علينا الاّ نهتمّ بآراء الغير لاننا نعرف ما هي مقاييسهم وموازينهم ، واذا كنا نحن موضوع هذه الآراء وجب علينا ان نتلقاها بالإشفاق على أربابها

— ٧١ —

على الأتباع العاملين لنشر المبادىء ان يتصفوا بثلاث صفات : الإخلاص والقدرة على التفاهم والتساوي في المعرفة

— ٧٢ —

وصفُ الانسان الراقي على مختلف انواعه ، وما يعتوره من انحطاط وما يهدده من عوامل الفناء . إيراد أمثلة عديدة « كدوهرين » الذي أردته العزلة
ذكرُ ما قُدِّر على أهل الرقيّ في هذا العصر واتجاههم الى الانقراض . صوتُ الاستنجاد الموجّه الى زرادشت . انواع التدني في الرقي

— ٧٣ —

الرجال الراقون اللاجئون في محنتهم الى زرادشت

محاولة التقهقر قبل الأوان بالدعوة الى الإشفاق

١ — جوّابة الآفاق التائه المضطرب المتناسي حبّ شعبه في حبه لشعوب عديدة — الاوروبي الحقيقي

٢ — ابن الشعب العبوس الطموح اللاجيء الى العزلة كيلا يعمل على الهدم — انه عِدَّةٌ للعمل

٣ — اقبح العالمين، الذي يجد نفسه مضطراً للتزيّن والتفتيش ابداً على اساس جديد، فهو يطمح الى الظهور بمظهر لا يورث النفرة ولكنه يلجأ الى العزلة اخيراً كيلا يراه احد — انه يستحيي نفسه

٤ — عاشق ما يقع تحت الحس « دماغ العلقة » انما هو الضمير الفكري المرهق داؤه التطرف — فهو من يطلب انقاذ نفسه من نفسه

٥ — الشاعر الطامح الى لذة الحرية، يختار العزلة اخيراً طلباً للمعرفة القاسية

٦ — مخترع العقاقير المسكرة، انه الموسيقي الساحر الذي ينتهي به حاله الى الانطراح امام قلب محبٍ هاتفاً :

« لا تأتِ اليّ فانني اريد ان اقودك الى غيري »

وهنالك ايضاً الزاهدون الذين يشتهون السكر ولا قِبَل لهم به لانهم قد تجاوزوا حدود الزهد

٧ — العبقري « باعتبار العبقرية إغراق في الجنون » انه الانسان المستحيل الى جليد لفقدانه الحب

« ما انا بالعبقري ولا بالإله »

الحنان الأعظم بازدياد الحب

٨ — الغنيُّ الذي يهب كل ما يملك ثم يدور قائلاً لمن يصادف « اذا كنت ثريّاً فاعطني نصيبي » ذلك هو الغني المتسول

٩ — الملكان يتخليان عن الملك قائلين « اننا نفتش على من هو أليق للحكم منا »

لا وجود للرجل العظيم فلا وجود اذاً للتعظيم

١٠ — المتظاهر بالسعادة

١١ — العرّاف المتشائم الذي يرى الضيم أيان اتجه

١٢ — مجنون المدينة العظمى

١٣ — الشاب على الجبل

١٤ — المرأة المفتشة على الرجل

١٥ — العامل وحديث النعمة الناحل الحسود
١٦ — الصالحون
١٧ — الأتقياء } جنونهم في سبيل الله أو بالحري في سبيل انفسهم
١٨ — القدّيسون

— ٧٤ —

لقد بذلت لكم الفكرة الثقيلة المرهقة المؤدية الى فناء الانسانية فهل تُبعث هذه الانسانية يا ترى بعد تذليل عقباتها والقضاء على العناصر القاتلة للحياة ؟

لا تذموا الحياة بل وجهوا الذمَّ الى انفسكم

ما يجب ان يستقرّ عليه الانسان الراقي بصفته مُبدِعاً ، تنظيم جماعة الراقين وتثقيف من سيؤول الحكم الى يدهم يوماً

لتفوّقكم ان ينعمَ بما يأتيه من تحكّم ومن تبديل

ان الانسان سيعود تكراراً وابداً وليس هو العائد فحسب بل الانسان المتفوّق ايضاً

— ٧٥ —

ان العزلة بأنواعها السبعة انما هي المحنة الخاصة بالمصلحين وهي تعزيتهم ايضاً فالمصلح يتعالى فوق الازمنة وارتفاعه يقيّض له الاتصال بجميع المصلحين والمجهولين في كل زمان ، وليس له من وسيلة للدفاع عن نفسه الاّ جماله ، فهو يقبض على آلاف السنين الآتية ويزداد حبه كلما امتنع عليه ان يفعل الخير بدافع هذا الحب نفسه

— ٧٦ —

ان زارا لا يتململ في صبره وهو ينتظر قدوم الانسان المتفوّق بل يتوقّع هذا الحدث مطمئناً وقد اتجهت كل حركةٍ شطرَ هدفها متكاملةً مسدّدة الخطى
إن النهر العميق هادئ في سيره ، ولا صغرِ الامور ما يبرّرها

في القسم الثالث من زرادشت ، يجب استعراض كل اضطراب وكل شهوة جامحة وكل اشمئزاز والتغلب عليها

ما كان اللطف والحنان في القسمين الاول والثاني الاّ دليلاً على القوة التي لم تتوصل الى الوثوق من ذاتها

عند بلوغ زرادشت الشفاء ، يتجلّى « القيصر » بكل صرامته وكل خيره وحنانه . وعندئذ يتهدَّم الحائل ما بين قوة الابداع والحنان والحكمة . فيسود الجلاء والطمأنينة وتضمحلُّ الشهوات الجامحة وهكذا تبلغ السعادةُ الخلودَ اذ يُحسن الانسانُ التمتع بها

— ٧٧ —

زرادشت « القسم الثالث »

لقد بلغتُ السعادة بنفسي

عندما أبتعد عن الناس عاد الى نفسه ، فكأن غمامة انقشعت من جوّه

الحياة التي يجب على الإنسان المتفوّق ان يتمتع بها ، انما هي حياة إلهٍ « ابقراطي »

ان ما يرد في هذا القسم الثالث انما هو وصفُ الآلام الألهية . ولم تُذكر احوال المشترع الانسانية الاّ على سبيل المثال ، فانه يرى اخيراً ان محبته لأصحابه علةٌ يشفى منها فيعود الى الراحة والسكون، وعندما تأتيه الدعوة ينسحب على مهل

— ٧٨ —

يجب ان يؤتى في القسم الرابع بايضاح مفصّل عن سبب إشراق الظهيرة العظمى في حينها ، فلا بد إذاً من وصف الحقبة الملائمة للظهور على أن يتولىّ زرادشت تأويل هذا الوصف

ويجب ان يُبين في الفصل الرابع السببُ الحقيقي لوجوب خلق الشعب المختار اولاً وهو شعبٌ يلائم رجاله زمانهم فيأتون اضداداً لمن لا تتفق احوالهم مع الزمان ولا يعهد زرادشت بحلّ القضايا الا لمن يظهرون اخيراً فيدعوهم الى العمل

على تحقيق نظرياته وهي نظريات صحيحة ولا محاباة فيها والنبل من اخص مميزاتها
وهكذا يتسلّم هؤلاء الناس المطرقة التي ستتولى المُلك في العالم

— ٧٩ —

التكافوء في القدرة بين المبدع والعاشق والعارف

— ٨٠ —

« للحب وحده ان يتولّى القضاء » فالحب يُبدع ويجحد نفسه في ما يبدع

— ٨١ —

لا سعادةَ في اتباع شرعة زرادشت الا حين يستتب نظام التسلسل وهو ما يجب تعليمه قبل كل شيء نظاماً تقوم عليه الحكومة في العالم اذ توجد طائفة جديدة للسيادة فيه ومن هذه الطائفة يخلق في كل مكان إلهٌ ابقراطي ، هو الانسان المتفوّق الذي يغيّر صفحة الوجود ويبدّل الحياة تبديلاً

إن العالم الذي يتفوّق على الإنسانية انما يعود بها بعد هذا الجنوح الى بذل حبه للأصاغر والمتضعين

زرادشت يموت وهو يبارك جميع حوادث حياته

— ٨٢ —

لقد كفانا ان نكون أناساً يصلّون فعلينا ان نصبح أناساً يباركون













